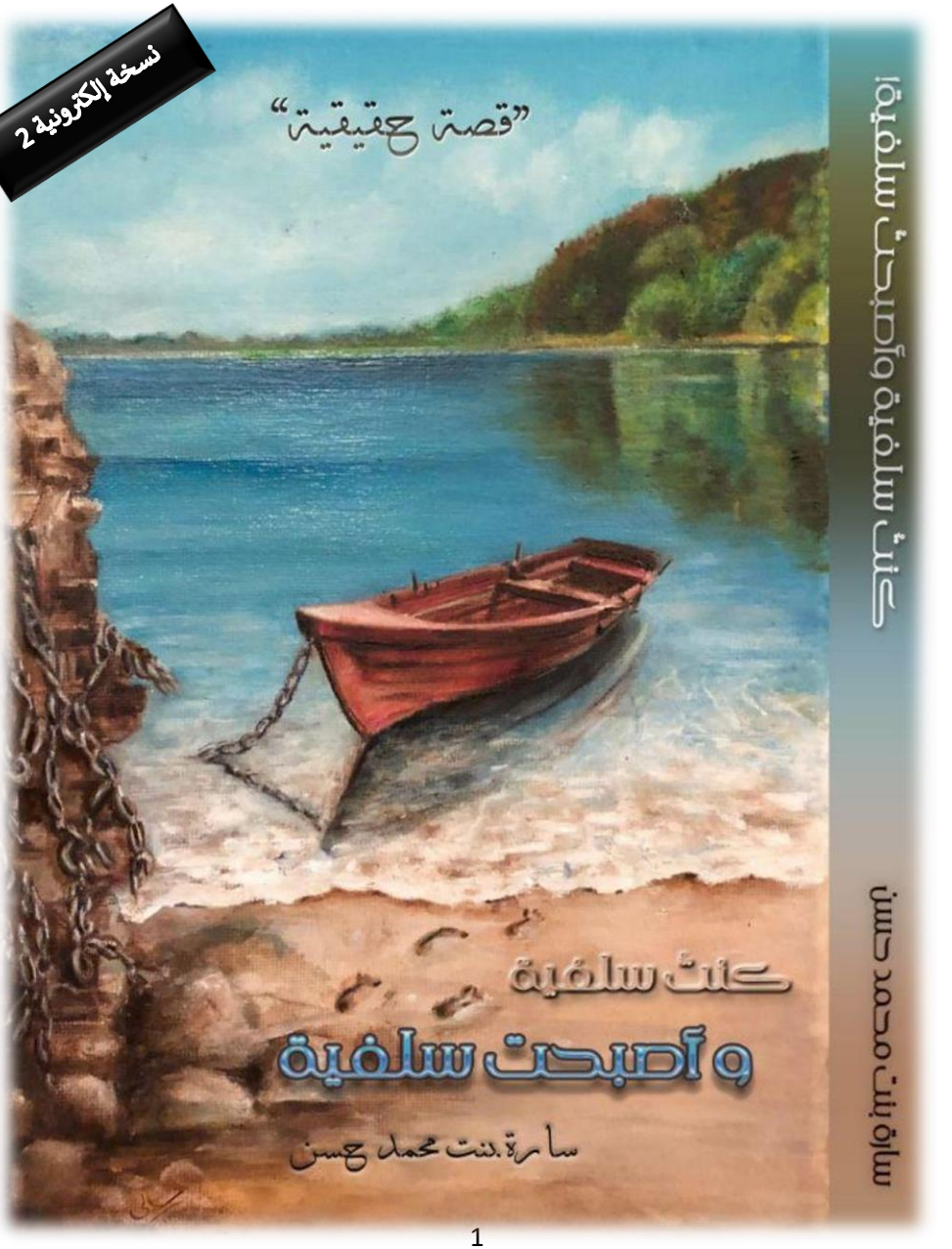
نسخة إلكترونية 2
"قصة حقيقية"
كنت سلفية وأصبحت سلفية
سارة بنت محمد حسن
كنت سلفية وأصبحت سلفية
سارة بنت محمد حسن

كنت سلفية

وأصبحت سلفية

كنت سلفية

وأصبحت سلفية

"قصة حقيقية"

سارة بنت محمد حسن

~~

اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

~~

كنتُ سلفية؟؟؟؟!!

والآن؟؟! من أهل البدع؟؟؟!

فماذا بعد الحق إلا الضلال؟!

على رسلك أيها القارئ!

لا تقفز إلى النتائج قفزة ضبع على جيفة خلفها أسد؛ فإن في التأني السلامة .. وفي العجلة الندامة.

كنتُ سلفية، أنتمي إلى السلفيين، الذين هم في الحقيقة فئة معزولة عن جماعة المسلمين الكبيرة ...

فصرتُ مسلمة من جملة المسلمين وعامتهم، أنتمي إلى السلفية الحقيقية، سلفية أحمد بن حنبل والشافعي ومالك وأبي حنيفة ... أنتسب إلى السلف الصالح بحق، أرفع بمذاهبهم رأسي بفخر واعتزاز، أتلمس أن أنهل من نهر التراث ..

صرتُ سلفية بعد أن كنتُ سلفية! لكن شتان بين مشرّق ومغرّب!

أروم اليوم اللحاق بقوم سبقونا على خيل دهم .. لا سبيل لي للحاق بهم إلا أن أتوكأ على كتبهم، مؤملة في رحمة الله، مستصحبة رجائي في كرمه وجوده .. أسير على خطاهم وأهتدي بهديهم ...

ستهمس لك نفسك في تعجب أو غضب:

إن السلفية منهج وليست جماعة ... السلفية منهج ملزم لكل مسلم .. لا حزبية ولا مذهبية .. نحن نتبع الدليل وندور معه أينما كان، السلفية ليست حقبة زمنية مباركة وحسب؛ بل هي معتقد وفقه مبني على القرآن والسنة بفهم السلف الصالح، فمن اتبع الدليل من أهل المذاهب كان سلفيّا على الجادة.

ويتساءل البعض في ضيق وحزن:

أتركت منهج رسول الله وصحابته وخير القرون إلى مذاهب الرجال وأقوالهم؟! ألم تتفطني بعدُ إلى البون الشاسع بين كتب الفقه وكتب أهل الحديث؟ أصرتِ داعية ضلال وانحرفتِ عن جادة السلف، منتكسة!

فأهتف بكم: صبرًا!

ألق سمعك طالبًا للحق ثم اعترض؛ فإن الانتهاض للاعتراض قبل السماع سقم قلب.

اسمحوا لي أن أثير في نفوسكم تساؤلات ..

أما كان الأئمة ينتمون إلى خير القرون؟

وهل كانت مذاهبهم تخالف منهج النبي وصحابته؟ أو في تلك المذاهب وحدها صُبت ينابيع الهدى فاستنيرت بمصابيح الدجى؟

ألم يكن الحافظ ابن حجر شارح البخاري شافعيًّا؟ والنووي شارح صحيح مسلم كذلك؟ وابن رجب حنبليًّا؟ وكل من شرح الحديث فهو متمذهب.

وهل قرأتم كتب شروح الحديث والفقه فخرجتم بهذه النتيجة أم أنه قيل لكم فقلتم مثلما يقال؟

هل أجد لديكم مساحة تسمح بقبول فكرة أن عندكم تشوهًا في تصوركم عن المذاهب، مركبًا من مزيج قاتم من نفور وجهل بها؟ ستعرفون إن صبرتم على سماع قصتي، فقد كنتُ مثلكم سلفية! فصرتُ اليوم سلفية!

أتدرون؟

كنتُ سلفية، أقول مثلما يقولون، لأننا جميعًا كنا نسكن في تلك القواقع المظلمة، ظلمة حالكة إذا أخرج يده لم يكد يراها، لا يسمع إلا همس صاحبه ينشد له في مسكنة وبكاء نشيد "غرباء"!

لهذا أقص قصتي لتعتبروا، لتزول الغشاوة من على أعينكم، لتنكسر تلك القوقعة وتتبدد من حولك الظلمات ..

وأنّى لك يا صغيرتي أن تبصري بصيص الضوء وأنت في قوقعة مظلمة قد حجبت عنك شعاع الشمس؟!

أعيريني رجاء أذنك واسمعي .. اقرئي بقلب يريد أن يفهمني ويعي..

وتذكروا أن: "رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمي في عماية!"

أريد من قلبك أن يطلب -صادقًا مع الله- فهم ما أقول ويعيه قبل موافقته أو رده أو مناقشته.

لا أريد قلبك محجوبًا لا تتجاوز الكلمات تراقيه، فتمرق بقاياها منه كما يمرق السهم من الرمية... أنظر في نصله .. في رصافه فلا أجد فيه شيئًا!

يا أخواتي .. يا إخواني .. هل لي أن أرجو منكم رجاء؟!

ركعتين في جوف الليل، ولو قبل نومك، تستفتحون فيهما بدعاء الاستفتاح:

"اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم".

الهج به بقلب منكسر يتضرع إلى الرحمن .. قلب يعلم أنه لولا الله ما اهتدينا، لولا الله لكُنَّا في تيه .. في بحر لجيٍّ يغشاه موج الفتن .. قلب مخبت يسأل الله النجاة في جزع عائذًا بالله من النار .. قلب يفر إلى الله .. قلب يائس إلا من رحمة الرب جل في علاه .. لا ملجأ ولا منجا إلا إلى الرحمن.
ومن رام الحق هُدي إليه .. والله الهادي الموفق.

فيا رب أنت الله حسبي وعدتي عليك اعتمادي ضارعًا متوكلًا

الأزمة قديمة شب عليها الصغير وهرم عليها الكبير..

الأزمة قديمة منذ قابلنا تعصب المتمذهبين بفوضى غير المؤهلين..

الأزمة قديمة منذ قابلنا غلو الصوفية بجفاء البدو..

الأزمة قديمة منذ بعثنا الخلافات القديمة من مرقدها وصارعنا الموتى تاركين الحيات الحية تنهشنا وتنفث فينا سمومها..

الأزمة قديمة منذ استوردنا النموذج النجدي غير مفرقين بين الثوابت والمتغيرات، ولا بين العبادات والعقائد والأعراف..

الأزمة قديمة منذ لم نفرق بين مسائل العقيدة والفقه!

الأزمة قديمة منذ فرقنا بين المتماثلات؛ فأنكرنا شرك القبور وتركنا شرك القصور، ومدحنا جهادًا وذممنا مثله لهوى الإمبريالية العالمية!

الأزمة قديمة منذ هجرنا علوم الآلة وتراث الفقهاء والعلوم العقلية، فضلًا عن الدنيوية التجريبية، واكتفينا بالأخذ من النصوص بلا أهلية.

الأزمة قديمة منذ نقلنا الناس من تقليد الفاضل المتفق على إمامته إلى تقليد المفضول مصطلحين على جعل الأخير اتباعًا أو اجتهادًا.

الأزمة قديمة منذ هجرنا كتب التراث التي تربت عليها الأجيال بحجة ما فيها من بدع، وزعمنا أنه لابد من تنقيتها، ووصل الأمر عند طائفة إلى حرق كتاب فتح الباري!

الأزمة قديمة منذ لم نفرق بين الخلاف السائغ وغيره، ومنذ صنفنا الناس على مسائل الخلاف السائغ.

الأزمة قديمة منذ كنا نقول لمن ينزل على السجود على ركبتيه: إنه عثيمينيٌّ أو بازيٌّ، ومن ينزل على يديه: ألبانيٌّ من أهل الحديث!

الأزمة قديمة منذ صُنفت المصنفات في صفة الصلاة النبوية كأنك تراها، وخُطئت المذاهب في مسائل معظمها من خلاف التنوع، وحُجر على الناس فهمُهم، وضُيقت عليهم مهايعُهم لفهم واحد متعين أنه الحق الموافق لحديث: "صلوا كما رأيتموني أصلي"؛ مستبطنين اتهام فقهاء الأمة بتضييع السنة في أظهر أركان الإسلام وآكدها!

الأزمة قديمة منذ كنا نُلَقّي المتدين الجديد صفة الصلاة الظاهرة دون الباطنة، ونركز على حركات البدن أكثر من حركات القلب وخشوعه!

الأزمة قديمة منذ كنا نصنف المصنفات ثم الردود، ثم الردود على الردود، متشنجين في مسائل كانت تُبحث في كتب التراث بأريحية، وتحسم في سطرين!

الأزمة قديمة منذ زعمنا حسم الخلافات الفقهية القديمة ورد الناس إلى فقه السنة، ثم تتم المنة عليهم بصحيح فقه السنة!

الأزمة قديمة منذ كنا نصنف الناس "ملتزمين" بطول لحاهم وقصر سراويلهم وقمصانهم، دون الأخلاق والمعاملات..

الأزمة قديمة منذ كنا نعد الشخص منتكسًا لو أخذ من لحيته أو أسبل ثوبه، أو خلعت النقاب واقتصرت على ستر بقية بدنها.

الأزمة قديمة ومظاهرها أكثر مما ذكرتُ.. وستبقى ما لم تحصل مراجعات منضبطة لا ردات أفعال!

مما كتبه الشيخ محمود عزالدين[1]

ꕥ

((في حياة كل إنسان لحظة لا تعود الحياة بعدها كما كانت قبلها!))

د. أحمد خالد توفيق رحمه الله

هل كانت تلك اللحظة في ذلك العام؟!

أغلقت كل صفحاتي في رمضان في ذلك العام .. كنت أحتاج إلى عزلة وهدوء؛ لتهدأ تلك العاصفة في داخلي!

طلب زوجي في رمضان أن أبحث عن شيء من خلال الفيسبوك، ففتحت الصفحة، لأجد ثورة عارمة متعلقة بفتوى النمص، وكلما فتحت الصفحة أجد منشوراتٍ وهجومًا حادًّا على من أفتى بالحل، واتهامًا لمن يفتي بجواز النمص أنه "تنويري"، وكلامًا يحمل في طياته تهمًا للأئمة من أناس جهال لا يعرفون نسبة هذا الكلام للأئمة .. بل اطرد بعضهم حتى قيل إن مذهب أحمد فيه تمييع

-ربنا يخلي لنا الأنفرينـد والبلوك-!

حقيقة لم أعد أحتمل هذا الكم من التعالم والتعالي، وهذه الصيغ الثورية الصادرة عن جهل مثير للضحك والبكا!

---

[1] كل الأسماء الواردة في القصة ليست حقيقية وبعضهم يسهل معرفته! وهذا المقال من منشورات الشيخ محمد عبد الواحد على صفحة الفيسبوك.

هام جدا تنبيه وتوضيح نقلي عن أي شيخ أو كاتب لا يعني أنني أتفق معه إلا فيما نقلت عنه.

أُرسل رسالة مستنكرة ثم أُتبعها بالبلوك منعًا للجدل الذي أحفظ تبعاته كباطن يدي وظاهرها.

ظللت مكتفية بالأنفريد والبلوك والرسائل ..

حتى ليلة 25 رمضان!

في تلك الليلة؛ طلبت بعض الأخوات رأيي على منشور مشبع بالطعن فيمن أباح النمص ..

كتبت ردًّا طويلًا ونشرته ووليت هاربة ولم أعقب!

لكنني أخذت منه نسخة وضعتها على صفحتي بلا نشر ثم استخرت مرتجفة..

وفي تلك الفترة كان هناك مشكلة في الجهاز أو النت بحيث أنه ببساطة وبعد كتابة قدر طويل من مقال ما، قد لا ينشر ويضيع جهدي.

عدلت الرد قليلًا؛ ليناسب نشره مستقلًّا..

نفسي تحدثني: الآن حان وقت الاعتراف الصريح بالخطأ .. الحمد لله ليلة 25 الناس في المساجد .. لن ينتبه لما أكتبه أحد .. كذا قلت! سأكتب ما أكتب إبراء لذمتي، وراحة لنفسي وضميري .. وربما لا ينشر بسبب العطل "بركة يا جامع"!

بعض ما جاء في المنشور:

"بسم الله.. اعترافات ليلية!

كنت مأجلاه لبعد العيد، بس الله يسامح اللّي عملت لي منشن وخلتني أرد، وطالما رديت رزقكم بقى!

هي الشياطين مصفدة بس قواعد الصفحة سارية على فكرة!

أنا بعمل بلوك في رمضان عادي بالمناسبة..

ملحقتيش تقرئي وتفتحي اللينكات عشان تعلقي يا حجة..
يجوز اللايك والشير وكومنت جزاك الله خيرًا فقط..
وممكن تؤجّلي القراءة لليلة العيد..
الستر يارب!
ليلة القدر حرام الشتيمة على فكرة!
أول شيء عشان منندمش، اسمحولي أحكيلكم قصة بسيطة:
أنا بفضل الله مجازة ومؤهلة لتدريس العقيدة والرد على أسئلة العقيدة من مشايخ من عشر سنوات، ومستمرة في طلب العلم، وكنت بقول النمص حرام والتشقير حرام تقليدًا لبعض أهل العلم، وكنت عارفة أنه فيه خلاف في التشقير، بس مكنتش أعرف أنه فيه خلاف في فهم حديث النمص، وحصل مشادة بيني وبين أخت على فتوى التشقير، سألتني وقتها: هل أنت أهل للفتوى؟ وأنا كنت ولازلت بقول أنا مش أهل للفتوى في الفقه، لكن هم كانوا كم مسألة كنت فاكرة نفسي أتقنتهم، منهم النمص.. وطلعت لا اتقنتهم ولا شيء.
ورأيت من عام أو عامين تقريبًا فتاوى أفاضل أعرف علمهم وفضلهم، مفاد الفتوى أن النمص عند الحنابلة محرم لكن معناه النتف فقط ويباح الحلق، وأن جمهور العلماء أباحوا النمص -اللّي هو النتف- بالمعروف بدون إسراف وبإذن الزوج، وأن التشقير مفيش فيه مشكلة.
وطبعًا لأن الكلام ده كنت بسمعه من شيوخ الأزهر، وأي حاجة كنا بنسمعها من بتوع الأزهر كنا بنعمل لها شيفت ديليت!
لكن الي بيقول الكلام ده ناس ثقة عندي مش زي بتوع الأزهر!
فأخذت الفتاوى دي ورحت لشيخي، سألته: هل حقًّا قال بهذا أهل العلم؟؟
فقال: نعم، ونقل لي نقلًا ثمينًا لأهل العلم.

وقفت مع نفسي وقفة حازمة وسألت نفسي: أنا لما قلت النمص والتشقير حرام وأطلقت واجتهدت في الحديث وقعدت أفتي من نافوخي -والمفروض أني مقلدة قلدت من أفتى بهذا-؛

هل راجعت أقوال أهل العلم؟ هل قرأت شرح الحديث لأهل العلم القدامى؟

هل أصلًا أصلًا أنا أنهيت دورة فقه كاملة من أول الكتاب لآخره؟؟

الإجابة: لا!

يا رب اغفر وارحم واعف عنا وتكرم.

أنا لا بحثت المسألة ولا فقهها، ولا فقه الحديث، ولا عمري طالعت كتب أهل العلم القدامى، والموضوع كله تقليد لمعاصرين وهيصة هيصت فيها وبس.. ورغم إن ده مش منهجي لكن وقعت الوقعة السودة دي في الفقه؛ لأني مكنتش بحبه رغم حبي ودراستي وحصولي على إجازات في أصول الفقه، لكن الفقه نفسه مكنتش بحبه ولا اجتهدت فيه!!

ومش عذر بس بعزي نفسي وأفضفض معاكم بقى..

الخلاصة:

أخذت بعضي ورحت أدرس فقه، وخلصت دورة واثنين وثلاثة، وطلعت منها بكلمة واحدة هقولها للأخوات:

=== محدش فيكم يفتي، ولا يرد على أسئلة، ولا يتكلم في الحديث بفهمه الشخصي أو فهم المعاصرين، ولا يتكلم في الفقه أصلًا!

أنتم مقلدون؛ قلدوا واسكتوا، ولا تلوموا على غيركم ولا غيركم يلوم عليكم، والكل مقلِّد، وإنكار المقلد بالطريقة دي؛ كلام بغير علم.

بالعربي: أنت بتشرحي الحديث بفهمك أنت لا بفهم السلف الصالح ولا بفهم أهل العلم، وتحريم الحلال لا يقل عن تحليل الحرام!

ومن وقتها قفلت جروب الفقه اللي أصلًا مكنتش بجاوب فيها عن الفقه إلا قليلًا، وقررت ألا أتكلم في الفقه حتى يقضي الله بيني وبين الفقه قضاء من عنده -وأسأل الله الثبات على ذلك-، وهو يحتاج إلى جهاد شديد؛ لأن النفس تهوى الفتوى، والرد على أسئلة الناس جميل وله مكانة، والفتي في كل حاجة حلو مفيش كلام.. بس يوم القيامة حسرة وندامة على الفتايين بغير علم!

ومن لم يعرف الخلاف؛ فلا تعدوه عالمًا.

عيب أوي لما نكون عمرنا ما أخذنا دورة فقه كاملة ولا تأصلنا ولا حررنا أقوال المذاهب وأهل العلم وأدلتهم؛ ونتكلم في الفقه كأننا احنا بس اللي أهل العلم!

وبقولكم: متنكريش على حد من أهل العلم وأنت جاهلة، أنا لا بشقر حواجبي ولا بنتفهم ولا بحلقهم ولا فارق معايا، لكن اللي عارفيني عارفين أني مبحبش أضيق شيء وسعه الله على الناس، وبفضل الله بعزي نفسي على عملتي السودة وكلامي في المسألة بغير علم أني لما كانت واحدة بتشقر ولا بتنتف ولا بتحلق وأنكر عليها وتقولي سألت شيخًا بسكت وبجتهد أني لا أحتقرها ولا أقلل من شأنها، ويارب مكونش واهمة، واللي عملت معاها غير كدة تذكرني أعتذر لها...".

ونقلت بعض الروابط فهم تفصيل المسألة ..

ثم حدث ما لم يكن في الحسبان!

ما الذي حدث؟! وكيف حدث؟!

ما صحة هذه الفتوى وما وجه هذا الكلام؟! هل فعلًا انتكستُ؟ ضللتُ وفتنتُ نفسي والناس؟

هل شعرتَ في الكلمات بهذا الفزع؟ تلك الرجفة؟ عدم التوازن؟

هيهات!

لم تر شيئًا من ذلك .. وكم من كلام مسبوك يخدع القلب ولا تظهر فيه مشاعر صاحبه!

هل تريد أن تفهم .. أن تفهمني؟ أن تعرف ما الذي حدث بالتفاصيل؟

هل ستصبر ..

هل!

ذكرياتٌ!

أخيتي!

أتدرين معنى أن يكتب الإنسان ذكرياته؟

أن أنتزع جزءًا من كياني فأقدمه على مائدةٍ بين يدي قوم لا أعرفهم ..

هل سيكون هذا مؤلمًا لي؟! بلا شك!

قد يكون ممتعًا لغيري؛ وهو بلا شك ممتع للقارئ الذي يعشق القصص والحكايات! لكنه مؤلم محزن لي.

هل سأخبركم بكل شيء؟

لا .. هناك ما سأحتفظ به بين جنبات قلبي وعقلي، سأضن عليكم ببعض ذاتي، لكن ..

لكني سأكرمكم بشيء من ذكرياتي!

سترون ما رأيت وتسمعون ما سمعت وتلمسون ما لمست، لا .. بل بعض ذلك!

ستستنشقون معي ذلك الهواء الذي استنشقت. يا له من كرم!

حيوات قوم توضع بين أيديكم مذللة، فتأكلون منها ما شئتم وتدعون، وتشربون وتضحكون وتبكون!

هل سأتجمل؟

بلا ريب!

ستنازعني نفسي أيما منازعة، وإن للتجمل دروبًا خفية، لا يعيها إلا ذو نفس تقية؛ فهل أنا من الأتقياء؟ لا أدري!

لن أكذب، لكني سأتجمل شئت أم أبيت، وعيت أو ما دريت. لكني سأحاول وأجتهد في ترك ذلك ما انتبهت، والسعيد من وفّقه الرب -جل وعلا- ..

عشق الذات يغالبني!

هذه أنا .. أكرههها بقدر ما أحبها، وأحبها بقدر ما أكرهها .. نفسي!

لا تسلني كيف؛ فإن الشرح يستغرق ألف!

سأكتم أمورًا .. سأكتم أسماء أناس وأماكن؛ فهي وإن كانت ذكريات وأحداثًا، لكنها -ويا للعجب- ليس القصد منها شخصي وشخوصهم، ولا ذاتي وذواتهم!

قد ترى نفسك في موقف عشتُه أو عاشه غيري معي؛ فتشاركني ابتسامة أو لوعة، أو تغمض عينيك وتشرد في لجج ذكرياتك!

حرة أنا، أعشق الحرية، أتقيد بقيد الحرية فقط! أحب نسيمها وعبيرها، أغبط الطير في السماء صافات ويقبضن! أتمنى لو فقط .. أستطيع أن أحلق معها بين السحاب ..

لا، لا أحب ذلك ...

الحقيقة أنني أحب التحليق في سماء الفكر وأنا أنظر إليهم آمنة متدثرة بالحرية!

الذي أريد منك أن تعرفه أيها القارئ أنني أمنحك شيئًا أنا به شحيحة، لا تجود نفسي به، بل أنتزعه لكم انتزاعًا من كياني.

نعم أنتزعه لا جودًا رغم شوقي للثرثرة وتوثيق أحداث قبل أن تغيب في فم وحش النسيان.

يقول ابن تيمية: "والنفس كالباطوس -وهو جب القذر- كلما نبشته ظهر وخرج، ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه، وتعبره وتجوزه، فافعل، ولا تشتغل بنبشه، فإنك لن تصل إلى قراره، وكلما نبشت شيئًا ظهر غيره".

هل أمارس الآن نبشًا لذلك الجب؟

لا، لا أفعل، ولن أفعل بإذن الله، لكنها عبرة لمن يعتبر ونصيحة لمن يفهم ويروم الحق. إنما هو نبش للذكريات ولو كانت مؤلمة لنفسي؛ لعلي أتخفف بهذا النبش من بعض ذاك الألم الذي أثقل عاتقي وأحنى ظهري.

سأقص عليكم دخائل نفسي، تحليلات .. الكثير منها!

كيف رأيت فلانًا وفلانة، وكيف عشقت مكانًا ومكانًا، زاوية النظر زاويتي أنا، ستغرقون في لجج فكري، وتطربون حتى الثمالة، ستجدون أنفسكم تنظرون ببصري وتفكرون بعقلي ..

عقلي!

لا بل بعض عقلي!

هذا حق مكتسب، طالما امتشقت قلمي لا أقلام غيري، وتحدثت بلساني لا لسان غيري ..

سأعمل جاهدة على أن أسحبكم إلى عالمي، سترون السماء كما أراها، ولن ينطبع على الأرض إلا أثر قدميَّ، أنتم وَهْم، أشباح.. فقط ستهيمون في عالمي؛ لأني فتحت لكم بعض أبوابه ..

مرحبا بكم!

سترون وتعجبون، ستستنكرون وتعترضون تارة، وتوافقون تارات.
قد تجد نفسك في عالمي ضحية من ضحاياي . . .
وقد توقن أحيانًا كم أنك عشتَ يومًا كجلاد يضع قدمه على أعناق العباد!
هل سيصر من يزعمون أنني جميلة الروح على ذلك بعد أن تطأ أقدامهم رحاب عالمي وذكرياتي؟ أم سيرون بين السطور قبحًا ظاهرًا أو مستترًا؟

سأتجمل إذن!
لا .. بل سأقاوم وأكتب بلا رتوش ولا تجميل ..
حسنًا!
لن أعدكم بشيء ..
لا أعدكم بشيء!

نظر لي **بعينيه اللتين جمعتا بين البراءة والحكمة، وقال:**

"عارفة الناس ماتوا في الحادثة دي ليه؟! مش عشان جالهم تسمم دول ماتوا في اليوم التاني بعد ما عرفوا الحقيقة!"

ما اسمك؟.. سارة ... ألا يبدو ذلك واضحًا؟

من أين أنت؟.. مصرية من أرض الكنانة.

وعمرك؟..

عمري؟!

هذا سؤال جوهري حير العباد ولا أدري لماذا!

سألت شيخي الشيخ وليد المنيسي عن سنه[1]؛ فقال لي: أقبلي على شأنك، وذكر أنه سأل شيخه عن سنه؛ فقال له: أقبل على شأنك، فساق إسنادًا مسلسلًا سأل فيه كل واحد شيخه عن سنه فقال له الشيخ: أقبل على شأنك إلى مالك بن أنس حين سأله الشافعي عن سنه؛ فقال مالك للشافعي: "أقبل على شأنك؛ ليس من المروءة إخبار الرجل عن سنه؛ إن كان صغيرًا استحقروه وإن كان كبيرًا استهرموه". اهـ

فما لكم وسني؟

[1] بغرض تحمل الأثر المسلسل بالسؤال عن السن

أتدرون كيف تحسب الأعمار؟!

أبمضي الأيام وتتابع الليل والنهار؟!

أم بتراكم خبرات الفشل كما النجاح؟

أم بأيام الحزن .. أو بأيام الفرح؟!

ما لكم وسني؟!

ألا تعلمون أن الفضول قتل القط؟

ألا تخشون أن يفتنكم علم لا ينفعكم وجهل لا يضركم؟

عمري؟

روحي شابة شابت من هول الزمان، تهيم في أرجاء الكون تبحث عن سكينة في كل مكان ... فلا تجد إلا طعنات الغدر والآثام.

وما الفائدة إن عرفتم سني؟ هل تعرفون هيئتي؟

قصيرة أنا أم طويلة؟ ضخمة أم قليلة؟ جميلة أو قبيحة؟ ...

حقيقة أنا أم خيال؟

غريبة أنا ... كفرد عزيز من آحاد الناس، تواتر بعضهم على بغضه أو حبه أو نسيانه.

كالشمس .. إن اقتربت منها احترقت!

مدح هذا أم ذم يا صاح؟ لا أدري! ولا أخال أحدًا منكم يدري!

لماذا نحب ذوا تنا؟ .. مواساة! فإن الآخرين يكرهونها.

ولماذا نبغضنا؟ .. غيرة! فإن هناك من يحبنا!

تمر الخواطر فينا، فنقاومها فننجح تارة وتغلبنا تارات .. مزيج مرعب مركب فينا من الشر والخيرات ..

أحيانًا أنظر في المرآة فلا أصدق أن هذه النظرة لي، أشعر بالرعب من تلك المرأة، هذه ليست أنا، لا ينبغي أن تكون أنا!

ذلك الوحش الذي يطل من عينيّ .. أرجوك لا تكن أنا... رجاء!

أخشاني!

ومؤخرًا صرت أشد مني رعبًا من ذي قبل!

صرت أتحاشى النظر في المرآة أكثر من ذي قبل!

وحين أعرض عنها، أختلس إليها النظر بطرف عيني في قلق أخشى أن تكون .. إليّ ناظرة في غفلة مني!

ذكريات!

عميقة كعمق البحار، عالية كارتفاع الجبال الكبار، جارية في عنف مع سلاسة عجيبة كشلالات الأنهار!

من أين تأتي تلك المياه المتدفقة التي تبدو بلا نهاية؟

ستعرفون أنها عميقة حين أفتح لكم الكوة بعد الأخرى مما انتزعته من شح نفسي!

بعضكم سيستجيب للمساتي الساحرة فتزول الغشاوة من قشرة عقله وبصيرته؛ فيرى الهول القابع خلف ظهره وهو غافل عنه مبتسم!

ستبغضون قسوتي حينها!

فالجأوا للرحمن، فإن نور البصيرة إن أصابكم قبسه فإنما كان منه لا من غيره، ففروا إلى الله حينئذ فرار الغزال الفزع من الأسد!

سيبغضني أولئك الذين لن تستنير بصائرهم .. لكنكم لن تعدموا متعة!

فكونوا خير آخذين ولا تنسوا نصحي لكم أن تكونوا بالله مستعينين!

(((ركعتي القيام ودعاء الاستفتاح الشهير)))

ذكريات!

ليست مرتبة غاية الترتيب! سأكتب فقط، دون قيد أو شرط .. إلا شروطي سنبكي معًا أو نضحك معًا ... وإلا فالويل لكم إن ضحكتم لبكائي أو بكيتم حين أبتسم!

من أين أبدأ؟
أي الأحداث أقدم وأيها أؤخر؟
أيها أبذل وأيها أكتم؟!

قالت بلهجتها الساذجة المحببة:

طبعًا كل واحد شايف نفسه أحسن واحد في الدنيا، لأن ..

لأن كل واحد في نفسه مَلِك!

في يوم من أيام أواخر الصف الأول الثانوي كنت أسير مع صديقتي في طريق العودة، فلما بلغنا رصيف المترو وجدتُ امرأة منتقبة ترتدي نقابًا أسود لا يظهر منها أي شيء، ولا عينيها!

وكان سواد ملابسها يشع بياضًا أو إن شئت قل نورًا ولن تكون كاذبًا!

وتحمل رضيعًا شديد البياض مستكينًا على كتفها.

أنا لا أمزح ولا أدري كيف أشرح لكم ما رأيت، ولا أدري سوى أنني كنت ذاهبة العقل مأخوذة اللب بشدة ..

كتبتُ عنها، هذه المرأة، يومًا وقلتُ لا عزاء "للمتشيكات" بنقابهنّ لإرضاء أذواق الفتيات فيعجبن بالنقاب ...

وكنتُ وقتما كتبتُ ذلك أذم أشكال النقاب والحجاب المخالفة للشرع من وجهة نظري، ولا أخفيكم أن ما كنتُ أذمه حين كتبتُ ذلك يدخل فيه أشكال مباحة عند الفقهاء .. كذا كنتُ!

الشيء الذي لم أتراجع عنه حقًّا بل تزيدني الأيام رسوخًا فيه؛ أن القبول والراحة ليسا متعلقين بـ"شياكة" الحجاب والنقاب سواء كان ذلك في حدود المباح أو تعدى للمخالفة؛ لإرضاء الناس والنفس ..

بل الحقيقة أن الإخلاص أهم من الشكل .. القلب أهم من بهرجة المظهر .. هذا ما قلتُه من قبل وأقوله الآن أيضًا ...

المرأة كانت ذات ملابس نظيفة مرتبة جدًّا، ليست ملابس مزرية أو "مكرمشة" .. لكنها واسعة جدًّا وصفيقة، لا يمكن تمييز أي جزء من جسمها مهما دققت النظر!

الإخلاص!

ذلك الزئبق الذي يتفلت! الذي يذوب الذهب إذا لامسه .. كل الصعاب تذلل به!

لا أقول إن النتائج إن لم تكن مذللة وطيبة فالإخلاص لم يوجد .. أنا لا أقول ذلك .. لكن النتائج الطيبة لا توجد بغير الإخلاص!

ولا أعني أن النتائج هي "عدد" أو "علو"! فإن النبي يأتي يوم القيامة ومعه الرجل والرجلان فقط ويأتي ولا أحد معه!

وكم دالت دول الكفر على دول الإسلام .. وكم علا الظالمون في الأرض علوًّا كبيرًا؟! لكن دولة النبي -ﷺ- قامت بالإخلاص .. وكذا دولة خلفائه الراشدين.

بل أقول أيضًا: لا ينبغي أن نلتفت إذا لم نر في الحياة الدنيا نتيجة، قد تأتي بعد موتك أو لا تأتي أبدًا، لكن بالإخلاص وحده ينال الإنسان الآخرة، فالقلب هو الملك الذي تتحرك الجوارح تبعًا له، فإذا فسد القلب .. فسدت الآخرة وهي خير وأبقى.

وما الإخلاص إلا أن يجمع المرء قلبه على إرادة الآخرة بعمله وإرادة وجه الله، ويقابله الرياء لا النفاق.

والرياء إرادة الناس بالعمل، إرادة مدحهم ورضاهم عن فعلك الذي في أصله لا ينبغي أن يراد به إلا الآخرة.

وأما النفاق فهو مخالفة الظاهر للباطن، وعكسه الصدق لا الإخلاص.

والصدق أن يطابق ظاهرك باطنك، وبقدر هذه المطابقة تكون صادقًا، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا؛ رب اجعلنا من المخلصين الصادقين.

وكيف نخلص؟

يكفيك نفض الغبار عن نيتك، قل بقلبك يا رب أريد بها وجهك وحدك ..

فيأتيك الخاطر سيمدحك فلان ويرفعك فلان؛ فقل بقلبك بحزم: يا رب هي لك لا لغيرك.

بهذه البساطة؟

نعم، ولكن القلب يتقلب، فبغفلتك عنه يُظلم ويخفت فيه نور الإخلاص، وبانتباهك يستنير، وبوسوستك تتألم!

فاطرح الوسوسة بكلمة حازمة وأغلق النقاش مع الوسواس الخناس.

وكيف أصدق؟!

بتحريه والجهاد فيه، ونسيان اليأس بعد العثرة، والجهاد على ألا تنطق بكلمة إلا وقلبك يطابقها، واستحضر يوم تبلى السرائر ..

وبالله العون وله الفضل والمنّة.

لم أرفع عيني عنها .. بل الحقيقة لم أستطع رفع عيني عنها!

ثم هتفت برفيقتي: - شايفة الست دي؟؟

- إيه فيه إيه؟

- حلوة أوي

- حلوة إيه هي باين منها حاجة؟!

- حلوة أوي جدًّا جميلة أوي أنا عاوزة ألبس زيها!

نظرت لي في مزيج عجيب من الاستنكار والتعجب واللامبالاة .. نظرة تعبر عن: "اللهم طولك يا روح"، "مالها دي ربنا يشفي" .. وأخواتها! ثم قالت: - أهلك مش هيرضوا!

- هتشوفي

- تراهني؟

- أراهن وهاجي بيه في الامتحانات كمان وهتشوفي!

الحقيقة لا أذكر هل قلت لها أو قالت لي الرهان حرام أو لم يقل أحدنا ذلك، وعلى كل حال لم يغرم أحد مالًا ولا غيره، إلا نظرات تحدٍّ ونزاعًا لفظيًا!

وما الذي تنتظرونه مني بعد ذلك إلا إشعال الحرائق في البيت و "هلبسه يعني هلبسه".

- يا بنتي ازاي بس وانت في مدرسة راهبات؟ دانت بتخلعي الإيشارب أصلًا!

- عادي هلبسه وأخلعه على باب المدرسة.

- هتخلعيه وتخلعي الإيشارب ازاي يعني؟

- هو كده.
- طب بعد الامتحانات.
- لأ قبلها، أنا راهنت صاحبتي.
-لأ يعني لأ مفيش نقاب.
كانت العبارة الأخيرة من أمي -رحمها الله-. أذكر أننا كنا عند جدتي وأتذكر أحد أخوالي وهو يقلب شفتيه متعجبًا من حالي!
ولعل أمي -رحمها الله- قصّت القصص على الخالة (حبيبة) فنصحتها أن ترسلني مع ابنتها في الإجازة إلى الخالة (ليلى) لنحضر درسًا أسبوعيًّا في بيتها خصصته للبنات .. لعلي "أعقل"!

ꕥ

وذهبتُ إلى بيت الخالة ليلى!
لتفهموا الوضع جيدًا، أنا أرتدي في ذلك الوقت "بنطلونات" ضيقة وأقمت الدنيا ولم أقعدها لأرتدي النقاب! فلما لم أرتد النقاب .. كنت لازلت أرتدي "بنطلونات" ضيقة!
نعم .. هكذا كان الوضع كما أصفه لكم!
حينما ذهبتُ إليها اخترت ملابس واسعة نوعًا، ولعل ذلك كان بإيحاء من والدتي -رحمها الله-.
وتفاجأت من (صفاء) ابنة الخالة (حبيبة) أن الخالة (ليلى) تشترط على الحاضرات ألا تأتي الدرس ببنطلون. وناقشت (صفاء) في ضيق شديد:
- ليه إن شاء الله؟؟
ردت في لامبالاة: عشان حرام.
- وإيه الي حرمه يعني؟

قالت في لامبالاة أكبر: عشان تشبه بالرجال.

- هو إيه اللي تشبه بالرجال؟ بنطلونات الستات غير الرجالة!

رفعت صوتها وقالت لي: - ليه يعني إيه الفرق، السوستة؟؟

ولما كنا في المواصلات العامة أسكتَّها في حرج.

عجيب أمر البشر!

(صفاء) تتمنى أن تلبس بنطلونًا وتجادلني لتثبت أنه حرام، وأنا أقمت الدنيا لأرتدي النقاب وأنا لازلت أرتدي بنطلونات ضيقة، وأجادل أنه يجوز لبسها! وكل واحدة منا غارقة في جهل بما تقول .. ولكن الدين كلأ مستباح يتكلم فيه من شاء بما شاء .. رب اغفر وارحم!

أزيدكم!

طوال الطريق يدور في ذهني حوار خيالي بيني وبين هذه الخالة التي لم أرها بعد وأنا أفحمها بالحجج الدامغة أن النقاب ليس فرضًا!

ذلك وأنا أقمت الدنيا لأرتديه .. ولما أسمع ما الذي ستقوله أصلًا ..!

ودخلت بيتها!

نعم أنا أحب هذا البيت جدًّا، أعشق ذلك الهدوء وأهيم في تلك السكينة التي استنشقت عبقها هناك! شعور لا يوصف ..

وتلك المرأة .. تلك المرأة!

استقبلتنا بإسدال أسود .. مما ترتديه في الخروج ..

ابتسامتها الساحرة، ذلك النور الذي يتلألأ، ذلك الجمال الذي فاق في عيني كل جمال رأيته من قبل! ذلك الصوت .. أحببت كل شيء، كل التفاصيل التي لا أراها بعين رأسي، ورأيتها بعين قلبي!

جلستُ صامتة مربعة يديَّ أضمها إلى صدري .. هل كنت أحتضن الكلام؟ أم أنني أحتضن نفسي لتهدأ؟

قالت لي خالتو (خديجة) فيما بعد أنها قالت لخالتو (ليلى) عني: البنت دي مش بتسمعك بودنها .. دي بتسمعك بجسمها كله!

وصدقت!

هي لم تفهم ما الذي يسري بداخلي بين عقلي وقلبي وأطرافي!

بل أنا لا أستطيع وصفه، ولا يضاهي ذلك الشعور إلا تلك الساعات الخمس التي...

صبرًا سيأتي!

في أثناء الراحة لم أتحرك من مكاني ولم أغير جلستي... قدم لي بعض الأخوات مشروبًا فتناولته في حرج ..

ذلك المذاق الذي لا يُنسى!

قرار.. قرار!

أحببت ذلك المكان بل أدمنته! سأذهب مرارًا وتكرارًا.

قررت عدم ارتداء بنطلونات، فكرامتي لا تسمح لي بترك ارتدائه حين الذهاب هناك فقط! إما في كل وقت أو لا .. لن أكون من ذوي الوجهين .. اللهم الغوث من تلك الخصلة فإنك تبغضها وخلقتني أبغضها؛ فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبدًا!

ثم .. ثم .. ثم بالتأكيد البنطلونات حرام! ألم تقل الخالة (ليلى) ذلك فبالتأكيد هي محقة .. لأني أحبها!

لم تكن الخالة من السلفيات التقليديات!

بل كانت منفتحة إلى حد كبير، تتعامل مع جميع أنماط البشر، وكانت تعتقد أن التمذهب هو الصواب!

تفاجأتم؟ حسنًا أزيدكم؟!

لقد كان هذا من أسباب الخلاف فيما بعد بيني وبينها والذي أدى بعد سنوات إلى ترك حضور مجلسها المحبب إلى قلبي!

كانت تشرح لنا فقه العبادات من كتاب فقه مذهبي لا أتذكر اسمه، وأحسب أنها كانت تشرح الفقه المالكي رغم أن شيخها شافعي. كانت تُسأل في الدرس:

- لكن حضرتك قلت كذا جوابًا على سؤالي سابقًا ..

- لكن سمعنا كذا.

فترد بجملة واحدة: اللي بقوله دلوقت هو اللي في الكتاب.

سألتها يومًا عن حكم قراءة الحائض للقرآن فقالت: لا يجوز؛ لأن غالب فتاواها كفتاوى شيخها الشافعي، فبحثت وقرأت ثم عدت إليها وسألتها متعجبة أنه فيه خلاف؛ طيب كيف نختار القول الصحيح؟

فقالت لي بإصرار: لا يجوز.

قلت لها: طيب بعض العلماء يقولون: ولا آية، ولا ذكر متضمن آية؛ فلماذا نأخذ بذلك القول ولا نأخذ بهذا القول؟

قالت: لا ما هو إحنا نأخذ الوسط يعني.

لم أشبع! لم أقتنع!!

لا أحب المعايير الهلامية، كانت تقول إن النقاب ليس فرضًا، ولكن كنت حين يسألنني في المدرسة لماذا ترتدين النقاب؟! أقول لأخرسهم: أنا على المذهب الذي يقول إنه فرض .. الحنبلي؟ .. فأنا إذن حنبلية!

سمك لبن تمر هندي!

هاتفتها يومًا: - يا خالتو أنا بقرأ في تفسير ابن كثير يقول: النقاب فرض .. أقتنع، يقول: مش فرض .. أقتنع! طب أنا هختار ازاي وهعرف الصح منين؟
فكان ردها: - ماهو طول مانت مش عندك علم هتقرئي ده هتقتنعي، هتقرئي ده هتقتنعي!
تساءلت في نفسي .. كيف أطلب العلم؟
- بالقراءة.
- لكن سأقتنع بما أقرأ، ولابد أن أطلب العلم قبل القراءة، لكن القراءة طريق طلب العلم، لكني سأقتنع بما أقرأ طالما لم أطلب ال ...!
كفى!
لم يكن قد مر إلا شهر أو اثنان فقط على ذهابي إلى بيت الخالة (ليلى)؛ في تلك الفترة ذهبتُ إلى مسجد من المساجد أيضًا مع والدتي، كنت قد ارتديت الخمار، ولما ارتديته ذهبت إلى المدرسة مع أمي وقد اتخذنا قرارًا حاسمًا، إما الموافقة على دخولي المدرسة بالحجاب وإما الانتقال إلى مدرسة أخرى.
ويا للعجب مر الأمر بسلام!
كنتُ جالسة في المسجد مع أمي في حلقتها ومعلمتها الحبيبة -رحمهما الله-، خرجت من المسجد خلسة واشتريت نقابًا بلون خماري، وعدتُ فقلت لأمي: سأرتدي النقاب.
زجرتني بنظرتها!
فقلت لها: سأشكوك لمعلمتك.
وتدخلت معلمتها بابتسامتها.
كانت أمي -رحمها الله- تخشى مما سيترتب على ذلك الفعل من ردة فعل في مدرستي! منتقبة في كنيسة! كنيسة سمحوا لي بالكاد من أيام أن أدخل بالحجاب!

ارتديت النقاب، وصار أمرًا واقعًا، وليذهب العقل والتفكير ومآل الأمور إلى حيث شاء العقلاء والحكماء ..

لقد ارتديت النقاب!

نشوات !

نشوات أول خطوات الالتزام..

تلك المشاعر الجميلة المتداخلة التي تحتاج من الكبار حكمة واحتواء للصغار!

الرغبة في تحطيم كل ما سبق .. ثورة عارمة .. رغبة قوية في قلب الكون رأسًا على عقب ..

- الحرام قليل .. يا آدم، كل الشجر حلال إلا شجرة، كل المشروبات حلال إلا الخمر، كل الأكل حلال إلا الخنزير.

هتقولولي: يا خالتو ليه كل حاجة تقولي حرام حرام؟ أنتم عاملين زي اللي ماسك مجلة بالمشقلب، كل الصفحات غلط .. محتاجين نعدلها.

لم تكن الخالة ليلى تدرك ما الذي تتعامل معه! لم تستطع السيطرة على ذلك الجواد الجامح الذي لم يعتد السرج ولا اللجام .. حسنًا!

هذا خطأ يقع فيه كثير ممن يتعامل معي، ومع كثير ممن هم على شاكلتي .. بل مع الشباب بصفة عامة!

لا يدرك أي عقل هذا الذي يدير تلك المعركة بداخلهم .. أي نفس تلك التي تثور بين جنباتهم .. رغم أنهم كانوا يوما ما مثلهم!

لهذا يسيئون تقييم الأمور .. فيصدمون .. ثم يتمادون .. فيصدمون ..

ثم في جدران حماقات الشباب يتخبطون..!

كان الغالب على الوعظ الذي أسمعه هو الوعظ السلفي التقليدي.
من أين انغرست في نفسي تلك المفاهيم؟ متى كانت البداية؟ من الذي أطلق الشرارة الأولى؟ صدقًا لا أدري!
قالت لي: بس النقاب مختلف فيه.
قلت لها: بس يا خالتو هعمل إيه يوم القيامة لو كان فرض؟
غمزتها خالتو الأخرى وقالت: اتركيها هي عاوزة تلبسه.

"هنعمل إيه يوم القيامة لو طلع كذا حرام؟"

الإشكال ليس فقط في تلك المفاهيم التي ينتقدها بعض السلفيين، بل الإشكال الأكبر من وجهة نظري هو سكوت من يعلم أن هذا غلط، لعدم إدراك تأثير هذه الأفكار السلبية على المتلقي وعلى المجتمع.
البعض يفكر أن الصمت دائمًا أصلح، طالما نحن في إطار مقبول عندهم، لماذا أشرح لتلك الفتاة أن النقاب مختلف في حكمه؟ لماذا لا نربي الناس على تعظيم السنن والمستحبات مع معرفة رتبة ذلك؟ لماذا أشرح لها أحكام الخلاف السائغ؟ قد يصدها هذا عن الزيادة بارتداء النقاب، إذن اتركوها وما تعتقد طالما هذا يصلحها!
مع الوقت يصير من يصحح مثل هذه المفاهيم الخاطئة -لما رأى مآلاتها القبيحة-؛ موسومًا بالتمييع، أو أنه مُخَذّل عن الطاعة، أو أنه متفلسف .. أو أي وصف ذم!
لم يكن لديهم بُعْد نظر كاف ليدركوا أن اطراد الخطأ داخل الإنسان قد ينحرف به عن جادة الصواب، وأن نشره لهذا الفكر الخطأ الذي استحسنه قد يتسبب في كارثة فادحة!

في اليوم الذي ارتديت فيه النقاب نظرت إلى نفسي في المرآة .. ما هذا الذي فعلته؟ أشعر أن نفسي يضيق في صدري .. ثم إنني لا أشعر أنني أنا!

أنا لست هذه الفتاة .. لماذا أرتدي هذا الزي الذي لا يناسبني؟

بل يناسبني!

نفضت رأسي وأوقفت تلك الخطرات في حزم ..

سأستمر ..

لقد انتهى الأمر!

ꕥ

كنت أرتدي **نقابًا ملونًا، محتشمًا**، لكن خالتو فلانة وخالتو الأخرى وكل هؤلاء يرتدون الأسود ..

هذا المشهد .. لقد عشقت هذا المشهد!

كان دخولي مسجدًا مليئًا بأخوات منتقبات بالنقاب الأسود مثيرًا قويًّا لمادة السيروتونين أو الدوبامين أو مزيج منهما في عقلي، أشعر بالسعادة فقط إذا شاهدت ذلك .. أشعر .. أشعر ..بعزة الإسلام!

هذا لم يكن عرَضًا خاصًّا بي، بل كانت ظاهرة في كل السلفيين.. نفسرها بأنها حب للطاعة، حب لله خالص.

معرض الكتاب ... تلك الفتنة الكبرى؛ فتنة الكتب وعبقها، وفتنة محيط المسجد في المعرض!

كل هؤلاء "الغرباء" يجتمعون في هذا المكان الحبيب .. يا إلهي .. الكتب وسواد النساء مع بياض الرجال. هذه الوجوه المنيرة باللحية، وتلك الوجوه المستورة بالنقاب.

هل يمكنني أن أستأجر مكانًا وأسكن هنا؟ هل يمكنني أن أستأجر أو أشتري جزيرة وأنقل عليها هؤلاء جميعًا لنعيش في سلام بعيدًا عن أولئك "**الآخرين**" الذين أشعر بينهم بالغربة؟

من أين أتت تلك المشاعر؟

الشعور بالغربة والحنين

كيف انتشرت فينا كالنار في الهشيم؟

هل كان ذلك بسبب الأناشيد التي لا أسمعها إلا نادرًا، أو بسبب الإعلام الذي كان -ولايزال- يشوه صورة الحجاب والنقاب، أو بسبب الوعظ السلفي الذي يؤكد على نغمة الغربة ويكرر على ضرورة التميز ومخالفة الفسقة والكفار مع عدم ضبط تلك المعاني، بل ضرورة التميز عن .. عن .. غير الملتزمين؟

أم كل ذلك معًا؟

وهل لي أن أتساءل في فضول.. هل كان ذلك مقصودًا أم .. ؟!

هل الأسود في الحجاب فرض؟

الحقيقة لم يكن في محيط بيئتي من يقول هذا .. **لكنني أحبه!** الفيزياء تقول: إن اللون يظهر؛ لأنه يمتص جميع ألوان الطيف ويعكس ذلك اللون الذي تراه، والأحمر يلفت نظر العين لطول موجة اللون الأحمر، واللون الأسود لا يعكس أي ألوان بل يمتص الجميع.

الأسود .. أقل الألوان الملفتة للنظر، والحجاب فرضه الله على النساء لكي لا يلفتن النظر؛ إذن الأسود أفضل .. نعم هو أفضل .. وأنا أحبه جدًّا.

استنباط رياضي على طريقة: (("إذا كان" = "إذن" ...))

أنا لم أتقول على الله ولم أنسب للدين أن الأسود فرض أو مستحب، فقط هو أفضل من ناحية عقلية

يا إلهي كم أنا عبقرية رائعة، أنا أخدم ديني بالربط بين الفقه والفيزياء بمنتهى السهولة، وأبلّغ ما أتعلم وأستدل له من هنا وهناك ..!

ما الذي كنتُ قد حصّلته من العلوم حين نصبت نفسي متصدرة في المدرسة؟

لا شيء!

لكنني كنت أدعوهم إلى ارتداء الحجاب أو النقاب .. فهذا أحسنه! وكنت "أنقل لهم" الفتاوى التي تعلمتها في المسجد والبيت؛ لأني أذهب للمسجد وهم لا يذهبون.

ثم إنني ذكية، وأحفظ من القرآن الكثير، وجريئة جدًّا، ومثقفة، وقارئة، وكنت أسمع الكثير من الأشرطة قبل "الالتزام" وبعده.

ومثل تلك الشخصيات يسهل جدًّا أن "تقيس" على الفتاوى وتقارن بين هذا وذاك، وتفتي، ومن عارضني أشهرت له سيف "أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار"!

ꕥ

مر أسبوعان أو أكثر بعد "التزامي" و"نقابي"، وكنت لا أجرؤ على لمس أية هواية من هواياتي لا المباح ولا المحرم.

لا أقرأ ولا أشاهد أي برامج ولا أمارس العزف[1] الذي كنت أعشقه ..

[1] هل أنا بحاجة للتأكيد أن المعازف محرمة على المذاهب الأربعة؟!

لا شطرنج ولا روايات ولا ألعاب ذكاء ولا أي شيء مطلقًا .حتى الكلام العادي أتقوقع لأحافظ على تلك النشوة الأولى .. أقرأ في الكتيبات التي ترد من السعودية، وكتيبات الصلاة لأصحح صلاتي .. وأعتنق كل فكرة غريبة!

البنطلون حرام في البيت فكنت لا أرتديه، الملابس القصيرة حرام فكنت ألفق ملابس غريبة!

الكحكة وذيل الحصان حرام فكنت أضفر شعري ضفيرتين فقط[1].

كنت أعجوبة في الحقيقة تركت الحرام .. وتركت الحلال! .. وغرقت في الإغراب ومفارقة المجتمع

كنت أريد الحفاظ على تلك الحالة الملائكية التي شعرت بها منذ دخلت بيت الخالة، مهما كانت الوسيلة.

---

[1] أحكام تخص المؤمنات -صفحة 16 -طبعة الرئاسة العامة للبحوث والإفتاء -الطبعة الخامسة - 2008 "فعلى المرأة أن تحتفظ بشعر رأسها وتعتني به وتجعله ضفائر ولا يجوز لها جمعه فوق الرأس ولا من ناحية القفا".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: كما يقصد بعض البغايا أن تضفر شعرها ضفيرًا واحدًا مسدولًا بين الكتفين.

وقال الشيخ محمّد بن إبراهيم: "وأما ما يفعله بعض نساء المسلمين في هذا الزمن من فرق شعر الرأس من جانب وجمعه من ناحية القفا أو جعله فوق الرأس كما تفعله نساء الإفرنج- فهذا لا يجوز لما فيه من التشبه بنساء الكفار". وعن أبي هريرة -ﷺ- في حديث طويل قال: قال رسول الله -ﷺ-: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف. لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا» [رواه مسلم]. وقد فسر بعض العلماء قوله: «مائلات مميلات»: بأنهن يتمشطن المشطة الميلاء، ويمشطن غيرهن تلك المشطة. وهذه مشطة نساء الإفرنج ومن يحذو حذوهن من نساء المسلمين "اهـ

✓ وإني لأتساءل إذا كان هذا الكلام عليه دليل، والحديث كما يزعمون صحيح صريح، فلماذا تخالفه كثير من الأخوات في تصفيف شعورهنّ؟

الجواب: تقليدًا لشيوخ آخرين. فلماذا لا يفعلن ذلك في النمص؟ لأنه لا يوجد من مشايخ السلفية من يقول ذلك علنًا.

فهل الخلاف السائغ هو الخلاف السلفي سلفي فقط، وهل التقليد سائغ للشيوخ السلفيين فقط؟

ما الذي تنتظرونه كردة فعل نفسية وبدنية؟

فتور!

لم أتحمل هذا الوضع إلا قليلًا جدًّا، حوالي أسبوعين أو أكثر قليلًا ثم بدأت أشعر بالملل.

قرأت بعض الروايات، وبدأت أشعر أن الأمور تتفلت مني،

بدأت أدخل في نوبة اكتئاب خفيفة،

حزن، بكاء، انطواء!

هناك خلل،

أين الخلل؟

كيف وصلت إلى هذه الحالة؟

وما الذي حدث؟

وكيف خرجت منها؟

عند الخالة ليلى حين لاحَظَتْ أنني لست في حالة طبيعية

متى كان ذلك؟ لا أدري!

سألتني فكان جوابي معبرًا جدًّا ...

بكيت!

سحبتني من يدي وجلسنا نتكلم، لم يكن أمامي الكثير من الوقت لأتحدث، لكنها فهمت ونصحتني نصيحة سريعة، وانتظرتُ بعدها أن تتصل بي لتسأل عني فلم تفعل!

لم تفعل؛ لأن الطبيعي ألا تفعل .. لانشغالها و.. لسبب آخر لا يفهمه من لم يتعامل مع الناس كمتصدر: أنني قد أكون سحبت قراري بالحديث إليها لأي سبب.. فليس من اللائق أن تبادر بالضغط علي لأتحدث معها فقد يضرني هذا الضغط أو يشعرني بالحرج .. ففضلت -وهذا ظني بعد مرور كل تلك السنوات- أن تترك لي حرية الكلام أو الصمت متى شئت!

لكن حداثة سني لم تجعلني أفهم ذلك في حينها .. فأحزنني عدم اتصالها وفسرته بعدم الاهتمام.

غير أنها في هذه الجلسة وفي مكالمات كثيرة تكلمت معي كلامًا كثيرًا عن أهمية الصبر والتدرج في العبادات، وكلمتني عن قول النبي -ﷺ-: "ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه".

قالت لي مرة: ربنا جعل وقت الصلاة مثلًا من 12 ل 3 ونص .. أنت مخلياها من 12 ل 12 وخمسة!

وقلت لها مرارًا: أنها لا تفهمني، ولا تعرف كيف تحتويني!

الحقيقة التي ربما لم تفهمها الخالة في تعاملها معي أننا لم نكن نتكلم نفس اللغة!

هي لم تكن تفهم كل تلك المشاعر التي لم أحسن التعبير عنها، ولم تفهم تلك الأفكار التي تدور في ذهني، ثم إنني كنت أحبها حبًّا كبيرًا جدًّا، أما أنا فكنت بالنسبة لها شخصية مستفزة!

وهنا قضية مهمة جدًّا من وجهة نظري ينبغي أن يفهمها الداعية الواعظ والطبيب النفسي والمعالج النفسي: أن التعامل مع البشر بعد توفيق الله لك وفتحه نسائم رحماته بينكما؛ ليس "بمهاراتك" فقط، بل هناك جانب نفسي مهم جدًّا، فقد لا تتفق روحك مع الشخص الذي أمامك، فأنت لا تحقق النجاح وتصل إلى القلب لأنك فقط ماهر ومتعلم لأساليب معينة في احتواء الشخص، هناك مساحة ألفة إذا فُقدت قد يكون ضرر استمرارك في علاج الحالة المعينة أكبر من انقطاعك.

لا أدري هل أدركت الخالة هذه الحقيقة أم لم تدركها إلى يومنا هذا، لكن كثيرًا من الأحداث التي تعاقبت بعدها كانت تدل بشدة على أنني شخصية مستفزة جدًّا بالنسبة لها، وبالتالي لم يكن الحوار الذي يدور بيني وبينها مؤثرًا فيّ.

رغم صحة كثير مما قالته عن الصبر والتدرج؛ فأنا كنت مصممة إذا قيل إن الضحى عدد ركعاته ركعتان حدٌّ أدنى، وثمانية حدٌّ أعلى؛ فأنا أريد أن أبدأ بالثمانية!

كما أنه هناك أمر آخر لا يدركه كثير من المتصدرين:
هناك بون شاسع بين الخطاب السلفي العام والخطاب السلفي الخاص؛ فحين يجلس الشيخ على كرسيه في المسجد، ويتكلم عن التعدد أو عن المشاكل الزوجية وحقوق الزوج، هو يتكلم بلهجة معينة ونبرة معينة وأسلوب معين، يحسب أنه هو المصلح لعموم المستمعين. خلط المزاح بالجد في غير موضعه، والتصعيد والحماسة والمبالغة والتهويل، الوعظ لدفعك للفعل، أو الوعظ الخالص مع ذكر أحوال السلف ...إلخ

المبالغة .. التهويل!

سمعت إحدى المعلمات تؤصل يومًا لفقه المبالغة، قالت: إن الناس يطبقون بعض ما يسمعون؛ فنحتاج إلى المبالغة ليطبقوا بعض ما يراد منهم، ثم استشهدت بحلقات التجويد حين تضطر المعلمة لنطق الحروف بطريقة متكلفة مبالغة لكي تأتي الطالبة بالصورة الصحيحة .. لكن الذي يحدث في الواقع أن هذا الأسلوب هو خط إنتاج مثالي جدًّا للتكلف والتنطع والتفيهق، وكل هذه السلوكيات المذمومة شرعًا!

من هنا تأتي البدع! ولكننا لا نفقه..

فحين يخوفك بنسبة تسعين بالمائة، أو يحمسك بنسبة تسعين بالمائة لفعل شيء، أو يبالغ في الكلام عن الصبر على التعدد وأهمية التعدد؛ فهو يتخيل أنه المنتظر من المستمعين تنفيذ خمسين بالمائة مما حث عليه، فيزيد من المبالغة لعله يظفر منك بمزيد من العمل!

وهذا من سوء فهم النفوس ووقع الكلمات عليها للأسف.

وقد تفطن بعض أفاضل السلفيين إلى هذا الداء فقرروا أهمية تعلم علم النفس ومهارات التواصل والإلقاء والإدارة وغير ذلك، فاعتبرتهم بعض التيارات السلفية منتكسين!

بل إلى الآن لازال البعض يكررون ويقررون أن المؤمن لا يمرض نفسيًّا، وأن المرض النفسي خلل في علاقة العبد بالله تعالى، وأن الذهاب للطبيب النفسي هو من ضعف الإيمان... ويتفاجؤون بفتاوى بعض كبار المشايخ السلفية عن جواز التداوي بالعلاج النفسي... أو يعرفون الفتوى لكن "الراجح عندهم" على خلافها.

الواقع أن المبالغة في الدرس حين تصل إلى 90 بالمائة .. فمن المستمعين من يقع في التهويل إلى 150 و200 بالمائة!

وغالبًا هؤلاء ينتمون إلى شريحة الشخصيات القوية الرائدة المبادرة، التي تحمل الهم الدعوي، وتطور الفكرة التي تسمعها، وتبلغها باهتمام.

تسري الفكرة حاملة بصمات مختلفة، مع تكرار وتفنن وإبداع في إطار معين، فيقوم البعض بالتطبيق بطريقته الخاصة، ويقع هو وغيره في إشكالات عديدة، ثم منهم من يستمر حتى يصل إلى نقطة العجز أو المرض النفسي.

ومنهم من ينتكس تمامًا، أو ينتكس جزئيًّا ويظل يؤنب نفسه ويجلد ذاته جلدًا لا يستطيع وقفه.

ومنهم ممن يعجز عن ذلك؛ من يقوم بعمل إزاحة نفسية، فيبقى هو في حيز مريح نسبيًّا، ويبدأ في جلد من حوله، ودفعهم لتطبيق ما عجز عنه، فيضر نفسه والمجتمع، ويظهر التنافر بين الظاهر والباطن والقول والفعل!

ومنهم من يبدأ البحث والتعلم، ويحاول التوفيق بين ما يتعلم وما يسمع ليبقى في إطار سلفي، ومن هنا يأتي التدليس في العلم، وسوء تصور المسائل وليّ عنق الأدلة.

ومنهم من يتعلم فيوفقه الله للتعلم على حقيقة العلم.

أما الشيخ الأول صاحب المبالغة الأولى، فإنه إن كان حسن القصد والعلم؛ فقد تستفتيه الحالة الخاصة فيتكلم بحكمة أكبر، ويحل المشكلة بعقل مختلف لكن .. ليس كل من استمع إليك يمكنه أن يأتي ويتحدث معك!

كثيرًا ما دارت محادثات هاتفية بيني وبين بعض مشاهير المشايخ؛ فوجدت لسانًا ونبرة مختلفة عن تلك النبرة في الأشرطة، وكثيرًا ما وجدت من بعضهم نفس اللسان أو أشد منه، ووجد غيري من بعضهم لسانًا وتصرفات أسوأ من الخطاب العام، لكن حتى من كان أكثر حكمة في خطابه الخاص لم يتفطن إلى موضع الداء، فعلى الصعيد الواقعي؛ كم عدد من يمكنه أن يصل إليك مباشرة فيستفصل منك أو يسمع من فيك تلك النبرة المختلفة والكلام الأكثر عقلًا وحكمة؟ كم نسبة ذلك في من استمع إلى خطابك العام؟

هذا البون الشاسع مشكلة!

هل يدركون أن هناك نفوسًا حساسة تأخذ كل نصيحة على محمل الجد، فمتى ما عجزت أصابها هم وحزن؟

هل يدركون كم من نفس أصابها الوهن والوسوسة والاكتئاب بصورة مرضية بسبب هذه الخطابات، ثم لم يجدوا إلا كلمات أشد إيلامًا كقول

متحمس: "المؤمن لا يمرض نفسيًّا"، وأن من أصابه مرض نفسي فإنما هذا لضعف إيمانه وسوء طويته وقلة طاعاته، ولو أطاع الله كما يحب الله لما أصابه من ذلك شيء؛ فتذهب تلك النفس الحساسة لتفعل ما يقولون، فتعجز ثم تسقط في بئر عميق مظلم لا قرار له!

فضلًا عن أن يكون المتصدر ليس عنده من الحكمة والعلم الذي عند الشيخ، فكم من متصدر ومتصدرة بلا أهلية يبلغ ما يسمعه في الخطاب العام بنفس الحماسة ... لا!

بل بمبالغة وتهويل أكبر بكثير من المبالغة الحاصلة في الخطاب العام للشيخ الأصلي، وهذا من النكبات للأسف في الصف؛ لأن حجم المتصدرين بلا أهلية بهذه الصورة المخزية كبير جدًّا في التيار... لحية أو نقاب، وشيء من الحماسة والجرأة ومحبة القيادة ولو مع العجز عنها، مع قليل من العلم والمعرفة بالفتاوى الشائعة .. و.. مبروك أنت الآن شيخ!

سيناديك العامة "يا شيخ" .. لن يمنعك معلمك من ذلك غالبًا، وسيقول "أهو بيقول خير، وفرض الكفاية لم يوفه أحد"، وطالما أنت تحت "السيطرة" فكل شيء تمام .. تصدر يا أخي!

ثم إن هذا المتصدر بلا أهلية يكون خطابه الخاص لطلابه هو نفس ممارسة الحماقة التي يمارسها في خطابه العام .. **بالإضافة إلى كارثة القياس على الفتوى.**

في البداية أنا أنقل فقط ما أعرف خدمة للناس ونفعًا لهم، ثم يسحبك الشيطان: أنت على علم وخير، والفتوى شحيحة، ومعك قاعدة عامة هي:

اتقوا الشبهات، والتنقص ممن لم يستجب، وأنت لك أثر، والاحتياط خير، ثم إن معك الدليل، وهذا خير من تمييع دين الله.

ثم يسحبك في وحل أكبر: كيف تقول لا أعلم وتخذل الناس وهم بحاجة إليك؟

أما أهل العلم حقا فيرددون غير ذلك ..يرددون أقوال السلف بحق:

"إنما العلم الرخصة من ثقة، أما التشديد فيحسنه كل أحد".

"من أخطأ لا أعلم؛ أصيبت مقاتله"!

لكن أنّى لصاحبنا ذلك وقد غرق في قوقعة موحلة من الجهل المركب، وذاق حلاوة نفسه وسكرة التصدر والقيادة؟

كثيرًا ما سمعتُ في الخطابات العامة للمعلمات والشيوخ كلمات مشكِلة.

إن الفقه والعقيدة علوم دقيقة، والوعظ يحتاج إلى لسانِ عالمٍ يعرف ما يقول، ومتى يقوله ومتى يسكت، وقديمًا كان الواعظ هو العالم، ولذلك كان العلماء ينكرون على القصاص -وهم مَن يتصدرون للوعظ بقص القصص المخوفة ولا علم لديهم-، لكن اليوم للأسف صار الوعظ علكة كل من يريد التحدث في الدين، فأفسدوا وأضروا، ولا تمييز بين العالم الواعظ وبين القصاص، فاختلط الفقه والفتوى بالوعظ، ودخل في الدين ما ليس منه.

ألا تذكرون أنني قلتُ لكم: إنني لن ألتزم تسلسلًا زمنيًّا في قَصصي هذا؟! وأن الأسماء ليست هي الأسماء! حسنًا!

لا تدعوا هذه الحقائق البدهية غائبة عن أذهانكم!

بعد ظهور نتيجة الثانوية ذهبت إلى العمرة. حدثان في تلك العمرة أثارا ذهني..

في ذلك العام كان الحرم المكي والمدني يفيضان بالشيعة!

لا أدرى هل كان ذلك لسبب معين من توقيت أو حدث، أو غير ذلك، لكن هذا هو ما حدث.

والحدث الثاني: تلك الفتوى المنشورة عن بعض مشاهير مشايخ المملكة بأن النقاب حرام!

ودار نقاش بين أفراد الرحلة يحتج بعضهم علينا بتلك الفتوى، فذهبت إلى مكتبة الحرم وقابلت مسئولة هناك، فشرحت لي الفتوى، وأن المقصود بالتحريم هو النقاب الذي يظهر العين لا تغطية الوجه، ونبهتهم إلى ضرورة شرح تلك الفتوى؛ لأن الناس لا يفهمون، كما أنني طالبتهم بعقد بعض الدروس الخفيفة لتعريف النساء بالبدع والنهي عنها، وقصصت عليهم ما وجدت من الشيعة من دعوتهم للتشيع بالحرم ... فاستجابوا بعد حين.

أما الشيعة فلم أكن أفقه عنهم شيئًا، غير أنني لاحظت أنهم يصلون في وقت النهي، ويركع بعضهم ونحن قيام في صلاة الجماعة أحيانًا، ويسجدون ونحن بين السجدتين!

كما أنهم مزعجون جدًّا! قد تجد الواحدة منهن فجأة تصرخ تلطم وتبكي وتصيح: يا زهرا، يا حسين، أو مثل ذلك.

ومن الطرائف التي رأيت: أننا حين كنا عند الروضة، رأت بعض المصريات ما تفعله الشيعيات من صياح ومثل ذلك، فجلست على الأرض متربعة تنظر يمنة ويسرة، ثم خبطت على فخذها وأنشدت: صلى الله على محمد ﷺ.. ونحوها من الأناشيد أو الذكر بلحن.

ما أجمل تعبير البسطاء عن حبهم ومنافستهم أي أحد في إظهار حب النبي - ﷺ -!

أما نحن –الملتزمون بزعمنا- فأصابتنا الرغبة في الفرار من البدع بالجفاوة مع النبي - ﷺ -

أول من نبهني إلى هذه القسوة هي أم سعيد التي سأقص طرفًا عنها قريبا.. ثم إني كتبتُ يومًا من قريب حين أدركت هذا الداء فينا -معاشر السلفيين- هذا المقال:

"حين سألتني الخالة فلانة أيام تصدري للإفتاء عن فتاة وجدت شعيرات من شعر أمها بعد دفنها، ماذا تفعل بها؟ قلت لها بـ "لا اكتراث": تلقيها في أي سلة مهملات، ولا تحتفظ بها.

ليست مشكلتي الآن في قولي: "تلقيها"، و لا قولي: "لا تحتفظ بها"، فقد كان يغلب عليّ خوف عقلي معين .. كنت أخاف على الفتاة من عدة أمور لا مجال لذكرها الآن!

وليس غرضي الآن تحرير المسألة ولا الكلام في حكم ذلك، ولا صحة الفتوى الصادرة عني بلا أهلية، ولا حتى صحة النصيحة من عدمها! فلازلت بلا أهلية.

إنما الشأن... في اعترافي الآن أن هذا الكلام صدر مني وقتها "بلا اكتراث" وجداني.

اللهم أعوذ بك من التشبع بما لم أعط.

تعلمون أنني -إن شاء الله- ليس من عادتي "عدم الشعور"، ولا "عدم الاكتراث"؛ بل يغلب عليّ تفهم المشاعر واستشعارها، والتعاطف معها وجدانيًّا، وليس مجرد تعاطف عقلي، ولكن الإنسان إذا كان قد رزق حالًا من الأحوال الجيدة غلبت عليه في المجمل؛ فإنه لا يخلو من نقص وتقلب خارج السياق!

حسنا هذه كانت منها... خارج السياق أعني، ولها أسباب لم أنتبه لها إلا باجتماع أمرين:

الأول: مقال قرأته عن الجفاء في حضرة النبي ﷺ.

والثاني.. كان حينما **قبضت على نفسي متلبسة بالجرم المشهود!**

أي جرم؟! سأخبركم

لم تكن لي أبدًا مكحلة!

هذا اعتراف مهم جدًّا، كنت أرى أن المكحلة من خصائص أمي التي ينبغي أن أنظر لها بانبهار.. فقط! أما أنا فمن جيل الآي لاينر، أو قلم الكحل يكفي .. إن كنت ولابد فاعلة!

حين نظرت في المرآة تلك الليلة لأجد أنني أتقمص طريقتها، مستخدمة مكحلتها، بنفس الطريقة التي كنت أراها تفعل، ونفس نظرة العين بعدها، ونفس الحركات!

حينما وجدت أنني لا أتكلف تقمص حركاتها التي كانت متميزة بها في نظري .. أتذكرها جيدًا، وأضع حافر دابتي على ما ظننتُ أنه حافر دابتها!

حينما ضممت إلى صدري ملابسها التي تركتْها منذ عام أو أكثر واستنشقتها، وكأني سأجد بقايا عطرها أو عرقها أو تلك الرائحة التي كان الغسيل أو الدولاب متميزًا بها!

حينما احتفظت بأدوات زينتها في حرص متمنية أن تمس بشرتي ما مسته بشرتها!

عندها ... لا أدري لم تذكرت السائلة الآن ... وأوقن الآن بعد طول تقلب وقلق في الخاطرة من زمن مضى؛ أن ردي يومئذ على تلك الفتاة كان بـ "لا اكتراث"، ولم أتفهم مشاعرها جيدًا، ولم أهتم بمواساتها كما ينبغي!

بل إنني الليلة بالذات وأنا أكتحل بمكحلتها تذكرت ابن عمر وفعله مع رسول الله -ﷺ- وكذا فعل غيره من الصحابة!

هذه مظاهر محبتي لأمي، فأي حب هذا الذي ندعيه ونحن في جفاء وجداني مع النبي -ﷺ-؟

نكتفي بالحديث دومًا عن الحب العقلي والالتذاذ العقلي.. وهو حقٌّ مطلوب، لكنه لا يكفي -من وجهة نظري-!

بل أصلًا لا يُمارس دون حبٍّ وجدانيٍّ يتضمن معرفة الرسول وسيرته، والشعور بحبه في القلوب والعقول، والرغبة في بذل المهجة دفاعًا عنه بصدق ..

إنك إن أغمضت عينك وسرحت بخيالك تجد أنك تهتف هتاف (خبيب) حين قال: "والله ما أحب أن أكون في بيتي آمنًا ويشاك رسول الله ﷺ بشوكة في يده".

إن هذه العفوية التي أتصرف بها فيما يخص أمي- رحمها الله- لا شائبة شرك فيها .. هي فقط مشاعر فقد وحنين ومحبة نضحت في تلك الصورة.

تذكرت أول مرة رفضي المستمر زيارة المدينة المنورة ... لأني أحبها! لأني كنت أزعم أن تقديم محابّ الله من زيارة مكة مقدمة على محابّي الشخصية وهواي في زيارة المدينة! لا سيما وتلك الزيارة تعني نوبة اكتئاب بسبب المقاومة الشرسة لمظاهر عاطفية شديدة، ورؤية غيري يبذلها بعفوية، وأنا أحسب أن مقاومتي أرفع درجة من عفويته!

وأتذكر "**عدمَ اكتراثي**" الظاهر لدخول الروضة وزيارة القبر مع شوقي لذلك، متصنعة الوقار والرزانة، وأني "**لا أكترث**" لتلك المشاعر البالية التي لا تدل على المحبة العقلية التي هي الاتباع وحسب، وطأطأةَ رأسي في حكمة أن ليتهم مثلي يتركون هذا الاندفاع والتزاحم على الروضة، ويجلسون في أي مكان وحسب كما أفعل أنا!

أتذكر نظرتي من بعيد لقبور الصحابيات وزوجات النبي وشهداء أحد وكلي شوق أدافعه بشراسة حتى لا أقترب!

ألم يكن الصحابة يحبون النبي ويعبرون عن محبتهم بالأقوال والأفعال؟ وفي قصة صلح الحديبية من مظاهر تلك المحبة الشيء الكثير؛ فليس التعبير عن المحبة فقط بالاتباع والطاعة.

ألم يبك الصحابة شوقًا وحنينًا؟ ألم يبكوا حين مات وانهاروا بكاء؟ ألم تهيّج ذكراه عيونهم على البكاء؟

لماذا دفنا هذه المشاعر الفياضة من حب وشوق وحنين حتى صار ديدنًا فينا الجمود كجلمودٍ صخر حطه السيل من علٍ!

ثم نشتكي عدم الاستمتاع بالطاعة والعبادة، وقسوة القلب، وقحط العين!

ألسنا من اجتهدنا في ردم آدميتنا ومشاعرنا تحت عنوان "حفظ التوحيد"؟

صدق من قال: كل أمر فللشيطان فيه: فخ في الإفراط.. وفخ في التفريط!

صليت أول صلاة لي بالمسجد وأنا فاقدة الاتزان من قلة النوم وألم السفر، ثم جلست أنظر إلى تلك الأجنبية التي لا تتحدث العربية وأنا أشعر بالانبهار أنها تقرأ القرآن رغم عدم قدرتها على الحديث باللغة العربية؛ فطلبت منها أن تقرأ بصوت عالٍ، فختمت قراءتها بقولها: صدق الله العلي العظيم وسكت أنا، فبادرتني: لِمَ لم تقولي صدق الله العلي العظيم؟

قلت لها: بدعة!

قالت: أمِن أجل قولي "علي"؟ أنا لا أقصد سيدنا عليًّا، أنا أقصد أن الله هو العلي.

قلت لها: لا، هي بدعة على كل حال. ثم دار حوار لمدة 4 ساعات، فقد وقعت مع امرأة شيعية داعية إلى التشيع[1].

ثم إنني حين ذهبت إلى الحرم المكي شعرت بالاختناق من الاختلاط.. لا يوجد مكان أستطيع فيه أن أرى الكعبة وأكشف وجهي معًا! وفقدت تلك اللذة التي متعني بها الحرم المدني؛ فعدت إلى مصر بكثير من الأفكار..

- لماذا اختلفوا؟ شيعة وسنة وصوفية وغير ذلك من التقسيمات؟ بل لماذا اختلفوا أصلًا في الفقه والأحكام؟ وما هذه المذاهب الفقهية؟

- أحتاج إلى الدراسة .. الكثير منها .. أريد أن أفهم .. من أين أبدأ؟

- كثير من البغض الشديد للاختلاف .. لماذا لم يجلسوا معًا و"يتفاهموا"، ويخرجوا لنا بـ "دين واحد" وأحكام واحدة فقط؟؟

وانصب بغضي على أئمة الدين، وضاق صدري ضيقًا شديدًا!

كما أنني اتخذت قرارًا جازمًا أنني لن أدخل كلية الهندسة؛ لأنها مختلطة، والسبب الآخر: أنني أردت الالتحاق بالأزهر الشريف للدراسة، وأضمرت في

---

[1] ضمنت هذا الحوار جزءًا من مقالي القديم "قل إني هداني ربي إلى صراط مستقيم"، وهو مقال سلفي ضمن سلسلة قصص نشرتها بالمنتديات بعنوان: "هل أنت من هؤلاء؟"، ثم أفردت كل قصة لنشرها في المواقع بعنوان منفرد؛ لنقد سلوكيات معينة، وتقديم مادة علمية ومعلومة بطريقة مختلفة، ولم أشترط فيها دقة الأحداث ولا تسلسلها، بل نصصت مرارًا أنني ألفق مواقف حدثت بالفعل لأشخاص، وأغير بعض ملامحها، وأن الهدف النقد البناء لا المعلومة.

والتشيع بدعة، هل أنا بحاجة إلى التأكيد على ذلك؟ ولست أدعو إلى التماهي والتسامح مع كل خلاف ولا أنا داعي إلى النسبية وأن كل شيء نسبي.. هناك كفر و إيمان وسنة وبدعة وحق وباطل، وهناك خلاف سائغ بين أئمةالسنة.

نفسي أنني سأسقط في أول عام لي سنتين متتاليتين فيمكنني التحويل لكلية أصول دين أو شريعة ... لابد أن أفهم!

على مذهب ؟.. !

- خالتو هو احنا على مذهب إيه؟

- يعني إيه؟

- يعني شافعي ولا مالكي ولا إيه يعني؟؟

- احنا أهل سنة يا حبيبتي!

هذا حوار دار أمامي بين الخالة ليلى التي كانت تمثل لي الدراسة المذهبية السلفية، وبين بعض البنات .. **احنا أهل سنة مش على مذهب!**

لم أتساءل وقتها لفرط جهلي إن كان الشافعي ومالك وفقهاء مذاهبهم وسائر الأئمة والفقهاء؛ يعتبرون من أهل السنة أم لا! لكني كنت سعيدة بإجابتها جدًّا، هذا جواب يقتل الاختلاف، **نحن أهل سنة ولسنا على مذهب من الأربعة!**

في تلك الفترة تكلمت أمي مع الخالة ليلى بشأن دخولي الكلية، فقد كانت الخالة ليلى ترى أنه ينبغي عليّ أن أطيع والدَيَّ أو أرضيهما وأبرهما بدخول الكلية التي يرتضيانِها .. ولم تفطن لأمرين:

الأول: أنهما أصلًا لم يكترثا .. نعم كانا يفضلان دخولي كلية الهندسة، لكنني مثلًا حين سألت أبي يومًا: هل سأعمل معك بعد تخرجي وأنزل مواقع العمل؟ فقال لي: عمالي صعايدة، محدش فيهم هيقبل إن واحدة ست تقف عليهم ريسة!

OK!

يعني أنا أتعب خمس سنين، وبعدين كل واحد فيكم يقولي: عمالي صعايدة، ونحن رجال وأنتم نساء .. ماشي، معنديش مانع أتفهم هذه الأمور، لكن .. لا تضيعوا سنوات عمري هباء!

فكانت الأمور بين ثلاثتنا سلسة جدًّا، ونحن أسرة حرة ومترابطة؛ يحتفظ كل إنسان فيها بقدر من الخصوصية والحرية، فكل واحد يفعل ما يشاء في إطار بسيط من القيود المعقولة.

الثاني: أن قراري كان بسبب خوفي الشديد العاصف من فتنة الاختلاط! ذلك الخوف الذي غرسته الخالة ليلى -وغيرها- في نفسي بخطابها العام في الدروس، ولم يعطني أحد منهم طريقة معقولة للتعامل والتصرف مع الاختلاط بطريقة سوية لا تضرني. فأنا فتاة عشت عمري في مدارس غير مختلطة، ثم قبل الانتقال إلى الجامعة تعرضت لخطاب عن الاختلاط لم يعلمني كيف أتعامل، بل علمني أن هذه فتنة كبيرة، وأنني كامرأة أضر فتنة على الرجال[1]، مع مجموعة من الأحكام الفقهية تقدم في إطار يجعل عقلي في حالة شلل عن التفكير في كيفية الجمع بين دخول كلية مختلطة والتعامل مع الجنس الآخر بأي صورة! فكيف بالله عليك جمعتِ يا خالة بين

[1] النساء أضر فتنة على الرجال هذا صواب؛ لكن الشرع لم يجعل ذلك سببًا في ظلم المرأة وحرمانها من حقوقها أو المبالغة في منعها من ممارسة عاديات يومية مباحة. الخطأ في كثير من المنتسبين إلى التيار السلفي أنه جعل تلك القاعدة سببًا في المبالغة في تحريم ما أحل الله من باب سد الذرائع.

ومن استمع لطريقة تناول من يلتزم مذهبه في الإفتاء لقضايا المرأة وما يحل لها وما يحرم= سيجد سعة ونبرة مختلفة تمامًا تبين البون الشاسع بين نور الفقه المذهبي وظلمة غيره، ولن يجد نبرة سلبية إلا عند من تأثر بالتيار السلفي في تناول قضايا المرأة. ومع ذلك فهناك تيارات سلفية كانت أخف وألطف في تناول قضايا النساء، بيد أن التناول المذهبي لا يضاهى! حتى مواضع التشديد مفهوم سببها، ويقابلها توازن في مواضع أخرى توضح مدى تكامل الشريعة وعدالتها.

نصيحتك لي بدخول كلية مختلطة وأنت مَن ملأ قلبي وعقلي بضرورة الفرار من هذه الفتنة والبعد عن مواطن الفتن؟

ناقشتها، وكما ذكرتُ لكم من قبل البونَ بين الخطاب العام والخاص، وأن البعض لا يدرك أن هناك من يمتص كلماته كلها كما هي، ويتأثر بها كما هي، وتنحفر في نفسه فتعمل ما تعمل من ضرر أو فساد أو إصلاح، وأنت لا تدرك ذلك! **فالله الله في الكلمة فإنها سيف بتار!**

لهذا فديننا يحاسب على الكلمة، وحديث "إلا حصائد ألسنتهم" معروف مشهور، لكننا -معاشر بني آدم- نحسب أن الكلام في الدين حصائد خير مهما قطعنا به من قلوب وأرحام!

ꕥ

كانت مكالمتها مع أمي تدل على ذاك الذي قلته لكم من قبل: أنا شخصية مستفزة بالنسبة للخالة ليلى، هذا ليس عيبًا فيها ولا فيّ .. فقط هي أرواح تنافرت، ربما لتشابه معين بيننا أو نحو ذلك أو غير ذلك!

كانت تعيب عليّ أنهم يجعلون لكلمتي واختياري أهمية، أنا أدرك جيّدًا أنها لم تستطع التعبير عما تريد قوله، كانت لعلها تريد أن تقول: إنني متعالمة معجبة بنفسي، وأن من حولي جعلوني في مقام أكبر مما أستحق! لكن الذي كنت أراه وقتها أنها لا تنزلني منزلتي، أو لا تعرف موهبتي، أو لا تستطيع احتوائي، ولا تفهم كل تلك الأفكار التي تدور في رأسي، وزاد من شعوري هذا أنني حين تركت درسها وانتقلت إلى أماكن أخرى ومشايخ آخرين قوبلتُ باحتفاء كبير –من وجهة نظري-.

تعرفت **خلال تلك الفترة على كثير من الأنماط السلفية..**

في المسجد على معلمتي الصغيرة سنًّا الكبيرة قدرًا ومقامًا في قلبي، دعونا نسميها سلوى، وتعرفت على نورة في الجامعة، تعرفت على نجلاء، وكذلك سميرة، وهي طالبة وقتئذ بكلية أصول دين.

هؤلاء الأربعة أهم المؤثرات الإيجابية تقريبًا في تكوين فكري السلفي خلال ما لا يقل عن عشر سنوات، سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وكثير ممن تعرفت عليهنّ كنّ سببًا في تأثير سلبي معين، منهن مثلًا خديجة ..

ذهبتُ مع صديقتين إلى فرح لا أعرف فيه أحدًا، بعض الصديقات دعتني، وأفراح الإسلاميين عامةً الدعوة فيها غالبًا عامةٌ ومرحبٌ فيها بالجميع بكرم وترحاب.

كنت أريد أن أرى المجتمع الملتزم عن قرب، وأريد أن أرى كيف يفرحون!

في ذلك اليوم دخلت صديقتي معي إلى البيت الذي فيه الفرح لتجد أن الفرح هادئ جدًّا، فتبرعت بإحيائه بطريقتها الجميلة، والحقيقة أن الكل كان سعيدًا بما فعلت إلا أنا! فما فعلته "**عندي**" وقتها حرام أو مكروه، أو أصلًا اعلموا أنه لا فرق "**عندي**" وقتها بين حرام ومكروه ولا خطأ، وكبيرة أو صغيرة ..!

المهم أنه غلط ... **وكل الغلط غلط قولا واحدًا.**

اعتزلت ما يحدث مبتسمة في حرج، فألفيت سميرة وخديجة وأخريات معتزلات مثلي فتحدثنا، وتعرفت على سميرة، وتوطدت العلاقة، وتحدثنا كثيرًا بعد ذلك. عرفت أنها لا تخرج من البيت أبدًا إلا لتلبي دعوة وليمة، ولا تذهب للمساجد لظروف معينة، وأيضًا لأنها ترى وأمها أنه يجب على النساء القرار في البيوت.

- حتى صلاة التراويح؟

- اه طبعًا، وصلاة المرأة في بيتها خير لها.

كانت تتكلم في الفقه كثيرًا، وكنت أعتبرها "مفتي مصر".

الحقيقة أنها اليوم قد تقرأ هذا الكلام وتضحك؛ لأنها لم تعد تلك الفتاة، وهذا من فضل الله عليها، لكنها في ذلك الوقت كانت من مصادر الفتاوى العجيبة .. جدًّا!

في تلك الفترة؛ لا أشك لحظة أنه رسخ في قلب وعقل الخالة ليلى أنني مزعجة جدًّا، مستفزة جدًّا، أثابها الله بكل ما عانته مني خيرًا.

أحاور سلوى فتقول لي: من كان شيخه الكتاب كان خطؤه أكثر من الصواب، فأعود للخالة ليلى التي نصحتني بأن أقرأ كثيرًا جدًّا، فأقول لها ما قالته سلوى، فتقول لي كلامًا رددته مرارًا: طول مانت مشتتة نفسك كده مش هتوصلي لشيء. فأرد عليها: لكنك قلت لي: أنني لو قرأت في كتاب وفي ذهني فكرة لن أصل لشيء، فتقول لي: اقرئي واصبري .. اقرئي لتتعلمي وتفهمي.

لكنها لم تعطني منهجية ما للقراءة، ولم أقتنع أصلًا بمنهجها اللامعياري!

في ذلك الوقت كان قلبي مغلقًا أمام نصحها لأسباب عديدة .. فلم أحفل بما تقول.

أناقش سميرة، فأعود إلى الخالة ليلى، فتكرر نصحها، وأسمع بقلب رافض، أناقش وأناقش وأناقش ... **وبئس العلم المناظرة!**

هي لم تدرك أنني أريد أن أكون طالبة علم، وأن تقديم منهجية معينة للسير عليها أولى من النصيحة العامة بالقراءة .. وأنا أصلًا لا أدري ماذا أريد؟

- بس يا خالتو ما الدليل على ذلك؟

- أنا مبحبش البنات اللي بيفضلوا يسألوا عن الدليل.

أقول في نفسي: **وليس حبك ولا بغضك أريد! أريد العلم!**

في تلك الفترة ناقشت كثيرًا من مشايخ السلفية، وكنت أعود إليها.

كرنفال من الفتاوى! التاكسي خلوة؟ الخروج من البيت؟ التمثيل؟ الأناشيد؟ ركوب الحصان للنساء؟ قيادة المرأة؟ النقاب فرض؟ الاختلاط؟ النمص؟ المكياج حرام في البيت؟ الرؤية في الخطوبة كم مرة وماذا يرى منها؟ وهل يجوز التواصل بعد القبول؟ وما الذي يحق للعاقد... إلخ!

وكنت أمارس ما يمارسه أي فوضوي يحترم نفسه: أسمع من هنا وهناك وأضرب كلام هذا بذاك، الهدف أن أقف على أرض ما، على منهج ما، على قاعدة ما .. أصل لنقطة بداية ما!

ما البدعة؟ ما الولاء والبراء؟ التكفير؟ كيف أكون حكيمة في الدعوة؟ كيف أرجح في الخلاف؟

كل القضايا الشائكة أريد أن أحسمها الآن وفورًا.. لماذا؟ لأن هذا أساس البناء الذي سأشيده!

لعلي كنت مخلصة في طلب الحق لكنني سلكت طريقًا لا يوصل للمطلوب.
أذكر حين قابلت جارة لجدتي "أخت" فسعدَت بانضمامي إلى أهل الالتزام، وسألتني إن كنت بدأت كرنفال الفتاوى؟
فقلت لها: طبعًا، وتحدثنا عن الاختلافات، وسألتني عن ترجيحاتي العميقة، فرجحت لها في "جلسة أنس" في كل حكم له قولًا فاصلًا.. فكانت توافقني تارة وتخالفني تارة!
يا له من كلأ مستباح ولا حول ولا قوة إلا بالله!
كانت نجلاء أكثرهم عقلًا من وجهة نظري، وكان والدها شيخًا غير مشهور، لكنها كانت مثقفة ومطلعة جدًّا وتناقش كل شيء بأريحية وسهولة، وأوصلتني ببعض مشاهير السلفية الذين اشتهروا بالعبادة، وكانت تنتقد كل شيء تراه يستحق النقد بأسلوب مهذب وبسيط.
سميرة أيضًا عرفتني بابنة شيخ شهير، ومن الطريف أن بنت الشيخ ذكّرتني بموقف أول لقاء بيننا؛ حين كانت واقفة مع ابنة عمها التي في نظري "متبرجة"، فعرفتني بها، فقلت لهما مستنكرة في قلة ذوق: دي بنت أخ الشيخ فلان؟ ويبدو أن النقاب لم يستر تعبيراتي فانطبع الموقف في ذهنها ونسيتُه .. كما ينسى الجلاد ضحاياه الذين لا يمكنه أن يحصيهم عددا!

كنت حاورت الخالة ليلى عن قضية: "لماذا اختلفوا"؟ فقالت لي كلامًا كثيرًا عن أصول الفقه، وعن الخلاف اللغوي، وضربت لي أمثلة كاختلافهم في تفسير القرء بحيض وطهر، فقلتُ لها ببساطة: لكن الراجح كذا لكذا..
فلم تجد ردًّا إلا أن تقول: ليس الأمر بهذه البساطة والسطحية.

صدقًا .. لم أفهم وقتها لماذا لا يكون بهذه البساطة؟ الكل يرجح، كبارًا وصغارًا، الترجيح كلأ مستباح للجميع، كثير من الشيوخ يسمحون لي ولغيري بالنقاش، ويرحبون بذلك، ويتعاملون باحترام ..

الآن أنا أفهم لماذا ليس الأمر بهذه البساطة .. فهل كان لابد من هذه التجربة المريرة التي أضاعت وقتا وجهدًا، وحفرت أخاديد مشوهة في صحراء روحي؟!

رضيت بالله ربًّا سبحانه من حكيم عليم كل شيء عنده بمقدار ..

من مر بمثل تجربتي عرف مثل معرفتي ..

ꕥ

حاورت معلمتي "سلوى" وبحت لها بسؤالي، فحدثتني عن فقه الدليل وأن الراجح يكون راجحًا بالدليل، وأن الحق واحد، وبالتالي لابد من الترجيح، والراجح واحد[1]، وأرشدتني لسماع الشيخ الألباني، وحذرتني من السماع لأهل البدع والأهواء، فغرقت مع أشرطة الألباني.. وأُشربت المنهج السلفي!

في ذلك الوقت طلبت منا الخالة ليلى بحثًا عن اتباع السنة، فجمعت لها مادة علمية سلفية على فقه الراجح والدليل لأحاججها بها، فتترك طريق التمذهب السلفي الذي تسلكه، وجلست أمامها ندًّا لند في جلسة خاصة، منتفخة برفض طريقتها، راغبة في هدايتها، فلم أقتنع بما تقول. ثم انتهزتُ

[1] من الأغاليط، أنهم يظنون أن كون الحق واحد يعني أن الراجح عند فلان هو الحق ومن خالفه مخطئ، وأنه ينبغي حسم الخلاف، وهذا خطأ، فالراجح نسبي وسيظل نسبي فلكل عالم مجتهد مؤهل للاجتهاد نظر في الدليل وترجيح، والحق واحد عند الله، لكن المجتهد بين الأجر والأجرين، فإذا كان لديه السبيل لمعرفة هذا الحق الواحد عند الله وحسمه لما كان أجره دائرًا بين الأجر والأجرين! ولما ينحسم الخلاف من أيام الصحابة.

فرصة طلبها منا بحثًا آخر مع عرضه لأعترض أنني لا أريد أن ألقي كلمة، والحقيقة أن بوادر الوسوسة كانت ظهرت معي بقوة، فكنت فعلًا لا أريد أن ألقي كلمة أمام جمع قل أو كثر! فأصرتْ، فقلت: لها في عجرفة: لن يمكنني أن أحضر إن أصرت، فقالت: كما تحبين. وكان ذلك هو ما أحب! فانقطعت عن الدرس في أوائل سنوات الجامعة ربما في عامي الأول!

لم أقتنع أبدًا بطريقة الخالة ليلى التي تخلط بين السلفية والتمذهب[1].

ولعل من أسباب ذلك أنها ممارسة ملفقة في الواقع، ليس هناك معايير حقيقية، في النهاية هناك مخالفة للمذهب في بعض المسائل بلا معيار للمخالفة ليكون العمل عليها خاضعًا لتلك الفتاوى الشائعة فينا، فالنمص مثلًا حرام قولًا واحدًا، فإن أجازه أي مذهب يشرحونه لن تجد من يقول ذلك إلا خفية وبتوجس أو سرًا! هذا مثال والأمثلة تطول. ثم إن الفكر الغالب علينا: أن مذهب أحمد هو الأكثر موافقة للدليل والسنة، وربما حث البعض على دراسة المذهب الشافعي لثراء مسائله، لكن في النهاية لابد من الترجيح، والترجيح غالبًا هو العمل بالفتاوى الشائعة!

الخلاصة: أن عدم المعيار جعل عقلي رافضًا لهذا الطريق، ومهد لي طريق قبول أن يكون المعيار هو "الدليل"، وعلى كل متكلم أن يأتيني بدليل أفهمه وأقرر أنه صواب ..

[1] هناك فئات سلفية تخلط بين التمذهب والسلفية بطرق مختلفة، (الدعوة السلفية، وحزب النور تبع لها وغيرهم). الذي يجمع بين الكل التزام الفتاوى السلفية الشائعة غالبًا وفقه الدليل والترجيح بغير أهلية.

وما أصعب ذلك!

فالجاهل لا يميز كوعه من بوعه؛ فكيف سأميز بين المطلق والعام؟ وصحة القيد وفساد القياس؟ وبأي شيء سأرجح؟ وعلى أي قواعد؟ أم أنني سأرجح تارة بتقديم قول الصحابي وتارة بتقديم القياس؟ وعلى حسب فصاحة وبلاغة وقوة تأثير وإقناع المتكلم .. يأخذ الدليل قوته أو يفقد قدرته!

هجرت الفقه باكرًا حتى يمكنني التمييز، وأقبلت على "ما لا يسوغ فيه الخلاف" أو "ما لا يختلفون فيه"..

وهما في ظني وقتئذ: العقيدة والتجويد.

استوقفت **تلـك الخالـة ذات الوجـه البشـوش المشـرق في ذاك المسجد**، لـم أكـن أتحـدث معهـا كثيرًا، ولكنني أحببت أن أسـألها هذا السؤال في ذلك اليوم:

- خالتو ممكن أسأل سؤال؟

- اتفضلي.

- هو حرام أروح المسجد أصلي التراويح؟

- لا عادي.

- طب وكده أجري أقل؟ مش أفضل أصلي في البيت؟

- اعملي الأفضل لقلبك .. ممكن واحدة تروح المسجد فتصلي أكثر أو تخشع أكثر وممكن اللّي تقعد في البيت متصليش .. اعملي اللّي يصلحك.

ذلك المسجد الذي أحببته!

كان بسيطًا جدًّا لا زخرفة فيه إلا يسيرًا .. سكينة .. راحة .. كنت أتنفس فيه هواء غير الهواء الذي أتنفسه في الخارج!

ميزة ذلك المسجد أنه مرتبط معي بشهر رمضان، ورغم قربه من البيت فإننا لـم نعـرف فيـه إلا دورات علميـة مسـائية لمشـايخ، وليسـت صبـاحية للنسـاء، مما جعل مجيئي إليه قليلًا ومع أهلي.

كان الذي يتولى أمر المسجد من صلاة وتنظيم دورات شيخ سلفي أسيف بكاء، صوته في القراءة إذا جردته كصوت لا جمال فيه أبدًا، لكنه كان من أحب الأصوات إليّ ..

أسمعت صوته يومًا لصديقة لم تدخل المسجد قط فتعجبت أن هذا الصوت يعجبني...

الحقيقة أن هذا الصوت مع رقة القلب وجمال الأداء وحلاوة الصلاة وسكينة المسجد هو الخليط الذي يجعل للصوت حلاوة.

صلت معي قريبتي يومًا، فقالت لي بعد إتمام الصلاة: أنا فهمت السورة!

كأن قراءته تفسير لا مجرد قراءة! وكان له درس قصير بين الصلوات يفسر فيه بعض الآيات.

الحقيقة أن هذه الشريحة من السلفيين كان لها سمت وجهد مختلف نوعًا، وإن كان لهم ما يستوجب نقدي في مسائل أخر، لكن لا أزعم أنني ضبطتُ طريقتهم كما ينبغي، فالصمت أبلغ!

كان الشيخ يعتني بدعوة مشايخ على علم ومن مختلف أنماط السلفية، وإن كان ثمّ نوع اختيار أيضًا.

كما أن الصدامات والمشاكل لم تكن محل إثارة في الخطب والمسجد، على الأقل فيما يظهر لي، أو في الفترة القصيرة التي حضرت فيها.

كنت متحفزة متنمرة بشدة! فاختبرته وقررت تسننه بعدة مسائل فقهية مما ترجح لي بالدليل، ثم استرخت نفسي نوعًا ما..

حسنًا هؤلاء سلفيون جيدون ... سيسوغ الخلاف معهم، فقد جازوا القنطرة!

أحـداث ليـالي التراويح هي قطعـة مـن الجنـة في الحقيقـة، حتى الشـغب والمشاكل وكل شيء كان له لذة..

كان للخالة ليلى طقوسٌ معينة تتميز بها في المسجد، وكنت حين أعجز عن مجاراتها أقول في نفسي: "مش مهم الكم المهم الكيف والقبول"، ثم أكرر كلمة ابن القيم: "لو كنت خلفهم ما أسرع اللحاق بهم"؛ لكن الحقيقة أنني لم أقتنع بهذه العبارة عمليًّا ووجدانيًّا.

تعلمت في هذا المسجد معنى أن تكون في خلوة مع الله وأنت في وسط الناس.. صلت بجواري ابنة هذا الشيخ في بعض الليالي فوجدت سمتًا لم أعهده .. الفتاة من أول الصلاة لآخرها كأبيها لا تكاد تكف عن البكاء بلا صوت .. أنا لا أدري كيف تنتقل المشاعر وأنا لا أرى وجهها في الصلاة، لكني كنت أرتجف .. لـم تكـن ترتـدي النقـاب ولا الخمـار ولا الأسـود، لكنهـا تصـلي في خشـوع وتضـرع غريـب جـدًّا على قلبي وعيني. ثم إنها إذا أنهت الصلاة لا ترى على عينيها أثر بكاء، ويشرق وجهها بابتسامة .. وكأن شيئًا لم يكن.

في ليلة من تلك الليالي التي صليت فيها بجوارها اجتمعت همومي مع تلك المشاعر التي بثتني إياها تلك الفتاة في الصلاة من غير شعور منها، مع نوبة قوية من الوسوسة، كل ذلك انكتم في صدري ولا فَرَجَ من بكاءٍ! حتى إذا انتهت الصلاة لا أدري كيف شعرت إحدى الصديقات بهذا الشيء بداخلي، فأقبلت مسرعة من بعيد ثم احتضنتني في قوة وهمست لي كلامًا كثيرًا، لم أسمع تقريبًا إلا كلمة واحدة: "ابكي" فبكيت!

الخالة ليلى معتزلة في جانب المسجد تصلي بلا توقف طيلة الليل، ونحن جالسات معتكفات، نثرثر تارة، نقرأ تارة، نلقي درسًا تارة، ننام تارة.

أخذتني الخالة ليلى في ليلة لنصلي خلف أحد تلاميذ شيخ اشتُهر بطول صلاة التراويح، يقرأ ثلاثة أجزاء، ثم يذهب إلى مسجد شيخه فيكمل الصلاة إلى الفجر. كان يقرأ حدرًا فصلى بالثلاثة أجزاء في نفس الوقت الذي يصلي فيه الشيخ الأسيف تقريبًا!

خرجت من الصلاة محبطة جدًّا، واتفقت والخالة ليلى أننا لم نحب المكان ولا الصلاة، وأن مسجدنا أولى بنا.

كانت نجلاء تعتكف معنا، وكان لها كراس تكتب فيه خواطر حول الآية .. ناقشتني في معنى كتبته فسألت بعض الخالات، فاستاءت من جرأتنا على كتاب الله! همست لي نجلاء: لكني قرأت التفسير، وعندي علم، وأنا لا أفسر... فقط أكتب خاطرة حول الآية، لماذا يمنعون هذه ويقبلون تلك؟ لماذا يفسرون هم ويعترضون على غيرهم؟ هل المعيار السن؟

لازلت أتساءل ما المعيار؟

ꕥ

أقبلت فتاة من المعتكفات ليلة في درس وقد غيرت ملابسها من الأسود للأخضر، فتعرّضَتْ لنقد حاد مني ومن غيري. فشرحتْ لنا أنها ذاهبة بعد الدرس إلى خالتها، وأن خالتها لا تحب اللون الأسود، وأنها تفعل ذلك برًّا بها ومودة. كانت وجهة نظرها قوية، لكني تربيت على أن التغيير اليسير في الطاعة لابد جزمًا أن يتبعه الكثير من التنازلات، فقلت لها: "لا تتبعوا خطوات الشيطان".

ꕥ

لم يكن في البيئة السلفية التي تربيت في أحضانها من فيه تطاول أو بذاءة أو سوء أدب، نعم بعضنا فينا حدة وغضب أو شيء من قلة الذوق أو الجلافة

والجفاء، لكن في الغالب هناك سمت من حسن الخلق واللين يغلب، حتى أنني كنت أشدهم حدة وأسرعهم غضبًا .. بل كنت أصنف في وسطهم كسلفية متشددة؛ فربما نفر مني بعضهن وهن سلفيات ..

ولم أمض في المسجد رمضانات كثيرة، فقد اتخذت قرارًا باكرًا بالصلاة في البيت؛ لأنني سئمت هذا الجو الذي ليس فيه ما يكفيني من زاد الخلوة، لا قوة لي فيه على الخلوة وسط الناس، ففي النهاية الثرثرة كثيرة جدًّا!

وأنا كنت شابة، والانزلاق إلى الثرثرة -ولو كانت مفيدة وفي الدين- سهل جدًّا .. وقلبي لم يتدرب بعد كما ينبغي. فكنت أزور المسجد في أول رمضان مرة واحدة، ثم أنقطع معتزلة في بيتي وكان ذلك حتى قبل أن أتزوج.

في طريق العودة مع الخالة ليلى حين كانت معنا في السيارة ضيفة جديدة تسكن قريبًا مني .. "خديجة"!

تلك الفتاة التي قابلتها في الفرح سابقًا، والتي لا تخرج من البيت أبدًا، مثل صديقتي "سميرة"، إلا لتلبي دعوة إلى وليمة (فرح وعقيقة ..إلخ)، بل تزيد على سميرة بـ .. ستعرفون!

دار بينها وبين الخالة حوار، فسألتها الخالة عن الجامعة التي تدرس فيها، فقالت لها: إنها لن تدخل الجامعة بعد الثانوي، وأن هذا رأيها ورأي والدتها حتى تكون ممن قررن في بيوتهنّ عفة وصيانةودياناة، ولا تكون خراجة ولّاجة، فقالت لها الخالة: أفضل!

ثم تحدثتا عن كثرة خروج المرأة من البيت والحياء، وعدم الحاجة للخروج...!

وأنا جالسة ألتهم لساني وألوك قلبي وأفرك يديَّ في غيظ. هذا الذي قالته الخالة، لا هو خطابها العام، ولا خطابها الخاص، ولا حوارها معي ولا مع أمي عن دخولي كلية الهندسة. لم أناقشها ولم أتدخل في الحوار أصلًا، والذي أعتقده اليوم أنها لم ترد إحراج الفتاة خاصة وأن هذا رأي والدتها، أو أنها كان لديها خبرة بهذا الفكر فلم ترد إثارة جدل، بل أظن اليوم بعد مرور كل تلك السنوات أن هناك أسباب عديدة شخصية دفعتها لما فعلت...!

لكنني حديثة السن وقتها، فلم يثر هذا الكلام وتناقضه مع موقفها من رغبتي إلا غضبي .. رغم أنني لو تفكرت قليلًا لما رأيت وقتها التناقض بهذه الفجاجة، فقد كانت تريد من الفتاة طاعة أمها وتريد مني نفس الشيء، بغض النظر عن النتيجة النهائية من ترك جامعة أو دخولها!

التيار السلفي أو أكثره يقبل دخول أولاده وبناته الجامعات ويعتني بالتعليم[1]، لكن هذا التعامل المتسامح مع الأفكار الغريبة التي قد تنشأ في بعض السلفيين – كفكرة ترك التعليم- دون أي إشارة إلى مآل فسادها، وهو سمت عام فينا.

وبعض هذا التسامح في ظني ناتج عن وجود التيار المدخلي الحاد.

فغلو تيار المداخلة وشدتهم على مخالفيهم من السلفيين وغير السلفيين جعل لكثير من المنتمين إلى السلفية حالة نفسية دفاعية يريد بها أن يتنصل من هذا الغلو، فكان يعتنق التسامح، ويجتهد في صياغة النقد بطريقة أكثر هدوءًا إلا مع "أهل البدع"؛ ولا يمنع ذلك من كون بعضهم أشداء مع مخالفيهم ولو من السلفيين إذا خالفوهم في أصل مما يعقدون عليه الولاء والبراء.

لكن بصفة عامة، التيار العام يقبل بعضه بعضا ويتسامح إلى حد ما، ويقبل وجود متصدرين طالما ينتمون إلى التيار العام، فكل سلفي متصدر -ولو بلا أهلية- لا ينبغي قهره ونقده ومنعه.. و"اهو بيقول خير ومفيش داع نمنع الخير".

[1] بل ومن التيار من يعتني بالوصول إلى أعلى الدرجات العلمية، فالتيار حيوي متغير متنوع جدا.

لكن هناك آفة كبيرة في هذا الوضع: عدم المعيار؛ فأهل البدع من هم؟ وما هي البدع؟ وما هو الخلاف السائغ؟ ومن هم المؤهلون للتصدر؟ ومتي يقال "بلاش نمنع الخير"؟ ومتى نقول "هذا خير وشر، ومفاسده تعلو مصالحه"؟ هل هو من يخالف (نا) أو من يخالف مشايخ (نا)؟ هل نحن المعيار؟ .... إنها أسئلة معلقة في سماء الغرفة تنتظر الإجابة .. فهل من مجيب؟

تحدثت مع خديجة عدة مرات، فصدمني أنها لم تنل من التعليم حظًّا بعد الابتدائية، وأنها تقوم بعمل تورية لتوهم المستمع أنها أنهت الثانوي، ولن تدخل الجامعة فقط. وبررت ذلك أنها رغم قناعتها بما فعلته بها والدتها؛ فإنها تتعرض للنقد، ويقولون: "المسلمون الجهلة"، فتجنبت ذلك بما فعلت. نعم كان هناك فتاوى معروفة عمل بها إخوة وأخوات لمنع الفتيات من التعليم بعد الابتدائية، والاكتفاء بتعليمهن الكتابة والقراءة، ثم التعليم المنزلي. بل عمل بها مسلمون أجانب يعيشون في مصر وفي غير مصر، يريدون أن يحفظوا أولادهم من الفتن والاختلاط بغير الملتزمين، وعمل بها شرائح من جماعات التبليغ والدعوة حفاظًا على النساء كذلك، ثم ندم من ندم .. واستمر من استمر .. وفشلت التجربة!

ولكن لازال هناك من يصمم على إعادة إحيائها، ولازال هناك من يريد ممارستها، وإن كانوا قلة منتقدة، ولازال هناك من يحث النساء على ترك الجامعات منعًا للاختلاط وحتى لا يفتنّ الرجال.

فقط يطورون الفكرة!

المنظومة التعليمية فاشلة؟ نعم فاشلة، لكن هناك مفاسد لابد من مواجهتها، هناك نفوس تحتاج إلى التربية السوية وعدم الإغراب عن المجتمع بصورة حادة، وهذا نوع من وضع الأجيال تحت ضغوط لا قبل لهم بها. الحقيقة التي لا يدركها هؤلاء -وسبق أن تكلمت فيها كثيرًا- أنهم يسيئون لأولادهم، ويظلمونهم نفسيًّا، ويؤثرون فيهم سلبًا، ويجعلون شعورًا بالدونية ملازمًا لهم ..

لماذا تتخذون قرارات مصيرية غريبة تخص أولادكم؟ ألم تفقهوا معنى زيادة شعور الغربة على أولادكم في مظهرهم وتعليمهم، أمعنتم في تربيتهم في كهف مظلم جعل عظامهم طرية هشة لم تنل من الشمس منالها الكافي، وأمعنتم في الإغراب؛ تزعمون أن ذلك تميزًا!

أليس التصرف الصحيح لابد أن يكون هو الأحظ لهم، والأحظ ليس هو ذلك القمقم الذي تحبسون فيه أنفسكم.

ما الذي يمنع أن نجمع بين منهجية الثقافة والتعليم المنزلي مع الذهاب للمدرسة ومواجهة أنماط البشر مبكرًا، والصراحة مع الأولاد؛ فيقصون علينا ونوجههم ونعلمهم، ويخطئون فنصحح المسار، فيكررون الغلط فنعلمهم؟

إن المدرسة ليست وقتًا ضائعًا، بل هو وقت نمو وتعلم في غاية الأهمية، هذه الفتاة ستربي أجيالًا؛ فكيف تربيهم في مجتمع بهذه الصورة، وهي بهذا القدر من الانغلاق والجهل؟!

وقد أسهم ذلك مع فتاوى منع المرأة من العمل مطلقًا إلى وضع مُزرٍ! نذوق مرارته كثيرا...

فكم من موهبة دفنت بعد قتلها.. أو هي وُئدت حية!

كم من امرأة احتاجت ولم يكن لها عائل فلم تجد ما تعمله إلا بعض المهن الوضيعة المهينة التي لا تليق بما نشأت فيه؟ ثم أرادوا إصلاح ذلك بفتاوى استحباب وسنية التعدد، فخربوا بيوتًا من حيث أرادوا إصلاحها، وانتشر فساد عريض من حيث أرادوا الإصلاح!

ثم بعضهم يريد تطبيق ذلك الوضع على الذكور!

يا سادة ألن يدخل الفتى الجامعة؟

- بلى! لكن سيكون قويًّا مؤهلًا للمواجهة.

أي قدرة وقوة على المواجهة تتحدثون عنها؟ هذا شاب غرير ستتفتح عيناه على الفتن وهو لم يواجه الناس قط، ولم يتعرض وهو صغير لتجربة يعالجها بطرق متعددة فتتكون لديه خبرة، سيواجه وحوشًا في مجتمع صعب وزمن فتن، ثم أنتم تصرخون كيف لهذا الشاب الذي حفظ القرآن وتعلم العلم وزينت لحيته وجهه المستنير .. كيف وقع في الفتن؟

ألم يقل الفاروق: "يَدْرُسُ الإسلام إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية"؟!

لا شك أن هذا الفكر تراجع كثيرًا عن ذي قبل، لكن لازال هناك من يحاول استنساخه ولو بمنع الأطفال من التعلم المساوي لأقرانهم، المألوف في بيئتهم؛ فيمنعونهم من دراسة اللغات بحجة أن اللغات تنبت النفاق في القلب، ثم يحتجون بنظريات لغوية عن الهوية والحفاظ على الهوية، ولا يدرون بهذا الأفق الضيق أن هناك وسائل عديدة لصيانة الهوية وتقديم اللغة العربية على غيرها، وأن الإشكال ليس في دراسة لغة أخرى، فكم من

صبي لم يدرس إلا اللغة العربية، ثم هو يمقتها ويلوي لسانه باللغات الأجنبية يتظاهر أنه علَّامة زمانه لإجادته لغة غير لغته! وهو لم يدرس غير العربية صبيًّا!

الهزيمة النفسية تكمن في الشعور بالنقص، فبحرمانك أطفالك من التعليم الذي يجعله كأقرانه، أنت تغرس فيه مركب النقص غرسًا بيديك ينمو معه طوال حياته! فهل من مدكر؟

ناقشت خديجة في أمور شتى، وتجنبت الحوار معها عن قضية التعليم. لكن الأمر الذي لفت نظري جدًّا إصرارها على أن الأرض ثابتة لا تتحرك، وأن الشمس تدور حول الأرض بدلالة قوله تعالى: {أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا}، وأن القرآن تكلم عن حركة الشمس: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}، وأن هذا يخالف العلم الحديث.

هذا لم يكن خاصًّا بخديجة للأسف، هذا رأيته على المنتديات الإسلامية، وفتوى لبعض مشاهير السلفية، نعم أُسيء فهم بعض أجزاء الفتوى من الموافق والمعارض! لكن في النهاية الحديث عن العلاقة بين العلم والدين حديث سطحي مشكل. ورأيت داعيات سلفيات مشهورات تهتف في الدرس بحدة: الذي أدين الله به أن الأرض لا تتحرك، بل رأيته قريبًا من باحث غير سلفي ينتقد السلفية!

- يا أختي العلم مقلش كده.

- مقلش إيه؟

- مقلش أن الشمس ثابتة.

- ياااا سلام!

- اه والله مقلش كدة .. العلم بيقول الشمس بتتحرك، وأنه مفيش جرم فضائي ثابت أصلًا.

- .....!

- ثم أنتم تنكرون أن نتعامل مع القرآن ككتاب جغرافيا وتاريخ وعلوم، وهذا صواب، لكنكم باستنباطكم حقائق علمية مزعومة من القرآن تفعلون ما تفرون منه!

- بس الأرض قرارًا معناها أنها ثابتة!

- ثابتة مستقرة بالناس، مش ثابتة ككوكب، مين قال كدة بس؟! حتى التفاسير مقلتش كده.

- طب ماحنا مش حاسين بحركتها، وبعدين لو كانت بتتحرك كانت الطيارة بتطلع فوق تقف في مكانها فتستنى شوية لحد ما الأرض تدور، وتنزل مطرح ما هي عاوزة.

- يا حبيبتي الطيارة مش بتخرج في الفضاء، الطيارة بتخضع للجاذبية، يا حبيبة قلبي زمن انطلاق الطيارة للغرب غير للشرق، ودوران الأرض وحركتها محسوب ضمن حركة الطيارة والصواريخ والأقمار الصناعية، يا حبيبتي قرار الأرض أصلًا سببه دورانها وحركتها، يا حبيبتي مش حاسين بيها لثبات السرعة، يا حبيبتي دي بدهيات!

كانت هذه العبارات الساذجة سببًا في مكالمة طويلة مع جار لنا طيار لأتأكد مما قلت لها، فقد قلبت حالي! وحوارات كثيرة مع أمي -رحمها الله- .. وحوارات كثيرة مع سميرة ونجلاء ...

كثير منا يعلمون أن فتوى بعض مشاهير السلفية المتعلقة بهذا الأمر هي فتوى خاطئة، وتسببت في تعرض السلفية لنقد حاد، نعم بعض النقد كان غير منصف حقيقة، وبعض النقد كنت أراه بعينيّ السلفية أنه غير منصف؛ بيد أنه كان منصفًا والعيب في العين الناظرة!

لكن الملفت للنظر هو التعامل السلفي - سلفي عند الخلاف؛ فالشذوذات والأقوال الغريبة تلقى تعاملًا لطيفا جدًّا ولينًا وهينًا، يتميز بالستر والستر والستر، ثم عند الحديث عنها تجد التماس العذر والدفاع بحب، وضع خطوطًا تحت كلمة "ستر"؛ فحتى لو اختلف كبار السلفيين في أمر ما واحتدوا، فستجد قطاعًا عريضًا يحاول إطفاء الفتنة والستر ودفن الخلاف، و"الغلوشة" رائعة حينئذ، وهذا جيد لا بأس .. لا.. بل هو مؤسف؛ لأن الخطأ يستمر ويسوغ..

لكن التعامل مع أخطاء أقل من هذا من غيرنا هو تعامل عنيف، مليء بهتافات عاطفية وتهويل وتنفير عن "أهل البدع". كذلك لو قرر متصدرو السلفية إخراج المخالف من عباءة السلفية أو خرج هو منها؛ فإن منحنى الخلاف يأخذ مسارات الفضح والتحذير والتهويل والكذب والتدليس، وأخلاق غريبة جدًّا لا يقبلها عوام المسلمين.

وإن الذي حدث ويحدث معي حين قلت فقط: إن "النمص خلاف سائغ"، أزال عن عيني تلك الغشاوة، ورأيت ما كنت أغمض عينيّ

عنه، أو أعتبره سلوكًا فرديًّا لا يعبر عن المنظومة، وليس أثرًا ناتجًا عن المنهج!

وليس هذا خاصا بالتيار السلفي، أو التيارات الإسلامية، بل كل تيار تقوقع على نفسه فيه نفس الآفة، فالطرقية الصوفية ومن يغالي في التعصب لشيء ما أو ضد شيء ما .. عندهم نفس الآفة.

الحقيقة المؤسفة ... أن كلهم يجرحون بعضهم بعضا، فقط بعضهم أكثر غلوًّا من بعض.

ولو كان النقد لمقالة أو أفعال لهان الخطب، لكن الكل يرفع راية (أنا الحق كله وحدي ومخالفي هو الباطل كله وحده) ومن لم يقرّ لي بأهلية الكلام وأحقية الكلام استبحتُ عرضه بلا هوادة!

بأسنا بيننا شديد .. صدق النبي المصطفى فهذه من معجزاته صلوات ربي وسلامه عليه.

ما الذي سأقصّه عليكم بعد ذلك؟

نعم! قصتي مع تلك المساجد التي طُردتُ منها ..

طردوكِ؟!

نعم، ولهذا قصة ..

في المسجد

- تعرفي يا ماما؟ فيه بنتين عند الخالة ليلى واحدة منهم طريقة لبسها للنقاب جميلة أوي حبيتها، والثانية نقابها شكله وحش كده! لكن الحقيقة أن التي صارت صديقتي منهما لفترة من الزمان كانت هي صاحبة النقاب القبيح!

لا أدري لماذا كلما دخلت مسجدًا ظن الناس أنني ابنة الداعية المسئولة عن المسجد!

بل أدري .. أو .. أظن أنني أدري ..

اسمحوا لي أهمس لكم بالسر!

الحقيقة أنني كنت أتحرك في المسجد بثقة مستفزة كأنه "مسجد أبويا"، هذه المساجد هي بيتي الوحيد الذي لا أشعر فيه بالغربة، أحب المكان وأشعر مع أُسطواناته بالألفة والمودة، هذا مكاني الذي أشعر فيه بالأمان والراحة؛ فكان من المنطقي أن يظن من يراني أنني صاحبة كلمة ومكانة في المسجد!

تعرفت على تلك الداعية حين دخلت أحد مسجديها، كنتُ صغيرة في بدايات "الالتزام". يومها أجلستني في حلقة مع معلمة جميلة يشع وجهها نورًا كذلك النور الذي يشع من وجه الخالة ليلى، أحببتها لكنها لم تحبني، أو هكذا خُيل إليّ!

أنا جديدة في الحلقة، بل جديدة في الالتزام السلفيّ كله، والكل متآلف وأنا أشعر بالغربة، ليس في رصيد ذكرياتي أي نوع استقبال يخفف شعوري بالغربة. لم تهتمّ حتى بسماع قراءتي في البداية تخفيفًا لتوتري، بل ربما ظنت هي أن التأخير لي أفضل حتى تهدأ نفسي ..

والحقيقة أن هذا صحيح لو تبادلت المعلمة عبارات لطيفة، وتعرفت على الطالبة الجديدة، أو تحدثت بطريقة عامة عن نظام الحلقة حتى لو كانت الطالبة الجديدة فردًا واحدًا، بل كونها فردًا واحدًا في حلقة متآلفة أدعى للتودد لها، وزاد من توتري وشعوري بالانقباض أن أتت طالبتان جديدتان فكلمتهما كأنها التقتهما في دورة صيفية قديمة، ولم يكونا من طالباتها وقتها، فلمست ترحابًا لم ألمسه معي .. كذا شعرت!

عن ماذا تتحدثين يا فتاة؟!

كل هذا الروع لأنها لم ترحب بك؟ وماذا عمن استُقبلت في حلقة من حلقات القرآن بجفاء؟ وماذا عمن "لقحت" عليها المعلمة لأنها "متبرجة" من أول جلسة؟

هل كان ذلك يحدث في الحلقات؟

نعم للأسف يحدث في بعض الحلقات؛ لكن ليس في تلك المساجد التي كانت بيتي، أو على الأقل لم يحدث هذا أمام نظري.

لكنه يحدث ... للأسف يحدث!

ومراعاة النفوس، وإفشاء السلام بيننا، والتخلق بالمودة والرحمة، ونشر العلم الصحيح؛ كفيلة بعلاج الكثير من الآفات في نفوسنا جميعًا.

أقرأتني ثم تمعر وجهها في ضيق خفيف.

الخلاصة: لم أعد إلى تلك الحلقة أبدًا، ولا رأيت هذه المعلمة بعدها مطلقًا! لكنني .. لم أترك حِلق العلم والقرآن!

ꕥ

انتظمت نوعًا في ذلك المسجد والمسجد الآخر في حلقات القرآن ..

حسنًا، لا أستطيع أن أسميه انتظامًا لكن .. دعونا نسميه انتظامًا!

المعلمة التي أقرأتني في المسجد الأول وأحببتها وأحبتني حقًّا هي "أم شادي"، وتعلمت منها كثيرًا، وكانت حلقتها حقيقة حلقة إتقان للحفظ والقراءة معًا، والمعلمة التي أقرأتني في المسجد الثاني كانت صديقتي "سلوى".

لم ألبث إلا يسيرًا حتى رشحتني بعض الخالات للتدريس في مسجد قريب، وعرفت بعد ذلك أن لهم نوع انتماء لجماعة الإخوان المسلمين، سواء كان انتماء فكريًّا فقط أو انتماء للجماعة.

ثم لم ألبث إلا يسيرًا حتى رشحتني "سلوى" كطالبة يمكنها التدريس في الحلقات في المسجد الثاني، لا سيما وأنا أذهب معها إلى مسجد متخصص في التجويد والقراءة.

رشحتني سلوى لأجلس في حلقة يسمونها حلقة المعلمات، لكن لأن المسجد مستواه في ذلك الوقت ضعيف نسبيًّا، فبعد أن سمعت قراءتي مرة أجلستني كمعلمة في المسجد الثاني.

بأي قصص الطرد أبدًا؟

حسنًا دعونا ننهي قصة مسجد الإخوان .. أول مرة دخلت فيها هذا المسجد كان بدعوة من صديقة، كانت أختها هي من تشرح في المسجد، وسمعت منها

لأول مرة كلامًا عن الشورى والفرق بينها وبين الديمقراطية. الحقيقة أن أذنيّ اعتادتا نبرة معينة فلم أستمتع بالدرس، ثم دخلته كمعلمة قرآن، وكانت الحلقة لحفظ نصف وجه من سورة الزمر، وكان هناك معلمة جزائرية قالت إنها ستحضر كطالبة؛ لأنها درست رواية ورش وتريد أن تتعلم رواية حفص.

والحقيقة التي ظننتها في حينها واليوم أنها كانت تحضر للرقابة، فمظهري سلفيٌّ مريب جدًّا بنقابي الأسود المخيف المنفر[1].

"اربط الحمار مطرح ما يحب صاحبه"؛

كذا قلت في نفسي..

وهي قاعدة أستخدمها حين أحاول إقناع نفسي أنه ينبغي علي ألا أثير أعاصير في المكان.. "يعني هنتخانق على حاجات هايفة؟ أدينا بنعمل خير ودعوة".

لكن لم ألبث إلا يسيرًا حين ثارت الزعابيب!

"لوحدها والله يا باشا، أنا ربطت الحمار مطرح ما قالولي"!

كنت أريد أن أزيد على نصاب الحفظ سطرًا أو سطرين تكملةً لمعنى الآيات، فرفضت الجزائرية التي من المفترض أنها تجلس جلسة الطالبة، فخيرتُ البنات، فوافقن على مضض..

إلى هنا "عادي"!

[1] لازلت منتقبة وبنفس ذلك النقاب الأسود الذي أعشقه! والنقاب مختلف في وجوبه واستحبابه وهو مشروع في المجمل ومن الدين.

لكن فجأة أخذت الجزائرية مني المصحف في توتر، بل خطفته مني بعنف متوتر! وقالت لي أمام البنات:

- البنات دول هيروحوا مش هيجوا تاني!

- طيب عاوزة أيه؟

- النصاب نصف وجه فقط.

- حاضر،

"اهو يا باشا، لسة الحمار مربوط مطرح ما صاحبه قال"!

ذهبت في الموعد التالي، فوجدت المسجد مغلقًا، فرجعت إلى مسجدي بخفي حنين، وأكملت الحلقة مع أم شادي، وبعد عدة اتصالات لنصل إلى مسئولة المسجد قالوا لي: آسفين والله كان عندهم رحلة ونسينا نقول، فلم أذهب المرة التالية، فلم يتصلوا بي.

وانتهى الموضوع ببساطة.

وكنت أبتسم في نفسي: "عادي يعني، ما دول جماعة الإخوان المبتدعة وكده، وأنا سلفية". كذا كان يرى كثير من السلفيين جماعة الإخوان قبل ثورة يناير..

هل كان ذلك سوء تفاهم؟

ربما، ويمكنني التماس الكثير من الأعذار، وقد فعلت!

لكن الحقيقة ... الموقف ليس لطيفًا... !

الآن **أنا طالبة مع أم شادي في المسجد الأول**، ومعلمة في المسجد الثاني، وأذهب مع سلوى إلى مسجد آخر .. سيأتي خبره!

دعونا نتعرف قليلًا على المسجد الثاني...

كان المسجد يبدأ بحلقات قرآن صباحية في الثامنة تقريبًا، ثم درس لأستاذة سلمى، ثم درس للأستاذة ريهام...

كانتا مختلفتين تمامًا.

أ. سلمى منتقبة ذات هيئة سلفية... الحقيقة أنها وإن ظن البعض أنها سلفية؛ لكنها أيضًا كانت مختلفة، وكان بعض السلفيين يعتبرونها مميّعة!

أقول لكم بصراحة: كل سلفي ثوب منفرد نسجه من خيط من هنا وهناك، والتف حوله من ألِفوا ثوبه، وتشابهت أثوابهم معه!

كانت تشرح تفسير بعض السور، وتحب الشيخ الشعراوي جدًّا، يقولون إنها في الماضي كانت متشددة جدًّا، والبعض يظن أنها في ذلك الوقت أيضًا متشددة، وكنت لا أرى ذلك بطبيعة الحال.

وأما أ. ريهام فكانت ترتدي عباءة وإيشاربًا كبيرًا لونهما أسود، وكانت ترى أن النقاب مستحبٌّ، ولا تحب التشدد..

الحقيقة إلى الآن لا أفهم كيف اجتمعتا سويًّا!

أحيانا يحدث صراع بارد مضحك أثناء الدرس ..

فـالأولى تقـول: النقـاب فـرض، وتحـذر قائلـة: مـاذا لـو جـاء يـوم القيامـة واكتشفنا أنه فرض.. إلى آخر ما تعرفون.

والثانية تقول: هتفرضوا علينا ما لم يفرضه الله -عز وجل-!

مناوشات خفيفة على مثل هذه الأمور ... ولكن بصفة عامة الأمن مستتب!

الحقيقة كنت أحب وعظ أ. سلمى .. كنت أرى أنها ليست على علم، لكن وعظها جميل ومؤثر ومتوازن نوعًا، نعم فيه سمت السلفيين، لكن فيه سمت غير معهود عند عامة السلفيين أيضًا!

كان الدرس أغلبه عن طاعة الوالدين والزوج وحسن الخلق والحجاب .. وكل تلك الأمور التي تهم الناس في حياتهم اليومية. لم تكن متشددة في نظري .. فهي أول من نقل لنا فتوى جواز دخول الحائض المسجد، وحدث بسبب تلك الفتوى شد وجذب، تركت الخالة ليلى التدريس في المسجد على إثر ذلك؛ لأنها كانت تظن أن الجزء الخاص بالنساء ملحق بالمسجد (دار مناسبات)، فتفاجأت أنه من المسجد مع إعلان الفتوى .. حاولَت الصمود لكنّ الحلقة تتأثر .. النتيجة تركت المسجد في هدوء.

كانت أ.سلمى تحبني، وكنت ولا أزال أحبها جدًّا، هذه المشاعر تصل بنظرات الود، أو أنها كانت ودودة ..

يراها البعض في ذلك الوقت أن فيها حدة، ولم أوافقهم أبدًا، هذه امرأة لينة فيها قوة محببة في الحق، والأرواح جنود مجندة .. والأسود يعجبها أمثالها!

كنت مع بداية الدراسة في همٍّ للتوفيق بين موعد حلقتي الحبيبة ومواعيد الجامعة، فلم ألبث إلا يسيرًا حتى فوجئت باتصال من أ. ريهام تسألني في صوت شممت فيه رائحة الدم!

- قالت: سارة، أنت واخدة إجازة في القرآن؟

- لا والله لسة.

- أصل احنا كنا عاوزين المعلمات اللي يدرسوا في المسجد يكونوا مجازات (وأنا أدرى الناس بمستوى عامة المعلمات في المسجد .. فعن أي إجازات تتحدث؟)..

- طيب عامة أنا كنت هعتذر عشان الجامعة.

- خلاص، وتكوني أخذتِ إجازة بإذن الله.

كان حوارًا باردًا .. لم تكن تحبني، ولم أكن أحبها .. الأمور سهلة واضحة كما ترون!

ذهبت إلى المسجد كزيارة في يوم، فجلست مع أم شادي التي لها حلقة في كلا المسجدين.

- أنت جاية هنا ليه قومي امسكي حلقة.

- لأ

- هو إيه اللّي لأ، قومي من هنا.

- يا خالتو أنا ورايا جامعة، وجاية النهاردة كدة زيارة، ومش هينفع..

برقت عيناها في غضب، وبرقت عيناي في حرج، وتلاقت الأعين في حوار خاطف ..

هذه المرأة تعرف شيئًا!

نادت منظمة الحلقات:

- نبيلة خذي سارة اديها حلقة.

- كويس، عندنا عجز كثير.

- بلاااش (كذا هتفتُ وأنا أضحك في حرج).

في النهاية جلست في حلقة طبعًا!

لم يمر الكثير من الوقت حتى حضرت أ. ريهام، فنظرت لي نظرة معبرة جدًّا ثم نادتني:

- مين اداك الحلقة؟

- ابتسمت في حرج وقلت: أم شادي.

- طيب.

انصرفَت، ثم وجدتُ أختًا تناديني، فخرجْتُ من الحلقة، فسألتني:

- أين وصلتم؟

- كذا وكذا

(وظني أنها تسأل سؤالًا روتينيًّا لتدون الإجابة كالمعتاد)!

كتبتْ جوابي ثم .. دخلت الحلقة وجلست مكاني!

(ما شعورك في يوم بارد عاصف الريح حين يصب عليك أحدهم دلوًا من ماء مثلج؟؟!)

- أختي، ناوليني حقيبتي من فضلك .. قلتُها ولا أدري كيف همستُ بها بابتسامة ما ..

كنتُ بحاجة إلى كل ذرة قوة حتى لا تنسكب دموعي وكرامتي معًا! ضممت حقيبتي إلى صدري، ووقفت بعيدًا كطفل تائه في الزحام.

بعض البنات سارعن خلفي يسألنني عن سبب عدم استكمال الحلقة، فقلت وأنا أداري ألمي بابتسامة ميتة: ظروف..

كان عزائي يومها أنهن كدن يبكين ولا أدري لم؟!

أنا لم أقابلكن إلا نصف ساعة، أعزاء هذا أم أنكن تشعلن لهيب قلبي؟!

- بس احنا حبيناك، وأنت معلمة مريحة!

- معلمتكم الجديدة أفضل -إن شاء الله-.

لماذا حدث هذا؟

لم يبق الجواب معلقًا كثيرًا .. فقد جاءني اتصال من أ. ريهام!

هتفت بصوتها الرخيم: "قال رسول الله -ﷺ-: "إِنَّ لِلَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- مَلَائِكَةً سَيَّارَةً فُضُلًا، يَتَتَبَّعُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ...

الحديث، حتى بلغت قوله: "رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ" يارب دول مش منهم، يارب دول فيهم فلان عصفور بينقل الكلام - منهم لله، ربنا ينتقم منهم-، يارب دول فيهم وفيهم، "فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ، هُمْ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ".

جذبت الصغيرة ذيل القطة في فضول.. يا لها من حمقاء!

ألم تدركي بعد يا صغيرتي أن ذاك ليس ذيل قط .. و أنك .. هنا الآن في عرين الأسد؟!

اتصلت بي أ. ريهام لتشرح لي سبب ما حدث في المسجد، كانت المكالمة رهيبة، ليت وسائل التسجيل الحديثة كانت متوفرة آنذاك؛ إذن لسجلتها كمثال على تلك الحرب الباردة التي كانت تدور بين أمريكا والاتحاد السوفيتي!

قالت كلامًا كثيرًا لا أكاد أتذكر منه إلا عبارة واحدة: متروحي للسلفيين ومساجد السلفيين اللي أنت تبعهم!

تلك العبارة التي كانت كطعنة خنجر في وجداني .. أي سلفيين أنا تبعهم؟

أنا وحيدة! حقًّا وحيدة .. وحيدة جدًّا!

أثارت تلك العبارة غضبي وحزني؛ فجعل ذهني يبحث في وجوه وأصوات من أعرف لأبحث عن "السلفيين اللي أنا تبعهم"، وكدت أبكي وأطالبها أن تخبرني: "أنا تبع مين؟".

قلتُ كلامًا كثيرًا كان منه: "كم زعمتِ يا أستاذة أن الخلاف لا يفسد للود قضية؟!"

أبغض التناقض بين القول والفعل، اليوم عرفت أن الخلاف يفسد للود قضايا، بل يذهب بالود كله.

- ليه مأخذتيش الفتاوى مننا؟ ليه مش بتسألينا؟

- والله حضرتك وأ. سلمى بتقولوا عن نفسكم مش أهل فتوى، وأنكم ناقلين للفتوى؛ فليه أنا أخد منكم الفتوى؟

أنا حرة!

نعم أنا حرة، ليس لأحد أن يجبرني أن آخذ الفتوى من شخص بعينه!

مرت أمي -رحمها الله- من أمام باب الغرفة عدة مرات تلقي نظرة علي متعجبة ثم تنصرف .. لم تسمع صوتي مرتفعًا -وهذا لعمري أعجوبة-، لكن يبدو أنه كان هناك الكثير من الكهرباء الاستاتيكية تخرج من الغرفة!

أنهيت الاتصال واتصلت فورًا بأستاذة سلمى، قصصت عليها ما حدث، وأخبرتها بوضوح أنني أحترمها جدًّا، وأنني أحبها وأحب سماع دروسها، وقد أسألها أحيانًا عن بعض أمور؛ لكني لا أحب أن يفرض علي أحدهم أن آخذ الفتوى منها أو من غيرها، قلت لها إنني لم أتكلم يومًا في الحلقة عن أي شيء سوى القرآن والتجويد، بل إنني إن سئلت كنتُ أحيل عليها ليسألوها احترامًا للمكان، وأنا حقيقة لم أنتظم في المكان لأثير الشغب!

ردت بصوتها الهادئ: أنها أصلًا لم تدَّع أنها أهل فتوى، وأنها لا تحب أن تلزم أحد بفتاواها ولا بفتوى غيرها... تكلمت كثيرًا عن محبتها لي، وأنها تدعو لي دائمًا، وتتذكر مجلسي في حلقتي أمام مجلسها قبل أن تبدأ الدرس. تكلَّمَت أن أ. ريهام تحب النقاب، وأنها حتى لو كانت تقول إنه مستحب، فإنها تحبه وترتديه أحيانًا.

تكلَّمَت بلطف وود، ثم ذكرتْ لب المشكلة... فقد بلغها أنني قلتُ عن البنات اللاتي يغنين في الأفراح أو الحفلات أمام النساء أنهنّ بغايا!

- ذهول!

سكتُّ لحظات أحاول أن أتذكر هذه الكلمة: هل قلتها أو تبنيتها؟ فلم تسعفني ذاكرتي، قلت لها: أنا لم أقل ذلك!

احتوت الموقف، وعرضتْ عليّ الذهاب للتدريس في مسجدها الأول، فاعتذرتُ!

ثم قالت لي: اتصلي بأستاذة ريهام واعتذري لها؛ ففي النهاية احنا مسلمين، ومتخليش لحد مظلمة عندك.

فعلتُ ما طلبتْ مني عن غير قناعة، فما فعلَتْه أ. ريهام هو الذي يستوجب منها اعتذارًا، لكن للسن أحكام!

اعتذرتُ فأعادتْ كلامًا كثيرًا مرة أخرى، وحاولتْ أن تقنعني أنها تحبني ولم تقصد أن تؤذيني، لم أسمع منها حرفًا ولم أتحدث مطلقًا، بل أنهيتُ المكالمة في برودة الثلج الذي يحرق ما يلمسه! ثم جلست أفكر فينحسر الضباب يسيرًا يسيرًا ..

ماذا حدث؟ أنا لم أتكلم في الحلقة أبدًا عن هذه الأمور، الوقت بالكاد يكفي لأشرح التجويد والتسميع والتصحيح! وهذه الكلمة أصلًا أنا لا أجد في قلبي قبولها، ولا يمكن ذلك! ثم تذكرت ما حدث..

كنت قد بدأتُ التواصل مع بعض المشايخ، وسألت أحدهم عن حكم الغناء في الأفراح بأغانٍ على ألحان قديمة من ألحان الأغاني العادية المعروفة، لا أدري هل فقه سؤالي أم لا، لكنه أجاب بكلام كثير، أخذت منه ما يعنيني وحذفت الباقي، واستخدمت بعضه في التهويل كالعادة. وكنت جالسة مع ابنة أ. سلمى وصديقتها، فذكرت فتوى ذلك الشيخ، وقلت ما معناه: تخيلوا ده قال كمان إن اللي بيعملوا كدة بغايا .. لم أقل ذلك على سبيل الإقرار، ولا وقع يومًا في قلبي، كيف وأنا وقتها أنشد أحيانًا في الأفراح وهم يعلمون ذلك!

وتلك من الآفات التي نقع فيها، نستخدم بعض العبارات للتهويل؛ لإقناع المخالف أو تخويفه وقد لا نقصدها، أو نقصد معنى محددًا في أذهاننا، واللفظ يحتمل معانٍ أسوأ، أو حتى لا نفهمها ولا نفهم مضمونها ولا لازمها، ثم نتعجب إذا أساء الآخرون فهم كلامنا أو غضبوا منا!

إنهم إذن يخافون من تلك التفاحة المعطوبة بالتشدد أن تفسد تلك السلة الناضجة!

لقد أوذيت لأني سلفية حرة أتبع الدليل، ولا آخذ بأقوال الرجال ولا النساء إلا عن قناعة واستدلال وفهم وترجيح .. وكان هذا هو المعيار الذي ارتضيته لنفسي، ولم أعدل عنه مهما آذاني السلفيون المتعصبون لشيخ محدد أو غير السلفيين ممن يراني متشددة. كذا كنت أفكر!

ولعل في الحدث سوء تفاهم كبير وكثير .. وقيل وقال، لغط!

هل كانوا على حق في تصرفهم؟ هل؟!

كان من لطف الله ورفقه بي وعوايده الحسنة التي لا أفتأ أتنعم في معينها؛ أنه كلما انغلق باب أو بخل عليّ بعض عباده بما لا يملك، أن يفتح لي أبواب رحمته -سبحانه وتعالى، وعز وجل-، ويريني آية تهدهدني وتطيب جروح نفسي، ويخنس الوسواس!

فتح الله لي بُعَيدها أن جلست في حلقة أ. هداية الحبيبة الجميلة، تلك العجوز الفاضلة؛ فأقرأتني رواية ورش بطريقة جعلتني أتقنها في عدة محاضرات بسيطة، حتى إنني حين بدأت ختمة قالون[1] مع معلمة نظرت لي وقالت: كأني بك يحيد لسانك إلى رواية ورش؟ فقلت: نعم، فطلبت مني أن أقرأ بغير تحضير، ففعلتُ ما عدا فرش الكلمات!

وكان موعد حلقتها في السابعة صباحًا قبل موعد الجامعة، في نفس المسجد الذي طردت منه، قبل حضور الحلقات!

أما الفتح الآخر.. فـــا!

[1] بدأت ختمة قالون وبدأت ختمة شعبة وبدأت ختمة ورش، ولم أتم إلى لحظة كتابة هذا الكلام ختمة كاملة إلا برواية حفص عن عاصم.

كنت أذهب مع سلوى إلى مسجد متخصص في التجويد، حين أقبلت معلمة المسجد المسئولة عنه من سفرها .. تلك المرأة ... الحبيبة المهيبة؛ **"أم عبد العزيز"**.

سلمتُ عليها مع من سلم، وجلست مع من جلس حولها، أقرأتنا كلنا وتركتنا نصحح لبعضنا بعضًا كعادتها، وهي تعلق وتصحح وتعترض، وتسأل وتعبس وتضحك! ورأيت في عينيها تألقًا، قبِلتْ بعدها أن أكون ضمن حلقتها -حلقة المعلمات-، ثم ذهبت إليها في مسجدها الآخر فأدخلتني في حلقة المعلمات مباشرة، ومن منتصف الدورة! ثم لم ألبث إلا يسيرًا حتى كنت من أولئك القليلات اللاتي يختمن معها، وتوليت حلقة من حلقات المسجد، وهي الحلقة التي يتخرج منها الطالبات متأهلات لحلقة المعلمات، بل حين سافَرتْ .. جلستُ للتدريس مكانها في الحلقة!

نحن نتحدث عن مسجد ومعلمة من أقطاب الإقراء في القاهرة!

يا الله!

أفي الله شك فاطر السماوات والأرض؟ سبحانك إنا كنا ظالمين! ما عبدك مخلوق حق عبادتك، ولا شكر عبد نعمك كما أنت أهل، ولا حمدك كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولو وُضعت حسنات الخلائق في كفة ونعم الله في كفة لرجحت كفة النعم!

لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

أما العلوم الشرعية فكنت قد بلغت حدًّا من القناعة أنه لا يوجد على الساحة النسائية -على الأقل في محيط نظري- من يمكنها أن تملأ عيني، حتى المعايير التي يزعمونها، والقواعد التي يستعلنون بها، والمبادئ التي يتشدقون بها؛ حين يأتي الجد، وتلتحم السيوف والأسِنَّة، تقطر بيض الهند من دمي أنا وحدي!

كنت تشبعت بذلك المعيار: "العبرة بالدليل"، ولا أكاد أجد أحدًا يطرد عليه بحقه، فأنا أتكلم بالدليل فيرفضون كلامي إن لم يوافقهم، وأرجح بالدليل فيزدرون ترجيحي لأنه لم يوافقهم! وهم يرجحون ويتكلمون بلا دليل ويعجزون عن الرد علي ومجاراتي في جدل أو نقاش، لكن الكلمة الأخيرة لهم، المساجد لهم والحق معهم، ومن ليس معنا فليذهب عند "السلفيين" الآخرين الذين ينتمي إليهم..

فكان من جملة ما قررت وذكرته لكم سابقًا أن أبدأ بما لم يختلفوا فيه، ووقتها كنت أظن قراءة القرآن من ذلك، والأمر بالفعل يسير، والقراءة علم محدود مهما اتسع.

وأما العقيدة فلها قصة!

ꕥ

انتظمتُ في هذا المسجد والمسجد الآخر، فكانت أجمل أيام حياتي بلا مبالغة. هل تفهم معنى أن تدخل مكانًا فتشعر أنك انسلختَ من زمانك وسقطت في زمن سحيق جميل ... سكينة! قطعة من الجنة .. لم يعكرها إلا بعضهنّ...

ولكن الماء إن بلغ قلتين لم يحمل الخبث!

ففي أحد المسجدين تتبعني بعضهنّ لتقنعني أنه لا عذر بالجهل في مسائل الاعتقاد، وفي المسجد الآخر عرفت صنفًا من أصناف المداخلة .. صنفًا غاليًا!

أما الأولى؛ فحاصرتني حصارًا، وألحت إلحاحًا، فصددتها بلطف متعجبة من إصرارها على اعتناق شيء معين، ومهما كررت لها أنني لازلت أدرس، لازلت أتأنّى، ما الحاجة إلى سرعة البتّ في المسألة واعتناق قول؟؟ رفعت راية وجوب الولاء والبراء وأهميته، ومَن لم يُكَفِّر الكافرَ... إلخ.

تضجرت جدًّا من الإلحاح، رغم أنني كنت أمارسه في الدعوة و"بزهَّق الناس في عيشتهم"، ويبدو أنني لم أتعلم بعدُ طريقة ناجعة للكف عن هذه العادة السخيفة!

والإلحاح نوع من العنف، ويحسبون أن الرفق بسمة وطأطأة رأس وحديث خفيض وحسب مهما كثر الإلحاح! فمن فعل جاز له أن يستخدم كلمات قوية رنانة ويهول ويعنف، فقط أخفض صوتك وابتسم، ثم قل ما شئت، فأنت رفيق أيها الصديق!

لم تظفر مني إلا بوعد أن أقرأ بعض الكتب .. فاشتريتها وقرأت! وبدأت أفهم أن هناك فئة عريضة من السلفية ... وحش مخيف حقيقة!

أما الثانية ... فلهم قصة!

أم عبد العزيز

ذلك المسجد ... ذلك المسجد!

أهي هي نفس السكينة؟! لا أدري!

ربما تفوق كل ما شعرت به من قبل في أي مسجد...

مجلسها .. أم عبد العزيز.. حلقة المعلمات ..

كنتُ إذا دخلتُ المسجد .... أنتقل من زماننا إلى زمان آخر، هذا الشعور لم ينتبني إلا في مجلسها، وفي أثناء سماعي لشرح الشيخ الشنقيطي على عمدة الأحكام[1]! ولكن في مجلسها أظهر؛ لحضوري فيه.

لا ملل ولا سأم ... روضة من رياض الجنة حقيقة! من الساعة الثامنة صباحًا إلى الظهر رسميًّا، ثم نكمل معها إلى الثالثة عصرًا أحيانًا!

- أنا راضية ذمتك؛ دي غنة إخفاء عند الضاد؟

- لا!

- طب صححيها.

قرأتُ على غيرها فدعوا لمعلمتي، قرأتُ على من يعرفها ولا يعرفني فسألتني من علّمك؟ قلت: أم عبد العزيز، فقالت: توقعتُ؛ فطالباتها مميزات!

قالت لي مرة: أنا أدعو لكل من علمني ولكل من علمتهم.

[1] سمعت من هذا الشرح 7 أشرطة فقط.

والحقيقة أن كل من قرأ عليها مميز في سمته وقراءته بلا شك، وبصمتها مهيمنة عليه وإن أبى!

هيبة ورفق وحلم...

كنت كلما رأيتها أقول: وحشتيني! فقط لأظفر بدعائها لي: لا أوحش الله لك قلبًا ولا قبرًا.

مجلسي منها تحت قدميها كان أحب إلي من وثير الفرش وفخمه وفاخره، وكانت تتأذى من مجلسي ذاك، وكنت أُصرُّ حتى تسكت وتتجاهلني، ثم إنها أصرَّت في آخر الختمة على عدم جلوسي تحت قدميها، فحرمتني جنتي وبهجتي!

قرأنا في كل مكان ببيتها؛ في غرفتها، والمطبخ، والصالون، تمسك المصحف حينًا وتتركه حينًا، ولا تحتاج إلى النظر فيه.

لا تسأم من الإقراء! وتالله ما شعرت بقدر ما تفعل إلا حين أصابني السأم من الإقراء بعد ربعين فقط من قراءة الطالبة!

هي حقًّا كما وصفَتها لي أمي الثانية -رحمها الله-: **القرآن مسلسل في قلبها بسلاسل من ذهب!**

كنت حين أجلس أمامها أعي كل ما تقول ويشربه قلبي فلا أنساه أبدًا، حتى إنني لا أتذكر أنني دخلت يومًا حلقة قرآن بعدها طالبة أو معلمة إلى يومي هذا بتحضير مسبّق للتجويد إلا نظرة سريعة أحيانًا!

أحببت سورة فاطر حين سمعتها تقول عندما بدأناها: فيها آية مبشرة لأهل القرآن، وحار الناس أي آية تعني، فقالت: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ .

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ}. اللهم اجعل تجارتها رابحة وتقبل منها.

علمتني كيف أكون معلمة وكيف أكون طالبة ..

لازلت أذكر صوتها الهادئ على الهاتف حين تكلمنا بشأن حلقتها التي خلَّفتني فيها فقالت: "كلهم أكبر منك سنًّا فراعي ذلك".

وصوتَها وهي تسألني عن حضوري في يوم فأقول: ربنا يسهل، فترد في حزم ضاحك ممزوج بدلال غريب في تركيبته: "ربنا يسهل كل شيء، أنا لا أسألك عن فعل الله، أسألك عن فعلك".

أتذكر حين كانت مريضة تتوجع في الحلقة ولم تظهر ذلك إلا قُرب آخرها حين خف الناس فتمددت في المسجد معتذرة أنها تتألم، ومصرة أن نكمل قراءة، وتقول: "كنا لا نفوت الحلقة، ولو مرضنا نأتي ونرقد"!

علمتني أن طالبة العلم لا تفقه إذا قدَّمت هواها في الطلب على حق زوجها وحسن عشرته؛ وأن المرأة لبيتها وزوجها أولًا، وكلمتني في ذلك كثيرًا، ولم أكن قد تزوجت بعد وقتها.

ذهبتُ مرة في موعدي، فكان زوجها -رحمه الله- قد حضر فجأة، وهي لا تُقرئ في حضوره، وقد اتّصَلت بأمي -رحمها الله- تعتذر، ولم يصلني الاعتذار لأني كنت وصلت البيت فعلًا، فقابلتني ثم قالت لي: "لحظة أستأذن عمك في ربعين" فأذن وأقرأتني.

وقرأتُ عليها يومًا وهي مريضة طريحة الفراش فلم تتحمل إلا ربعين فقط وكانا آخر سورة الأنفال، ثم في اليوم التالي في المسجد بعد الحلقة أقرأتني ربعين وكانا أول التوبة، ثم نظرت للحاضرات ومدحت قراءتي بكونها سلسة،

وأنها تحب السلاسة وتبغض التكلف... كانت أول مرة تقول ذلك .. فلم يكن شيء أحب إلي من السلاسة، ولم أبغض شيئًا كبغضي للتكلف!

وحضرت مرة طالبات من مجلس آخر، فطلبت مني أن أقرأ، فقرأتُ وأسأتُ الأداء على غير عادتي، فلم تنبس بكلمة، وعرفتُ في وجهها الكراهة، فاعتذرتُ وسكَتتْ، فكان سكوتها وتلك الكراهة في وجهها أشق عليّ من لو تكلمت فوبختني، بل تمنيت أن لو أساءت لي الكلام -وهي العفيفة اللسان-، ولا أرى تلك الكراهة على وجهها!

علمتنا كيف نخطئ وكيف نتقبل النقد على الخطأ .. علمتنا أن القرآن يعلو ولا يُعلى عليه، وأن نقبل تصحيح أدنانا على أكبرنا مادام حقًّا.

لامتني مرة على كثرة الخطأ في السرد، فقالت: "أنا عاوزة حفظك القديم" فقط.. لم تزد عليها..

ولامتني مرة على ضعف همتي فقالت: "عارفة فلانة، قرأت في مجلس واحد البقرة وآل عمران، ثم شربت شايًا، وكمّلت النساء، وكان ممكن تكمل المائدة لولا الوقت"!

تعرف متى تمدح وكيف تمدح؛ فتشعل في قلبي حماسة قوية، وتثير همتي، وتستخرج كنوزي، وتبرز مواطن قوتي. وتعرف كيف تلوم وتعتب؛ فلا تكسر، وإنما همها زوال العيب وتقويم الخطأ. قلما تلوم علينا.

وكانت لها نظرة ثاقبة، إن أحست صولة نفسي؛ كسرتها بحلم، وإن أحست انكسارها؛ داوتها.

وحين تبدأ فقرة تصحيح الطالبات لبعضهن لم تر عيناي معلمة مثلها، تمدح الحرف الجيد وتدافع عن صحة القراءة إن كانت صحيحة، ومن

صححت مخطئة في السماع أو في الأداء، بل لم تر عيناي قط مجلسًا كمجلسها في إدارة الحلقة دقةً وتركيزًا!

وكانت تقول: "أنت وضعت لسانك كذا، والصواب كذا"، فيكون مثلما قالت.

وكان من دواعي فخري أن بعض المعلمات الكبار في المسجد، وكثير من الطالبات اللاتي جلسن في حلقتي كانوا يشبهونني بها ويقولون: "بنت أم عبد العزيز"، وإن كنت في حقيقة الأمر لم أبلغ أن أرتفع لأبلغ أخمص قدميها.

أتذكر وطالبة تقول لها: "أستاذة، إن فلانة قرأت كذا فصححتُ لها، وقلت لها: إن أم عبد العزيز قالت كذا، فقالت: غريبة أنا قرأتها على أ. فلانة وقبلت قراءتي". ذكّرت اسم المعلمتين، وقصت إصرارها على تغيير رأيهم... فتكلمت أم عبد العزيز بكلام جيد عن الأدب والخلاف وحسن الخلق، ثم قالت: "لا أريد أن تكونوا ممن أقام حروف القرآن وضيع حدوده كالخوارج" ..

تربية حقيقية!

أتذكر حين أرادت لوم بعض الأخوات على التسبب في تقذير المسجد، فلم تتكلم كلامًا صريحًا، بل فقط حين شرحت درس التجويد وتكلمت عن الإدغام قالت: "الإدغام الناقص تبقى فيه صفة الحرف المُدغم، يعني النون أدغمناها في الواو وتبقت الغنة .. بقيت صفة النون .. زي الأخوات في المسجد معاهم أولاد صغيرين، لو مشيوا من المسجد لكن تركوا أثرهم في المسجد فهم كدة مش زي النون المدغمة إدغاما كاملًا ذهبت صفتُها وذاتُها، لا، هم ذهبوا بذاتهم، لكن تركوا صفاتهم (أثر أولادهم) في المسجد، وإمام المسجد اشتكى منهم".

لم أسمع قراءتها إلا مرة واحدة، قالت لي: "توضئي لصلاة المغرب وحصليني، وكنت في بيتها، ففعلت وسمعت قراءتها في الصلاة على كراهة منها، فلم تسمع أذناي دقة حروف كدقة حرفها، تقرأ بغير لحن بصوت منكسرٍ هادئ.

ورغم أن لكل أستاذة عندي معزّة خاصة جدًّا، ومكانة مميزة، ومنة عظيمة جدًّا؛ لكني رزقت حبها لا كغيرها، ولازال مجلسي تحت قدميها لأقرأ أحب إلي من الدنيا وما فيها. هذا ولم أقص من سيرتها العطرة شيئًا يذكر!

ومع ذلك ..

بعضهم اعتبروها مبتدعة!

ꕥ

في أحضان هذا البيت من بيوت الله تربينا .. تعلمنا شيم وأخلاق أهل القرآن بحق .. وكانت صحبتها صالحة، ومعلمات مسجدها لا يكاد بعضهم يخالف في هذه المبادئ الحسنة والخلق القويم.. من المساجد القليلة التي شعرت فيها أن العبرة بالكفاءة فحسب .. لا حسب ولا نسب ولا صداقة ولا قرب ولا بعد ولا .. ولاء ولا براء! لا يجمعنا شيء سوى القرآن .. فمن أجاد تقدم .. ومن لم يتقن تعلم! لا تصنيف ولا تفرقة لا بمظهر ولا باعتقاد .. لا اختبارات خفية ولا جلية .. فقط اقرأ .. وارتق!

أتذكر كيف اغتابوها وتكلموا عنها واتهموها أنها ضالة مبتدعة، وهي لا ترد ولا تتكلم، تمضي فعلًا لا قولًا بلا التفات.

وحين طلبتُ منها -بواسطة- أن تسمح لي بالرد، قالت: مش عاوزة حد يرد عني .. {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا} ..

كم أتمنى لو أن لي قوة كقوتها التي جعلتها لا تلتفت لكل هذا الهراء!

لازلت أتذكر مجلسها مع (أ. لمياء) تحاول أن تشرح لها أن ما تشترطه لحلقتها خطأ، أتذكر لينها ولين خطابها ومحايلتها، وصمود الأخرى وإصرارها، ثم بعد ساعة أو ساعتين قررت الثانية ترك المسجد!

فما قصة ذلك؟

ومن هي أ. لمياء، وتلك المرأة الأخرى: أ. زينب!

ماذا حدث؟!

امشان ونقد

- اللي ميربيهوش أمه و أبوه تربيه الأيام والليالي!

- ربنا خلق لنا ودنين وبق واحد .. لييييييييييييه؟! عشان نسمع أكثر ما نتكلم!

ꕥ

قالت في انفعال: أنتو بيكون عندكو رغبة تقولوا اللي في نفسكو، وتخبطوا النصيحة والنقد وترموها في وش اللي قدامكو، وتهاجموا وخلاص، ومش بتدوا فرصة لحد يتكلم ويعبر عن نفسه ولا بتسمعوه، وبيكون محتاج يتكلم ... اسمعوا الأول وحسوا بالناس.

- لم أرد!

لأنني كنت أشعر بمزيج غريب من الغضب والحرج!

نظرتُ إليها بطرف عيني فوجدت وجهًا جامدًا، ونظرة عجيبة جامعة بين الشفقة و"تستاهلي عشان تتعلمي الأدب"، مع مزيج أعْجَبَ من الضيق والحب وأشياء أخرى!

أمي الحبيبة -رحمها الله- .. لو تركَتْ يومها الإنصاف لأسمعتْ الفتاة ما يؤذيها لأجلي! لكنها قالت لي مرارًا: متنصحيش حد مش عاوز يسمع منك! لكنني لم أسمع الكلام!

ꕥ

صاحت[1] في انتصار: أهو كل اللي قابلتهم من السلفيين ناس زي الورد والفل، حتى المواقف اللي حصلت مواقف عادية، ومفيش ملايكة في الدنيا .. نازلة نقد واعتراض وشتيمة فينا ليه؟! وفين الوجع النفسي اللي تسببنالك فيه، وفين المرض النفسي والإلحاد اللي بتتهمينا إننا كنا سبب فيه؟

ابتسمتُ متخيلة الحوار.

كعادتِ(نا)، لا صبر ولا روية .. والتهويل سيد الموقف!

- أنا لم أشتم في السلفيين لو واخدة بالك!

فقط أنت كالمعتاد تتكلمين في وادٍ وأفعالك وأقوالك تدل على الوادي الحقيقي الذي تحيين فيه!

مفيش ملايكة، هذا قلته مرارًا، فلم لا تقبلين النقد برحابة صدر؟ ..

لم اعتبرتِ النقد شتيمة وليس نصحًا؟

ألستِ كسلفية تنتقدين الناس والمخالفين؟ وتنكرين "منكرات" المعاندين؟ لماذا لم تعتبري أن فقه الدليل، وأن قول معاصر من المعاصرين: "أخطأ الشافعي"، جحودًا ومخالفة للامتنان؟

ثم إنني أريدك أن تتأملي جيدًا في القصة حتى أتمها!

فإن فيها الكثير من الأمور المهمة ..

فافهمي لماذا أنتقد .. فإنما هو نصح.

---

[1] هذا استطراد خيالي كما كان شعراء العرب يخاطبون رفيقين في أشعارهم!
أقول هذا مضطرة آسفة لأن بعض الثقلاء قد يتساءلون -في سماجة- عن صديقتي التي أتحدث إليها، ثم بعدُ قد يتهمونني بالكذب!

وقد كنتُ سلفية منكم فحزت الكثير من المكاسب .. فلما انتقدتكم خسرت كل ما كنت حزته وزيادة!

أنا لم أفارق هذا الطريق لأني أوذيت ولم أتحمل "التشدد"، أو أنهم تسببوا لي في مرض نفسي، أو أنني كنت على حافة الإلحاد بسبب التشدد!

بل قلت مرارًا وتكرارًا: أنا التي لعبت دور **الوحش**.. في هذه القصة **أنا "الشرير"** ..

بل فارقت هذا الطريق لأن ...!

لأني لم أعد أريد أن أكون على ذلك الطريق المظلم.. طريق الدراسة السريعة ثم الترجيح، وأنا أعلم الآن أنني وإياكم لسنا أهلًا للترجيح!

طريق الإفتاء على ما ترجح "**عندنا**"، ونحن لسنا أهلًا لأن يكون لنا "**عند**".

طريق الإنكار على الناس في خلاف سائغ، يسعهم تقليد أي الأقوال فيه.. ولا يلزمهم تقليد ما قلدنا.

طريق الجرأة وتخطئة أقوال صحيحة النسبة لأئمة كبار.. طريق الترجيح بالورع والكلام بغير ضبط نسبته لسلف .. طريق النظر في النصوص والاستنباط منها بنظرنا الذي هو قاصر عن رتبة النظر!

نعم، تركت ذلك الطريق بظلمته وظلمه وتعاليه .. كرهت ما تسببنا فيه من نفور الناس من الدين، ومن تعجيزهم، ومن علونا عليهم وتسلطنا بحملهم على ما نراه .. ولم أفارق هذا الطريق إلى الانتكاس والانحلال!

بل سلكت طريق السلف حقا .. عرفت قدري وقدر أهل العلم ..

سـلكت طـريقهم، ومشـيت في رحـاب الأمـة وسـبلها المطروقـة منـذ قـرون .. متبعين غير مبتدعين لا ضالين ولا مضلين.

فإن سلكتَ سبيلهم .. فما أسرع اللحاق بهم!

هل الامتنان يتعارض مع النقد؟

هل ينبغي أن نسكت عن الخطأ حرجًا من صديق أو امتنانًا لعطاء؟ هذه خيانة لدين الله يا أخية؛ "الدين لا يحتمل المحاباة"، قاله ابن عقيل.

النقد الذي أمارسه اليوم لعله شكر لنعمة الهداية، النصح شكر لنعمة الهدايـة، شـكر لله -جـل وعـلا-. الـدفاع عـن الأئمـة والفقهـاء والمـذاهب، وتصحيح الصورة المشوهة امتنانٌ لهؤلاء الذين حملوا هذا الدين.

دعينا نكمل القصة أولًا، وستنجلي الحقائق وحدها فتحلي بالصبر ... الكثير منه من فضلك!

عين **دخلت المسجد** كان هناك اختبارات قبول لحلقة المعلمات بإدارة أ. لمياء، كانت ترتدي خمارًا رماديًّا .. دائمًا ما رأيتها بهذا الخمار الرمادي أو أمثاله من هذه الألوان المحتشمة.

المداخلة يوقرون الألباني كثيرًا .. ولأن الألباني يقول بإباحة كشف الوجه، واشتد واحتد على من يقول بوجوب ستره حتى ألف كتابًا عنوانه طووووويل يشنع فيه على من أوجب ستر الوجه واعتبره متعصبًا؛ فكان من المعتاد أن تجد كثيرًا من المداخلة يرتدون ملابس ملونة محتشمة، ويكتفون بالخمار بلا نقاب ..

هادئة الوجه .. عفيفة اللسان .. مبتسمة.

لا أذكر لماذا لم ألتحق بحلقتها .. كان الأمر متعلقًا باستخارة ما، ولم أحضر في ذلك اليوم، فاعتبرتْ هي أن من حضر في ذلك اليوم قُبل نتيجة الاستخارة ..

الحقيقة لم أكن مهتمة بالحضور معها، ولا أدري لماذا...

أو أدري!

فيما بعد .. ستكون هذه المرأة خالة زوج صديقة ما، وستطلب مني ترجمة أوراق لزوجها وهي لا تعرف أنني هيَ هيَ!

والناس تعرفهم عند الدرهم والدينار، فوفّتني حساب الترجمة كما طلبتُ بلا مساومة[1]!

ثم أرسلت لي مع ابنها المال، وكتيبات مبسطة عن "المنهج" وضرورة عدم اتباع كل ناعق مبتدع، والتحذير من الرعاع أتباع الجماعات الإسلامية .. حتى إنني انفجرت ضاحكة وأنا أنظر إلى الكتيبات الدعوية التي أرسلتها لفتاة لا تعرفها تدعوها إلى الجادة ..

لو عرفتني لأرسلت لي مجلدات عن "المنهج" لا كتيبات إذن!

وتعجبتُ .. هل هذا ما نبدأ به مع الناس في الدعوة؟ نحذرهم من كل ناعق مبتدع، ولا تكن همجيًّا رعاعيًّا ..

اللهم اغفر وارحم!

طبعًا يرون هذا أول واجب على العبيد بعد معرفة التوحيد ..

أقول لكم سرًّا.. وتحملوا هذا الاستطراد الممل!

نحن معاشر البشر نحب حسن الخلق، ونرسم للخلق الحسن صورة محددة في الأذهان. هناك من الأخلاق ما لا يختلف عليه اثنان .. فالصدق والعفة والزهد فيما في أيدي الناس، والعطاء والبذل والرحمة والشفقة النابعة من القلب، والإيثار والكرم والجود والجدعنة والشجاعة .. إلخ كلها أخلاق حميدة قولًا واحدًا.. لن تجد في العقلاء من يقول لك الكذب والخيانة أخلاق حميدة!

[1] تأمل! من جعل حسن الخلق معيارًا للصواب والخطأ والحق والباطل؛ فقد ضل ضلالًا مبينًا. قد تجد كافرًا حسن الخلق؛ فهل هذا يعني أن كفره هو الحق؟

وهناك أخلاق أخرى .. نعتبرها من محاسن الخلق، وأن ضدها يعتبر من سوء الخلق ... ولكنها ليست كذلك دائمًا!

بل فقدان بعض ذلك قد يعد عيبًا!

فالغضب منه محمود ومذموم، والورع منه ورع حقيقيٌّ واجب ومستحب ومنه ورع بارد، والسخرية منها ما هو مذموم ومنها ما هو ممدوح! والفخر منه ما هو ممدوح ومذموم!

وبعض ذلك مناط الحكم فيه القلب لا مجرد الفعل، وقد يظهر بقرينة ما أو عدة قرائن .. وقد لا يظهر لك!

فلا تنشغل بالنبش والحكم على الآخرين. وفي هذا المحك يظهر المنصف ممن حاد في حكمه عن العدل والإنصاف!

ومثل هذا وغيره أدى إلى سوء تصور بعضنا للأخلاق الحسنة والسيئة، ومنه نشأ التعدي والغلو مدحًا وذمًّا، فمن وافقنا نخلع عليه صفات حسنة، ومن خالفنا نرميه بقبيح الصفات ونحمل نيته ما لا تحتمله بلا قرينة حقيقية، إلا الهوى!

نحن نحب ذوات البشر حبًّا طبعيًّا جبليًّا لما فيهم من تلك الصفات الحميدة.. ولكن هذه الأخلاق أخلاقٌ يحبها الله -تعالى-، وبها جاء الإسلام، فيختلط علينا أحيانًا الحب في الله بالمحبة الطبعية في هذه الأمور، ويختلط علينا البغض في الله بالكراهة الطبعية لهذه الأمور!

ولهذا فإن البعض قد يعتبرون أن عدم إقامة وزن لهذه المحاب الطبعية هو أمر محمود! بمعنى أنه: لو كان مخالفهم على خلق حسن؛ فإن إهداره وعدم اعتباره، ومقاومة تلك المشاعر الطبعية، وعدم الاعتراف بها ومدحها في

المخالف؛ يعتبرون ذلك قوة في الدين .. وهذا من أغاليط السلفية للأسف! بل البعض يعتبر أن ذكر محاسن المخالف عند انتقاده، أو تقدير تلك المحاسن، هو من منهج الموازنات المبتدع!

والحقيقة أن الاعتراف للمخالف بما فيه من ميزة لمصلحة مشروعة، لا مجرد هوى، سواء أثناء النقد أو منفصلًا عنه؛ لا يعني أبدًا الشهادة له بأنه على صواب في ما أخطأ فيه، ولكن ذلك من الإنصاف.

وأما الشهادة بأن هذا من الحق أو الباطل أو الصواب أو الخطأ؛ فلها معايير حقيقية. ومجرد الحب الطبعي أو المدح لصفة؛ لا ينبغي أن تعطي صاحبها قوة الحق المطلق! **هذه تقسيمة مجحفة، أبيض وأسود! وأما الواقع ففيه درجات الرمادي، بل فيه ألوان الطيف!**

نعود إلى القصة إذن!

عن المداخلة أتحدث ..

المداخلة؟! ..

في تلك الفئة ستجد جامية ورسلانية وغير ذلك من المسميات بحسب الانقسام الذي حدث وانحياز كل فئة من الطلاب إلى رأس منهم؛ فيسميهم الناس بنسبتهم إليه... لكن الذي أعنيه هنا بهذا اللفظ هو جميع الفئات السلفية التي اجتمعت على شدة الجرح في المخالف لها من المسلمين، مع موالاة شديدة للحكام في مفارقة يضحك منها العقلاء، حتى قيل فيهم وشاع أنهم خوارج على إخوانهم المسلمين مرجئة مع الحكام! مع خلط شديد في مسائل الاعتقاد خصوصًا أبواب الإيمان، وهم الصورة المعكوسة لشريحة من شرائح السلفية غالت في التكفير، أو إن شئت فقل إن من غلا في

التكفير كان ناتجًا عن تلك الفئة، المهم أن لكل بدعة وغلو في اتجاه رد فعل عكسي في الاتجاه المضاد.

فلكل فعل رد فعل مساوٍ له في القوة مضاد له في الاتجاه!

وكما قال الشيخ الطريفي: "الانشغال بنقد الغلو يورث الانسلاخ، والانشغال بنقد الانسلاخ يورث الغلو، والاعتدال هو التعريف بالحقّ ونقد كل دخيل عليه على السواء".

أخلاقهم؟؟!

الغالب عليهم سوء الخلق بمعنى الكلمة، من فضح سر ذنب ستره الله، واستباحة الغيبة والنميمة بالتوسع في الاستثناءات، والتعيير بالذنب والتهديد على فضح ذلك، والوشاية وأذية المسلمين المخالفين لهم، فكل مخالف لهم فهو عندهم إما خوارج أو بغاة أو أهل بدع أو ضلال، يستبيحون أعراضهم ويتقربون إلى الله بأذيتهم والوشاية بهم عند الحكام! وهذه السلوكيات منتشرة للأسف بنِسَبٍ متفاوتة في تيار السلفية، فقط خالِفْهم مخالفة مما يعقدون عليها الولاء والبراء؛ إذن الويل لك!

هل فيهم من لا يفعل ذلك؟

نعم .. بلا شك! وإلا، فلماذا قدمتُ هذه المقدمة؟!

وفيهم من قرر من بداية ظهوره أن أفضل ما يقدم به نفسه إلى الناس أن يتحدث بلسان لين هين، فسترى منهم من إذا انتقد مخالفًا لقبه بالأستاذ فلان، على طريقة: حضرتك يا فندم .. حمار!

وفيهم من يتلطف ويمكنه أن يستمر في صداقة معك، لكن الصراحة أنت من ستفارقه بلا شك ولن تتحمل، وكيف يتحمل عاقل فطرة منكوسة

مركوسة؟ فطرة من يدافع عن طاغوت ويتلمس له الأعذار في سذاجة أو حماقة أو .. عن خيانة! ثم يحمّل كفلًا من خطأ الطاغوت على فاتورة إخوانه المسلمين المظلومين.

أخبرني بالله عليك كيف تصاحب رجلًا يدافع عن طاغية ويلتمس له العذر في لين وأخوة حتى تظن أنه يتحدث عن أمير من أمراء المؤمنين في عصر السلف من الصحابة ﷺ وأرضاه!

العلم؟

يظهرون بمظهر العلماء، وفيهم فعلًا من عنده علم مقارنة بكثير من السلفيين، ولكنه للأسف لا يخرج عن تلك الحالة الفوضوية السلفية العامة، فقط يزيدون على التيارات السلفية بالكثير من النقل في غير موضعه، كثير من القص واللصق بلا فهم، صورة مثالية للتعالم، ومن رام العلم منهم انشغل به قليلًا ثم عاد ليستطيل به على من خالفه، إلا قليلًا منهم، وسيفارقهم بلا ريب!

تعالم وتصدر بلا تأهل، فقط وافقهم فيما ذهبوا إليه وردد مثلهم فيصدرونك للعلم، ثم يختلف الشيخ مع الطالب فينقسمون متحزبين على مسألة فقهية يضلل بعضهم بعضًا فيها، أو على خلاف في جرح متصدر مشهور فيخرجون خبايا بواطنهم في حالة مزرية من انعدام الديانة .. للأسف! مسوخ!

لكني رأيت من تأثر بهم أو ببعض أفكارهم وليس منهم، وهذه من حيوية التيار السلفي، حيوية سلبية للأسف، كل فرد سلفية وحده، ويحسب أنه متميز وحده، يشعر أنه ضحية وغريب ولو وسط السلفيين! فإن برع في

تصدر أو شيء ما؛ بدأ يشعر أنه نسيج وحده، وأنه السلفي الذي ينبغي أن يمثل السلفية علمًا ودعوة.

قد يجتمع مجموعة فيكونون تيارًا داخل التيار، أو يتصالحون على أفكار فيكونون تيارًا داخل التيار، وبقدر بعدهم أو قربهم من تيار رئيسي متين قد يصنفهم البعض منهم أو لا يصنفهم.

لهذا فإن نقد التيار السلفي عسير على من لم يخبرهم، فلابد أنك ستجد من يقول لك: لاااا، بل نحن -معاشر السلفيين- لسنا كما تقول؛ فكل سلفي يظن أن هو ومن حوله يستحقون أن يمثلوا السلفية، وأن غيرهم لم يوافقوا السلفية إلا بقدر ما عندهم من حق وحسب، والبعض من التيارات السلفية قد يتسامح مع بعض التيارات السلفية الأخرى لأسباب مصلحية ..

لكني أيضًا رأيت منهم ممن ينتسب للمداخلة من فيه حسن خلق حقيقي لا الخلق الظاهر فحسب، ولكنه أُتِيَ من جانب ورعه ورغبته في تجنب البدع وأهلها .. فهل يصحح ذلك منحاهم الباطل؟ **لا والله!**

وهذا درس مهم جدًّا، لا تجعل أخلاق الناس علامة على الحق والباطل، ولا تجعل حسن العرض دليلًا على الصحة!

قد يقول سيئ الخلق قولًا صحيحًا، وقد يخطئ صاحب الخلق القويم، ويسيء أحدهم عرض الحق، ويحسن أحدهم عرض الباطل. لا سيما في هذه الأزمان التي تداعت علينا فيها الأمم، وعلا فيها صوت الباطل واختلط فيها كل شيء والتبس، وصار كل شيء متاحًا مباحًا، وتعددت المنابر؛ فيكفي صفحة فيسبوك ليتكلم من شاء بما شاء، ولا حول ولا قوة إلا بالله. فضلًا

عن أن يكون حكمك بالصحة والبطلان بظاهر الأخلاق لا حقيقتها، فتحكم للمبتسم أنه على الحق وللعبوس أنه على الباطل!

ألا ترى أن تلك الابتسامة وتلك الدعة على وجوه القديسين ليست سببًا لأن تترك الإسلام إلى المسيحية زاعمًا أنهم أحسن أخلاقًا وأنك رأيت من المشايخ المسلمين كذا وكذا!

ألم تسمع قول النبي -ﷺ: " يخرج في آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله -عز وجل-: أبي يغترون أم علي يجترئون؟ فبي حلفتُ، لأبعثن على أولئك فتنة تدع الحليم منهم حيران".

بل وضع تحت ذلك وفوقه ومن حوله وعن أيمانه وشمائله خطوطًا حمراء كثيرة؛ الخلق الحسن ليس بالبسمة واللين وضبط النفس وشيء من الأخلاق التي اتفق عليها العقلاء أنها حسن خلق ثم الباطن خرب؛ فتظهر آفات الخراب في فلتات اللسان، ويستر الرب عبده أو يفضحه، ثم يوم القيامة عسير.

الخلق الحسن مبادئ وشيم تختبرها الأيام والليالي، فكم من غضوب كان غضبه صادقًا لله فأغضب الخلق في رضا الله، فأفاض الله عليه من النعم والبركات.

فقط تفقد قلبك ولا تنظر حولك ..

تفقد ذلك القلب العليل وعالجه مجاهدًا هواك، واسأل الله من فضله متضرعًا مخلصًا كغريق يستغيث في ظلمات الليل الحالك لا يرجو إلا الله، كم من أئمة ضلال كان لهم من معسول اللسان وفصاحة الحروف

وبلاغة البيان ما تذهب به العقول والألباب .. فهل أغنى ذلك عنه من الله شيئًا؟

كان (عمرو بن عبيد) من رؤوس المعتزلة الأوائل، وانساق الناس خلف بدعة (واصل بن عطاء) بسبب استجابة (عمرو) له؛ لأنه كان عابدًا زاهدًا صاحب ديانة وورع!

بل بعض الأقوال التي شاعت في الناس كقول بعضهم: "لأن أكون ذنبًا في الحق خير من أن أكون رأسًا في الباطل"! هذه قالها بعض المبتدعة حين ترك اعتقاد السنة وهو رأس آنذاك في السنة، فصار ذنبًا في البدعة وهو يحسب أنه على حق! فاستشهد بصحة بدعته على أنه يفضل كونه ذنبًا في الحق على أن يكون رأسًا في الباطل! وكم من صادق عجز عن التعبير عن الحق، وكان الفاروق عمر يستعيذ بالله من جلد الفاجر وعجز الثقة ..

- أراكم تحدثون أنفسكم؛ تقولون: وينطبق هذا عليك يا سارة! راجعي نفسك قد تكونين على باطل!

- أتدرون، عندي ما يفيض في صدري مما أرغب في قوله لك، لكن يضيق صدري ولا ينطلق لساني!

وحين يشتد عليّ ذلك أقول لنفسي ولكِ:

(((**عليك بركعتي القيام ودعاء الاستفتاح .. الصدق مع الله**)))

ثم لا يضرني ولا يضركم ما اخترت؛ فالفتنة كبيرة، وترك ما نشأ عليه المرء عسير، وتباعد زماننا عن زمان النبوة ونوره متطاول، والكارثة أكبر مما يظن خيالكم، لا يعرفها إلا من خبرها حق الخبرة ثم ذاق التغيير فعرف الباطل والحق. فهل أملك قلوبكم؟ لا والله، ولا تملكون قلبي!

الله يملك قلوبنا، وهو الحق المبين، فأسأله من فضله وتسألونه من فضله صادقين نبتغي وجهه -عز وجل-، راغبين فيما عند الله وحده،

هل تراه مضيعنا؟

لا والله لن يضيعنا، فالله هو الحق المبين، يهدي بنوره من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم ..

فقط افعلوا ذلك، والتزموا بباطن صادق مع الله ومع نفسك، فينضح بالصدق مع الناس، ولا تجعلوا عداوتكم سببًا في الفجر في الخصومة.

وها أنا ذي أجتهد في الإنصاف، أنتقد السلفية وأضرب بعصا من حديد على رؤوس المداخلة، وأجاهد نفسي فأقول ببساطة ما قلت، ولا أنفي ما لبعضهم من فضل وخير، ولا أكذب في عرض ما رأيته من حسن شمائل في فئات قابلتها ..

ومع ذلك قيل فيّ إنني أنا من فجر في الخصومة[1] لأنني تكلمت بما أعرف ويعرفون أنه موجود، وكانوا يريدون منا جميعًا أن نخرس ولا نظهر إلا الفضل، فلما رأينا غير ما رأوا رمونا بما ليس فينا وإلى الله المشتكى!

بل بعضكم يعلم أنني كنت آنف من السكوت على نشر أو قبول قول الباطل على طاغية في عز المراغمة والوجع، ونفيت عنه ما كان كذبًا؛ فإن ما عند

---

[1] مما أعيبه على البعض أنهم لا يعرفون حقائق معاني الأشياء، ستجد من يقول لك: هذا داعية شرك ولكني لا أكفره، هذا يحارب الإسلام ولكني لا أكفره، كيف الاثنان معًا؟

سطحية في فهم المصطلحات، وعدم اطراد مع تناقض للأسف.

ما هو الفجر في الخصومة الذي هو خصلة نفاق؟ هي صفة من ينتقدهم! من انتقدهم فهو يضمر شرًا ولابد ويحارب الدين وله أجندة ما.. إلخ!

الله لا يُنال بمعصيته، ونصر الله لا يُنال بباطل، وإظهار الحق لا يكون أبدًا بمخالفة الحق!

فقط كونوا شرفاء في الخصومة .. ولا تكونوا سماعين للكذب .. مطففين في الكيل والميزان ... ليكن لكم وجه واحد لا وجهين، وأنصفوا أنفسكم من العالم، تنزهوا عن صفات بني إسرائيل يا إخوتي، ثم قارعوني بسيف ألسنتكم كيف شئتم، فلن تجدوا مني حينها إلا صدق الأخوة والوفاء بحق الصحبة مع خالص النصح لنفسي ولكم.

كانت أ. لمياء حسنة الخلق فيما ظهر لي ولم أر منها ما يشين، رغم أن انتسابها واختيارها للقوم شين يكفي.

ثم اعلموا أني فارقتها من زمن بعيد جدًّا؛ فما أدري ما الذي أحدثته فيها الأيام والليالي؟ وإن كنت كلما سألت قيل لي: هي كما هي! ولا أستحي أن أقول: إن لها محبة في الله على ما ظهر لي منها من حسن خلق وديانة، ولها محبة طبعية على ما كان منها من طيب الشمائل، ولها بغض في الله على ما فيها من انتساب للقوم بأفكارهم الضيقة العطنة المخالفة للسنة والفطرة.

في ذلك اليوم الذي جلست فيه مع أم عبد العزيز بعد المسجد كانتا تتحدثان بعد ما اختَبَرت أم عبد العزيز حلقتها، وكنت ممن حضر الاختبار وأخت أخرى، ويبدو أن ذلك أشعر أ. لمياء وبعض أفراد الحلقة بشيء من الإهانة، وقد تكون محقة من وجه.

كانت أم عبد العزيز تعاتبها أنها اشترطت لحلقتها أن تكون ملابس الطالبة لا تقل عن عباية كتف وإيشارب كبير، ويبدو أنها متنازلة.

- سيقال إنهم لا يُعَلّمون إلا من كان مثلهم .. واحدة جاية لك حتى لو لبسها مش على مزاجك، لكنها محجبة جاية تتعلم القرآن؛ علميها..

راقبتُ الحوار ..

كنت أتأمل ملامح الوجه وطريقة الكلام، وعيت بعض ما قيل ونسيت كثيرًا!

كانت أم عبد العزيز تحث أ. لمياء على العناية بالإقراء فقط وعدم اعتبار أي شيء آخر سوى جودة القراءة، وأن اتركي الناس للقرآن يهديهم، وأ. لمياء صامدة على رأيها لكن بأدب.

انتهى النقاش لتترك أ. لمياء المسجد في هدوء؛ لأن ذلك لا يتفق مع مبادئها، وقد اجتمع غالب معلمات المسجد على فكر معين هي ترفضه، ولم تلبث أ. زينب إلا يسيرًا ثم انتقلت إلى مسجد آخر.. لا لتعلم القرآن، ولكن لتشرح الفقه والنحو...

حضرت معها مرة أو اثنتين أو ثلاثة، والحقيقة أنه على الساحة النسائية التي رأيتها كانت تلك المرأة أبرزهم في العلم. كانت تشرح ألفية ابن مالك، والشرح الممتع، ولها لمسة وعظ جيدة، لكن لا يكاد يمر الدرس إلا ولابد من شيء من الهمز واللمز تناولًا لـ"دعاة السوء"، وقد تصرح بأسماء.

الحقيقة، في بداية حضوري أعجبني جدًّا أن أجد امرأة عندها مادة علمية جيدة، ويمكنني أن أسمع منها .. وساءني طريقة الهمز قليلًا.

أمي -رحمها الله -من البداية لم تحب الحضور هناك، سألتُها عن السبب متعجبة ..

- معجبنيش طريقتهم!

وكانت جارتنا تحب مجلسهم جدًّا، وتذهب ثم تعود وتقص غالب ما سمعت هنا، وبدأت تتحدث عن انتقادها للشيخ فلان وعلان، والأستاذة فلانة وعلانة ...

وأنا أعلم أنها وإن أظهرت عدم قناعتها بما يقال هناك .. فإن السوس قد بدأ ينخر في القلب، وأنها لن يطيب لها السماع لهم أبدًا ..

كان مما قصته: أنه حدثت مشكلة في المسجد بين أ.زينب وبين بعض البنات لأنهن يسألنها عن شيوخها من يكونون؟ أو لأنهن اتصلن بشيخ وذكرن قولًا لها فانتقده ... شيء من هذا القبيل!

فقالت: إنها لا تذكُر أسماء شيوخها؛ لأن غالبهم مبتدعة!

ثم هددتهن على الملأ في أثناء مجلسها في المسجد بفضح ما تعرفه عنهن وكُنَّ يحضرن معها في مجلس خاص في بيتها، ويحكين لها مشاكلهن على سبيل الاستشارة، وكان ذلك التهديد مثار ذهول الأسوياء من الحضور!

فضح ذنب ستره الله، أو مشكلة شخصية عرفَتها عن طريق استشارة صاحبها الذي ائتمنها انتقامًا منهم لأنهم ينتقدونك .. !

هذا والله شيء عجاب لا يقبله كافر يعمل في مجال الاستشارات لأمانة المهنة، فضلًا عن مسلم عاميٍّ، فضلًا عن متصدر يبلّغ الناس دين الله ويقول لهم هذا حرام وهذا حلال!

ثم إنها لم تترك رجلًا ولا امرأة على الساحة إلا انتقدته تُسقِط عدالته وعلمه، حتى قالت يومًا: مفيش علماء أهل سنة في مصر إلا أربعة!

تواصلت معها مرتين أو ثلاثة، وأرسلت لي كتبًا لتثبت لي حكمًا فقهيًّا؛ فخرجتُ مما أرسلته لي وأنا على قناعة تامة بعكس ما أفتت هي به! وانتقدتني أن شيخي الكتاب، وأن من كان شيخه الكتاب فإن خطأه أكثر من الصواب، فسألتُ جارتنا التي قالت لي هذا الكلام: ومن شيوخها هي؟

قالت: تقول عنهم أنهم مبتدعة!

- طيب هي ترى شيوخها مبتدعة؛ فمن أين نعرف أنها على صواب ولم تتأثر ببدعهم؟

- ...!

- وقالت لك: إنني شيوخي الكتاب؟

- اه.

- قلت لها: طيب، أحب أن أقول لك: إن لي شيوخًا من لحم ودم وأتواصل معهم، ولكن لم أذكر لها ذلك؛ لأنها ستقول عنهم بطبيعة الحال كما تقول عن شيوخها أنهم مبتدعة .. إذا كنت ذكرت لها فلانًا من مشاهير السلفية فقالت لي: مبتدع ضالٌّ مُضلٌّ ليس على المنهج ..

فقلت لها: زكاه ابن باز،

فقالت: تغير بعد موت ابن باز!

"مبتدع ضالٌّ مُضِلٌّ ليس على المنهج"[1]

هذه العبارة محفوظة عند القوم، وهي تعني وصف من ليس منهم ... "جمعاء"!

هكذا جزافًا كورق اللعب، يطلقون الجرح بلا تفصيل وعلى المستمع القبول؛ لأن الجرح مقدم[2] على التعديل، وإن هذا الأمر دين فانظروا عمن تأخذون دينكم... وإلى آخره.

حقٌّ يراد به باطل!

---

[1] ومما يؤسف له أن أتعامل مع بعض مشايخ صوفية المتمذهبة فأجد عندهم نفس الطريقة، وإن اختلفت العبارات، فكل سلفي عندهم إنما هو "وهابي غير مؤتمن على المذهب" بدون السماع له أو النظر في كتبه، هوس التصنيف مرض يستشري وينخر جسد الأمة، وإلى الله المشتكى.

[2] مسألة طويلة في كتب الحديث: هل الجرح مقدم على التعديل؟ وليست بهذا الإطلاق ولا بهذا التطبيق القبيح. والجرح والتعديل من الدين، لكن ممارسة كثير من الناس للنقد والحسبة على المتصدرين فيها خلل كبير؛ لهذا كان يقال: لا يتكلم في الرجال إلا تام العلم تام الورع.

هذا التلبيس للحق بالباطل الذي يتلاعبون به ويستشهدون به على باطلهم ببساطة؛ فهذا ينبئكم كيف تتكلمُ عن الناس بالظن والاستنتاج ولا تتحرى الصدق فيما ترمي به غيرها، وبئس القول والفعل!

بعض من يحضر معها المجالس الخاصة أردن القراءة عليّ...

قراءة القرآن فقط!

فقالت لهنّ (داليا) ناصحة أمينة: لا تفعلن؛ فإن (سارة) ليست على المنهج ولا على الجادة .. واحنا مش ناقصين فتن!

ألا يذكركم ذلك بشيء؟؟

حسنًا، من لم يحضر ما أعنيه فليحرص على سماعه حين أقصه، فاحفظوا ذلك جيدًا وتذكروه في حينه .. أني قلت لكم: إن المداخلة -وإن كانت فئة غالية في الجرح والتجريح- فإن السلفية كلها فيها من ذلك الداء كلٌّ بحسبه؟

داليا!

هل قلتِ داليا؟

من هي تلك الـ (داليا)؟

قالت لي **كنا بنعمل جداول مع بعض نشجع بعض، وكان معانا واحدة كل ما نسألها أنت حافظة إيه أو قرأتِ إيه مترضاش تقول... في الآخر اكتشفنا أنها كانت أقل واحدة فينا، وكان امتناعها عن إخبارنا مش خوفًا من الرياء لأنها مكثرة كما كنا نظن! بل خوفًا من السخرية، أو عشان توهمنا إن اللي عندها أكثر من الحقيقي.**

سميرة..!

كانت سميرة قد استجابت لذلك النداء الآسر الملعون وانغمست فيه حتى الثمالة، فاعتزلتنا وأنا في غفلة عما هي فيه، صارت محادثتنا قليلة .. وفي ذلك القليل تقول لي:

سمعتِ أنهم انتقدوا فلانًا (من مشاهير السلفيين)؟

فأرد غافلة: قالوا إيه؟ فتقول لي كلامًا أخرق!

فأرد غافلة ضاحكة: سيبك ده أي كلام! فتسكت.

دعتني لحضور مجلس على البالتوك لمشاهير(هم)، كان درس فقه أو شيء من هذا القبيل، وكانت متحمسة جدًّا، وانتقلت لي حماستها خصوصًا أنه كان المجلس الأول، حضرتُ ومعي أقلام وورق، وجلست منصتة خمس

دقائق فقط! ثم بدأت موجة من الشتيمة: الكلب الضال، كلاب أهل النار، المبتدعة الضُلال، ال..... إلخ!

ذهول .. حالة ذهول!

كتبتُ: "ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء"!

فطردوني من الغرفة الصوتية.

ثم وجدت نفسي فيها مرة أخرى، وسمعت صوت الشيخ يقول: الأخت بنت محمد .. الأخت بنت محمد، برجاء التواصل على الخاص معي ومع الأخوات.

يا جماعة اللي اسمها بنت محمد ترد على الراجل ده، خلونا نخلص ويكمل الدرس اللي شكله مش باينله آخر ده!

يا جماعة ردوا عليه، ده شكله راجل شراني ومش هيسكت في ليلته دي! متردي يا بنت محمد!

وجدت رسالة من سميرة على الخاص: الشيخ بينادي اسمك...

- اسمي أنا؟ أنا سارة محمد، آه أبقى بنت محمد! صحيح برضو .. بس ليه؟

- تعالي بس هنتكلم...

دخلنا غرفة صوتية أخرى في اجتماع رباعي: أنا وسميرة والشيخ وأخت أخرى لا أعرفها، وإلى الساعة الثالثة فجرًا وأنا مع هذا الإنسان في حوار غريب جدًّا[1].

كان الرجل من مشاهير المداخلة، وكانت سميرة على تواصل معه وتعتبره كوالدها، وإكرامًا لها أو بطلب منها قرروا "اصطيادي" لكي أتعلم المنهج

[1] هذا الحوار ضمنته مقالًا فيما بعد، عنوانه: "داعية وطالبة علم". وكتبت في نقد هذه الطائفة مقالتين من سنوات.. هذا المقال، ومقالًا آخر بعنوان: "جرح وتعديل"، وهما من سلسلة: "هل أنت من هؤلاء؟!".

وأتـوب إلى الله مـن منـاهج الرعـاع، وأتـدين بالسـب والتحـذير مـن أهـل الضلال[1]...

ومن هم أهل الضلال؟ ... طبعا هم كل من خالفهم!

ناقشته، كان يتكلم بصوت وكنت أكتب.

- هل أنت سلفية؟

- يعني إيه سلفية؟

- جاوبي على السؤال هل أنت سلفية؟

- أي سلفية تقصد؟؟

- معلوم ما هي السلفية؟

- عنـدنا سـلفيات كثيرة؛ سـلفية القوصي، سـلفية أسـامة عبـد العظيم، سلفية العزيز بالله... إلخ.

- أما الأول: فضال مبتدع، وأما الثاني: فلا أعرفه، لكن "يبدو" أنه ضال مبتدع، أما الثالثة: فليسوا سلفية؛ بل هم خوارج.

الله أكبر بجرة قلم! حد يقولي أنا سلفية تبع مين طيب!

تكلم كثيرًا، هذا الرجل صفيق اللسان غليظ الجنان، لكنته في الكلام متعالية جدًّا، صوت مرتفع آمر، هل تعرفون طريقة وكيل النيابة؟!

آخر ما أذكره من تلك المحادثة العقيمة أنه سألني:

- ما قول أهل السنة في الحوض؟

ليلتكم فل! الساعة الثالثة فجرًا، والرجل لم يترك أحدًا إلا شتمه، وأي شيء سأقوله سيكون بدعة وضلالة.. والله مانا مجاوبة!

[1] أليس التدين بالسب والطعن من بدع الشيعة؟! سبحان الله.

- أخت سارة ما عقيدة أهل السنة في الحوض؟

- لا أعلم!

- صيحة منتصرة، وسيل من الكلمات واللطميات على ضياع العلم، وأنه أول ما يبدأ به الإنسان العقيدة، وآهٍ من أهل البدع وما فعلوا بأهل السنة... إلخ.

ثم قال بلهجة لينة قليلًا: أنا لا أقول إن الأخت سارة مبتدعة لا سمح الله...

""متقول يا خويا .. مجتش على دي يعني""!

ظلمة في قلبي من هذا المجلس العجيب، اختناق، أنا أختنق!

وجد الرجل أنه لا فائدة تُرجى من هذه الفتاة الجاهلة فأنهى المجلس، أو قَبِل أن أنهيه ... أخذت (الإفراج) سعيدة بالخلاص من هذه الذبابة الزنانة التي تفتش عن القذر، أختكم على الأسفلت الآن! الساعة الثالثة فجرًا، سأنام الآن، وإذا لم أمت كمدًا سيكون لي مع سميرة شأن آخر!

استيقظت متأخرةً فجمعت شتات عقلي كقطع البازل، ثم رفعت سماعة الهاتف واتصلت بشيخ سلفي ضال مضل مبتدع مميع ليس على الجادة، كان يحقق الكتب، وله شهرة نوعًا في هذا المجال! وجلست ساعات أخرى معي ورقة وقلم، أكتب ما يقوله ردًّا على شبهات ذلك الذي شنف أذني ليلة أمس بحماقاته!

يا لها من ليلة!

بعد ذلك تابت صديقة أخرى من ذلك الطريق، فأعطتني كتب القوم على سبيل التخلص من تلك الأفعى في دارها حتى لا تلدغها ولا تلدغ غيرها، شيء

فـاخر الحقيقـة، كنـت سـعيدة بهـديتها جـدًّا؛ لأنني كنـت أريـد قـراءة هـذه الكتب، وبصراحة ... خسارة فيها الفلوس!

منذ ذلك الحين صار لي ضمن فهارس الكتب التي أقرؤها، عمود مخصوص عنوانه: الرد على ربيع! ذلك أنني حين أقرأ كتب ابن القيم وابن تيمية أجدها كتبًـا موسـوعية غالبًـا، فكنـت معتـادة أن أعيـد فهرسـة الكتـاب فهرسـة موضوعية خاصة بي، وأقوم بكتابة هذا الفهرس في الصفحات البيضاء في أول الكتاب، بحيث يمكنني حين أحب تحضير موضوع معين أو البحث عنه أن أعود إلى فهارسي، فأجد بغيتي بالطريقة المناسبة لذهني..

فعلى سـبيل المـرح؛ أضـفت إلى فهارسـي هـذا العمـود السـعيد! فكنـت كلمـا وجـدتُ خلقًـا حسـنًا في الـرد على مخـالف، وتحريًـا لفهـم كلمـات المخـالف، ودفعًـا لسـوء فهـم كلامـه، وحرصًـا على حملـه على أفضـل معانيـه تحريًـا وتحريـرًا، والتمـاس العـذر، وجميـل الإنصـاف -مـع كـون المخـالف يخـالف في عقيـدةٍ!-؛ وضعـت رقـم الصـفحة في هـذا العمـود السـعيد. كانـت اسـتفادة لا يمكن وصف حجمها!

تعلمـت الفـرق بـين سـلوك النحـل وسـلوك الـذباب، تعلمـت معنى الصـبر والسـبر والتتبـع حتى ثمالـة الفهـم، ثـم التجـرد والإنصـاف، تعلمـت أن قـول الحـق لا يعني التطـاول والاسـتطالة والبغي والتهويـل، وأن التمـاس العـذر لا يعني التمييع والابتذال، كما أنه لا يعني التلبيس على الناس مجاملة لبعض الناس!

تعلمت أن الـدين لـه حرمة، وبيـان الحـق لـه سـطوة على نفس من ابتلاه الله بالبيان... بيان الحق! ذلك الميثاق الذي أخذه الله على أهل العلم.

تعلمت كيف يكون الخطاب علميًّا، والرد العلمي مهما كان حادًّا ففيه نفَسٌ متجرد عن هوى النفس، حتى لو حادت بي السبل وسقطت في الهوى؛ لقد صار الآن عندي حصيلة نظرية صحيحة منضبطة أحاكم إليها نفسي وغيري..

تعلمت "يعني إيه سلفية"!

هذه السلفية التي كنتُها ولا أزال عليها باقية ما أبقاني الله -تعالى-.

أمثلة عملية لعلماء كبار يبجلهم السلفيون ولا يكاد أحدهم يفقه حق الفقه ما يفعله هؤلاء الجبال عند الوفاق والخلاف...

"شيخ الإسلام حبيب إلينا، لكن الحق أحب إلينا"!

تلك العبارة التي يرددها السلفيون للأسف؛ هي قول عند بعضهم خاوٍ من الفعل!

فالحقيقة أن شيخ الإسلام حبيب إلينا لذلك فهو الحق الأوحد ومخالفه الباطل الذي لا حق فيه مطلقًا، وشيوخ السلفية حبيبون إلينا فقولهم حق وفصل ومخالفهم ليس على شيء ..!

طرحتُ مرة سؤالًا للمناقشة: أيهما أعلم شيخ الإسلام أم أحمد بن حنبل؟ فكانت الإجابات صادمة!

شيخ الإسلام عند كثير من السلفيين هو الأعلم مطلقًا، هو فقط الحق الأوحد، المعصوم في كل علماء السلف.

كنت أتوقف متأملة مع قوله -تعالى-: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ} يا الله! اليهود والنصارى في القرآن كفار، ثم

يبين الله -عز وجل- أن من قال إنهم ليسوا على شيء مطلقًا فهذا من الجهل، ولا يقوله إلا من لا يعلم! يا الله!

الإسلام دين الإنصاف، دين ضبط النفس، دين كبح جماح الهوى! حتى الكافر عنده حق وباطل، حتى المبتدع عنده حق وباطل. الله -تعالى- يسمي من قال عن اليهود والنصارى أنهم ليسوا على شيء مطلقًا: "قوم لا يعلمون"! رغم كفرهم وصراعهم مع النبي، لا تقل كلامًا بجهل فيكون لازم كلامك كارثة، فإن الذي أرسل كتب اليهود والنصارى هو الله -تعالى-، فبقولك ليسوا على شيء نفيت بقايا الحق الذي أُورثوه من كتب الله التي بلغتهم، فلا تفعل يا مسكين ما لا قِبَل لك بتبعاته!

هذا المعنى أيضًا في الحديث: "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم"

لماذا؟ لكي لا نكذب حقًّا أو نصدق باطلًا!

ببساطة: لا تخض فيما لا تعلم، لا تجزم بما لا تفقه، لا تخض في غيب عنك لا تعرفه ولا سبيل لك، تريث، كن حليمًا، افهم... هذا دين عظيم يربي على سمو الخلق الحقيقي، وليس الخلق المظهري؛ من مراعاة لفظ وحرف وتضييع باطن مستقيم!

سميرة اختفت فترة ثم عادت للظهور.. كانت مختلفة، محطمة، منهارة، لم أفهم ما بها، وصار بيننا شدٌّ وجذبٌ عنيفٌ جدًّا، ثم اختفت وظهرت مرة ثانية فقصت علي قصاصات عن مفارقتها لهؤلاء، وأنها كانت أسوأ أيام حياتها على الإطلاق!

حدثتني عن ظلمة قلبها وما كانت تعانيه من ضيق الصدر، توسلت لها كثيرًا أن تكتب تجربتها فاعتذرت أنها لا تستطيع، هذه فترة سوداء تود لو أن تفقد الذاكرة وتنساها تمامًا. لا تريد أن تتذكر أي شيء؛ خصوصًا أن فراقها لهم كان بطعن فيها: مبتدعة، ضالة.. إلخ، أو شيء من هذا القبيل لم تقص علي تفاصيله!

قالت لي يومًا: إن إحدى رفيقاتها فارقتهم فترة لتختم القراءات، فلما عادت لهم بعد عام لم تتحمل هذا الجو الكئيب البعيد عن نور الإيمان، الظلمة الحالكة جدًّا!

أخبرتني أنها قالت لها: أظن أن هؤلاء صنيعة الموساد، ولا يمكن أن يكونوا دعاة إلى الله، ثم استغفرت من سوء ظنها، وفضلت الصمت ..

إلى الآن سميرة لا يمكنها أن تتكلم عن تلك الفترة السوداء في حياتها، وتتجنب تمامًا الخوض فيها، تريد فقط أن تنسى، حين يصير النسيان - فقط أن تنسى- نعمة تشهق مطالبًا بها؛ تعرف وقتها قدر نعم الله عليك!

هذا السلوك يؤلمني جدًّا، ووجدته عند أكثر من فتاة ممن فارقن مختلف الفئات من التيار، بسبب الألم النفسي الذي عانت منه، لا أتحدث عن المداخلة فقط، بل عن السلفية الشائعة أيضًا بمختلف مدارسها للأسف!

وقتها أشعر بكم المعاناة التي تسببنا فيها للناس...

ليس معنى أنني لم أعش تجربة مؤلمة أن أكون قاسية القلب، لقد كنت مشاركة في معاناة بعض البشر .. ربما يقول البعض ممن يعرفني: إنني لم أشارك، وإنني كنت أنتقد الكثير من الأخطاء، ربما تقول مثلهم بعد أن

تسمع القصة كاملة! لكنني أعرف أنني كنت مشاركة بصورة أو بأخرى! ونفسي تتألم، ولو كانت المشاركة بشق حرف لا بشق كلمة!

فتنة المداخلة رد عليها كثير من مشايخ السلفية، قلّ منهم من رد تصريحًا، وآثر الأكثر الرد بغير تصريح واتباع طريقة لينة والاحتواء؛ فكانت النتيجة أن هؤلاء استفحل أمرهم جدًّا، وسَرَت كثير من الأفكار الخاطئة في تيارات السلفية، وإلى اليوم نعاني من الفيروس وحامل الميكروب!

وهذا من أسباب إصراري بعد معرفة حجم وعمق الكارثة السلفية على البيان بوضوح وتصريح، وحين أنتهي من قصتي .. أتمنى أن يكون حجم الكارثة العلمية والسلوكية قد اتضح للجميع ..

معذرة إلى ربنا ولعلهم ينتهون!

- سارة...

- نعمين!

- فين داليا؟

- داليا؟!

- أيوة داليا، فين داليا؟ ومين داليا؟ وعملت إيه؟؟ متفقناش على كده! أنت قلت داليا ثم تكلمتِ عن سميرة!

- نعم داليا..!

كانت **داليا** طبيبة وطالبة عندي في حلقة إعداد المعلمات .. وهي الحلقة التي تسبق حلقة المعلمات الخاصة بأم عبد العزيز.

حاولت كثيرًا أن تتقرب مني لكني كنت أشعر بنفور، وأتمنى أن نحتفظ بعلاقة الطالبة والأستاذة فحسب .. وكان هذا يشعرها بالإهانة فيما يبدو خاصة أنها أكبر مني سنًّا!

كنت في ذلك الوقت أشرح كتاب معارج القبول... أتعجبون أن هذا الكتاب لم يكن مدرجًا في قائمة ما قرأتُ كاملًا مما ذكرته في سيرتي الذاتية؟! وأنني قرأت ملخصًا له ومقتطفات من الأصل فحسب؟ ومع ذلك فأنا أشرحه! كان ذلك مبكرًا جدًّا في حياتي العلمية، في أول سنوات دراستي الجامعية! وكنت أعتمد وقتها على تواصلي مع المشايخ، وقراءتي في كتب ابن القيم وابن تيمية، وهذا ليس عذرًا لهذا الخطأ الفادح؛ أن تشرح كتابًا لم تقرأه من قبل اعتمادًا على خبرتك بكتب أخرى ولو كانت أعلى منه قدرًا ..

فكيف لو قلت لكم: إن هناك من يتصدر لشرح كتاب لم يقرأه، ولا قرأ مساويًا له، ولا استمع شرحًا يشمل مادته العلمية، ولا تكلف مشقة التحضير قبل الشرح، ولا تواصل مع مشايخ..

بل ولا يقول أبدًا (لا أعلم)!

وماذا لو قلت لكم: إن هناك من يتصدر للرد على الشبهات وهو لم يقرأ الكتب الأساسية في ما يرد فيه! ويتصدر للفتوى وهو لم ينه دورة فقه كاملة ولا مرة، بل لا يعرف أصلًا أسماء كتب الفقه وأصوله!

بل ماذا لو أتحفتكم أن هناك من يتصدر للتحذير من فلان وعلان ويخطئهم في كذا وكذا وهم لم يقرؤوا كلام من يحذرون الناس منهم، ولا قرؤوا أصلًا في المسألة أكثر من شائع الكتب -إن كانوا قرؤوا أصلًا-، اعتمادًا على أن الشيخ فلان (حبيبنا) حذر منهم!

هؤلاء المحذرون ليسوا مداخلة، بل سلفية شائعة عادية، كل واحد صار له منبر؛ فملأ آذاننا وعيوننا من قيحه وقبيح قيئه، ثم لو وصفناهم بالجهل والتعالم غضبوا وقالوا: معجبون بأنفسكم متكبرون!

ꕥ

حضرت معي داليا في بيتي هذه المجالس القليلة. تتصل بي فأصدها، تطالبني بأن أحبها وأتقرب إليها كما تفعل، فأرد بسماجة: أنا لا أحب هذا الأسلوب.

تتصل بي لتعاتبني باكية، وأن لها أيامًا تبكي لأنني ابتسمت في وجه فلانة ولم أبتسم في وجهها .. تنتظر رد فعل مشفق حنون لتجد مني رد فعل غاضب مجنون، يا أختي أنت، لا تثيري غضبي فحسب، أنت تثيرين أعصابي كلها، تشعرينني بالتخلف العقلي!

كنت أعاملها بقلة ذوق متناهية بلا أدنى شعور من تأنيب الضمير!

أحيانًا بسيطة جدًّا كنت أؤنب نفسي، فأخرسني بضربة حازمة فتنزجر!

ترررررررررررررررررررن

- السلام عليكم..

- عليكم السلام.

- عاوزة آجي أزورك..

- لا والله مش هينفع عندي امتحانات.

- طيب ممكن لما تخلصي؟

- ربنا يسهل..

ترررررررررررررررررن

ترد (نورة) على هاتف بيتنا عند أمي .. هذه صديقتي المقربة جدًّا، وكل ما في البيت لها!

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

- أكلم سارة؟

- مين؟

- داليا.

- تفضلي

- نعم؟

- اشمعنى نورة عندك ورفضتِ أجي عندك؟

- حضرتك أنا حرة، ده بيتي على فكرة، ودي صديقتي المقربة، وكمان بنذاكر سوا، وربنا قال: وإذا قيل لكم ارجعوا فارجعوا على فكرة، وأنا حرة .. أنا .. حرة!

تبكي وتشتكيني لأمي..

- يا سارة بلاش قلة ذوق.

- يا ماما صاحبيها أنت .. مش هصاحبها .. مبحبهاش ....

- بس يا طنط ازاي مش بتحبني؟ المفروض نحب بعض في الله!

- أشرح لها في نفاذ صبر الفرق بين الحب في الله والمحبة الطبيعية، مفيش فايدة!

ثم إنها زارتني في البيت عنوة ومعها كتب، وجلست تبكي في الصالون لأمي - رحمها الله- وتشكي إليها جفاوتي وغلظة قلبي .. إلخ، جئت فسلمت في سماجة ثم قلبت في الكتب ..

أهلًا بالأنياب والمخالب! كتب المداخلة ..

قالت في نعومة الأفعى: أريد أن أعرف رأيك في هذا الكلام.

إلا الحماقة أعيت من يداويها!

يعني أنا لا طايقاك ولا طايقاهم، وجايالي بكتبهم، وعاملة فيها عاوزة تعرفي رأيي!

الآن عرفت لماذا كان قلبي ينقبض من رؤيتك يا أخية!

قلت لها: شوفي دي ناس بتقول أي كلام .. وهذا الكلام أعرفه وقرأته، وأنصحك اقرئي لابن القيم وابن تيمية، ودعكِ من هذا الغثاء، وستجدين ما يسرك. تعلمي العلم من مصدره!

طاردتني كثيرًا جدًّا حتى بعد زواجي، تارة تبكي وأشعر أنها فعلًا صادقة متحيرة تريد أن تفهم، وتارة تظهر أنيابها ومخالبها، حتى أنني سافرت مع أهلي شهرين إلى الإسكندرية هربًا منها...

ثم عرفت قصة نصيحتها الأمينة لصديقاتها اللاتي أردن القراءة علي؛ أن فروا من الفتن يا عباد الله! لأن "سارة مفتونة مش على المنهج، واحنا مش ناقصين فتن"!

ناس بوشين .. يتدينون إلى الله بالوجهين!

كيف؟ لا تسلني كيف!

قَلَّما كنت أرق لها!

لكنني حين عرفت بخبر خطبتها فرحت فعلًا، ووجدت مني شيئًا من الرقة عوضًا عن هذه الخشونة المستمرة؛ فنتج عن ذلك كردِّ فعلٍ منها صراخ غاضب في الهاتف مع أمي ..

قال **بلهجة عجيبة: فتور؟! مفيش حاجة اسمها فتور! ده لفظ مهذب للدلالة على ضعف الإيمان مش أكثر!**

ونسي أنه قال في الدرس: إن العرب كانت تسمي المريض سليمًا تيمنًا، وأنها لازالت عادة عند البسطاء حين يقولون: فلان .. بعافية شوية!

كانت ثائرة جدًّا!

- هي بنتك دي مجنونة .. هي فاكراني شاذة ولا حاجة؟

- بس هي يا داليا مقلتش كدة ولا لمحت والله!

- بس ده معنى كلامها .. مش هي بتقولك أنها فرحانة أني اتخطبت وهتكلمني .. اشمعنى يعني؟

هذا الغثاء .. هذا الغثاء!

مزيج عجيب في تركيبته من سوء الظن وسوء الفهم وسوء كل شيء!

لا أدري كيف يمكن لشخص لا يفهم كلام عامة الناس الذين يخالطهم، أن يفهم كلام أهل العلم، ويسمي نفسه طالب علم، ويسمح لنفسه بالشرح والفتوى! كيف يمكن لإنسان يحمّل كلام وأفعال عامة الناس ما لا يحتمل، ويستنتج بعقله السقيم أمورًا لا تلزم أصلًا .. بل هو لا يفهم ما معنى اللازم

من قول فلان .. ثم ينصِّب نفسه حكمًا على أقوال أهل العلم تقوية وتضعيفًا .. ثم على القائل جرحًا وتعديلًا ومدحًا وذمًّا!

لكلٍ نصيب يقل ويكثر من هذا الداء، إلا من رحم الله، وسيؤول حاله إلى مفارقة القوم؛ فإن الوضع غير محتمل حقًّا!

الحقيقة أيضًا، أن التناول السلفي لقضية الشذوذ خاصة وقضية الشهوة عامة؛ تناول مشكل جدًّا. فتناول مشايخ السعودية لهذه القضية تحت عنوان "الإعجاب بين الفتيات"، صدَّر لنا صورة مشينة غير صحيحة عن الوضع في المملكة، وانتهز بعض من لا خلاق له هذا الأمر لترويج أن ثمة علاقة بين الفصل بين الجنسين وبين قضية الشذوذ؛ ليطعن بالكلية في قضية وضع الحدود في التعامل بين الرجال والنساء، عاوزينها سلطة يعني بلا ضابط ولا رابط!

هذا الكلام كان يقال في مصر أيضا على مدارس البنات بما في ذلك مدارس الراهبات، وكان يقال على المدارس الأزهرية أيضًا، ونسوا أن الغرب فيهم هذا الداء وهم يعيشون بلا رابط ولا ضابط أصلًا، ولا مانعَ من اختلاط ولا حجاب .. عفوًا! أقصد ولا ملابس!

أهي حيلة سخيفة لنشر الرذيلة وإشاعة الفاحشة بأنواعها؟! ربما!

وعلى الصعيد المصري فتناول القضية على النقيض، "ادفن رأسك في التراب"!

فالقادمة من المملكة تأتي ومعها مخاوف وظنون، قد تسألهم مررتم بشيء؟ رأيتم شيئًا؟ فلا تكاد تجد من رأى وسمع أو مر بتجربة إلا يسيرًا جدًّا، فقط

مخاوف وشكوك قد تبلغ حد الوسوسة، وتضخيم للقضية وتناول خاطئ لها...

"تصنيف المجرم كمجرم يجعله مجرمًا"! شنفت نورة أذني بهذه العبارة كثيرًا، والحقيقة .. أنها حقيقية!

أنا لم أظن في داليا ذلك، كل ما هنالك أنني كنت أفكر أنها تعاني من الفراغ، وأن خطبتها ستجعلها منشغلة نوعًا وتكف عن ذلك الأسلوب السيئ!

كما أنني لم أزد عن قولي إنني سأبارك لها! من باب أنها مسلمة، وأنني أعرفها، وأنها عندها حدث سعيد. لم أقل إنني سأجعلها صديقتي المفضلة لو لاحظتم.

سحبت اقتراحي "المشين"، وقررت أن السلامة في الجفاء و"الغلاسة" والجلافة وقلة الذوق للأسف!

التناول السلفي للشهوة تناول خاطئ؛ فالوعظ يوظَّف للتأنيب على "الشعور" بالشهوة أصلًا، ولا تمييز في الخطاب بين الوسوسة والشعور بالشهوة حقيقة، وكذلك قضية التعدد يتم تناولها بطريقة غير مسئولة في الخطاب العام، رأيت حالات... الله المستعان.

فحين يصاب الرجل بهوس الرغبة في تحقيق السنة بزعمه، ولا يفهم من السنة إلا الزواج بامرأة ثانية فقط، ويأخذ من المذاهب بسعادة بالغة أن حقوق المرأة أكل وشرب وملبس فقط، ونسي أن نفس هذه المذاهب تقول إنه ليس عليها خدمته، ونسي أن المذاهب تقول باستحباب التوسعة والنفقة وكل ما يدخل في حسن العشرة..

الآن المذاهب حلوة خضرة! وليتهم فقهوا المذاهب، بل ما فقهوها ولا فهموها ولا فهموا معالجتها الكلية للفقه وخطاب البشر، ولا فهموا حقيقة هذه الأحكام ولا تأصيلها ومواضع عملها وتعطيلها!

ثم إن المذاهب حين لا تتسق مع "عقولنا" تصير "إنما هي أقوال الرجال"، فصار الكوكتيل، و"الراجح" عند كثير من المتصدرين السلفيين إلا من رحم الله هو:

- **في حقوق الزوج:** استطل وعرّض، واجعل منه حارسًا للعفة على ذلك الشيطان القابع في منزله؛ فإنك إن تركت له فرجة خرج من القمقم عفريتًا من الجن فعاث فسادًا.. وكأن نساء المسلمين لا عفة لهنّ إلا بسيطرة ذكر ضيق العقل يحرم ما أحل الله!
- **أما في حقوق الزوجة:** ضيّق ضيّق! فإن معاشر النساء إن كسرت لهن ضلع نبت لهن أربع وعشرون! وإن بججتهنّ تبججنّ ففسدن وأفسدن.

فلا هم فهموا من المذاهب معنى القوامة وحسن العشرة وتحمل المسئولية وتربية الأولاد وإدارة البيت وملاطفة الزوجة والعيال والتوازن بين الحق والواجب ومتى نرجع إلى الحق والواجب فقط ومتى نتعامل بالمروءات والإحسان، وكل هذه التفاصيل المبنية على السنة وهدي النبوة، ولا هم تسننوا بأفعال النبي -ﷺ- مع زوجاته مما يقرؤون في كتب الحديث؛ بزعمهم أننا نرجع إلى الدليل!

فلا عجب أن تجد نتاج هذا التسلط من الذكور على الإناث: تسلط النساء على بني جنسهن تسلطًا مريضًا، أو تمرض هي نفسيًا للأسف!

قال أحد المتصدرين ناصحًا: "لو مراتك طلبت منك تروح لبتاع الذهب لوحدها طلقها"، **وقال** آخر ساخرًا: "سمعت واحد في السوبر ماركت بيقول لمراته: إيه رأيك في ده يا "بيبي"؟ ده بيقول ده لمراته .. أصل الناس في المدينة بتكون فافي شوية"!

حقيقة لم أفهم هذه العبارة، وما وجه النقد والسخرية حين سمعتها من ذاك الشيخ؟

وقال ثالث: "الزوجة الصالحة ليس عندها فيسبوك، أنا أريد أن أحمي أعراض الجيل"!

هذا ليس مثالًا أحاديًّا، بل هي ظاهرة! هذه أقوال لثلاث متصدرين مختلفين القدر والسن والشهرةوالاختصاص .. بل وفي أزمنةمختلفة!

وتربى الشباب على هذا الخطاب وأضعافه، فكان طبيعيًّا أن تجد عريسًا جديدًا يقول في الصباحية لصديقه في الهاتف وعروسه بجواره: عاوزين نشوف التانية ما هي دي "بونبونايةالدين"!

وكا عاديًا أن يتحول الدرس في المسجد إلى جلسة أنس للسخرية من المتزوجين بواحدة، وأنهم ليسوا رجالًا ولا فحولًا كاملي الرجولة، وأنهم مساكين؛ "إذا حاضت حاض معها وإذا نفست نفس معها"، وينسون أن هذه الكلمة لصحابي واحد جليل، وأنه حين تكلم كان ذلك في مجتمع مختلف عنا!

والويل لمن تعترض..

فسيف الخلط القبيح بين "كراهة حكم الله"، و"كراهة الطبع" مسلط على رقاب الكثيرات؛ فإنها إن لم تكن كفرت وارتدت بكراهتها زواج زوجها؛ فإنها على حافة الهاوية والهلاك، توشك أن تنسلخ من الملة!

وخناجر: "أنت أنانية يا أختاه"، و"تصدقي بزوجك يا غالية"، و"لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون"، وكيف سمحت لك نفسك بأن تستمعي بحياة أسرية وأخواتك بحاجة إلى الزواج..

فتحولت القضية إلى "جهاد" وواجب قومي وديني! ونسوا أنه لم يكن التعدد حين شرع هكذا أصلًا!

التناول السعودي للتعدد مختلف، فهو تناول أعقل نوعًا، رغم رفاهية المجتمع! فحين سأل زوجٌ بعض المشايخ: ما رأيك يا شيخ في زواجي مرة ثانية لأعف امرأة مسلمة؟ فكان رد الشيخ ضاحكًا: إذا كانت هذه نيتك؛ فتصدق لتزويج فتاة وفتى، فتكون عففتَ اثنين لا واحدة.

أولئك لم يفهموا مقاصد النكاح الأول ليفهموا مقاصد النكاح الثاني، ونضح هذا الفهم العيي على طريقة اختيار الزوج والزوجة؛ ففشلت كثير من الزيجات، وأدت طريقة تناول التعدد إلى بيوت متفسخة وأولاد ممزقين، وليس هذا هو مقصد الشرع لا من الزواج ولا من التعدد.

كم قابلت من متعصبات يعتبرن اشتراط الزوجة في العقد عدم زواج زوجها عمل محرم وشرط باطل قولًا واحدًا، والخلاف لا يسوغ، والفاعل آثم، والمفتي به مميع!

كم قابلت من متعصبين ومتعصبات لا يتصورون ما يمكن أن يؤدي إليه هذا السلوك القبيح من إلحاد وردة!

كانت تلك الأجنبية جاءت إلى مصر مع زوجها الأجنبي وأولادهم مسلمين ليتعلموا في الأزهر، فأراد زوجها الزواج وفعل؛ ففتنت المرأة فتنة عظيمة ولم تجد مخرجًا، وأيقنت أنها في غضب الله صباح مساء، وأنها من أهل النار قولًا واحدًا .. فعادت لبلدها بالأولاد وارتدت .. يالّا ما هي خسرانة خسرانة!

يقنِّطون الناس من رحمة الله، وليست تلك قصة واحدة!

ومنهن مصريات سلكن سبيل الإلحاد والردة[1]، عجزن عن التفريق بين الشرع وحامل الشرع؛ فظنّ أن ذلك الظلم في الممارسة هو الشرع ... **<u>وليس ذلك عذرًا لمن في ترك الدين وعدم البحث بجد عن مخرج صحيح ..</u>**

لكن .. لكن ..!

لكنه ليس بمخرجٍ لك من تبعة فعلك وقولك أيها الفاضل!

قد تكون أيها الفاضل المخلص لم تقصد ذلك ولا أردته...

لكنك يا سيدي لم تدرك أن الكلمة سيف له حد قاطع...

---

[1] هناك حالات إلحاد تسببت فيها السلفية وغيرها بسبب تناول بعض القضايا الحساسة بطريقة غير مسئولة، ولّد ذلك سخطًا وسوء فهم مع عجز عن التفريق بين الشرع الحقيقي وفهم البعض للشرع بسبب ترويج مبدأ: نحن الفهم الصحيح، فهم السلف الصالح، نحن الراجح؛ فصار الوضع: "مستحيل الدين يكون كده.. النتيجة: إذا كان هذا هو الدين؛ فالدين غلط"!

هناك حالات إلحاد تعتبر رد فعل طفولي للبلاء. هذا منه ما تسببت فيه السلفية وغيرها بسبب نشر سوء فهم قبيح للبلاء: "أنت مبتلى لأنك مغضوب عليك بمعصيتك، تب يرتفع البلاء"؛ فيتوب ولا يرتفع! فيكون بعض رد الفعل: "ما هي خسرانة خسرانة"، أو "ها أنا أتوب ولا يرتفع البلاء؛ فالدين كذب"! وغير ذلك من ردات الأفعال بسبب هذه الأغاليط، ومنه أيضًا: قضية أن المرض النفسي ضعف إيمان، ومصادمات =بجهالة مع بعض العلوم الصحيحة والمسلمات العلمية الصحيحة، ومنه ما يكون الإلحاد حالات نفسية أو ضعف عقل وغير ذلك... فالنقد الموجه للسلفية: لا ينبغي أن نكون سببًا في الإلحاد بخطأ من أقوالنا أو أفعالنا ننسبه زورًا للشرع. والكلام الذي أوجه لمن تأثر سلبًا من التيار السلفي: إياك أن تجعل دينك كبيت العنكبوت، تذكر: أنت تعاقب نفسك وتعرضها لسخط الله بسبب سوء تصرفات غيرك وأفكاره! هل هناك فكرة أكثر سفاهة من ذلك؟!

لـم تتصـور مـآل كلمتـك، ولـم تـربِّ طلابـك وطالباتـك على الحلـم .. فلمـاذا تصدرت؟!

نعـم كلمـا أدرك شـيخ فداحـة الفكـرة التي طرحهـا يومًـا، حـاول بعضـهم الإصلاح.. لكن.. سبق السيف العذل!

وبعض الإصلاح كان شبهًا بطين يختلط بماء فيزداد الطين بللًا!

فتنة سرت في العروق .. وصارت "راجحًا" عند بعض أفراد قومٍ يرجح أدناهم في الدين، مثله مثل ما يرجح أعلاهم ... والكل يفتي بلا معيار!

مجتهـدون بعـدد شـعر رأس غزيـر .. ومـذاهب مركبـة مـن خلطـات مبتكـرة عجيبة ..فوضى!

فهل ستدخل كل بيت لتناظر على كل فكر أصحابه؟ هؤلاء رجال وأنت رجل .. كما أنك قلت عن السلف أنهم رجال وأنت رجل!

ستقول: لابد من العلم ..

جِد إذن معيارًا موحدًا لا بالهوى .. وأنت تعلم أن معيار العلماء قد يخرجني وإياك أيها الفاضل من دائرة أهلية الإفتاء ولكن أنت لا تقبله؛ فلم تطالبني بقبول قولك المعلق في الهواء، "أنا أهل وأنت لست بأهل؟!".

أنت من صنعت بدعة "الراجح عندي"، وصار كل متخلق بالـ"عند" عنده "عِند"!

لـم أنس قصـة تلك الصـديقة التي تـزوج زوجهـا مرة وطلق، والثانيـة وطلق، وكان سـريع الغضب، يضـرب ابنه الصغير ضربًا عنيفًا جدًّا! ثم إنه كان لـه صديق طلق زوجته ثلاثًا وله منها ثمانية أبناء، ولم تخرج من البيت الضيق

لأنه لم يكن لها مكان تذهب إليه، فاقترح على زوج صديقتي أن يتزوج طليقته؛ ففعل.. وقصة الزواج مأساة .. ولم يكن له بيت يسكنها إياه!

ولا يمكن أن أنسى تلك الصديقة التي كانت تقص قصة زواج زوجها الذي لا يجد ما ينفق في بيته الأول، ثم أخذت تدعو بحرقة على بعض المتصدرين المشاهير؛ لأنه كان سببًا بخطابه في تلك المأساة التي تعيشها وزوجها مع التعدد!

وكم من رجل تزوج الثانية وليس لديه بيت لها؛ فأسكن الاثنتين في بيت واحد، زاعمًا أن هذا كلام العلماء، وأن الدليل يقتضي أن غرفة واحدة تكفي مسكنًا، فبيت فيه غرفتان يكفي زوجتين! وثلاث غرف تكفي ثلاث زوجات! ومن تزوج فرزقه على الله يرزقه من حيث لا يحتسب!

مأساة!

ليست فردية .. هي ظاهرة، وليست سلوكيات أفراد لا علاقة للمتصدرين بها، بل المتصدرون يحملون كفل سوء التربية، وسوء تناول القضايا، وسوء طرح الحلول، وضيق الأفق في مزيج مؤسف.

ينضم إلى قلة الفقه وفوضى الفقه –للأسف-؛ قضية الغيرة على النساء وسوء فهم معنى الدياثة ..

مأساة!

التعامل مع الزوجة بغيرة مرضية وتغول وتسلط بما يقتل نفسيتها تحت بند الفحول والرجولة والغيرة عليها! وليته بالمقابل قضى حوائجها النفسية والمادية!

قضية العادة السرية[1] وتناولها باعتبار أنها هي ذنوب الخلوات، وأن من سقط في مثل ذلك منافق انتهى أمره، ولا حظ له من العافية والرحمة، وعدم التفريق بين الصغائر والكبائر ومراتب الذنوب.

أن أسمع من حمقاء خرقاء لم ترفع يومًا بالدين رأسًا أن: ممارسة الشذوذ وتفريغ الشهوة مع فتاة مثلها أفضل من العادة السرية وأفضل من صداقتها للذكور، قد أحتمله وأصبر وأشرح لها أن هذا غلط، لكن أن أسمعه من منتقبة تظن في نفسها الفقه، وأنها قرأت وترجَّح "عندها" هذا! **فهذا لا يحتمله العقل**.

نعم، هذا الصنف المتطرف جدًّا قليل ما هم؛ لكن أليس هذا نتيجة لتسور كل من هب ودب سور العلم وتقحمه الترجيح بلا أهلية، ونتيجة التعتيم وعدم تناول هذه الأمور بالشرح في نور المساجد بطريقة علمية صحيحة سوية!

إن المجتمع قد يتعامل مع قضايا الشهوة بطريقة خاطئة، لكن الدين والداعية إليه يأتي ليصحح المعتقدات والأفكار وينقي الشوائب ويصحح المسارات، لا يأتي الداعية لشرعنة أخطاء المجتمع ولا لدفنها تحت ستار براق والاستدلال لأفكار المجتمع الحمقاء العقيمة!

حين طالبت أكثر من داعية أن تستضيف أخصائية نفسية لشرح قضية الشذوذ وخطورتها على المجتمع وسبل علاجها كان الرد: لأ؛ عشان هيتقال

---

[1] وعلى الصعيد الآخر؛ من يتوسع في تجويز وإباحة العادة السرية ولا يتفطن إلى عواقب ذلك على بيوت المسلمين، حيث تؤدي إلى ضعف الاستمتاع الطبيعي مما قد يدفع ضعفاء النفوس إلى الرذيلة بحثا عن الإشباع.

أن المنتقبات شواذ! فهل هذا سبب مقنع؟ مفسدة متوهمة أصلًا؛ لأن هذا ليس خاصا بالمنتقبات ولا هو خطاب لهنّ، بل لجميع المسلمات ..

وهذه آفة أخرى .. عقولنا مبرمجة على خطاب(نا) لا خطاب المسلمين، وهناك خطر قد يستفحل لو تُرك بلا علاج سليم! كلام الناس، لا بيقدم ولا يأخر، والتوعية مهمة جدًّا.

أن تجد موضوعًا في منتدى إسلامي عنوانه قبيح، ومضمونه جواز إتيان المرأة في الدبر؛ لأن ذلك هو الراجح عند كاتب الموضوع! نعم حُذف الموضوع أو ثار الأعضاء وردوا عليه، لكن أليس هذا أيضًا نتاج "فقه الفوضى"، مع "سوء تناول هذه المسائل بما يشفي في نور المساجد بعلم وأسلوب مناسب"! قد يقول قائل: هذه المسائل قال بها قديمًا بعض الفقهاء، فلماذا لا تجوزون الخلاف؟

فأنقل للحافظ ابن رجب كلامًا ثمينًا من رسالته: الرد على غير من اتبع المذاهب الأربعة:" وأما الأحكام ومسائل الحلال والحرام، فلا ريب أن الصحابة والتابعين ومن بعدهم اختلفوا في كثير من هذه المسائل اختلافًا كثيرًا، وكان في الأعصار المتقدمة كل من اشتهر بالعلم والدين يفتي بما ظهر له أنه الحق في هذه المسائل، مع أنه لم يخل من كان يشذ منهم عن الجمهور عن إنكار العلماء عليه، كما كان ينكر على ابن عباس ﷺ مسائل متعددة ... وأنكر ذلك على أتباعه أشد من الإنكار عليه، حتى كان ابن جريج لما قدم البصرة إذارآه الناس دخل المسجد الجامع رفعوا أيديهم ودعوا الله عليه لشذوذه بتلك المسائل التي تلقاها عن أصحاب ابن عباس، حتى أنه رجع عن بعضها قبل أن يخرج من عندهم." اهـ

فانظر إلى قوله:" كل من اشتهر بالعلم والدين يفتي بما ظهر له أنه الحق في هذه المسائل" وانظر إلى إنكار الناس على من يشذ .. وارجع البصر مرارًا، هل في أعصارنا من بلغ في العلم رتبة الإفتاء بما يظهر له، مع غلبة الديانة؟ وإذا كان في تلك الأعصار من ينكر على من شذ بالأقوال، كائنًا من كان، فماذا نفعل في أعصارنا التي صار فيها المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، وكثر المدعون، وقل المحققون، واشتهر الرويبضة، وخمل ذكر العالم بحقه!

فهل هناك وسيلة للنجاة من تداعي الخطأ، واطراده إلى ما تقبح عقباه؟

إلى الله المشتكى

عانيت كثيرًا في بداية التزامي و أنا بعدُ في الثانوي لأفهم معنى الحديث "الماء من الماء"، ومتى أغتسل؟ ومتى أتوضأ؟ وما الاحتلام؟ وكل هذه الأحكام ... وأنا لست قليلة الثقافة ولا المعرفة، فقط أريد الأحكام الشرعية المتعلقة بهذه الأمور.

كل من سألته من المعلمات حينها أشعرنني أنني أسأل عن تابو محرم، يسألني:

- أنت متزوجة؟

- لأ

فيكون الرد غامضًا مختصرًا مخلًّا، إلا واحدة فقط فتح الله عليها وكانت تفهم الفرق بين الخجل والحياء! .. آجرها الله خيرًا.

قد يصر البعض أن هذه ليست ظاهرة ولا تستحق التناول بالنقد بل الستر أفضل، لكن الحقيقة أن هذه ظواهر متعددة ناتجة عن خلل أساسي في اتجاهين أساسيين: اتجاه دراسة الفقه، واتجاه التناول الوعظي والعلمي للقضايا الشائكة.

لم تكن **(غيداء) منتقبة ولا حتى سلفية** .. فقط وقفت معي في الجامعة تسألني في خجل عن بعض أحكام الطهارة، ولأني ذقت وبال كتم هذه الأمور؛ فقد شرحت لها كل ما أعرف .. وتجمع البنات وشرحت ما عندي للجميع، لكن كريمة المنتقبة أبلغت والدتها بالحوار، فقامت بالتحقيق والتدقيق، ثم قررت أن (غيداء) عندها مشكلة أكبر من مجرد هذه الأسئلة التي طرحتها عليّ، واتصلت بي ثم قررت أن (غيداء) شاذة!

كانت طريقة أم كريمة في الاستنتاج فيها هوس، وكانت تريد التشهير بـ(غيداء) وتحذير البنات منها ونبذها؛ لأنها "تفاحة فاسدة" خبيثة، ستضحك على البنات وتوقعهن في شراكها، ولكني لم أر ذلك!

- لكنها لم تفعل شيئًا .. واحنا مش هنتضرر لو هي تحت عنينا، والبنت فيها خير وبتسأل عن الدين، في حين لو طردناها هتروح في سكة مش كويسة، وممكن تشوف شلة فسدانة فعلًا...

- لا، أنا مش هغامر ببنات زي الفل.

- محدش فينا مفتون بيها، والشذوذ ده شيء مخالف للفطرة والمنطق، تنفر منه الطباع السوية .. مفيش خطورة فظيعة كما تظنين .. والبنت شكلها مش شاذ أصلًا!

لكن طبعًا الدليل الأخير في أي حوار لإقناعي هو: أنا ست كبيرة وعندي خبرة، وفاهمة حاجات أنتم مش فاهمينها!

والله وأنا عندي ماما بتفهم وبناقشها، **وطريقة الفضح والتشهير والهجر ده أسلوب فاشل**، ومش مشروع أصلًا بالصورة دي!

أخذتُ (غيداء) وذهبت عند الخالة ليلى، هذه البنت فيها خلل وتعرضت لتجارب سيئة. بعض التجارب فيها ممارسات شاذة .. لكن فيها خير وتريد التوبة وصحبة صالحة، اتفقت كلمة الخالة ليلى مع كلمتي، وكل ذلك بعلم أمي -رحمها الله- وموافقتها؛ هذه فتاة طيبة، لا ينبغي التعامل معها بطريقة خشنة ولا طردها ..

لكن (كريمة) وأمها لم يسكتوا، جدل وكلام وقيل وقال، وأنا صبري نافذ، وإرادتي حديدية تتصلب بطريقة طردية مع العقول المتحجرة الجامدة؛ فرس عربي جامح، كلما أراد قليلُ عقلٍ تقييده بسرج ولجام لا يناسبانه؛ أسقطه الفرس ورفع رأسه ثم أكمل طريقه في إباء وشمم! ثم إن لساني حادٌّ صارم حين يتعلق الأمر بمحاولات السيطرة ..

مطاردات هاتفية وجدل أنهيته أن الخالة ليلى توافقني؛ فاتصلت أم كريمة بالخالة ليلى، لا أدري ما قالته لها، لكنه كان بلا شك فيه الكثير من الأكاذيب، ووصلني هذا من الخالة ليلى التي كانت غاضبة جدًّا حين اتصلت بأمي، وتحول الأمر إلى "ضرورة سماع الصغار لكلام الكبار والأدب معهم".

أقولها لكم أنا بطريقة أخرى .. لازم سارة تسمع كلام أم كريمة وإلا .. الويل والثبور وعظائم الأمور!

فليكن إذن..!

نفضت يديَّ منهم جميعًا .. وليقل من شاء ما شاء ..

أنا سلفية حرة .. أتبع الدليل، وسأحاسب بناء على عقلي وحدي .. شديدة الاعتزاز بمواهبي، ثم أصلًا أنا أفتي نفسي، ولا أقبل فتوى من أحد من هؤلاء؛ فلست مقلدة لأحد!

وهذا وإن كان أغلوطة سلفية أنتقدها، إلا أنه في تلك الفترة كان رحمة من ربي؛ فلو لم أستقل بعقلي؛ إذن لانسقتُ خلف كثير من المصائب، فكان ذلك سببًا لحمايتي من الاستسلام لكثير من الأفكار المدمرة التي سَرَت في التيار السلفي، رغم أن نفس هذه الأغلوطة كانت سببًا لضلال أناس في غيابات وشُعَب وتيه لا فكاك منها.

لهذا حين أتذكر لطف الله وعنايته؛ أشعر أنني راضية كل الرضى عن تدبير الله ولطفه في أقداره -سبحانه وتعالى-.

المهم ... أن تغير الخالة ليلى رأيها لجدل أو لكذب فلانة، أو يكون ذلك سوء تفاهم؛ سيان!

لست -يا سادة- لعبة في أيدكم ولا عروس ماريونت يحركها من شاء منكم كيف شاء! الفتاة تحت حمايتي، ولتذهبوا جميعًا حيث شئتم، ولتفعلوا ما شئتم، لن أشارك في تلك المهزلة!

وبقيت الفتاة معنا مثلها مثل غيرها..

لكن هذه الطريقة السيئة في معالجة الأمر أدت معي إلى أخطاء في معالجته، كثير من التردد والحيرة .. **وحيدة أنا!**

مثلًا لم أكن أجرؤ على دعوتها إلى مسجد وحلقات القرآن إلا بعد الاتصال بمسئولة المسجد وأذكر أن معي حالة ما بدون تفصيل، فيكون الرد غالبًا

بالرفض، وبقيت القضية لا تعالج بطريقة صحيحة، ولا يتم التوعية لها بطريقة علمية.

وعلى الصعيد الآخر فخطاب مشايخ المملكة في هذه القضايا أدى إلى الوسوسة والشك في كثير من التصرفات العادية وسرعة الاتهام لكل من بدر منه بادرة يمكن حملها على حسن الظن، فكان قراري ذاك أتحمل أنا مسئوليته وحدي .. ولم أجد لي معينًا حقيقيًّا! لكن بسبب هذا وأمثال هذه المواقف التي فيها الكثير من ضيق الأفق وقلة الثقافة والمرونة والعلم الدنيوي والشرعي؛ رويدًا رويدًا، فقدتُ الثقة في عامة المتصدرين حتى على صعيد الثقافة العامة والتصرفات العادية... ووثقت في عقلي فقط!

اتقي الله السلفية المعاصرة مش هي السبب في إلحاد الناس!"

نعم السلفية المعاصرة وخطابها البائس مش هي "السبب"، لكنها ..

سبب!

نعم، هي سبب بلا أدنى شك عندي. وأنا متفهمة أن ارتباط الأسباب بالمسببات التي أدت للنتيجة يختلف فيه العقلاء، وأنه يعسر على كثير من الناس الربط – وأتفهم اعتراضكم على ربط هذا بذاك، مع أنكم "بتهروا" طول النهار في أن: كذا سبب كذا، وأن نتيجة كذا هو كذا..-.

لكني أرجو أن تتفهموا أيضًا لماذا أقول هذا:

إن ديننا دين فطرة، ونحن في زمان فتن وانفتاح كبير جدًّا؛ فإذا اجتمع جهل مع خطاب متعارض مع الفطرة، وكان الموضوع والأسلوب لا هو مضمون كلام النبي ولا أسلوب النبي - ﷺ -، ولا هو مضمون كلام وفهم الصحابة بحق، ولا هو أسلوبهم في الفقه، ولا هو فقه الأئمة، ولا هو أسلوبهم في الفقه... **سلفية إزاي دي؟**

وهذا الخطاب لا يُقدم باعتباره وجهة نظر صاحبه، بل يُقدم باعتبار أنه هو الدين الحق، والراجح الأوحد، والورع والسنة والاتباع، وما عداه تمييع وخطأ!

فمن الناس من ينفر من الدين كله ظنًا أن الدين هو ذلك المسخ المشوّه..

ومنهم من استجاب لهذا الخطاب ثم عسُر عليه، فاتهم نفسه أو اتهم الدين...

ومنهم من لا يستجيب أصلًا لتعارض الخطاب مع قدرتهم أو فطرتهم أو حتى هواهم...

ومن هؤلاء لم يستطيعوا تخطئة من استجاب وثبت ولو في ظاهره؛ ولهذا فكثير منهم ظل يعاني... وهذه المعاناة نفسها قد تؤدي إلى ما لا يحمد عقباه..

وهل نعذُر من انساق في طريق الشيطان ونبرر له؟ لا، أنا فقط أفسر لكني لا أبرر ولا ألتمس له عذرًا!

بل أقول له: دينك يجب أن يكون أعز عليك من كل شيء، ولا تسمح لأحد أن يهدم الإيمان في قلبك، العقل لا يخالف الدين، الفطرة لا تخالف الدين، العيب في فهمك، أو في فهم متصدر جاهل أو كذاب، لكن العيب لا يكون في دين الله أبدًا.. اصدق الله يصدقك!

من أراد الحق وتضرع للرب وصلَ إلى طريق الرب -جل وعلا-.

ولومي على أصحاب هذا الخطاب المشوه لا يعني أنني ألتمس لك العذر في ترك دينك أو الشك فيه!

من فعل هذا فهو الخاسر .. سيحاسبهم الله على ما أخطأوا فيه، ويحاسبكم وحدكم على اختياركم وفعلكم وعلى ما في قلوبكم .. فاصدقوا الله واطلبوا رضاه.

صديقتي

تلك الفتاة المختلفة عني في كل شيء، في خلقتها وجوهرها، دعكن من الخِلقة، ولنتحدث عن الجوهر.

هي هادئة جدًّا جدًّا جدًّا، وأختكم في ذلك الحين سريعة الغضب إلى درجة أنهم يتوقعون أن أنفث اللهب كالديناصورات، وأن تنفث هي حبات من لآلئ الجليد! أنا أعشق الرياضيات والهندسة والنحو، وهي تبغضها كما نبغض الموت والفقر والمرض، ثم هي تعشق التاريخ واللغات وكل المواد الأدبية، وأنا أشعر مع هذه المواد بأنني غبية. وهذا هو جوهر الاختلاف، لكن أبدًا لم يكن جوهر الخلاف، بل كان جوهر التوافق المدهش تمامًا كما تتجاذب أقطاب حجر المغناطيس المختلفة.. وتلك تشبيهات فيزيائية مؤتلفة.

أول لقاء بيننا -كالمعتاد- كانت تشعر أنها لن تستطيع التعامل مع كتلة النار الحارقة التي هي أنا! هذا وهي لم ترني بعد متألقة بشذرات الغضب الحارقة، ورغم ذلك كانت ترتجف فرقًا.

كان أول لقاء في الجامعة، وأنا بعد ساكنة هادئة، لكنها رأت النيران المشتعلة تحت رماد الابتسامة المفتعلة.

لم أعرها اهتمامًا؛ لأني رأيت برودًا سميته في الحال سلبية، وكانت معاملتي معها من قبيل هز الرؤوس بالتحية والابتسامة الباردة المنسية!

وعندما يزداد (الوداد) تقول أو أقول في اشمئزاز: أهلًا!

والأفضل أن نسلم بتحية الإسلام على جماعة الجالسين كي لا تخصني أو أخصها بالتحية!

ثم جمعني بها لقاء في نفس العام، ثرثرنا فيه كثيرًا، وصدق من قال: "تكلم حتى أعرفك"!

وقد انتهى هذا اللقاء بأن كان لبنة صداقة ومحبة في الله لا انفصام لها -إن شاء الله-، مهما غابت أو غبت، نعود لنثرثر كأن الزمان لم يفصل بيننا بالفراق!

فما الذي سأقصه عليكم من قصص صديقتي؟!

ꕥ

قالت: لما تعجزي أنك تنطقي حرف كويس .. ادعي.. احنا بندعي ربنا في حاجات أهون بكثير من ده.

واتصلتْ بداليا يومًا فقالت لها: ليه بتعملي كدة مع سارة؟

- أنا بدفع بالتي هي أحسن!

- بس الدفع بالتي هي أحسن بيؤدي إلى زوال العداوة، واللي أنت بتعمليه ده بيزودها! يبقى أكيد فيه حاجة غلط.. وأنت كدة مش بتدفعي بالتي هي أحسن ولا حاجة!

مما أتذكره لـ (سلوى) .. معلمتي الصغيرة سنًّا الكبيرة في قلبي قدرًا!

تظنون أنها هي من عنيتها بـ صديقتي؟! لا! لم تكن هي "صديقتي".

ꕥ

لا أدري بالتحديد متى بدأتُ أقتنع أن هذا الكائن البارد يصلح لتبادل المعلومات والأفكار، ولا أدري أيضًا متى قررت هي ذلك، فقط وجدنا أنفسنا أصدقاء..!

وأصدقاء بين النساء يعني الكلام... الكثير من الكلام... كلامًا كثيرًا! كلامٌ من بعده كلام... كلامٌ... كلام...!

ولأنه يفترض أننا أخوات نرغب أن نكون على (الجادة).. فلم يكن الكلام مثل أي كلام، فأكثر الكلام الذي كان بيني وبين صديقتي هو من موقف فعلْتُه أو موقف فعَلَتْه، ثم نقيّمه وننقّحه ونفنّده، ونحقّق في نوايانا، ونقرّر منه ما وافق الشرع وما خالفه، وما الذي يحسن إن تكرر أن نفعله. وكم استفدتُ من هذا الحوار، وكم قعّدنا من قاعدة شرعية، وكم أصّلنا من قواعد دعوية، نعم ((قعّدنا)) القاعدة، وأصّلنا المسألة .. وأشهر قواعدنا هي قاعدة: الضرر يختلف عن المفسدة!

لهذا أدركت باكرًا أن ترك الدعوة والنصيحة والبيان لضرر ليس محمودًا كترك ذلك لمفسدة حقيقة لا متوهمة. قد يكون رخصة لكنه ليس هو الحال الصحيح الأفضل المقدم دومًا... كان التطبيق فيه خلل، لكن على الأقل هناك مبدأ صحيح يتكون داخلي!

قصصتُ عليكم في مقال بعنوان (صديقتي)[1] بجزأيه بعض المواقف.

الحقيقة وأنا أقرأ المقال، تأملت في كلماتي، ورأيت ذلك الداء الذي لم أكن أراه من قبل حين كنت داخل القوقعة. قد ترون أن ما كتبتُ يعتبر من ألطف الأدبيات السلفية في التعامل مع (الآخر)، وكنت أرى ذلك وكان يراه

[1] منشور على الشبكة.

من حولي من السلفيات أيضًا، لكن الأمر يختلف حين تخرج من الظلمة ثم تلتفت خلفك لتشاهد هذا الكهف العطن، حين تشم رائحة الورد والريحان والفل والياسمين ثم تقترب في فضول من ماضيك العطن، فتذهلك رائحته الكريهة! حين تغتسل بعد أسبوع أو أكثر من العرق، بماء ومعطرات ثم .. تشم رائحة ملابسك!

هل سأعيد قص بعض ما قصصت قبل لتقارنوا بين اللهجتين؟ ربما! وإن هذا لأمر مغر جدًّا، وإن كانت المقارنة الآن ولو بغير إعادة صياغة لعين المواقف .. فاضحة!

اللهم استر واغفر وارحم واعف عنا وتكرم.

ꕥ

عندما رن الهاتف واتصلتِ بي لأسألك في روتينية... لماذا كنت غائبة؟! (هي المتصلة).

فتقولين: كنت على سفر!

فأهتف في دهشة والآن عدتِ؟!

لتهمسي في نفسك في سخرية: الحمقاء تظن أنني أهاتفها ما أن عدتُ من السفر! ثم تقولين في لباقة بصوت عال: بل عدتُ من يومين، ثم تنتقلين للسؤال عمّا كنتِ تريدين!

وقتها ما كنتِ تتوقعين أن تسارعي يومًا إلى الهاتف كلما عدتِ أو خرجتِ من البيت ... لتتصلي بي!

وما كنتُ أتوقع أن أفعل ذات الأمر معك!

ꕥ

من أين أبدأ؟ ومن أي منحنيات الذكريات أمر؟!

أمِن حين تغيرتُ[1] أم من حين تغيرتِ؟ أم من .....؟!

لعل المناسب أن أبدأ من البداية، حين جلستُ أستمع في ملل بعد انتهاء دوام الدراسة إلى قصة حياتك!

لستُ أتذكر ملابسات الجِلسة.. كما لستُ أدري ما هي الخصلة الحسنة في أخلاقي التي دفعتني يومها للجلوس أستمع في سأم حقيقي لما تقصينه عليّ، وأشرد بذهني وأتساءل: متى ستنتهين؟ وماذا تريدين؟! لماذا تقص عليّ كل ذلك وهي ليست صديقتي؟!

لستُ صديقتها وليست صديقتي!

[1] هذا مما كتبتُ في المقال الأصلي، والقصد بالتغيير في ذلك الوقت هو التغيير داخل محيط السلفية.

لم تكن **وقتها ترتدي النقاب**، وقد مر آنذاك على "**التزامي**" عامان!

عامان قضيتهما بين أوراق المذاكرة في مدارس الراهبات أتحداهم ويتحدونني.

عامان لم أتخلق فيهما بخلق إلا التحدي، والغضب، والشدة، والجفاوة، والوحدة.

عامان ما بين الأوراق والكتب، ونظرات التحدي، والابتسامات القاسية، وتلك نقطة مشتركة بيني وبين صديقتي؛ فقد كانت في مدارس الراهبات أيضًا[1]. كان حظي من العلم الشرعي آنذاك أن من ليس معي فهو ضدي، ومن لا ترتدي النقاب فهي بالتأكيد حمقاء متساهلة مفرطة في أمر دينها، ترجيح الحرام واجب شرعي، والأخذ بالأصعب والأشق هو الراجح دومًا للترهيب حتى يقنط السامع من رحمة الله، أما الترغيب فهو أمر ينم عن ضعف الدين والتقى[2]؛ **فما ظنكم في ظني بها؟!**

على أي حال، اعتبرتها سلفية مقصرة، أو محلًّا للدعوة حتى نرى!

ولأنها كانت تربية أ.سلمى ومسجدها الأول؛ فالأمر قريب ويسير، لكنني لما اقتربت من تلك المساحة الإنسانية الدافئة .. صارت صديقتي!

[1] قصصت طرفًا مما حدث لي في تلك المدارس في سلسلة على الفيسبوك بعنوان: "مغامرات في مدرسة الراهبات".

[2] غالب هذه العبارات كتبتها من خمس سنوات أو أكثر في ذلك المقال بعنوان: "صديقتي"، وكنت وقتها لازلت سلفية.

جلستُ يومها أستمع لها في ملل ويسقط جل ما تقول من ذاكرتي وأنا أتظاهر بالاهتمام ثم افترقنا...

أتتني في اليوم التالي تقص علي بهدوئها المعهود وأستمع لها بسأم مكدود، فقرعت أذني كلمات :"الكلب... طفقت أجري .. تذكرتُ أنني نسيت الأذكار.. صرخت يارب... انصرف... قال أحدهم ....."

قلت لها وأنا لا أفهم: ماذا حدث ؟!

كانت تقص بنبرة لا أثر فيها للانفعال، ابتسامتها متألقة كما هي! لا أدري ما الذي يربطني دائمًا بهذا النمط الهادئ؟ ولكن الحقيقة أن أقرب صديقاتي دائمًا ما يكن هكذا! وكأن الأقطاب المختلفة تتجاذب.

قالت صديقتي: نسيت أقول الأذكار يوم ما قعدنا مع بعض وأنا راجعة، قعدت أفتكر الحوار ومشيت في الشارع وأنا أفكر وأفكر، ولم أنتبه إلّا على صوت الكلب والنباح، نظرت خلفي لقيت كلبًا كبيرًا شرسًا يجري خلفي، وطبعًا طلعت أجري، وقفز الكلب على ظهري فوقعت على الأرض، وشعرت بأسنانه الحادة على نعل حذائي! جعلت أصرخ يااااااربي... تذكرت أني لم أقل أذكار المساء، عاهدت ربي في ثانيتين ألا أترك الذكر، ثم استسلمت لقدري، ولا يردد لساني إلا قولي: يارب! وقد تعلق قلبي بالله وحده!

الثانية الثالثة، انسحب الكلب، مش عارفة ليه انسحب! بس ده اللي حصل، وأقبل رجل أمن يحرس بنكًا بالشارع لهنئها على السلامة ويقول: سامحيني يا أختي كنت خايف، الكلب ده قطع واحد من يومين، أنا مش عارف سابك ازاي!

جعلت صديقتي تنظر إلى حذائها الذي كان في فم الكلب من لحظات، وتتفحص جسدها مندهشة، وتقلب كلام الرجل في ذهنها، ثم أكملت

طريقها، وجعلت تحمد الله وهي توقن أنه هو سبحانه الذي أنقذها، ثم جعلت تردد أذكار المساء بمنتهى الأدب!

كان هذا الربط من صديقتي، وتلقفته أنا وكتبت عنه في مقال.

هل كان ذلك أثر الوعظ السلفي نصًّا أو استنتاجًا؟ نعم، ربما. وكذا كثير من الأفكار تنتشر فينا بلا تفكير منطقي ولا تدقيق، مجرد فكرة قيلت من شخص له قبول ما، فيتلقفها غيره وتنتشر وتتوغل وتسري، ولا يعرف أحد أين بدأت؟ ولا مَن كان أول قائل؟ بل يظن كل واحد أنه أول من قالها، وأنها عن قناعة خاصة واستدلال صحيح. لهذا يفحش فينا الاستدلالات السطحية الواهية؛ لأن الأخذ ليس تدقيقًا عن العلماء.

وهذه كلمة أقولها وأنا طالبة علم كنت أعتبر نفسي مدققة نوعًا، وأنني لا أقبل كل ما يقال، بل لابد من مراجعته ورده إلى مصدره، فلكم أن تتخيلوا حجم الكارثة فيمن لا يطالع الكتب، ويكتفي فقط بالأشرطة الشهيرة وجلسات الأنس والود مع الأصحاب كمصدر للعلم والفقه والوعظ!

ربط التقصير بالبلاء بين الخطأ والصواب!

هل فعلًا الكلب حين هاجمها كان لأنها لم تقل الأذكار؟ أنا لا أشك لحظة أن الله -عز وجل- دفع عنها لأنها بلغت حدًّا من الافتقار والدعاء الصادق، لكن هل فعلًا وقع البلاء لأنها لم تقل الأذكار؟ ربما كانت هذه الفكرة مثالية أكثر من اللازم، أو تصلح كدرس للأطفال ليحافظوا على الأذكار، ربما تمر عليكم مر الكرام، أو تُكبِرون ذلك في تفكيرنا، أو تنتشر فيكم كما ينتشر النار في الهشيم!

ما خطورة تلك الفكرة التي تبدو رائعة جدًّا ومثالية جدًّا وطاهرة للغاية؟! وما الفرق بينها وبين الصواب؟

سأقول لكم بصراحة: هل تظنون أننا -معاشر المسلمين- حين نحافظ الأذكار فقد ضمنّا ألا نُصاب ببلاءٍ أبدًا في يومنا وليلتنا؟ فإذا وقع بلاء وقد قلنا الأذكار وقع شك في القلب؟!

أو تظنون أن كل يوم نترك فيه الذكر يقع فيه بلاء معين يصلح للربط بين الأذكار بالذات والبلاء؟

الذكر حافظ بلا شك، والمقصر فيه أقرب لأن يُبتلى، الذكر يحفظ الإنسان ويجعله في معية الرحمن بلا شك، وكذا الطاعات، وتقع البلاءات بالذنوب أيضًا .. كل هذا صواب في أصله لكن الفكرة ... الفكرة!

هل تظنون أن غاية التقصير والذنوب التي نواقعها كل يوم هو "ترك الأذكار"؟

{وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}؛ لو عاملنا الله -عز وجل- بعدله لما وجدنا راحة ولا هناء في يوم ولا ليلة.

نعم يقع البلاء بالذنب، ويقع ليرفع الدرجات، ويقع ليكفر السيئات، ويقع لنتأدب مع الرب -جل وعلا-، وحكمة الله -تعالى- في تربية العبد أكبر من أن يحيط بها عقل!

أما حصر وقوع البلاء في نسيان الأذكار "**فقط**" بحيث ينطبع في ذهن السامع والقارئ أن غاية ذنوبنا كانت أننا نسينا الأذكار فحسب!

كم من يوم ننسى، بل نترك عن عمد كثيرًا من الأذكار ولا يهاجمنا مثل هذا الكلب؟

إن البلاء للمؤمن في كل أحواله خير ورفعة ومكسب، وفي الحديث "**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**".

لماذا نظن أن البلاء إن وقع لنا -معاشر الملتزمين- فهو "**لفت نظر**" لتقصير بسيط جدًّا: "**السهو عن الأذكار**"؟ وكأن هذا غاية ما نقصر فيه! لماذا نرسم هذه الصورة لأنفسنا ونحن نوقن أنها ليست صورة حقيقية، ونترك الناس يرسمونها لنا؟

كذبة سَرَت وصدقناها! وقد نظن أننا فعلًا لا نذنب إلا مثل هذه الذنوب اليسيرة..

عفوًا هذه ليست ذنوبًا، هي نوع تقصير لا يليق بالأولياء الكمّل.

ثم إننا نبطن ظنًّا آخر: أن فلانة أصابها ما أصابها مثلًا لأنها متبرجة، وتبرجها هذا أصلًا قد لا يُسمّى تبرجًا عند أهل العلم؛ بل هو مما يسوغ الخلاف فيه، أو لأنها متنمصة[1] رغم أنها استفتت ثقة، لكن عندنا النمص حرام قولًا واحدًا بالإجماع بلا خلاف طبعًا، خلافًا لجمهور الفقهاء!

وكذلك نظن أن فلانًا أصابه البلاء لأنه حليق اللحية أو لأنه مذنب هذا الذنب بعينه أو ذاك الذنب أو أو ...

فـ(**غيرنا**) يصيبه البلاء بذنوبه الفاحشة جدًّا من وجهة نظرنا، التي أصلًا قد لا تكون ذنوبًا إلا في أعيننا؛ لأننا متقوقعون في فتوى القول الواحد! وأما نحن فنصاب بالبلاء لأننا قصرنا فقط في "**أذكار الصباح أو المساء**" ونحوها..!

[1] صبرًا لآخر القصة فضلًا.

وماذا عن الخشوع في الصلاة؟ والنوافل؟ القيام؟ الصلاة نفسها! عقوق الوالدين، وما أخبار الغيبة، النميمة، سوء الخلق وحُسنه، ما أخبار الكبر والعجب والرياء والنفاق والشقاق والكذب والخيانة ..... إلخ، هل سَلِمنا من كل هذه الموبقات، ولم يبق لنا من ذنب يبتلينا الله بسببه إلا فقط .. تقصيرنا في أذكار الصباح والمساء؟

أتدرون؟ كثير منا يربط هذا الربط مع الأذكار أو غيرها من الأمور البسيطة على سبيل الهروب أو الإزاحة النفسية؛ لأن باقي الذنوب تم تحييد أثرها السلبي بـ(**شرعنتها**)؛ فالغيبة ليست غيبة إذا صدرت منا لأننا أصلًا أطهار، وما ارتكبناه من غيبة إنما كان من مواضع الاستثناءات الستة بلا شك، بل هي واجبة دفعًا للمنكرات وإنكارًا لها!

ولحوم العلماء... أصلًا العلماء هم شيوخنا، فلحومهم مسمومة، وسائر علماء المسلمين صينية فتة باللحمة، تؤكل تقربًا إلى الله وجوبًا!

العقوق؟! عن أي عقوق تتحدثون؟ هؤلاء الآباء محادون لله ورسوله، ولا يغرك قول شيخ سلفي "سيب أبوك متنصحهوش"؛ لأن باقي الخطاب والفتوى افعل رغمًا عن أنف أبيك وأمك، وأحسننا حالًا من يهز رأسه في أسف: "ربنا يهديهم"!

جميل ومطلوب أن نربط بين البلاء وبين تقصيرنا وذنوبنا، لكن:

- بلا تعيين للذنب وحصره في ذنب محدد..
- وبشرط أن يكون ذلك دافعًا لنا للتوبة والزيادة، وليس جلدًا للذات.

وأما الربط بين البلاء وبين ذنب معين أو تقصير معين ولو كان كبيرًا؛ فأنا لا أظن ذلك إلا من فخاخ الشيطان ليخدعك، فيجعلك محصورًا مع نفسك في مكان ضيق جدًّا من الدين تُقَيّم به نفسك وتقيّم الناس بطريقة خاطئة وبمكيالين.

فحين الربط بين البلاء والنقاب مثلًا لمن لم تستطع ارتداءه، فمع نفسها تدور في فلكه؛ فإذا ارتدته سقط عنها التكليف نفسيًّا[1]! خلاص وصلت وصارت ملاكًا لن تحاسب!

وحين يكون تقييم الناس بالنقاب؛ فأهل الفردوس هن المنتقبات، ومن لم ترزق النقاب فهي كذا وكذا، وكل بلاء أصابها فمنه وبسببه؛ فإذا ارتدته انزاح الضغط النفسي ف... سقط عنها التكليف!

وحين يكون التقييم والبلاء محصورًا في أننا -معاشر الملائكة- نسينا أذكار المساء رغم أن أحوالنا كلها مما يرثى له..، أما مع الناس "العوام المساكين" فلابد أن بلاءهم كان لأنهم أهل كبائر ومعاصٍ. فهذه الطهرانية والمثالية المتعبة تسبب لنا خللًا في التعامل مع الله، ومع الناس!

أما الربط بغير تعيين لذنب معين، وبتفكير سليم خفيف يؤدي فقط إلى الزيادة والتوبة العامة، بغير جلد ذات ولا إغراق في التعذيب النفسي والتلذذ بالألم، فهذا حَسَنٌ حَسَن!

ولكن كيف يكون ذلك ودعاتنا يقولون إن: "الأخ السلفي كونه الموحد الأوحد ظفره برقبة كل الناس"؛ يعني هتتساوى الروس؟ الفكر متجذر في القلب

---

[1] من أعجب ما لاحظته حين خرجت من قوقعة السلفية أننا نقول إننا حرب على البدع وأهلها ثم تجد في كل جزئية تشبهًا مريعًا بأهل البدع! سقوط التكليف من بدع التصوف!

بمرض عسير، لا يفقهه إلا خبير، بل ولا يفقهه الخبير إلا إن وفّقه العليم الحكيم وعلمه وأفاض عليه من رحماته وبركاته ثم وفّقه لتوبة، **وجماع ذلك: الانكسار والافتقار والتضرع للواحد القهار!**

ولا تقل من فضلك السلف كانوا.. وتستدل بقصص السلف!

السلف قلّت ذنوبهم فعلًا حقيقة، فعلم القوم من أين أُتوا تحديدًا. فتسمية أنفسنا "سلفيين" لا يعني أننا نماثلهم على الحقيقة، فنعيش في الدور...! بل هو وهم! كذبة صدقناها بغير فهم ولا فقه!

نحن جميعًا مسلمون فقط، مسلمون مساكين حقًّا، نحاول، نجاهد، نتمنى أن نصل إلى رضى الله ومحبته ومناجاته، إذا سرنا على الطريق، وجاهدنا أن نعالج أنفسنا بطريقة صحيحة وتدرج سليم، ولا نقفز قفزات لا تتحملها قلوبنا السقيمة، ولا نتشبع بما لم نعط فنرتدي ملابس أوسع مما يليق بنا؛ فما أسرع اللحاق بالقوم حقًّا حينئذ!

نعم، قد يكون هناك من بلغ في التقوى شأنًا، وقلّت ذنوبه وكبواته وتقصيره حتى عرف "متى سقط؟ وأين؟" **لكن** هذا ليس خاصًّا بمن يأخذ بفتاوى معينة وينتسب للسلفيين أو للإسلاميين... هذا قد يكون في أي مسلم.

بل في المسلمين -وأنتم تعلمون- مَن مظهره أبعد ما يكون عن السلفيين والإسلاميين كلهم، لكنه فيه من التقوى والرحمة والافتقار والقرب من الله، وله أحوال مع الله يحسده عليها من اعتنى بمظهره وأهمل جوهره!

وبعد منافحة طويلة قضيت فيها عمري سابقًا، أقول اليوم عن قناعة تامة: نحن اعتنينا بالمظهر على حساب الجوهر، وليس فقط المظهر "النقاب واللحية"، بل هذا وأيضًا: مظاهر العبادات التي تجعلك تمشي مع

القطيع بلا نكير، تفارق عامة المسلمين بتلك المظاهر، وقد يكون قلبك خربًا أو أنك تجاهد على صلاحه، لكنك لا تعرف الطريق، وتحارب في أمور شكلية حتى لا تطردك الصحبة الصالحة السلفية أو الإسلامية من قوقعتها!

كتبت قريبًا على الفيسبوك:

"كم واحدة ممكن تفضل مستمرة على طاعة مسببة لها أزمة في حياتها فقط لأنها تخشى من رد فعل "الأخوات "!

قد تظنين أن ده شيء طيب وجميل؛ وده غير صحيح، ده فساد للقلب ومدخل شيطاني بيحطك في حرب مع نفسك والناس في كورنر ضيق.

وده غير الحياء المطلوب لما تكوني على معصية فعلًا وتستري نفسك أو تمتنعي عن العصيان بدل الفضيحة، ويختلط عندك الخوف من الله مع ترك المجاهرة والحياء من الناس..

لأن ربنا برحمته جعل الطاعات أبوابًا وسبلًا، ومتنوعة، فلما تكون نوافل ومستحبات وأنت ممكن يتفتح لك باب ثاني، وتتركي باب معين لعارض ما مع حرصك على القرب من الله، غير لما تضطري تحرصي على طاعة مستحبة معينة مخافة أن البشر يهاجموك أو يهجروك. الوضع ده مع استمراره وإفساده لقلبك؛ هيؤدي لانفجار وانتكاسة حقيقية!

راجعي قلبك .. واختاري صحبتك صح .. واستزيدي من الطاعات لله، ومتيأسيش من رحمة الله.

الوضع الغلط ده موجود في كل الجماعات المتحزبة على طاعة محددة زي الإخوان والتبليغ، بس ظاهر في السلفيين بزيادة نتيجة فقه القول الواحد وزعمهم أنه لازم إنكار المنكر حتى في الخلاف السائغ؛ لأنه أصلًا ميعرفوش

يعني إيه سائغ. بالإضافة أن السلفيين فيهم قوة في الإنكار، وعدم قبول للتنوع والمرونة إلا في إطار محدد... وده من العيوب اللي لازم ننتبه لها.

يا حبيباتي:

الأخوة في الله والتعاون على البر والتقوى مش كده..

التناصح مش كده..

أخذك بيد نفسك وأختك في الله مش كده..

التربية الإيمانية مش كده!

متفسديش قلوب أخواتك، متشترطيش للأخوة في الله طاعات على مزاجك، متطرديش من صحبتك ومن رحمة الله من خالفك في فقه أو حكم شرعي أو طاعة أنت قادرة عليها، متفرضيش قدراتك ووسعك على غيرك.

انتبهي أنك ممكن بعد ما تعرفي السكة الصح وتعرفي غلطات السلفية في الفقه والوعظ يفضل عندك رواسب من دي ... فبنعالجها سوا".

كانت سلفية، تربت في مساجد السلفية العامة الشائعة، بل يا للعجب؛ تربت بالذات في أحضان أ.سلمى!

لم ترتدِ النقاب لظروفٍ.. تسامحتُ معها مؤقتًا، وكنت بدأت أدرك أن النقاب مختلف فيه لكن مع لمسة: "وماذا لو اتضح يوم القيامة أنه فرض؟؟!!".

كانت تتحدث بلسان سلفيٍّ نوعًا؛ لهذا هدأت نفسي تجاهها، لكنها كانت مختلفة، وكانت تنتقد بطريقتها اللينة سلوكياتنا -معاشر السلفيين- وشدتَنا وجفاوتَنا في النصح. هي أصلًا هينة لينة لا تحب إغضاب أحد منها بخلاف شخصيتي كما لابد أنكم عرفتم!

الحقيقة أنها ساهمت كثيرًا في تغيير طريقتي وتهدئة ردود أفعالي، واستطاعت وضع سرج ولجام على ذلك الجواد الجامح في أعماقي!

قالت لي: الكبر! الكبر اللي بيخلي المنتقبات يقللوا من شأن غيرهم! تعوذتُ بالله، لكني لم أفهم إلى قريب حقيقةً أي كبر هذا الذي تحدثت عنه؟

الكبر الذي يصفه الناس فينا وننكره، ونظن أنهم هم المتكبرون لأنهم يغمطوننا قدرنا ويردون الحق المبين الذي نحمل لواءه! وهذه آفة سلفية حقيقية، نرمي الناس بدائنا، ثم نهتف في ورع متخشعين: رمتني بدائها وانسلت!

هل الكبر الذي تعنيه صديقتي كان ماثلًا أمامها في ممارستي في تلك القصة وأشباهها؟

دعوني أقص عليكم طرفًا يسيرًا منها ..

كانت منتقبة لكنها ضعيفة، تريد أن تتزوج؛ فتضعف لأقل كلمة لطيفة من ذَكَرٍ عديم المروءة والرجولة؛ فتخرج معه طمعًا في رضاه وأن يتفضل عليها بالزواج في نهاية المغامرة! هذه قصة متكررة تحدث، وغالبًا يلقيها الفتى في أقرب سلة مهملات ويبحث عن مغامرة جديدة، لكن الجديد في تلك الحالة وقتها بالنسبة لي أنها كانت منتقبة!

كرهت فعلها وغضبت لله حقيقة، وتعجبت كيف لمنتقبة تتحمل حر الشمس ولهيبها بذلك الزي، وتتحمل غلاسات المجتمع واضطهاده أن تقع في الذنب بذلك الضعف المزري؟ لم أفهم كيف يجتمع في الإنسان التناقض، ولا فهمت كيف يمكن لمنتقبة أن تقع في الذنب والنقص والعيب.. **هذا نفاق!** لا يمكن أن أفهمه على غير ذلك الوجه.

ثم كيف أصلًا يجتمع النقاب والمعاصي؟ ألسنا معصومات؟؟! ثم إنها تشوه صورة المنتقبات، المنتقبات قدوة، ملاك يمشي على الأرض، يتهموننا أننا نستتر خلف النقاب لنفعل ونفعل، وهذه الفتاة تؤكد قولهم!

هتفت بها بكل الغضب الذي يعتمل في نفسي: مش أد النقاب اخلعيه!

لم ألتفت لما أعرفه عنها من رقة قلب وقيام طويل بالليل، كان كل همي الحفاظ على صورة النقاب، ولم أنتبه أنني أجاري المجتمع في ذلك التفكير الخطأ.

لم أنتبه أن النقاب قد يكون تلك الطاعة التي يغفر الله بها لها ضعفها، وأن النقاب ليس تشريفًا بل تكليفًا كما كنت أردد .. لكنها ألفاظ بلا معنى ... نظرية بلا واقع!

المنتقبة ليست قدوة، والملتحي ليس قدوة، هم من جملة المسلمين وعوامهم. أما العلماء الذين هم فعلًا قدوة لابد بلا شك من مراعاة مروءة وسمت ما؛ إذ كيف تتوقع من شيخ يعلم الناس الدين ويحثهم على الصلاح أن يسب الدين أو يقذف عرضًا؟ كيف يفعل عالم ما يفسق به وهو حامل للعلم باذل له؟ وفي كتب الأصول كلام متعلق بقبول فتوى الفاسق وعدم قبولها.. فالأمر للعالم مختلف بلا ريب.

ومع ذلك قال بعض السلف: "لا تنظر إلى عمل العالم ولكن اسأله يصدقك"؛ فلا يُقتدى به في أفعاله[1] دون معرفة مذهبه في ذلك الفعل. وواضح طبعًا أن الكلام عن عالم متدين أهل فتوى وتُقى وورع.

لكن كيف نجعل امرأة قدوة لمجرد أنها منتقبة؟ وكيف نجعل رجلًا قدوة لمجرد أنه له لحية؟ لمجرد أننا صرنا في مظهر سلفي!

وبأي شيء صار كل متصدر ولو غير مؤهل أصلًا للفتوى قدوة؟ وبمَ صارت أفعالنا حجة على الشرع؟ ولماذا ننكر علينا معاشر المنتقبات إنكارًا خاصًّا كأن لنا خصوصية ليست لغيرنا؟ من الذي جعلنا مختلفين عن عامة المسلمين؟ ولماذا رفعْنا أنفسنا فوق الناس؟

لا شك أن السلفيين يظهرون بمظهر وسمت ظاهره الصلاح؛ ولهذا فإن الناس يرجون منهم الخير المحض، ولا يقبلون منهم خطأ، وهذا ظلم من

[1] في هذا تفصيل وخلاف علمي

المجتمع! قوبل من السلفيين بالعلو (**العيش في دور الطهرانية**)، وإنما هم من جملة البشر..

نعم، حسن الخلق مطلب شرعي..

مطلب شرعي لمن؟

لكل مسلم!

ضع هنا خطوطًا كثيرة. وحريٌّ بمن حرص على مظهر وسمت أن يزيّن باطنه بحسن الخلق كما يتزين بالطاعة في ظاهره..

واقع السلفيين أن أفراد التيار يمارسون الدعوة وينكرون المنكر متسلطين على الخلق بفتاوى محددة. فما رد الفعل؟ يجعلونك تحت مكبر، وينبشون عن خطئك بملقط .. فلكل فعل رد فعل ما.

إذن؛ التعامل مع السلفيين في الحقيقة هو تعامل وكأنه مع علماء قدوة لا مع عوام المسلمين، وزد على هذا أن تسلطهم بالإنكار سَلَّط عليهم الناس بالنقد.

ثم تعالوا ننزل إلى الممارسة الواقعية بين السلفيين والمجتمع لهذه العبارة السابقة، ثم نضيف مشكلة أخرى: كيف يتوقع المجتمع ممن غضب لله إذا حلق أحدهم لحيته أن يكذب ويخون كما يشرب المرء جرعة ماء من ثلاجة داره؟

هذا التناقض مشين في الواقع، وليس الشين هنا في الجمع بين الصواب والخطأ، فكل ابن آدم خطاء؛ بل الشين في أنك تُظهر الغضب والذعر وتبالغ إذا عصى غيرك ربه في أمر أنت عليه قادر، وقد يكون ممن يجهله، وقد يكون ممن تعلّم أن الحق خلافه؛ فتغضب غضبًا جارفًا أعلى مما يستوجبه

الخطأ، ثم أنت تخطئ خطأ جسيمًا جدًّا وأنت تعلم أنه خطأ، ثم لا تعتذر، ولا تظهر ندمًا، ولا تقبل نقدًا! بل قد تتفلسف فتجعل له مخرجًا شرعيًّا! وما هذا إلا لخلل في الباطن .. هذه طهرانية مزيفة، ناتجة عن سوء ترتيب الأولويات، وعدم العلم بمراتب المسائل، ولا تمييز الخلاف السائغ وغيره، مما يمكن تسميته: **سوء التربية العلمية والسلوكية.**

فالتربية السلفية جمعت في واقع ممارستها بين طهرانية المظهر مع تسلطٍ على الناس بالإنكار، مع استباحة أفعال خاطئة عمليًّا وتبريرها بالشرع: **الشرعنة!**

يغتاب مثلًا فيُسوّغ الغيبة بدعوى أنها إنكار منكر، يسب فيصورها في صورة الدفاع عن الدين والغضب لرب العالمين! نعوذ بالله من شين الخلق وقبحه، ونسأله من واسع فضله.

ستجد في المجتمع كثيرًا من القبح وسوء الخلق، ستجد من يفتي بغير علم، ستجد من يفعل القبيح لكنه أصلا غير مهتم بالإنكار على الآخرين إن فعلوا مثله أو أقبح أو أقل!

لكن السلفية من جانب والمجتمع من جانب جعلا لصاحب هذا المظهر "نقاب ولحية" شرعيةً معينة؛ كحقّ الفتوى بقوّة مظهره، وسيعتبره المجتمع مفتيًا!

لا شك أن في البشر لا يوجد ملائكة خير محض ... ولا يوجد شياطين شرٍّ محض!

ستجد في الكافر خيرًا، وستجد في المؤمن شرًّا .. والغالب على البشر ألوان الطيف، والرمادي، ودرجات الأسود والأبيض! والعاقل من فهم نفسه

جيدًا، وفرّق بين ما يُحبُّه لله وبين محابِّه الطَّبْعيّة لجميل الخصال، ثمّ أنصَف مع الخلق؛ فلم يحمله بغضٌ طَبْعِيٌّ أو شرعيٌّ على إنكار ما في خصمه من حميد الخصال، ولا تحمله محبّتُه على إنكار ما في حِبِّه من سيئ الخصال وخطأ الفعال! ويل للمطففين..

العجيب أننا -معاشر السلفيين- نزعم تعظيم ابن تيمية .. وله -ﷺ- نصوص جميلة جدًّا في اجتماع الشر والخير في الإنسان، حتى الكافر يجتمع فيه من ذلك .. لكن .. **أتدرون!**

نحن نحاكم أفعال الإنسان إلى مبادئه ونظرياته التي يزعم أنه يتصرف بناء عليها.. فيسوؤنا البون الشاسع بينهما! فكيف إذا كان المبدأ غلطًا، ثم انبنى المبدأ والتصرف على غلطٍ، فلم يوافق الغلط، بل فارقه لما هو أشدّ غلطًا!

يا لها من تركيبة شديدة التعقيد للغلط! غلط مركبٌ، ظلماتٌ بعضُها فوق بعضٍ، إذا أخرج يده لم يكد يراها .. فكيف السبيل إلى النجاة إلا بنور الله -تعالى-!

والجناية هنا ليست فيما سبق فحسب، بل هي جناية على طاعات مظهرية؛ فالآن إذا انتقبت فتاة أو أطلق رجل لحيته يحاسب من السلفيين ومن المجتمع حسبَ الوصف السابق! صار الحساب ثقيلًا، يدفعه كل من حاول الارتقاء والتقرب إلى الله بما استطاع.

قالت لي فتاة منتقبة يومًا -بل سمعت هذه العبارة كثيرًا-:

" ينكرون عليّ أفعالًا لأنها لا تليق بي كمنتقبة، فهل سينتهون عن الإنكار إن خلعت النقاب؟"

- ..... !

لا تعليق.

كنتُ أنا مثلهم أتمنى ذلك لكل مذنب؛ أن يحلق لحيته أو تخلع النقاب حتى لا نوصم بذلك العار الذي يكللهم -معاشر المذنبين-؛ فنحن أطهار وقدوة! حتى حين تبتُ ونضجتُ وكففتُ عن تمني ذلك بلساني، كان قلبي يردده، هذا زي شريف، لا ينبغي أن يُدنَّس.. نسيتُ أنه مجرد طاعة لا قيمة لنا بها إلا بما وقر في القلب من عملٍ يصاحبها، ونسيتُ أنها طاعة بين العبد وربه، ليست طاعة للناس، ولا هي إكليل ولا رتبة يسمو بها المرء فوق الناس. نخاطب الناسَ العامة بخطاب، ونخاطبُ(نا) بخطاب! تفريق بين المسلمين بلا مسوغ! وللأسف لم أشعر بتلك الأمراض القلبية وأعاني في معالجتها ومحاولة عدم الغفلة عنها إلا حين خرجت من القوقعة!

ذلك المصطلح المظلوم دومًا! عامة الناس -كل الناس- يصفون المتعالي المغرور المعجب بنفسه أنه متكبر؛ لكن الاصطلاح الشرعي للكبر هو: بطر الحق وغمط الناس، ويختلف عن العجب وعن الغرور.

الكبر..

بطر الحق: أن يرى الإنسان الحق ويعرفه ثم يرده ويعرض عنه، وهذا الرد والإعراض قد يكون هوى، وقد يكون تعصبًا، وقد يكون غير ذلك.

الحق -يا سادة- له سطوة؛ شيء في نفسك يخبرك أن هذا حق، قد تستطيع أن تخرسه بداخلك حين يكون صوته منخفضًا ضعيفًا؛ لأن صوت الباطل علا في القلب وتمَكَّن .. هل يمكنك أن تسمع همساتي في سوق صاخب؟؟

كذا هو!

لهذا توسلت ورجوت الجميع أن يخفض صوت صخب قلبه بركعتين في جوف الليل، ويرفع صوت الحق الهامس في قلبه بتضرع المساكين بدعاء الاستفتاح، متوسلًا إلى الرب -جل وعلا- منكسرًا عائذًا بالله من الفتن! {بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ}.

وأما النصف الآخر من تعريف الكبر فهو: غمط الناس؛ أي أن يقلل من شأنهم الحقيقي، ولا ينزلهم منازلهم. أما أن تقول لجاهل أنت جاهل؛ هذا ليس كبرًا! قد يمكنك أن تصف صاحب العبارة السابقة بالحدة، أو تطالب

صاحب العبارة باستخدام أسلوب أكثر رقة، وقد يكون أسلوبه أولى في مواضع؛ فالرفق ليس فقط هي تلك الصورة النصرانية المستكينة لو تعلمون... ولكنك لا يمكن أن تصفه بالكبر طالما وقع الوصف على وجهه وفي موضعه!

أقول لكم سرًّا ..

ألا ترون أن من يقول عن الأئمة والفقهاء أنهم: "خالفوا الدليل"، و "فاتهم العلم"، و "هم رجال ونحن رجال"... إلى آخر تلك الشعارات السلفية، ثم هو يظن نفسه بلغ شأنهم، وله أن يرجح وإن لم يستوف شروط من تأهل للفتوى والترجيح؛ ألا ترون أن هذا من "غمط الناس"؟!

ثم إذا قال لهم قائل: أنتم لستم أهل فتوى رموه بالعجب وأنه يغمطهم قدرهم!

عجبًا!

بل أنا وأنتم ومتصدروكم وكثير من رؤوسكم لسنا مؤهلين للفتوى بفقهكم الفوضوي المسمى زورًا فقه الدليل، ولسنا أهلًا للترجيح ولا للاجتهاد، وعندنا كمٌّ من التلبيس والجهل مشين مشين!

صديقي

كانت ترى حدتي واندفاعي فتنصحني، ونجلس بالساعات نتفق على أسلوب آخر أعبر به عما أريد من غير تلك الحدة. وهذا إن وجد صاحبُه النية الصالحة والصدق فهو خير، وإن عسر عليه فالصدق أهم ومقدم، والله

يبلِّغ ويفتح الآذان والقلوب لمن شاء كيف شاء، وهو -جل وعلا- يُسَخِّر لدينه من يرفع به صوته!

حكت لي زميلة من زميلات الجامعة تُذَكّرني حين سألَتني عن حكم النمص، فنظرت لها بحدة وقلت: اللهم طولك يا روح! ولم أرد عليها.

قالت في نفسها: "لو فهّمتني بالراحة كنت هقبل".. لكن هذا "**عندي**" من المعلوم من الدين بالضرورة أنه حرام قولًا واحدًا بالإجماع عند السلفيين، بل عند المسلمين كلهم[1]؛ فلماذا أرد عليها؟!

ووقفت يومًا أتكلم مع فتاة عن الحجاب، فجعلت تحدثني عن ضعفها ورغبتها في العمل، وأن الحجاب سيكون عائقًا.. إلخ، فنظرت لها نظرة حادة وقلت لها: أنتِ بتحطي فرض ربنا في كفة ورغباتك في كفة، فبتطيّري فرض ربنا قدّام رغباتك! طب ما كده يوم القيامة ممكن تتحط حسناتك في كفة وسيئاتك في كفة، فتطير حسناتك كلها قدّام سيئاتك بسبب تفكيرك ده؟!

عاتبتني صديقتي كثيرًا في ذلك الوقت على حدّتي وحدة كلماتي، لكنها لم تحسن التعبير عن لبّ القضية ومناط الداء!

القضية ليست في الترهيب .. الترهيب مطلوب، لكن التوازن بينه وبين الترغيب أيضًا مطلوب، واختيار الألفاظ، وعدم الخوض في الغيب وأفعال الله، والحرص على عدم التألي على الله أيضًا مطلوب.

ثم مَن قال إنها وضعت فرض الله في كفة وشهوتها في كفة، فرجحت كفة شهوتها على فرض الله؟ وأي مسلم يفعل ذلك؟ ولا عزاء في استخدام كلمات غير جازمة مثل "ممكن" و"احتمال".

---

[1] صبرًا صبرًا!

وما الفرق بيننا -معاشر أهل السنة- الذين يقولون: إن من مات على كبيرة فهو تحت المشيئة، وبين الخوارج الذين يكفّرون بالكبائر؟

هل هناك مسلم يجعل أمر الله في كفة، فيرجح شهوته على كفة الرب الملك؟ هذا سوء فهم لآلية الذنب؛ فالكل يعصي الله لشهوة وبجهالة، حتى أنا التي أتفاخر عليها -ضمنيًّا- أنني قدمت محابّ الله على شهوتي، بخلافها هي التي رجحت شهوتها على محاب الله؛ حتى أنا أعصي بشهوة نفسي وجهالتي!

فهل حين أقصر في طاعة، أو أسقط في ذنب؛ هل وقتها أفكر بطريقة أنني: وضعت أمر الله في كفة وشهوتي في كفة، فرجحت شهوتي؟! أي حمق هذا! هذا ضعف، نستعين بالله، نحفز الناس على طاعة الله، نتقوى بالله، ونأخذ من العمل الصالح القريب ما نتقوى به على العمل الشاق، نتقلب بين الخشية والمحبة، ونؤمل رحمة الله.

أما تحويل الصغائر أو الكبائر إلى وصف مشين جدًّا كأنه استهانة بالله وبأمر الله واستخفاف بالدين.. فليس الأمر كذلك!

وكذلك من تلك الحماقات: وصفُنا كل عاصٍ أنه مستكبر على الله؛ لأنه إذا استهان عبد بأمر الله واستخف به، أو استكبر، أو استحل.. إلى آخر كل أعمال القلوب المشينة؛ فهنا يتحول الذنب العادي إلى كفر..

وهذه إحدى المزالق؛ لهذا يصفنا الناس أننا أقرب للخوارج في هذه المسائل، لاسيما تيار الوحش السلفي الذي لم أحدثكم عنه بعد!

ومعهم حق .. إلى حدٍّ ما .. مع الأسف! ولكننا لا نشعر ولا نفهم ولا نفرق؛ لأن الدين فروق دقيقة، والزمن زمن فتن، وتصدر الرويبضة، وتكلّم العامة

فيما لا يحسنون.. فما ظنكم بحجم الفساد؟! لقد كنا نفعل ذلك دون التزام لازمه، بل بسبب الجهل والغفلة التامة، مع حماسة تعمي الأبصار!

وليس هذا عذر ولا تبرير.. بل هو مجرد **"تفسير"**

ينبغي علينا جميعًا أن ننصح الخلق، ولكن لا نقنطهم من رحمة الله، وأن نتفهم الضعف البشري عندنا وعندهم، لا أن نتماهى مع الضعف، ونتقبله قبول المُقِرّ؛ بل نتفهمه لنجد طرقًا للتغيير.

ينبغي أن نحمد الله أن أعاننا على طاعة عسرت على غيرنا، ونسأل الله أن يعيننا على ما عسر علينا من طاعات؛ فتكون عين بصائرنا أشد مراقبة لذنوبنا وأفعالنا من مراقبة أفعال غيرنا، فنقبل على الله راجين مؤمّلين خاشعين، نخشاه -عز وجل-، ونحيي محبته في قلوبنا وقلوب العباد.

دار بيني وبين صديقتي الكثير من الحوارات، وتبادلنا الأفكار، لكن أهم حوار دار بيني وبينها كان متعلقًا بامرأة معينة.. (فاطمة).. ماذا؟

تتساءلون بعد عن اسم صديقتي؟

ألم أخبركم من هي؟!

إنها نورة!

قالَ في هدوء: "أنا كنت بدرّس جامع العلوم والحكم مع القرآن، فيه شيخ سألوه أو عرف..

فقال: كيف تسمح امرأة لنفسها بتدريس حديث رسول الله من غير تأهل؟ فتركتُ تدريس الحديث، و اكتفيت باللي أنا واخدة فيه إجازة فقط؛ القرآن"!

الحبيبة أم عبد العزيز!

فتركتُ أنا أيضًا تدريس كتاب معارج القبول، وكتاب الفو ائد لابن القيم! و أقبلت على طلب علم العقيدة حتى حصلتُ فيه على إجازة!

قالت لي: خالتو فاطمة زعلانة منك، وحاسة أنك بتكرهيها!

- ليه إن شاء الله؟

- هي لامسة منك كبر، وواصلها إحساس أنك بتكرهيها.

- إيه اللي لامسة مني كبر؟ كبر عشان إيه؟ عشان مش بروح لها وأقدم فروض الولاء والطاعة! اسمعي، ليه هي متجيش تحضر معايا كطالبة؟

- .....!

- لا ما أنا مش عاوزة رد، هرد أنا وأقولك: هي مش هتيجي تحضر معايا عشان هي بتحضر لشيوخ، ومش هتستفيد مني.. هل هي كده عندها كبر؟ كل واحد بيبحث عن ما يصلحه! وبعدين مينفعش تحكم عليا إني بحبها أو بكرهها من غير ما تقعد معايا على فكرة.

الخالة فاطمة .. قابلتها مرات قليلة جدًّا، الأرواح لم تتلاق في الحقيقة. كانت ترى السلفيين متكبرين وأصحاب أفق ضيق وقول واحد، وتنتقد أسلوبهم الدعوي ووعظهم. قد أتفق معها في ذلك الحين في أمور وأختلف، لكن المشكلة الحقيقية وقتها أنها صنفتني كسلفية متكبرة ضيقة الأفق لمجرد مظهري بالنقاب الأسود، وعدم عنايتي بالحضور معها والتلطف لها في الكلام.. رغم أنها هي أيضًا كانت ترتدي نقابًا أسود، ولم تحاول التلطف لي في الكلام! ثم إنها تعاملت معي بناء على هذا الوصف بثقة بالغة.. وكان عليّ إن أردت التعامل معها أن أقف باستمرار موقف المدافع المبرِّر الذي يحاول إثبات أنني لست كذا ولا كذا!

وهذا وضع أبغضه وأنفر جدًا ممن يتسبب لي فيه!

الحقيقة بالنسبة لي أنَّها وقعت في عين ما تنتقده على السلفيين، هي مجرد رد فعل للتعصب، قابلَتْه بتعصب ضد هؤلاء الآخرين. هم يصنفون الناس .. وهي تصنفهم، هم يتعصبون لقول واحد .. وهي تتعصب (ضد) القول الواحد مطلقًا... هم معيارهم عقولهم .. وهي كذلك معيارها عقلها! هي سلفية من جملة السلفيين، لكن عباءتها أوسع من السلفية الشائعة، سلفية العقلية والطريقة، اسمحوا لي بإطلاق تعبير جديد من ابتكاري؛ هي تنتسب لـ "**نيو سلفية**"!

هل هي الآن تغيرت؟ لا أدري، أنا أتحدث عن تلك الفترة.

سلفية مطورة، لنجعل هذا اللفظ الممطوط يحتوي كل شخص ولو لم يكن سلفيًا .. يطور السلفية الشائعة مطّردًا على نفس النهج ولو استنكر عليهم بعض الأمور؛ فيغير الشكل السلفي التقليدي لشكل أوسع قليلًا، لكن نفس القالب في تركيبته، هي: نوع سلفية متمردة على السلفية التقليدية!

وعامة، كما ذكرت كثيرًا؛ السلفيون كل واحد منهم (سلفية وحده)؛ يمكنه أن يبتكر كوكتيلًا جديدًا ويزعم أن هذه هي السلفية، وأنه هو ممثل السلفية الحق، لكن الكل ليس لديهم معايير، لا معيار للتصنيف، ولا للقول الواحد، ولا لضده، ولا لتعدده، ولا لأي شيء!

والكل يطالبني -أنا المسكينة- أن تسمع وتطيع وتقبل وإلا ... فأنتِ متكبرة!

- بصي، هي بتنتقد أنكم بترجحوا بالورع.

- ورع إيه يا نورة؟ أنا برجح بالدليل.

- لا، هي تقصد أن أنت عاوزة تتورعي أنت حرة، لكن متفرضيش ورعك على غيرك.

- أيوة، بس أنا مش بتورع، أنا ماشية بالدليل!

الحقيقة كنت في تلك الفترة قد أنهيت الكثير من أشرطة "المنهج" وكتيبات المنهج، السلفية منهج ملزِم لكل مسلم، كتيبات هذه دعوتنا وعقيدتنا، أشرطة الشيخ الألباني المتعلقة بالترجيح واتباع الدليل، مقدمة صفة الصلاة، كتيبات الشيخ الوادعي، أشرطة الدعاة التي تتحدث عن اتباع الدليل ونبذ التعصب والتقليد... إلخ، مع كثير من القراءة في كتب ابن القيم بسبب نفوري من الوعظ السلفي التقليدي. وكنت فعليًّا متصدرة للتدريس، وأعرف جيدًا حجم الجهل في كثير من المتصدرات، فأن تطالبني متصدرة بتقديم فروض الولاء والطاعة حتى لا أبدو متكبرة؛ إن هذا فوق طاقتي فعلًا!

طبعًا لم أقرأ شيئًا من كتب الآخرين "أهل البدع"؛ لأني قررت ألا أسمع أو أقرأ إلا للسلفيين؛ لأنهم حملة المنهج، ورافعو لواء التوحيد.

كيف أرجح دون قراءة أو سماع المخالف؟! لأن الترجيح (سلفي/سلفي) فقط!

وكنت أنظر إلى الشيخ ابن العثيمين وأمثاله ممن ينتسب لمذهب بنوع حذر، وأتجنب أخذ الفقه منهم في تلك الفترة، لكني كنت أُجل الشيخ وأحبه وأحسبه على خير؛ لأنه سلفي. قد أطمئن له قليلًا حين أسمعهم يتحدثون عن اتباع الدليل، وأشعر بالتوتر جدًّا حين أجده يقول حُكمًا بغير دليل ولو في فتوى!

هذا هو المعيار الذي كنت قد استقررت عليه: "اتباع الدليل"، على الطريقة السلفية طبعًا! وعلى من يعترض أن يأتيني ببينة، بينة معيار قبولها هو: أنا وفهمي.

القضية أن هناك خدعة نفسية مورِسَت على الجميع، الكل يردد "لسنا جماعة"!

كذبة صدقناها لمجرد أننا لسنا تنظيمًا، ولا ترابط بين الأفراد، ولا بيعة، ولا أمير... إلخ طالما أننا خالفنا الصورة النمطية للجماعات؛ فنحن لسنا جماعة، ونسينا أننا تقوقعنا في مجتمع صارت له أفكار ووجدان جمعي محدد مؤثر مُسيطر، يلغي عقلك الفردي في نقاط حساسة بطريقة مسبقة .. فإما أن تخضع لذلك، أو تخرج من العباءة السلفية مطرودًا!

كذبة أخرى صدقناها: نحن لسنا مقلدين للرجال، فقط لأننا خالفنا الصورة النمطية للتمذهب بأحد المذاهب الأربعة، لكننا في مجمل الأحكام والعقائد قلدنا .. معاصرين!

ببساطة: حدد مصطلحًا ... ارسم له صورة نمطية في الأذهان .. انفِها عن نفسك .. كرر كثيرًا ..

ألف مبروك! لقد صار صاحبك خاضعًا بوجدانه وعقله اللاواعي، متعصبًا بل شديد التعصب، ميكافيللي متطرف، يبرر أي وسيلة في سبيل ذلك المصطلح!

نحن متبعون للسلف .. سلفيون، كتاب وسنة بفهم السلف الصالح، السلف الصالح هم الصحابة طبعًا؛ فأنا حين آخذ الفقه فالراجح هو القرآن والحديث بفهم الصحابة لا بأفهام الرجال، هؤلاء الأئمة سامحهم الله وعفا عنهم اجتهدوا، لكن اجتهادهم ليس مُلزمًا لنا، نحن ينبغي علينا أن نعود إلى الأصل فقط، ونغترف من المنبع .. ثم .. ثم الحديث حجة بنفسه[1]! هذا ليس ورعًا .. هذا هو الحق[2].

- يعني أنت يا نورة عاوزاني لو أنا الراجح عندي أن عيد الميلاد حرام أسكت؟ منكرش المنكر على من قال أنه حلال؟

- طب هم أخدوا برأي تاني!

- بس الحق واحد لا يتعدد، واللّي بتقوليه ده هيقضي على شعيرة إنكار المنكر، وبعدين نتناقش ونوصل للحق بالدليل، ونمشي ورا الدليل، لكن مش بالهوى وأقوال الرجال. يعني هي لو واخدة بقول شيخ بيقول أي كلام يبقى نسيبها تعمل الغلط؟ لا طبعًا، لازم ننكر عليها.

- .....!

الحقيقة أن هذه التقريرات انتشرت في السلفيين كالنار في الهشيم أيضًا، ورغم أن هذه التقريرات خطأ، فتطبيقها بعيد عنها كل البعد! يعني النظري غلط، وتطبيق الغلط لا يطّرد على قواعد الغلط نفسه!

---

[1] هذا الكلام فيه مخالفة قبيحة: الحديث حجة بنفسه؛ يعني بدون فهم سلف؟! لا بل بفهم سلف طبعًا.. طيب مَن سلفك؟ مَن سبقك؟ لا أحد؛ لأن الحديث حجة بنفسه... دائرة مفرغة تلتهم ذيلها إلى ما لا نهاية!

[2] لو تعلمون كم الأغاليط في هذه العبارات..! سأترككم تتفاعلون معها، وتشعرون بحجم قناعتي؛ لتدركوا بعد ذلك حجم الصدمة والكارثة حين أقص عليكم قصص التحول وبدهية الرد على هذه الأغاليط!.

تركيبة عجيبة..

قلّ من يحاول تطبيق اتباع الدليل باطراد .. لأن الواقع أنهم يقلدون الشيخ الذي يحبونه، ويلتفون حوله، ويتعصبون له .. أو فلنقل: يقلدون فهمه للدليل، ويعتبرون فهم غيره هو المخالف للدليل، ولو كان الأئمة الأربعة! لأنه ببساطة... ببساطة .. "إحنا مش عارفين يعني إيه دليل"! فلم يبق من حظ التطبيق لهذا المبدأ الخطأ إلا إنكار المنكر .. والمنكر هو: ما خالف "الشيخ" السلفي .. هل فهمتم من أين بدأت القصة؟

لكن بالنسبة لي في ذلك الوقت السلفية منهج ملزم، نحن نتبع الدليل، إذا كان بعض أو حتى كل السلفيين لا يطبقون المنهج بطريقة سليمة؛ فهذا لا يعني أن المنهج خطأ، بل يعني فقط أن التطبيق خطأ، وكثير من المسلمين لا يطبقون الإسلام؛ فهذا لا يطعن في الإسلام.

نعم هذا صحيح، لكن هذه مصادرة ثانية وأغلوطة أيضًا؛ هل أصلًا المنهج السلفي صواب؟

- طبعًا، ثم إنّ أحدًا لم يبرهن لي أن المنهج خطأ! المنهج صواب قطعًا، ومخالفه داخل بلا ريب في هذه الآية: {وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ}، وهل المؤمنون إلا الصحابة؟

فإذن: نحن نتبع الدليل، كتاب وسنة بفهم الصحابة لا أفهام غيرهم .. هذه عصمة ...

كيف يعني يكون المنهج خطأ!

أفلا تعقلون؟

لم أفهم إلى الآن: لماذا يستحلون عرضي؟ لماذا يأكلون لحمي حلالًا طيبًا على موائدهم ويشربون دمي؟! لماذا أرى في أعين بعضهم حين أقابلهم لأول مرة هذه النظرة العجيبة؟!

إنني حين أرى ذلك منهم ... أشعر..

أشعر فقط بالاشمئزاز!

والعجيب .. العجيب .. أن هذا يحدث في الوفاق والشقاق منهم.

فقط في الشقاق يكون الأمر أكثر وقاحة .. والضمائر أشد موتًا ... !

لم أتعامل معها مباشرة إلا مرتين تقريبًا، الأولى أثناء فرح أختٍ طلبت مني أن أتولى تنظيم الحفل حتى لا تقع مخالفات شرعية ..

هل سمعتم يا أصدقاء؟!

حتى .. لا .. تقع .. مخالفات .. شرعية!

وكنت وقتها قد عقدت لواء الولاء والبراء وحضور الأفراح على قضية مهمة جدًّا: يحرم قولًا واحدًا راجحًا بلا مرجوح ولا مراجيح حتى الغناء بأناشيد لحنها مأخوذ من الأغاني المعروفة.

والدليل؟ الدليل أن هذا يعني أن توبتنا ليست نصوحًا، وأننا نسمع الأغاني العادية التي يغنيها أهل الفسق والفجور، وأننا نبيح للناس سماعها؛ إذ كيف ألّفنا عليها ولم نسمعها؟ وهذه مفسدة، ودرء المفسدة مقدَّم على

جلب المصلحة. سيقال هذا من الناس العاديين، وسنكون سببًا في استسهالهم للغلط، ووقوعهم في الحرام، وظنهم أن الموسيقى حلال وسماع الأغاني العادية حلال. كم من حكم شرعيٍّ بُني على نظرات الناس وظننا المتنطع في ظنونهم وتفكيرهم!

(بس أنا مش شايفة كتاب وسنة وفهم السلف الصالح في الدليل ده)!

شوفك فيه حول .. شوفك تعبان مريض .. شفاك الله!

أقول لك درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .. مش شايفة القاعدة الأصولية[1]؟ أعوذ بالله! طالب الحق تكفيه الإشارة، وصاحب الهوى لا تكفيه ألف عبارة ...

طبعًا هذه مسئولية توليتُها، ولابد من أداء الأمانة، جمعتُ البنات عندي في البيت، وكل أغنية أعصر عقلي لأتذكر هل هذا اللحن قديم أو خاص بأناشيدنا؟ وحظهم كان أسود من ليل امرئِ القيس، فأنا عازفةٌ قديمة حساسة الأذن جدًّا للألحان، وهات يا بني القلم الأحمر .. الأغنية دي .. على مضض براءة إفراج، أما الأغنية دي علامة غلط!

وفجأة طرْقٌ بالباب..

الخالة فاطمة!

لقد سمعَت أنني توليت الأمر، وجاءت لتنقذ الفرح من إفسادي. هل فهمتم لماذا كنت أشعر بالنفور؟ ما الذي يستدعي هذه الزيارة والجلوس والسيطرة على مجموعة بنات يتدربن على الغناء لفرح صديقة؟ ما الكارثة الفادحة التي ستترتب على ضعف مستوى الفرح؟

[1] ليست قاعدة أصولية بطبيعة الحال! وهذا هو مستوى الاستدلال عامة.

- **الـدعوة! الـدعوة سـتتأثر** .. النـاس العاديـة الـذي سيحضـرون الفـرح سيشـعرون أن الفـرح الإسـلامي سـيئ .. واجهـة المسـلمين الدعويـة! نفـس التفكير السلفي، لكن من الناحية الأخرى ..

الناس! أحكام شرعية ومواقف مبنية على تفكير الناس في أفعالنا ونظرتهم لنا سلبًا وإيجابًا.

والعجيب أننا لم نتفطن لحظة إلى موطن هذا الداء!

انسحبتُ من الجلسة وتركتهم يغنون، وجلسَت أمي -رحمها الله- معهم، ففي النهاية هم في بيتها ضيوف، أما أنا، حسنًا، ألم أخبركم أنني وقتها كنت قليلة الذوق قليلًا؟ أعني كثيرًا .. أقصد ..

حسنًا! الحقيقة، اتصلتُ بصديقة لأناقشها في قضية هامة جدًّا لا أتذكرها، بالتأكيد متعلقة بالصراع الأمريكي العربي، والتهاب الشرق الأوسط، وقضية القدس وتحرير المسجد الأقصى! أنتم تعلمون أن هذه قضايا مهمة جدًّا لا تحتمل التأجيل، وليذهب الفرح والأناشيد إلى الجحيم .. "**مستقبل المنطقة هيضيع يا جماعة**"!

كان قراري منذ ذلك الحين: عدم حضور أي فرح إلا للسلام والانصراف؛ فالراجح عندي تحريم هذه الأغاني التي يغنونها .. ولم يناقشني أحد في لب المسألة نقاشًا بحجة تدمغ حجتي .. الكل يتكلم عن تشددي فقط. ومن توابع ذلك ما كان قد حدث مع أ. ريهام -لو تذكرون- .. وأنا فتاة حديثة السن عجز الكبار عن احتواء جموحها، ورأيتهم صغارًا .. صغارًا جدًّا، يحاولون السيطرة بلا حكمة، وإنني اليوم أحمد الله على السلامة من الانحراف.

بسبب تلك الفترة؛ كان من أهم القرارات التي اتخذتها: احتواء حديثات السن، أحيانًا أنفر بشدة، أتذكر نفسي في تلك الفترة، وألتمس لهؤلاء الكبار بعض العذر، وأحيانًا أصبر بسعادة.

القضية كلها أن لكل إنسان مدخل، والأرواح جنود مجندة، فإذا لم تجد المدخل الصحيح، ولم تتلاق الأرواح، وجانبك التوفيق؛ فاحتفظ بشعرة معاوية -ﷺ- في إدارة العلاقات، لا تنهِ العلاقة بجرح لا يندمل، اسكت ولو جرحوك، وانشغل بمداواة جراحك عن تجريحهم، ستفشل كثيرًا، لكن الجهاد يفعل المعجزات، وتزكية النفس من حظوظها إنما يكون بالممارسة في مثل تلك المواقف، ثم الاستفادة منها، والتدرب على الصواب في التعامل فيها.

اتصلتُ بها بعد ذلك بالتليفون، لا أدري متى كان ذلك، لكني رأيت أن المواجهة خير حسم لهذه الأمور التافهة التي تحدث.

تكلمت معها، حاولت نقاش المسألة؛ فتكلمَتْ عن التشدد .. أنا لست متشددة .. أنا أتبع الدليل! إذا أدّى بي ترجيحي إلى تشديد أو تساهل .. سيان! أنا أدور مع الدليل حيث دار، وإنني لبين الأجر والأجرين[1].

حين يئست من الحوار قلت لها:

- لو أنا معزومة في بيتك، وبقولك أنا مش بحب الصنف ده، هتصممي تعمليه؟

[1] الذي يدور مع الدليل حيث دار هو المجتهد الذي بلغ رتبة الاجتهاد .. والمجتهدون يمثل لهم بالإمام أحمد والشافعي بالمناسبة! لكن كل متصدر سلفي يزعم أنه .. يدور مع الدليل حيث دار وهو أصلا بغير أهلية حتى لما هو دون الاجتهاد! مأساة علمية

- آه، ولو مش عاجبك متاكليش!

- طيب أنا مش هاجي!

- لا أنت لازم تيجي ومتاكليش براحتك، لكن متجبرينيش معملش صنف معين.

- بس أنا (هتقيأ) من الصنف ده، ومش عاوزة أحضر في مكان بيقدمه .. ليه تلوميني أني مجيش؟ زي مانت حرة أنا حرة، الأصناف كثيرة؛ فلو مش هتحترموا رغبتي، وننتقل لشيء كلنا متفقين عليه، مش هقدر أكون موجودة في المكان.

تصلب عقلي مطعمًا بسفسطة!

هذا الحوار يستحق أن يوضع في أرشيف طبي ليصف مرض التصلب العقلي!

اتخذت قرارًا في ذلك الوقت أن أحترم ترجيحات الآخرين المتعارضة مع ترجيحي؛ حتى لا أحمل أحدًا على فعل يتأثم منه.

ربما أناقش أو أنافح عن ترجيحي، لكني لا يمكنني مثلًا كمعلمة قرآن ترجح عندي جواز دخول الحائض المسجد أو مس المصحف أن أحمل من ترجح عندها خلاف ذلك على دخول المسجد أو مس المصحف[1] ..

بدأت أشعر أن مبدأ: (**اربط الحمار مطرح ما يحب صاحبه**) هو مبدأ نافع جدًّا حين أجد أحدهم مقتنعًا برأي ويسعني موافقته بغير إثم تأليفًا للقلوب

[1] الذي تعلمته بعد توبتي من الترجيح والإفتاء أن دخول الحائض المسجد ومس المصحف بدون حائل للمحدث سواء حدثًا أصغر أو أكبر ليس فيه خلاف! بخلاف مسألة قراءة القرآن للحائض ففيها خلاف.

.. واحتسبت بذل ذلك كرامة للأخوة في الله .. فمنهم من شعر بالامتنان ولاحظ ذلك .. ومنهم من أصر على وصمي بالكبر والطغيان.

ولكن بالمقابل .. قلّ من احترم "**ترجيحاتي**".

فتحتُ **لها الباب** لأصدم بملابسها..

لقد خلعت النقاب! ولم تكتف بذلك؛ بل ارتدت (تونيك) طويلًا مفتوح الجنبين، يظهر منه بنطلون واسع جدًّا! مع طرحة طويلة.

نظرت لها مصدومة، وسلمت عليها بطريقة فاترة سيئة، ودخلت غرفتي مع صديقتي (ابنتها)، وتركتُها لأمي؛ فهي صديقتها.

لم يطِب قلبُها أن تتركني على هذه الصورة، فراحت تحاول الحديث إليّ كلما مررت أمامها، وأنا أتصبر وأسكت، ثم انفجرتُ بما في قلبي، وقلت لها كلامًا شديدًا عن خطوات الشيطان والانتكاس، وعن ملابسها. كنتُ حادة منفعلة، أنتقي من الكلام أشده وقعًا وثقلًا! وجهلتُ أنها لم ترتكب جريمة تستحق عليها كل ذلك .. بل لم ترتكب إثمًا!

ثم إنني نسيت أنها في عمر أمي .. وأنها .. وأنها في بيتي!

كانت الصدمة التي اشتد وقعها عليّ حين دخلت الأزهر محملةً بتلك الأفكار السلفية: أن الأزهر ليس سلفيًّا، عرفت هذا قبل دخوله، لكنني لم أتخيل أن يكون الوضع بهذا السوء![1]

---

[1] تحديث: كتبت قريبًا بتاريخ 6 سبتمبر 2019:

"... كان المشيخة تعقد له محاسبة من الأساتذة المتخصصين في المسألة التي تكلم فيها: فإذا وجدوا له حجة، انتهى الأمر.

فإذا لم يجدوا له حجة، يخيّر بين أمرين: إما أن يُعلن للناس أن الذي قاله ليس من الدين، أو يسحب منه الأزهر الشهادة بتاعته؛ حتى لا تُستغل في أن تُدخل في دين الله ما ليس منه.

هكذا كان الأزهر!

حين تخلى الأزهر عن هذه الأشياء يبقى مبقاش أزهر يبقى شيء تاني..."

(الشيخ محمد أبو موسى- استهلال مجالس أسرار البلاغة).

حين سمعتُها، لا أدري ما هذا الشعور الذي انتابني...

غضب؟ أسى؟ حزن؟ فرح؟ حماس؟

كل هذا معًا وزيادة؟

طاف بخيالي صاحب تلك العمة البالية الذي أفتى بكذا، وتلك العمة الكريهة الذي تكلم في كذا، وتلك العمة العميّة الذي بلغ به الانحطاط أن يشكك في كفر النصارى...

ثم طاف بخيالي هؤلاء المدافعون عن الأزهر بقولهم: مال الأزهر ومال هؤلاء ومش كل عمة أزهرية بتعبر عن الأزهر... إلخ إلخ

بل الأزهر مسئول عن كل من يرتدي عمامته.

لكن المهم عند البعض أن نثبت إن "الدنيا حلوة وكل شيء تمام والأزهر لسة بخيره"...

مش بخير ... الأزهر مش بخير ولسة بدري أوي عليه عشان يتعدل ... إذا كان ناوي يتعدل!

يلا خليني ساكتة مش هطول عن كدة" اهـ

لا يتحمل السلفيون وحدهم كفل تلك النظرة الدونية للأزهر، بلا شكٍّ الأزهرُ فقد كثيرًا من رونقه، وتدنست عمامته بثلة من المنتسبين له، ممن لا يتقي الله في فتواه ممن خضع لأهواء السلاطين أو الجماهير والشهرة البراقة!

لكن أهل الخبرة به يتحدثون عن أن بقايا الديانة والعلم لا تزال في الأزهر .. هذا الشيء لم أره؛ ربما لأنني لم أبحث عنه في ذلك الوقت.

العجيب أنني لم ألاحظ آنذاك أن كل من أراد الانفلات لم يكن عليه أن يفعل شيئًا أكثر من أن يقول ما يشاء "باجتهاده"، ثم يردد في وقار: **والأدلة كثيرة**[1]! وسيجد بلا ريب دليلًا وسلفًا على ما يشاء، والناس لا تفهم المصادر ولا تطالعها، ولكن هذا المدّعي لن يجرؤ على نسبة كلامه لمذهب من الأربعة وإن يجرؤ على ذلك يفتضح أمره عاجلا أو آجلا! **فإنها محفوظة.**

أن يكون الشيخ معممًا أو بغير عمة، أو بلحية أو بدونها؛ لا يحتاج لكي يقول ما يشاء إلا الانفلات من ربقة المذاهب الأربعة وادعاء الاجتهاد والنظر في الأدلة، و"هم رجال ونحن رجال"، و"تعبدني الله بعقلي وفهمي للنصوص"... سواء كانت نتائج اجتهاده تحريم النقاب وإباحة المكياج أمام الأجانب، أو كانت وجوب النقاب قولًا واحدًا وإباحة مس المصحف للحائض والمحدث!

الخلاصة: رأيي أن الأزهر يحتاج إلى ترميم وبناء يقوم به العلماء والأتقياء المنتسبين له، وإبراز النماذج المتميزة المتقنة للمذاهب؛ لكي يعود منارة للعلم مؤثرة.

---

[1] هل وعيت وجه الشبه؟ ليس بعد؟ احفظها في الهامش إذن، ستحتاج إليها.

في ذلك الوقت، قمت بوضع علامة (خطأ) حمراء كبيرة على كل ما هو أزهري.

لتفهموا مشاعري جيدًا؛ أنا دخلت الأزهر بعد معاناة مع مدرسة الراهبات. عدّاءٌ وضع نصب عينيه بلوغ خط النهاية؛ فلما بلغه حالمًا باستراحة بعد عناء، وبدأ يرفع يديه مهللًا في سعادة .. اكتشف أنه .. خط البداية!

هل أدركتم كم الإحباط؟!

لكنني نظرت حولي بعينين تلمعان: لدينا الكثير من العمل!

التحقت بالجامعة الأمريكية المفتوحة (جامعة الصاوي)، وقررت دراسة العلم الشرعي من خلالها، ونفضت يدي من فكرة الدراسة في الأزهر، ثم مع انشغالي بالمساجد .. طابت الحياة نوعًا!

ꕥ

همسة ..

أنا واثقة أن أغلب اللّي دخل سكة التيار السلفي دخلها حبا في الله ورغبة في رضاه، وأكثر ما فعلوه من أخطاء بيكون عن غير عمد، لكن الشيطان بيقعد بالمرصاد لأهل الدين، وأحب شيء إليه البدعة ونصف العلم اللّي بيفسد أكثر مما يصلح.

والبدعة ونصف العلم؛ بيخلوا الغلط صح مع شعور الثبات، ومن هنا يبدأ الانحراف "بالشبهات"!

وحلها: نفهم صح، ونتعلم صح، ونخرج من قوقعة اللّي بيلقّنوكم أن ده فقه الدليل، وأن غيره ولو كان من الأئمة والفقهاء مخالف للدليل!

وفيه بداية تانية من باب الشهوات ... بدايتها الضغط..

حبًّا في الله -تعالى- تركتم أشياء كثيرة ربما مباحة لأنكم لا تعلمون. في البداية تكون حبًّا في الله فعلًا ورغبة فيما عنده .. لكن بعض الأمور اللّي بتشددوا فيها، وبتعتبروها قولًا واحدًا حرامًا؛ بيكون فيها خلاف سائغ والأمور فيها سهلة ...

فيظهر أثر ده في شقين:

- **الشق الأول**: معاداتكم للمجتمع، وإزاحتكم الضغط عليهم؛

فتحصل عداوة، وتنحرف النوايا، وتتقوقعون، وده له أثر طبعًا على القلب والعمل والنية والنفسية، وللأسف يتم تفريغ الرغبات الطبيعية اللّي مش بتشبعوها زي حب الزينة مثلًا للنساء في حاجات تانية غلط فعلًا.

- **الشق الثاني**: قبول الاستسهال في بعض أحكام مسائل من

العبادات زي الصلاة والصوم باسم فقه الدليل، وأن مفيش دليل .. عشان منتناقضش ... وده بيخلي العبادات ملهاش قيمة للأسف، وتنحرف القلوب وتبعد، ومتلاقيش المتعة في العبادة ... فبيتحول الوضع مع الوقت إلى مظهر متشدد وجوهر منفلت، يبرر الوضع بـ: "**مفيش دليل**"، أو "**مع الدليل**".

الحل: نرجع لفقه مذاهب الأئمة الأربعة، هنلاقي تناغمًا وتناسقًا مع حاجات النفس.

كانت **طريقتي** في الدعوة تغري البعض بالظن أنني من جماعة التبليغ! بل تكلم بعضهم بذلك، وصرح بعضهم لي بذلك، فكنت أبتسم، وأضحك في سري وأقول: كل الناس عندها هوس التصنيف، ويسعدني أنهم يعجزون عن تصنيفي.

التوحيد أولًا ثم الصلاة؛ لهذا قمتُ بتوزيع كتيبات مختصرة عن العقيدة وشرحتُها، ومطويات عن الصلاة، وعقدتُ مجلسًا في الجامعة لشرح مقتطفات سلبت عقلي لجمالها من كتاب الفوائد لابن القيم. وسبق موضوع مجلس شرح معارج القبول في بيتي.

ثم إنني تواصلت في هذه الفترة مع ثلاثة مشايخ: الشيخ غريب عبد الرحمن، والشيخ سمير محسن؛ كلاهما في العقيدة، والشيخ سعيد فريد للحديث والمصطلح، وكذلك للاستشارات العامة. وطبعًا لستُ بحاجة إلى أن أقول إن تلك الأسماء مستعارة!

ورغم قناعتي بالتخصص؛ كنت أستفتيهم في الفقه!

مثلًا، كنت أريد أن أستفتي لصديقتي لترتدي النقاب رغمًا عن أهلها فكلمت داعية مشهورًا:

- ممكن أسأل حضرتك سؤال؟

- أيوة.

- النقاب فرض؟

- أيوة.

- يعني ألبسه غصب عن أهلي؟

- أيوة.

أغلقت الهاتف سعيدة جدًّا، لكن من باب الترجيح برضو نتصل بالشيخ سمير:

- النقاب فرض؟

- مختلف فيه.

- طيب أنا أهلي مش موافقين، ينفع ألبسه؟

- لا؛ لأن بر الوالدين متفق عليه، والنقاب مختلَف فيه، والمتفق عليه مقدم على المختلف فيه.

(والله معرفش كلامه صح أم لا، ومسألتش بصراحة.. بس أهو ده اللّي قاله). طبعًا معجبنيش كلامه!

- لا بس حضرتك يا شيخ أنا جميلة جدًّا جدًّا جدًّا، وكده فيه فتنة لو ملبستش النقاب... (طبعًا أنا بتكلم على صاحبتي، وكل صاحباتي حلوين جدًّا جدًّا جدًّا ... لأني بحبهم).

- لا، إن شاء الله مفيش فتنة.

- لا، فيه فتنة!

- لا، إن شاء الله مفيش.

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. الراجل مش عاوز يقتنع ولا يقول اللي أنا عاوزة أسمعه! ربنا يهديه، والله أنا مش عارفة شيوخ إيه دول .. هي غلطتي، بسأله ليه في الفقه لما هو بتاع عقيدة!

الألم النفسي يعصف بي عصفًا شديدًا .. فحدثتني النفس قائلة: لو كان الألم بالبدن لصبرتُ واحتملتُ .. لكن ألم النفس شديد شديد، يذهب اللب والعقل؛ فأصابني ألم في بدني يوما ..!

ألم من ذاك النوع الذي يصيب جزءًا من بدنك أنت تعرفه فتعجز عن تحديد مكانه؛ لانتشاره!

ألم يجعل العقل يفرز الكثير من المخدر حتى يذهب العقل .. يقال إن هذا نادر، أو في سكرات الموت، لكني لم أكن في سكرات الموت .. وكان عقلي وعيناي في خدر وشلل عن التفكير! أعجزني الألم عن النطق..

حدثني أبي عن ذلك الرجل الذي انخلع كتفه في تمرين، فشد المدرب ذراعه ليعيد الكتف المخلوع مكانه، فانفجر الرجل ضاحكًا من شدة الألم!

لكن حتى الضحك من شدة الألم لم يكن في إمكاني!

لكنني قلتُ لها شامتة: حدثيني عن الألم البدني الذي كنت تعدينه أهون من الألم النفسي، فانزَجَرَتْ صامتة منكمشة!

- ابتسمتُ وقلت لها: سلي الله العافية! وكل أقدار الله واختياره لك خير لك من اختيارك لنفسك!

فكان هذا درسًا عمليًّا لا يُنسى، وعرفتُ أن البلاء ليس مطلبًا للمؤمن، بل الصواب أن يكون له في ما يتقلب فيه من أحوال الدنيا أحوال مع الله: الصبر إذا ابتُلي، والشكر إذا عوفي وأنعم المولى عليه، وذلك خير من طلب ما تذل النفس به وتنقهر، ولا تكاد تصبر فتخسر.

الشيخ سمير .. هذا الرجل الذي عانى كثيرًا مني .. تواصُلي معه كان اتصالات عشوائية، لعله لم يكن على علم بأنني نفس الشخص في كل مرة .. ويبدو أن ذلك من حسن حظي، وإلا لكان اسمي في القائمة السوداء محفوظًا!

كثيرًا ما طالت بيننا المحادثات في مناقشة مسألة يشرحها، أو شرح بعض كتبه التي قرأتُها وأسأله عنها، ناقشته في شبهات الأشاعرة، وتكلمت معه عن جدالي معهم في الجامعة، وانتهى الحوار بأن نصحني بترك الجدل:

- أمال أروح الكلية ليه؟

- نعم؟؟

- أنا أروح الكلية أعمل إيه يعني؟

- لتتعلمي!

صدمني رده؛ فأنا لا أذهب للجامعة لأتعلم أصلًا! بل أذهب لأجادل!

اتصلت به مرة لأسأله عن شبهة فأجاب، فناقشته حتى فاض به الكيل وأغلق الهاتف في وجهي! اتصلت به "**لأعلمه الأدب**"!

لا أدري ما هذه المشايخ الغريبة الذين لا يحترمون الطلبة! يغلق الهاتف في وجهي ويرفض الجواب عن أسئلتي!!

الحقيقة .. الحقيقة التي ينبغي الاعتراف بها: أن الطريقة السلفية في التعليم لم تربِّ طلابًا، **بل ربّت صنفين من الطلاب: متعصبين مقدسين للشيوخ أو... متعالمين** -إلا من رحم الله-!

أما النوع الأول فلم يكونوا طلبة علم ولا لهم اشتغال بالعلم غالبا أو اشتغال ضعيف، فقط يرددون الفتاوى والأحكام ويرون المشايخ هم الرجال الرجال.

أما النوع الثاني فهم الذين كان لهم نوع اشتغال بالعلم وعن هؤلاء أتحدث الآن...

نادرًا ما رأيتُ طالبًا يعرف قدر شيخه، بل كل طالبٍ يعتبر رأسه برأس شيخه، ولا يجلس منه مجلس الطالب، بل يجلس منه مجلس الند، فلا ينتفع .. إي والله لا ينتفع!

واعلموا أنَّ كل ما ترونه من تفلت العلم وضياع العمل به؛ أنْ لعله لم يؤخذ على وجهه.

وتأملوا هذا النقل المؤثر الذي نقله ابن الجوزي عن الإمام أحمد، عن قُتيبة بن سعيد، يقول: "قدمت بغداد وما كانت لي هِمَّة إلا أن أَلقى أَحمد بن حنبل، فإذا هو قد جاءَني مع يحيى بن معين، فتذاكرنا، فقام أَحمد بن حنبل وجلس بين يديّ، وقال: أَمْلِ عليَّ هذا، ثم تذاكرنا، فقام أَيضًا وجلس بين يدي، فقلت: يا أَبا عبد الله، اجلس مكانك، فقال: **لا تشتغل بي، إنما أُريد أَن آخذ العلم على وجهه**".

هذا مجلس مذاكرة! **لكنه يتأدب للعلم** .. فلا فرق عنده بين الجلوس بين يدي من هو أعلم منه، أو أرفع قدرًا، أو مساوٍ، أو أقل!

يريد أن يأخذ العلم على وجهه؛ فأين ذلك من المتعالمين الذين يطلبون العلم مناظرةً مع من هم أعلم منهم وأعلى قدرًا؟

قلتُ يومًا لابنة ذلك الشيخ المشهور حين حدثتني عن مفارقة طلبة أبيها له، وطعنهم فيه بعد استفادتهم منه: "الحقيقة، وسامحيني: العيب على والدك .. معرفش يربيهم"!

نعم، المشايخ لم تربِّ طلابًا، بل ربّت متعالمين يتسورون سور العلم، ويتطفلون على موائد العلماء وعليهم طيالسة العلماء لا أردية الطلاب؛ فلا ينالون إلا الفتات، ثم يخرجون في عباءة أوسع منهم يزعمون الورم شحمًا!

والعجيب أنهم كانوا يتفاخرون بذلك، وهذا متعلق بمنهج السلفية نفسه .. لا ينفك عنها!

حين يدخل طالب جديد على شيخ، فيكون أول ما يتعلمه أن له "راجحًا" و"عِنْدًا"، وأنه ليس مقلدًا، وهو في الحقيقة مقلد قليل الشأن وفوضويٌّ .. لكنه يقلد معاصرًا تعصبًا، ويحسب نفسه مرجّحًا مجتهدًا ....فلا كعبًا بلغ ولا كلابًا!

ويسمع من الشيخ سخرية وتندرًا بالفقهاء قبله، فحتى لو زعم بعد ذلك قائلا: نحن نحترمهم ونجلهم .. فإنه إذ يشرح لا يفتأ يتكلم عن أخطاء فلان وبدع علان من كبار العلماء، ثم قد يتفضل عليهم بعذره بجهل أو تأويل! وحين يقرر في الدرس أن استدلال فلان الفقيه الكبير القدر، هو استدلال لا يليق بأحمق![1] ويسخر منه ويضحك في الدرس، أو يهز رأسه في أسف، أو يلتمس لهم عذرًا أقبح من الذنب، والأدهى أن يتندر بما لا يفهمه! بل درج بعضهم على عرض أقوال من يخالفه بما يوهنها بغير إنصاف[2].

هؤلاء الذين لا ينزلون الفقهاء منازلهم ولا يعرفون أقدارهم ارتدت سهامهم إليهم، أنت لم تحترم الأكابر السابقين الذين نقلوا لك الدين رواية وفقهًا، وملأت الآفاقَ سيرُهم عبقًا؛ فهل سيحترمك طلابك وهم يرون نقائصك رأي العين؟!

قد يقال: إن الطلاب يدرسون متون آداب الطلب، ويجلسون في سكينة أمام المعلم! ولكنها ليست قضية كلمات يرددونها (أننا نحترم علماءنا ونجلهم ونبجلهم)! القضية أعمق من ذلك.. تطبيقًا.

---

[1] والأسوأ إذا سخر من استدلال ثم تبين للطالب أن هذا استدلال إمام أو فقيه! فتكون النتيجة إما فقدان الثقة في الأئمة أو في شيخه.. والعجيب أن فقدان الثقة في الأئمة أيسر على البعض.

[2] فكان من نتيجة ذلك: أن بعض الطلاب إذا خرج من كهف شيخه وألقى السمع لمن يخالفه يُصدم.

فحين يرفع الشيخ من رتبة نفسه، ويسفه من رتب العلماء قبله. حين يزعم لنفسه رتبة الاجتهاد وهو ليس أهلًا لها، ويُخَطئ بسطحية بالغة من سبقه، بل ويسخر منهم ويتخذهم مادة للتندر لأنهم -المساكين- عقولهم على ((أد حالها))، ولم يفهموا كثيرًا من بدهيات الفقه والاعتقاد، وخالفوا النص القاطع الصحيح، ووقعوا في الشركيات والبدع! والواقع أن العيب في فهمه وضعفه هو.. فما المنتظر من طالب يرى أن لكل من تربّع وأسند ظهره إلى عمود مسجد حقًّا في أن يتكلم ويُحَذّر ويُخَطّئ ويصوّب و .. يسخر!

صرت اليوم إذا استمعتُ لشيخ ولو زعم أنه متمذهب ملتزم بالشرح المذهبي، فبدأ يأخذ في الشرح يمنة ويسرة متندّرًا بقول الماتن ساخرًا منه ينقبض قلبي هلعًا!

أخاف عليك يا شيخ .. فإنه من عادى لله وليًّا آذنه الله بالحرب، أتسخر من فهمٍ تلقّاه العلماء فقهه ومتنه بالقبول والاحترام؟ ألا يخافون الله؟ إنهم لا يقبلون عشر معشار ذلك على أنفسهم من طالب بل ولا ندٍّ! ولا يقبلون ذلك على شيوخهم المعاصرين على ضعف علومهم وآلتهم وعقولهم!

وليته إذ سخر كان فاهمًا مأخذ ما يسخر منه .. لكن العقل أسير في حيز ضيق من السطحية .. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

لم أكن عالية القدر، وكان الزمن كفيلًا كلما تقدم أن أعرف حجم نفسي وقدرها، لكن أقدارهم هي التي كانت ضئيلة لا تملأ عينًا ولا عقلًا .. والأعور في بلد العميان... ملك!

كانت سلوى أهدتني بعض الأشرطة للشيخ غريب عبد الرحمن أعجبتني جدًّا، فاشتريت كتبه وثلة من التسجيلات المتاحة، وطلبت من أبي أن نحضر له خطبة ويتعرف عليه، ويأتيني بطريقة للتواصل معه، ثم تواصلت معه وكان مسافرًا خارج مصر..

فكان هذا انتقال في طريقة الطلب، وألقيت كل ما سبق من سوء الأدب في الطلب خلف ظهري ... وحاولت أن أتأدب بالعلم نوعًا ..

قال لي زوجي وهو يقود السيارة ببراعته وثقته التي تثير أعصابي!

- بصراحة أنا بعتبر اختيار الشيخ ده حاجة متعلقة بطبيعة الإنسان!

- ازاي يعني؟

- يعني كل شخص بيكون له طبيعة .. فيه حد بيحب الهدوء حد بيحب القوة... إلخ؛ فبيختار الشيخ اللي له أسلوب متعلق بطبيعته.

- بس هقولك حاجة .. أنا أهو طبيعتي حادة جدًّا، اختياري كان المفروض يكون مدخلي!

- ما هو ده كرم الله علينا بقى!

نعم! لم يدر وهو يقولها كم كانت عبارته دقيقة صادقة! فقط .. هذا محض كرم الله -جل وعلا-، وإلا لاطردت وصرت مدخلية!

كتبت يومًا:

إيه المعيار؟

يعني انت النهاردة عاجبك الشيخ فلان عشان بيشدد، وفلانة عاجبها الشيخ فلان عشان -لامؤاخذة- وسيم، وفلانة عاجبها الشيخ فلان عشان طريقته هادية، وفلانة عاجبها الشيخ فلان عشان طريقته حماسية، وفلانة

مبسوطة بالشيخ فلان لأنه بيسهل على الناس، وكل فلانة عندها خطوط حمراء في الفتوى هي اللي قررتها بناء على تربيتها أو صحبتها أو ثقافتها أو علمها.

يوم ما الشيخ اللي كان عاجبك هيعدي الخطوط الحمراء دي هتغدري عليه، وقبلها هو ممتاز!

بأنهي معيار هو ممتاز؟ وبأنهي معيار هتغدري عليه؟

بمعيار "**نفسي**" فقط؛ تلاؤم أسلوبه أو شكله مع نفسيتك (اه والله متزعليش مني)

لحد امتى هنفضل أمة ملهاش معيار؟ معيارنا هوانا فقط .. آه برضو والله هو ده الهوى!

طب أنت خطوطك الحمراء دي منعتك تسمعي واحد بيقول الحجاب مش فرض .. بس أنا شفت ناس كثير أوي بتسمع للي بيقول كدة .. ومش هتقدري تقوليلها غلط؛ لأن المعيار الهوائي ده اللي هتمشيه عليها وهترفضي إنه يمشي عليك هي هترفضه لأنه مش عادل، هتقولي لها: ده إجماع وشعيرة، هتقول لك: مين قال لك؟ هتقولي: شيخي، هتقول لك: مش راجح عند شيخي.. هتقولي لها: السلف قالوا، هتقول لك: هم رجال وشيخي رجل، ولازم ننقي التراث، ومفيش آية ولا حديث بتقول غطوا شعركم .. مفيش دليل، وأنا مش هغششها كام حكم اتشطب عليه بنفس جملة (مفيش دليل) من .. من .. !!خليني ساكتة والحدق هيفهمني!

النقاش السفسطي مع العامة أنت مغلوبة فيه ولو كنتِ أفقه أهل الأرض .. غلبني السفيه وغلبت الفقيه!

طب الحل؟ معيار .. فما هو المعيار؟؟ ".

قلت لها وأنفاسي تتقطع من الإثارة: أخيرًا، أخيرًا وجدتُ كتابًا يا أبيض يا أسود، فظيييع جدًّا (**المخرج من الفتنة**) لمقبل بن هادي الوادعي؛ فلان ضال، علان مُضل .. جاب من الآخر، وقال اللي نفسي فيه .. أينعم هو اكتفى بالمعاصرين أو بعضهم، بس يالا خير .. أول الرقص حنجلة!

كانت نفسي تموج غضبًا بالفعل بعد معرفة "**المنهج الصحيح**" على يد الشيخ الألباني ومتصدري السلفية ممن تأثروا بدعوته ... ضرورة اتباع الدليل ونبذ التقليد ... المذاهب هي أقوال الرجال، ونحن متعبدون باتباع الأدلة .. هذا هو الصواب والحق المبين!

الناس اللّي بتخالف النصوص الصريحة .. **نتسامح معهم ليه؟** ولماذا نعتبر كلامهم سائغًا أو حتى نعذرهم؟ .. بل ينبغي علينا أن نصفهم بما هم أهله .. الناس دي بتخالف حديث رسول الله، يا ناس، الفقهاء ضيعوا السنن .. اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله!

ردت عليّ ببرود غريب: بس بيتهيألي ده مش صح!

- ليييه؟!

- مش حلو كدة، يعني مش صح.

سكتُّ!

عندها حق .. مش صح كدة مش حلو فعلا!

ما هذا الاستسلام المفاجئ؟ شيء ما أوقفني وجعلني أستسلم لكلامها وأقبله.. لهذا أقول: هذا محض رحمة الله! وإن كان هذا متناقضًا مع المنهج .. لكن الإسلام دين سماحة، وهؤلاء مسلمون!

ألا ترون أنه لولا هذه "**الفرامل**" العجيبة بكلمة بسيطة جدًّا مثيرة لفطرة ما في نفسي، وفي اللحظة المناسبة، هي من لطف الله بي وإلا .. وإلا لكنت من القوم؟!

أتـدرون لـم كـان لطـف الله فقـط هـو المـانع الوحيـد لي ولكثير غيري مـن الانجراف خلف منهج الجرح والتجريح؟ أعني أن القضية لم تكن أن المنهج صحيح وهـؤلاء منحرفـون فحسـب .. بـل إنهـم اطراد منطقي لمنهج الـدليل.. **كيف؟!**

"**المـنهج السـلفي**" الـذي يبـدأ بمقدمـة "الفقهـاء ضـيعوا السـنن، واتخـذوا أحبـارهم ورهبـانهم أربابًـا من دون الله، واتخـذوا القـرآن وراءهـم ظهريًّـا"... إن اتبعته بمنطقيّة؛ يلزمك أن تصل إلى نتائج كارثية .. فلن تكون "الفرامل" إلا لطف الله وحسب!

إذ مَـن كـان مـن العلمـاء والفقهـاء مَـن هـذه صـفته؛ فـبم اسـتحق الاحترام والتبجيل؟ وتركُ هذا الاطراد المنطقي لن يكون إلا بهوى!

ركز .. ركزي!

أنـاس[1] أضـاعوا السـنن، واتخـذوا القـرآن وراءهـم ظهريًّـا، وقـدموا أئمتهم على النصوص، ولووا عنق النص ليوافق أقوال الأئمة؛ فاتخذوهم أربابًا من دون الله .. إذن؛ فهم فسـقة خبثاء متعصبة متخلفون! نعذرهم بالكاد كما يُعذر الجاهـل .. فلمـاذا أبجلهـم يـا سـادة؟ ولمـاذا أحترمهم وآخـذ ديني عـنهم؟ ألأن الإسلام سمح؟

إذن؛ انتقلنـا مـن مرحلـة احترام العـالم الفقيـه والجلـوس أمامـه مجلـس الطلاب إلى اعتبـاره جـاهلًا وضـيعًا خبيثًـا .. هـل منكم من تطيـب نفسـه أن يجلس أمام شيخ جاهل وضيع خبيث فينتفع منه؟! لا والله لا تطيب!

لهـذا يـدخل الطالـب السـلفي -كـ شـيخه السـلفي- على كتـب التراث معلمًـا منتفخًا ومعه قلم أحمر .. "**تصفية وتربية**"، هذا صواب وهذا خطأ!

---

[1] وعلى صعيد سلفي آخر ستجد من يقول: المتأخرون من الفقهاء خالفوا الأئمة ونسبوا لهم ما لم يقولوه.

والمعيار؟ الدليل طبعًا!

وغفلنا عن كوننا بهذا قد جعلنا أنفسنا وأفهامنا للدليل قبل التأهل له هي المعيار.

لم يكن المعيار هو الدليل يا سادة، بل كان فهمنا للدليل بغير أهلية .. هو المعيار، وبذلك أهدرنا أفهام الفقهاء والعلماء والأئمة للأدلة على سعة علومهم واتساع آفاقهم وقربهم من نور النبوة وأخذِهم العلم متواترًا كابرًا عن كابرٍ؛ في مقابل فهمنا الضيق وجهلنا المعيب! بل جعلنا الجاهل حكمًا على العالم.. وبهذا سيكون لدنيا خروق كثيرة في الإسناد الواصل بيننا وبين النبي في الفقه، سلفية بلا سلف!

هل أدركتم "بعض" حجم الكارثة؟

سحقًا سحقًا لمن بدل وغير!

قالت في تواضع: كنت في الأتوبيس ولقيت واحدة عادية كدة -من العوام يعني- بتسبح؛ فقلت في نفسي: معقول أنا الملتزمة مسبحش وهي تسبح؟ فبدأت أعمل زيها.

نظرتُ لها في إجلال واحترام، هذه فتاة متواضعة جدًّا، تتعلم ممن هو دونها.

ꕥ

عشت مع أشرطة شيخي غريب عبد الرحمن دهرًا ... إدمان!

كان صوته حينذاك صوتًا مبتسمًا، أتعرفون الصوت المبتسم ؟!

"الراجل ده متصالح مع نفسه[1]"، كذا كان يتكلم عنه أبي!

وإن الطالب ليكتسب من شيخه .. لا .. الطالب يمتص من شيخه رحيق روحه!

لهذا كنت في تلك الفترة مثل شيخي .. متصالحة مع نفسي.

عشت في عالم آخر، مع أشرطة الشيخ وكتب ابن القيم ..

أتعرفون كيف يطير الإنسان محلقًا؟ لا، لا يعرف هذا الشعور من لم يجربه!

أن تمشي على أرض لم تطأها قدماك، وتتنسم عبير بحر لم تره عيناك.

أن تعيش مع أقوام تحبهم ولما تلقاهم!

العلم!

ذلك النور ... تلك اللذة .. تلك الراحة .. تلك الـ سَكِينة!

---

[1] كذا كان، رده الله سالما إلى ما عليه من الخير كان.

تواصلت معه وأرسلت له برنامجًا تعليميًّا لأنظم حلقة علمية تحت إشرافه، ورتبت في البداية أن تكون الحلقة في دار مع مجموعة، تضمنت بناتٍ جِئنَ من المملكة، شقيقاتٍ حافظاتٍ لكتاب الله متقناتٍ، أردن تعلم علم العقيدة، ومعهنّ مجموعة من صديقاتي.

واتفقت مع الشيخ أن تكون الحلقة تحت إشرافه، وأن يكون هناك اختبار في آخرها، واتفقت معه أن يختبرني في العقيدة ويجيزني فيها.

حضرتْ معنا في البداية صاحبة الدار، فحدثتني بعد انتهاء الدرس عن أهمية الفقه المقارن...

- العقيدة أولًا..

- لا، الفقه المقارن أولًا...

- لا، العقيدة أولًا!

- لا، الفقه المقارن أولًا!

كالمعتاد!

نقاش عقيم، وتصلب عقلي بين اثنين يرى كل واحد منهما أنه الأعلم!

طبعًا هي صاحبة الدار؛ فاشترطتْ أن أدرس أنا عقيدة وهي فقهًا مقارنًا .. لا أتذكر هل وافقتُ أم لا، الظاهر أنني لم أوافق، أو أنها هي التي لم توافق، وقمت بتغيير المكان، وعقدت الدورة في مسجد.

حدثت بعد ذلك مشكلة بين إحدى الشقيقات وصاحبة الدار، لماذا؟ لأن الفتاة اشترطت ألا تجيز في القرآن إلا منتقبة وحافظة لسلم الوصول.

وجاءتني الفتاة وعيناها متورمتان من البكاء .. لا تصدق أن الناس معترضة على شرطها.

قلت لها: طبعًا أنت حرة في اشتراطك، لكن النقاب مختلف فيه، فـ ذُهلَت!

هل تتخيلون؟

هذه فتاة جاءت من المملكة محملة بفقه القول الواحد، نحن في مصر رغم كل هذه التشنجات السلفية هناك سعة أكبر في الأقوال. كنت في ذلك الوقت أحسب أن هذا التعصب في المملكة عائد إلى أن هؤلاء المساكين المتمذهبة متعصبون للمذهب الحنبلي المتشدد!

احفظوا فضلًا هذه العبارة جيدًا، احفظوها ورددوها كثيرًا؛ لأني أريد أن يكون وقع الصدمة عليكم فيما بعد هو نفس وقع الصدمة عليّ!

كنت في ذلك الوقت أحسب أن هذا التعصب في المملكة عائد إلى أن هؤلاء المساكين المتمذهبة متعصبون للمذهب الحنبلي المتشدد!

رددوا مرة ثانية : **كنت في ذلك الوقت أحسب أن هذا التعصب في المملكة عائد إلى أن هؤلاء المساكين المتمذهبة متعصبون للمذهب الحنبلي المتشدد! شيوخ المملكة .. متمذهبة ... متعصبة ... المذهب ..الحنبلي المتشدد!**

كذا كان ينعتهم الشيخ الألباني، وينعت أقوالهم بـ "تعصبات الحنابلة" فأنا .. آه .. ألم أخبركم؟!

أنا كنت سلفية ألبانية متعصبة، لا أقصد متعصبة لفروع الفقه الألباني .. أبدًا! بل كنت أعد الألباني كثير الشذوذ في الفقه ..!

آه والله!

لكنني كنت سلفية على جادة منهج الألباني في التصفية والتربية ونبذ التعصب -الذي هو التمذهب- .. أردد في قوة وحزم: الفقهاء ضيعوا السنن!

ألم أخبركم؟!

بلى فعلتُ .. فهل نسيتم بهذه السرعة؟!

جلستُ معها وشرحت لها منهجي في الفقه، وأن العبرة بالدليل، وأن هناك خلافات سائغة .. وهذه الخلافات هي التي لا تصادم النصوص الشرعية ..

كنت أقول بلسان الحال والمقال: الفقهاء ضيعوا السنن، والخلاف السائغ هو ما بين مشايخ السلفية؛ لأنهم المحققون الذين قاموا بتصفية كتب الفقه والعقيدة من الشرك والمخالفات، حماة الأمة وفخرها!

وقد يخالف بعضهم -أي مشايخ السلفية- الدليل؛ فأكون أنا، أنا وحدي من يرجح ويقرر ويحسم الخلاف ويقول ما الراجح وما المرجوح .. ألم يتعبدني الله بعقلي[1]؟

قال الشاطبي[2]:

فكثيرا ما نرى جهّالًا يحتجون لأنفسهم بأدلة فاسدة وبأدلة صحيحة اقتصارا بالنظر على دليل ما واطراحا للنظر في غيره من الأدلة الأصولية والفرعية العاضدة لنظره أو المعارضة له. وكثير ممن يدعي العلم يتخذ هذا الطريق مسلكا." اهـ

وقال: "وأنا لا أستحل إن شاء الله في دين الله وأمانته أن أجد قولين في المذهب فأفتي بأحدهما على التخيير مع أني مقلد، بل أتحرى ما هو المشهور

---

[1] خطأ وأغلوطة سلفية معاصرة؛ تعبدنا الله بتقليد أهل العلم إن لم نكن منهم، فقال -جل وعلا-: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}، وتعبد أهل العلم بالاجتهاد إذا كانوا مستوفين لشروطه ومؤهلين له، فهم أهل الذكر ونحن الذين لا نعلم .. وعلى من لا يعلم أن يسأل من يعلم! وطالب العلم مقلِّد ولو تعلم الدليل حتى يستوفي شروط الاجتهاد. هل أدركتم معي .. "بعض" حجم الكارثة التي نعيشها؟!

[2] هذه الأقوال منقولة عن بعض المشايخ نقلا عن كتب الشاطبي، وحين قرأتها قلتُ هذا إمام كبير يقول عن نفسه هذا فكيف فعلنا هذا بأنفسنا؟

والمعمول به، فهو الذي أذكره للمستفتي ولا أتعرض له إلى القول الآخر، فإن أشكل عليّ المشهور ولم أر لأحد من الشيوخ في أحد القولين ترجيحا؛ توقفت" اهـ

وقال أيضا: "ومراعاة الدليل أو عدم مراعاته ليس لنا معشر المقلدين؛ فحسبنا فهمُ أقوال العلماء والفتوى بالمشهور منها، وليتنا ننجو مع ذلك رأسا برأس، لا لنا ولا علينا" ا.هـ

كانس الشقيقات في حالة مزرية من الصدمة ..

هناك أمور في سلفية المملكة أكثر لينًا ومرونة، لكن القول الواحد المتشنج جدًّا هو السائد، وهذا -ويا للعجب- مخالف لبنيان الفقه المذهبي الحقيقي الذي تتعلم في ثناياه كيف تتعامل مع الخلاف الفقهي وتتقبله!

يمكنك أن تجد في سلفية المملكة نقاشًا حامي الوطيس عن حكم ارتداء معلمة القرآن "جيبة شانيل"[1] أمام النساء!

أمام النساء يا سادة!

ربما كان النقاش عن كون هذا من المروءة أم لا؟ وهل ننكر على من تفعل ذلك أو لا؟

حكم البنطلون؟ نحن في معضلة!

هل تصدق أن ترتدي امرأة بنطلونًا واسعًا "رجل الفيل"، وعليه عباءة طويلة تصل إلى الحذاء، نعم إلى الحذاء، والعباءة مفتوحة من الأمام إلى الركبتين فقط.. أين هذا؟ في معهد أمام النساء يا أختي، أمام النساء فقط يا أخي؛ فيُنكَر عليها! وتقول من تنكر عليها: معليش سدًّا للذريعة! وفي نفس الوقت لا يُنكر على من ترتدي "جيبة ضيقة جدًّا"! فالبنطلون تشبه بالكفار .. أو بالرجال .. أو .. هو حرام والسلام!

درس كامل يعقد في حماسة يتكلمون فيه أن: "ترنجات البيت" للنساء حرام عشان بنطلون طبعًا، وأن الداعية سألت واستفتت الشيوخ حتى عن

[1] جيبة شانيل = تنورة طويلة تحت الركبة، لكن لا تصل إلى الكعبين.

القماش؛ هل القماش الجينز تشبه بالكفار؟! ويبدو أن الرجل للأسف أفتاها بالجواز، وأنه ليس تشبهًا ...

ناقشتُ مرة امرأة من المملكة في مسألة الإنكار على من لا ترتدي النقاب، فقالت ننكر عليها، فبحثتُ في فضول عن أقوال علماء المملكة .. فوجدتُ من يقول: ننكر عليها!

أقول لكم سرًّا: معتمد المذهب الحنبلي في التشبه بالكفار أصلًا في الأزياء عمومًا .. **الكراهة!**

ولو تراني في أول متن فقهي يشرحه شيخ متمذهب متقن، وهو يقول أن معتمد المذهب الكراهة، وتلك الضحكة الخجلى لشيخ آخر وهو يكرر هذه المعلومة في شرحه لمتن حنبلي.. وذهول الحضور .. وذهولي!

أقول لكم سرًّا آخر: النقاب أشهر الخلافات السائغة، بل في المذهب الحنبلي نفسه خلاف في وجوبه واستحبابه، والمفاجأة أن المذهب: يحرم الإنكار في السائغ! يأثم من ينكر على غيره في خلاف سائغ!! والسائغ ليس ما يظنه السلفيون أن السائغ ما سوغناه وما كان خلافًا سلفيًّا - سلفيًّا!

أرأيتم؟ هذا .. هو .. المذهب .. الحنبلي المتشدد !!

لكن .. كيف؟! أليس هؤلاء حنابلة؟؟!

هل بدأتم تدركون .. "**بعض**" حجم الكارثة؟!

لم أفهم ما الذي تعانيه الشقيقات. أمهنّ معلمة قرآن، وهنّ كذلك، ولهنّ دار تحفيظ قرآن تحت بيتهنّ، استفدت منهنّ كثيرًا .. وحضرن معي مجالس كثيرة، لكنني لم أفهم ما الذي تجيش به صدورهنّ، بدأت ألحظ التغيير .. بطيئًا كان .. سنوات وسنوات..

بلغ الأمر أنهن خلعن النقاب جميعًا من فترة قريبة، واطّردت إحداهن، فخلعت الحجاب نفسه من شهور قليلة!

ونحن -معاشر السلفيات- ننكر عليهنّ من البداية، طوال هذه السنوات ننكر، ننفرهن، البعض يغمزهن بأنهن منتكسات، ونهز الرؤوس في أسف، كثير من البوستات التي كتبتها صديقات سلفيات كانت عامة يراد بها الخصوص؛ يعني هنّ المقصودات.

واحدة فقط منهن من صبرت عليّ وتحملت سلفيّتي، هل لأن ما بيني وبينها من صداقة ومودة كان أقوى من حماقاتي؟ أم لأنني فعلًا كنت أحبها وقد بلغتها مشاعري؟ أم للسببين معًا؟!

حاولت التواصل مع غيرها، تقبلتني واحدة، وأما الثانية التي خلعت الحجاب فلم تكد ترد سلامي!

أتدرون! اليوم حين يقال عني منتكسة وضالة ومضلة .. أتذكرهنّ.

هل اخترن طريقًا صحيحًا؟ ليس من شأني اليوم التدقيق في طرق الناس[1]، ولا النبش في ما لا أعلمه، وأرجو لهنّ الخير كما أرجوه لنفسي، وليس لي منهنّ إلا ما ظهر، والذي يظهر أنهنّ يتقربن إلى الله، وكفى بها نعمة، وكفى بالله هاديًا لي ولهم، وهو نعم المولى ونعم النصير.

لسنا أوصياء على الخلق، ولم يوكلنا الله بالحساب، ولا جعلنا قضاة حكامًا.

الدين النصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شعيرة، نعم..

لكن ينبغي أن نتعلم أولًا، أن نفهم ونصلح أحوالنا؛ فإذا استنصحَنا شخص أو رأينا منكرًا أنكرناه، أو رأينا ما يستحق النصح فعلًا في الدنيا نصحنا، **أما النبش والتتبع فهو من مرض القلب!**

[1] ومن خلعت الحجاب أخطات بلا شك.

إنما يأتي النبش والتتبع لأننا نظن أننا على خير قد استوفينا أجرنا وأنهينا أعمالنا وأصلحنا بواطننا وظواهرنا؛ فلم يبق لنا إلا النظر في أحوال الخلق وتتبع ما آلت إليه أحوالهم؛ حتى إذا رأينا فريسة تخالف ما في أذهاننا هجمنا عليها نقطع لحمها ونأكل منها دمًا وقيحًا!

التي خلعت الحجاب منهنّ كانت سلفية، لماذا لم تقف عند حد الحجاب؟!

أتذكر انكسارها وجمال قلبها حين كانت "معنا"، ما الذي حدث؟

لا شك أن النفوس تختلف في رد فعلها تجاه ما تعاني، ليست هذه الصورة الوحيدة التي تعبر عن رد الفعل العنيف المضاد في الاتجاه حين نكتشف أننا عشنا وهمًا... عشنا يشق علينا شيوخ السلفية، ونشق على أنفسنا وعلى الناس، فإذا حاولنا كسر القيد وتمردنا؛ نهشت[1] جماهير السلفية لحوم المتمردين على قيودهم وقهرهم، فأدموها، وكسروا رباعيتها، وشجوا رأسها، وطردوها خارج أبواب الرحمات، وصبوا عليها اللعنات ..

داخل القوقعة، كان الصوت عاليًا جدًّا، يملأ الأذن صراخًا، اعتادت النفس جلد العبيد، **حتى إذا تحررت من الأسر**، ظهرت مخالب الشيطان!

فحين يلقونهم كأجساد خاوية مكسورة العظام دامية الوجه والجنان خارج القوقعة؛ هل تضمن لي أن يتوقف انفراط العقد عند حدٍ؟!

لا والله! لا ضمان .. إلا أن يتغمدنا الله برحمته.

كثير منا يتعامل مع المخالف بمزيج من سوء الخلق والديانة .. وأحسننا حالًا من ينصح برفق، لكنه وإن اعترض على العنف فهو من هؤلاء، فأنّى

[1] أي بالغيبة أو الهتان أو السخرية.

للرفق أن يأتي بنتيجة وقومك ينهشون في لحمي وأنت ساكت تعترض في وهن، فإن علا صوتك ستُطرد معي... **سطوة الجمهور**!

فحتى لو هتف القلب في وهن: "**هناك كارثة وأخطاء في ذلك الطريق**"؛ ستخرسهم قائمة الاتهامات للمخالف، والتخويف من مفارقة الطريق إلى مجهول أسود .. وتُضرب الأمثال بانتكاسات الآخرين حتى بلغوا من الضلال ما بلغوا!

قالت لي منيرة: أنت شجاعة جدًّا أنك بتتكلمي وبتقولي .. ناس كثير وصلوا للي وصلتيله، لكن مش قادرين يتكلموا.

الحقيقة .. الحقيقة..... ليست الشجاعة أن أتكلم!

الشجاعة أن أسكت وأواجه نفسي ...!

ꕥ

من أكثر ما ارتجف له فؤادي حين بدأت طلب العلم.. الخوف من تلك الآفة!

تلك الآفة!

آفة طالب العلم "**المعصوم**"!

لن تصدر تلك الآفات إلا عن مرض قلب، حين ألبس غضبي لنفسي ثوب غضبي لله ولدين الله، حين يصير الحرام لي حلالًا بلالًا لأني .. طالبة علم! حين أقبل لغيري ما لا أقبله لنفسي .. لأني طالبة علم! حين .. أتشبع بما لم أعط .. لأني .. فقط ... طالبة علم!

ꕥ

بعد أن استقرت حلقة العقيدة الأولى قمت بعقد حلقة ثانية بنفس النظام وبتوسع أكثر.

وكان لزامًا مفروضًا أن أبدأ المجلس بشرح مقدمة الشيخ الألباني في كتاب صفة الصلاة؛ لأقرر المنهج الصحيح .. **التصفية والتربية!**

كان مبدئي في الحلقة الثانية أن أترك الطالبات يجلسن كيف شئن، وأسمح بالطعام والشراب؛ تأثرًا بدكتورة في الجامعة كانت تتكلم عن أن راحة الطالب في المحاضرة تساعده على التركيز .. تلك كانت محاولتي لعلاج مشكلة الشّدة السابقة؛ فإنني كنت في البداية في الحلقة الأولى وما عقدته من مجالس قبل الحلقة الثانية شديدة جدًّا في التعامل لضبط المجلس... **والتوبيخ شهوة!**

وكنت ممن غرق في تلك الشهوة إلى أن تغمدني الله برحمته، فالويل لطالبة تقع تحت يدي!

فاستاءت صديقاتي وتكلمن معي، وتعرضتُ لانتقادات حادة وقصص كثيرة ... لكن الأمر استغرق وقتًا حتى أنخلع من هذا السلوك السيئ.

حتى نورة -صديقتي- لم تسلم مني.

وإذا تقمصتُ دور المعلم المؤنب لم يكن من السهل أن أخرج في نفس المجلس من هذا الثوب! فالويل لمن تعكر مزاجي بعد بداية الشرح...

والعجيب أن بعض انحراف المزاج قد يبدأ بسبب سوء فهم مني لإجابة على سؤال طرحتُه مثلًا كما اشتكت لي بعضهنّ من قريب في جلسة أنس وذكريات ... خَتَمَتِ الموقف بأن قالَتْ: أنا كنت مستغربة، أنت مش فاهمة قصدي، ومصممة تلطشيني ..

- آه، ما هو أنا خلاص كنت دخلت في مود التهزيء، ومعنديش استعداد أخرج منه ..

- كنتِ سلفية أوي بصراحة.

الحقيقة أن بعض هذا الداء كان ناتجًا عن حب الاستطالة والاستعراض؛ حين يسأل المعلم سؤالًا للتحدي وهو يجزم أن أحدًا لا يمكنه الجواب، فإذا

أجاب أحدهم... "يطلّع في جوابه القطط الفطسانة"، إلا أن يتغمده الله برحمته فيعالج تلك الآفة!

كتبت حين أدركت هذه الآفة في دررى[1]: التوبيخ شهوة... فلا تنجرف خلف شهواتك!

أن تكون أنت في موقف القوة والشرف والصحة، وأمامك شخص ضعيف واقع في مذلة موقف ما!

وقتها يتحول التوبيخ إلى شهوة جارفة في نفسك، تستمتع بالتقريع، وتتشدق بالكلمات التي طالما قيلت لك في موقف مماثل، ثم تغلف كل هذه السموم بغلاف مفتعل من الشفقة والرحمة! تذكر... هذا نوع من النذالة والخسة!

ثم إني ضمنتها كتابي: (إضاءات في الرد على الاستشارات)؛ لأني أدرك هذا الداء، وأعرف وجعه ووقعه، كيف لا؟ وأنا عرفته في نفسي وعالجته[2]، وأعرف أثره وخفاياه...

لو تعلمون، لم يوبخني أحد إلا نادرًا..

أنا الشرير في هذه القصة، الذي يكتبها ليغتسل من آثامه، ويلقي عن ظهره عبئًا زاد آلامه!

ذكريات!

أكتب أحيانًا وأنا أريد أن أبكي، وأحيانًا أبتسم في خجل .. أو أضحك؛ لكني أرى ماثلًا أمامي لطف الله في كل كلمة .. بل كل حرف.

[1] سلسلة بعنوان: "درر وفوائد وفرائد".

[2] المعالجة ليس معناها ذهاب الداء، بل معناها للتقريب في مثل ذلك السياق: مكابدة الداء ومجاهدته.

لما انتقلت للحلقة الثانية، كان مما استفدته من حضور معلمات كبار للدرس بعض النصائح والتوجيهات، كثير منها كان بسبب تساهلي في بعض الآداب في التعامل حياءً بسبب حضور من هم أكبرمني سنًّا؛ فإن صغر سني في ذلك الحين جعل غالب طالباتي من سني أو أكبر .. فسبّب ذلك مشكلة، وكان ذلك التساهل يعجب غالب الموجودات فيشكرنني جدًّا؛ لأنهن رأين معاناة كبيرة في مجالس أخرى، وكل واحدة تقص عليّ قصصًا هي أقرب للتعذيب والإذلال في المجلس منها لمراعاة الآداب .. لكن الحقيقة، يبدو أن مجلسي ذاك تطرف عن سابقه؛ فكان فيه نوع انفلات خفيف لا يليق بمجلس العلم .. بل انفلات في التعامل معي بطريقة حتى لا تليق بين الأقران، حتى قالت لي صديقة يومًا: يا سارة، أنت بهدلتي العلم وأهله!

ناقشتني بود إحدى المعلمات الحاضرات للمجلس آنذاك عن ضرورة الاهتمام بآداب المجلس؛ فلما عارضتها قالت كلمة لا أنساها .. قالت: الأدب في المجلس ليس فقط لتبجيل المعلم .. **بل هو لإجلال العلم!**

فبدأت منذ ذلك الحين أحاول أن أتوازن بين مراعاة الآداب وعدم الشدة المنفرة، وكان من ضمن محاولاتي طريقة اختيار الشيخ..

كان ممن أثر فيّ بلا شك أم عبد العزيز وطريقتها الحليمة الحازمة، ثم الشيخ غريب عبد الرحمن.

قالت لي صديقة ذات يوم بعد سماع أحد أشرطته: الراجل ده فيه سماحة!

- أيوة متصالح مع نفسه...

- أيواا هو ده التعبير .. بس تعرفي، أنت بقيتِ عاملة زيه ... طريقتك اتغيرت كثيرًا .. بقيتي برضو متصالحة مع نفسك!

الاقتصاد في السُّنة خير من الاجتهاد في البدعة"

كلمة حق بلا شك.. لكن أسأنا استخدامها...!

فصار الأصل فينا أن نقتصد.. بل نفرّط تفريطًا في السنة ولا نجتهد فيها، بل كذلك نتعنت في إثبات سنية قولٍ أو فعلٍ.. "الحديث ضعّفه الألباني"؛ فاشطب على الحكم وقل هو بدعة، ولو صحّحه أئمة كبار، أو قال باستحباب الفعل والقول جهابذة الأمة!

ورغم ذلك نحن الفائزون بالسبق .. لأننا .. على خير وحق.. نحن واسطة العقد وخير الأمة .. نحن المصطفون الذين تركنا البدع وتبرأنا من أهلها.. فلو أنفق أهل البدع مثل جبل أُحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدِنا ولا نصيفَه ..!

تقول في نفسك: هذا وصف الصحابة لا وصفكم؟

ألم تفهم بعدُ حجم الكارثة!

❀❀❀

دارت بيني وبين الشيخ مراسلات كثيرة وحوارات طويلة من خلال البريد الإلكتروني والشات.

قرأت كل كتبه، وسمعت كل ما تطوله يَدِي من أشرطته، وكثيرًا من كتب ابن القيم .. ولأن عقلي امتلأ بمقولة: "من كان شيخه الكتاب؛ كان خطؤه

أكثر من الصواب"، وهي مقولة صادقة جدًّا بالفعل؛ فكنت أريد أن أعرض فهمي على شيخ ..

ولكي تتخيلوا حجم الفائدة التي حصلتُها من هذا الرجل؛ حين كتبت بحثًا تكليفيًّا في مادة من مواد العقيدة في جامعة الصاوي صغت عبارة معقدة .. فأصابني القلق الشديد، فاتصلتُ بالشيخ سمير المسكين ضحيتي! وقرأتُ العبارة، فقال لي: ما الإشكال؟

- هذه عبارة صحيحة أو خطأ؟

- صحيحة طبعًا، ما الإشكال؟ نقلتها من شرح الطحاوية؟

- لأ.

- من أين نقلتها؟

سكتُّ! قلت في نفسي: طحاوية إيه! أنا مألفاها حضرتك.

- كرر: من أين العبارة؟

- من بحث كتبته أخت.

- قولي لها: من بركة العلم نسبته إلى قائله!

أنهيت المكالمة وأغلقت الهاتف. ماشي، من بركة العلم نسبته إلى قائله، وأنا قائلته! لكن الرجل وهو أستاذ عقيدة يظن أن تلك الصياغة تشبه ما يُنسب إلى كتاب مثل شرح الطحاوية .. فماذا أفعل الآن؟ أكان ذلك على الحقيقة مدح لي ... أم دلالة ذمٍّ له؟! الله أعلم.

لكنّني كتبت في الهامش: مستفادة من بعض محاضرات د. غريب عبد الرحمن!

وحين عاد إلى مصر اتصلت به بالتليفون، وتحدثت معه، وسألته في مسائل العقيدة، كنت وقتها أسأل لأعرض فهمي، كلّ ما أفهمه من مسائل الاعتقاد، حتى البسيط منها، حتى إنه قال لي: على فكرة، سيكون الاختبار صعبًا.

- لا بأس.

- وهناك اختبار شفوي..

- نعم.

- ثم قص علي قصة داعية كانت متصدرة تشرح العقيدة، وأن مسئول المسجد طلب منه أن يختبرها، فاختبرها فرسبت، وتعلمت من جديد.

- ماشي.

ذهبتُ إلى بيته فاستقبلتني زوجته وابنته، فأنهيتُ الاختبار في مدة وجيزة، وحرصت على كتابة كل ما في ذهني بأسلوبي، وأسهبت جدًّا، كان كل همي وعنايتي أن أقول كل ما أعتقد وكل ما فهمت كما هو دون تزيين ولا محاولة للظهور بمظهر غير الذي بداخلي، كنت أريد أن يقول لي: هذا صواب وهذا خطأ؛ فأنا أتكلم في دين الله، فلا ينبغي أن أقول بغير علم.

كان الاختبار كله في مسائل الأسماء والصفات .. وعدت إلى بيتي أتصبر وأنتظر مع شعور بالراحة الشديدة.

كنت نائمة مبكرًا كعادتي حين جاءني الاتصال بعد منتصف الليل! كانت تلك هي زوجة الشيخ، قالت لي: الشيخ يريد أن يكلمك

- أنت اتعلمتي العقيدة فين؟

صدمني السؤال وكدت أبكي .. ثم استجمعت شجاعتي لأنطق بكلمتين متسائلة:

- أخطاء كثيرة؟

- لا خالص، المستوى فوق الممتاز، ده مستوى عالي جدًّا .. أنت اتعلمتي فين؟

- من أشرطتكم وكتبكم

- لا .. هذا ليس مستوى الأشرطة والكتب .. ده مستوى أعلى
- قرأت بعض كتب ابن القيم
- عامة أنا هلغي الاختبار الشفوي .. مش محتاجة اختبار شفوي وهبعت لك الإجازة
- طيب مسائل الإيمان..
- اللّي بالمستوى ده في الأسماء والصفات، لن يضل في مسائل الإيمان.
- طيب هعرض ما أفهم الآن عليكم..

ناقشته في بعض الأمور سريعًا، ثم .. لم أستطع النوم!

أتذكرون هذا البيان الذي كتبته بعد الأحداث وما آل إليه حال شيخي، قلت فيه أنه خالف اليوم ما علمنيه وما شافهته فيه وناقشته.

قليل من يعرف اسم الشيخ الحقيقي، كان سلفيًّا معاصرًا، فاطّرد في طريق السلفية حتى بلغ حد الانحراف فيها..!

وهذا ما نكرره، ليس الضلال أن تفارق السلفية المعاصرة إلى سعة الإسلام ومذاهب أئمة الإسلام.. إلى السلفية الحقيقية!

بل الضلال أن تطّرد اطّرادًا صحيحًا على أحد مبادئ السلفية فتبلغ حد الانحراف!

لا أعترض على من رد عليه واشتد؛ فما آل إليه الحال منكر يستحق الإنكار، لكن له عليّ فضل ومنة تجعلني أشعر بالحزن الشديد وأتمنى لو يعود .. شيخي الذي كان متصالحًا مع نفسه!

ولا يمنعني حقُّه أن أقول: إن ما يفعله الآن خطأ، بل ضلال، ولكنّ فضله يجعلني أتمنى له السلامة والتوبة والخروج مما هو فيه.. ما أصعب الموازنة بينهما!

وصاحب القضية لا ينبغي أن يهادن في ذلك أبدًا مهما كان ضعف نفسه تجاه شخص ما؛ فإن المهادنة تضر قضيته ضررًا بينا.

كتبت هذا البيان في 13 نوفمبر 2014:

"شيخ الإسلام حبيب إلينا، لكن الحق أحب إلينا"!

كلمة قالها رجل، دامت كتبه ووصلت إلينا، ولا زلنا ننهل من علمه إلى اليوم بفضل ذلك الإخلاص، نحسبه ولا نزكي على الله أحدًا.

بعض الأخوات عارفين أني كنت طالبة لبعض المشايخ الذين خاضوا في الفتنة خوضًا أبرأ إلى الله منه. وهذا الشيخ له فضل كبير علي لا أنكره، وأنا أشهد أنه بيقول كلامًا خالف بيه اللي علمهولي، وتلقيته منه مباشرة مش من خلال شريط ولا كتاب!! لا، أنا سألت وحصلت على إجابة شفهية مباشرة، وقلت له كلامًا وأقر كلامي!

ليه بقول كدة؟ عقائد الناس مسئولية كبيرة؛ لما أحط صورة الشيخ ده، أو أدل ناس مش على أرض ثابتة على الشيخ ده، وأنا عارفة أنه صدر منه أمورًا تخالف ما لا يسوغ فيه الخلاف، وفي مسائل كبيرة، ونازلة فتنة شديدة تطم وتعم وتجرف الأخضر واليابس؛ فلم يكتفِ بالركون للظالمين ولا معاونتهم على المسلمين، بل صار من الظالمين ...

يبقى أنا كده بغش الناس، واللي هيضِل بسببي عليّ وزره ووزر نفسي معًا!

لو أنا جاهلة بالواقع يبقى أهرب من الفتنة وأسكت خالص وأعمل نفسي من بلاد الواق الواق، لكن هل هنتحمل يوم القيامة هذه الكارثة؟؟ إذا كنت أنا اليوم مشفقة على الشيخ؛ ده لأنه فعلًا فضله عليَّ لو أنكرته يبقى جحود...

فالحق يجب أن يكون أحب إلينا، ولازم الواحد يخاف من الله أنه يكون سبب في ضلال إنسان ووقوعه في فتن كموج البحر ليلها كنهارها. ومعروف

أن ده زمن .. كل فتنة بتيجي بتحسسك إن اللي فاتت مكنتش فتنة من شدة اللي بيجي! ولهذا لا أقبل اليوم أن يرتبط اسمي باسمه إلا وقد قرنت بذلك البراءة من الباطل الذي هو عليه اليوم، وإلا فأنا لا أتحمل أن أكون من أهل خيانة الله ورسوله، ولا أستطيع أن أقف بين يدي الله فيسقط لحم وجهي حياء من قبيح فعلي واتباعي للهوى في مثل هذه الأمور، وقد قال- تعالى-: {ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار}.

مين يتحمل مسيس النار لو ركن لظالم؟ فضلًا عن أنه يكون ظالمًا!

وهذا ما أنصح به أخواتي اللاتي تحملن على أكتافهنّ امتنانًا لشيخ سقط في الفتنة بقول أو فعل .. أقول لك يا أخية: إذا كنت تدرين وتقرين .. فتلك مصيبة، وإن كنت لا تدرين لكن تقرين عن امتنان؛ فهذا هو التعصب ... فالمصيبة أعظم!

فري بدينك من الفتنة فرارًا كاملًا فالخطب عظيم، ويوم القيامة لا ينفع مال ولا بنون ولا شيوخ ولا متبعون ولا معظمون ولا كبراء، فري بدينك من الفتنة يا أختي، أنت مش حمل مَور السماء وسير الجبال يوم القيامة، أنت مش حمل الوقوف بين يدي الله محشورة مع ظالم أو مَن يحمل كفلًا من الدم ولو على سبيل الاحتمال!

فري بدينك يا أخية " اهـ .

لما كانت الأدلة ظنية، وفتح السلفيون باب الاجتهاد أمام عامة الناس وجهلتهم لمجرد الانتماء للسلفية، فخاضوا في الفقه استنباطًا واستدلالًا عن طريق فقه الدليل؛ كان لابد أن تكون النتيجة المذهلة تحويل كثير من مسائل الفقه إلى الجزم فيها قولًا واحدًا راجحًا بلا خلاف معتبر ولا سواغ إلا ما فرضه عليهم كبار السلفيين.

سواء أكان الذي يصل إلى هذه النتيجة من أنصاف المتعلمين حماية ووصاية منهم على "العامة"، أم من الجهلة الغارقين في الجهالة...

فإذا كان من تكلم في غير فنه وهو على علم بفن آخر ولو من جنسه أتى بالعجائب؛ فكيف بمن يتكلم وهو في كل الفنون لا يدري كوعه من بوعه ولا يميز بين كعبه وكرسوعه!).

من قائل هذه العبارة؟ أنا طبعًا! ألا ترون كم الأخطاء اللغوية؟!

لعل المصحح اللغوي قد أزالها!

ꕥ

لازلت أتذكر حين كنت في المسجد النبوي متوسدة فخذ امرأة لا أعرفها .. عمرتي الثانية ..

سألتني المرأة عن شيء فشرحتُ لها وأسهبتُ، ثم قلت لها: نحن متعبدون بالدليل وليس بأقوال الرجال، نحن مطالبون بمعرفة الحكم بدليله واختيار القول الموافق للدليل.

أتذكر كيف قالت لي في انبهار: كملي، أنا أول مرة أسمع الكلام ده .. بس ده كلام جميل جدًّا محدش بيقوله!

كنت مجتهدة جدًّا في نشر مبدأ السلفية: **التصفية والتربية!**

الفتاوى أو الأحكام الفرعية لم تكن عندي بنفس أهمية نشر ذلك.

أنشر هذا المبدأ وأستدل له، وأجادل عليه وأناظر، وأنشر العقيدة الصحيحة، في كل مِصر نزلت، وفي كل بلد حللت، وفي كل مجلس عقدت!

لعلكم إذ تعلمون الآن بعض حجم الكارثة في التيار السلفي، وتقرؤون اعترافي أنني نشرت هذه الطريقة بهذه الهمة والعناية والاستمرار؛ تدركون شيئًا مما يعتمل في صدري ونفسي .. ثورة كالمرجل .. شعور بالذنب يئن تحت وطأته قلبي .. بل كياني!

أتفهمون لماذا هذا الإصرار على الكلام؟ أتدركون أي شعور يحركني ويدفعني للكلام ونبذ الصمت؟ هل مسَّكم لفح نيران آلامي؟ هل فقهتم ما يعتمل في وجداني؟

لا أستطيع الصمت!

ليست الشجاعة أن أواجه العالم وأتحمل؛ الشجاعة أن أترخص بفتوى وأسكت .. وأواجه نفسي ... وأنا ..أنا ليست لديّ الشجاعة لأفعل!

لا تحسبوني جريئة شجاعة، بل أنا جبانة لا أقوى على النظر في المرآة ومواجهة تلك المرأة ونظرتها الغاضبة!

أضحك باكية .. أو أبكي ضاحكة من هؤلاء الذين يراسلونني بـ "الضوابط المنهجية" ويجادلونني لما أعلنت أن هذا المبدأ السلفي خطأ ومخالف لهدي السلف، حين صرحتُ بالمخالفة..

يا سادة، أنتم تتكلمون مع داعية أفنت ما يقرب من عشرين عامًا تنافح عن السلفية واتباع الدليل على طريقة السلفية، مجتهد مطلق! وإنكم لتعلمون

أنني امرأة حادة اللسان، قوية الجنان، ذات جدل، لا يكاد يصمد أمامي جبل[1]!

كم درستُ وقرأتُ وناظرتُ وشرحتُ هذا الكلام ورددتُ على الشبهات -بزعمي-، وقررتُ الأدلة، بل وأبدعتُ في عرضها، فحججكم -يا سادة- ليست فقط متهافتة أمامي؛ بل هي سفيهة مضحكة، أجزم معها أنكم لم تقرؤوا ولا سمعتم ما أقول، تجعلون أصابعكم في آذانكم، وتستغشون ثيابكم، وتصرون على ما أنتم عليه في كبر وغرور ..

أنا لم أكن منكم فقط، بل كنت رأسًا من رؤوسكم، وممن لقن كثيرًا منكم حجته! فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا؟! ما لكم لا تعقلون؟! علام هذا العجب والكبر والتطاول والغرور؟!

يؤلمني وأتعجب حين تأتيني من هي من طالباتي، ثم لما "ضللتُ" بزعمها اعتبرت نفسها معلمة ووصية عليّ؛ تخاطبني خطاب الأطفال، وتحاول احتوائي وإعادتي إلى الجادة!

أدعوهم إلى ركعتي القيام ودعاء الاستفتاح؛ فلا مجيب إلا من رحم الله!

وهم يعلمون أنهم لا قِبَل لهم بمواجهة أنفسهم؛ فإن الخطب عظيم .. ثقيل!

ꕥ

بدأتُ أنسحب من المساجد إلا قليلًا.. تواترت عليّ الأسباب، فانسحبت واعتزلت، وأقبلت على طلب العلم وبيتي وأولادي ..

وبدأتُ أستكشف عالمًا آخرَ مع السلفية ... المنتديات .. الغرف الصوتية .. المواقع ... حياة أخرى ... وقصص مثيرة جدًّا!

[1] من شدة الملل!

حتى هذه اللحظة لم أتعرض لأي إغراء... ليس أمامي ما يسرق.. وأنا لا أملك الحكم على حراس المرمى الذين لم يتعرضوا لكرة واحدة طيلة المباراة .. لقد تعلمت أن كل إنسان يقضي حياته في الفخر بأنه لم يقترف ذنبًا؛ فالحقيقة هي أن نطاق حياته بعيد عن أية فرصة لاقتراف الذنوب .. فإذا أتيحت له الفرصة... حسن .. أنت تعرفين من أين يأتي اللصوص والمختلسون والقتلة! إنهم من بيننا .. إنهم نحن! هؤلاء أشخاص وجدوا الفرصة كاملة فأدركوا أنهم أضعف مما تصوروا... أدركوا أنهم لم يكونوا قط شامخي الأخلاق كما حسبوا....

أنا لم أتعرض لأي إغراء، واعتقادي الخاص أنني سأقاوم وقتها وأن تربيتي القويمة ستصمد لكن؛ من يدري؟ إن الإغراء لمغر بحق .. وعندنا في مصر نقول (الشيطان شاطر) ...

ضعي عشرة رجال ممن يتشدقون بنبل الخلق والرفعة في موقف يسمح بالفساد .. ولكن أكدي لهم أولًا أنه لا خطر عليهم على الإطلاق ... ما سيفعلون هو سر بينهم وبين ضمائرهم.. ثم راقبي نتيجة التجربة... أعتقد أن اثنين من العشرة لا أكثر سيبرهنون بحق على أنهم نبلاء.

بدت عليها الحيرة وقالت: "أنا أعرف أنني سأصمد...".

- "وأنا أعرف أنني (سأحاول) أن أصمد".

د. أحمد خالد توفيق رحمه الله

عالم الإنترنت!

حين لا يكون الرقيب عليك إلا الله ..!

عندها إما أن يخفت في قلبك داعي مراقبة الرب الجليل الأعظم .. أو يعلو .. احترامك لنفسك ..تلك الأنفة والعزة التي تحول بينك وبين أن تسقط في وحل لا ترتضيه ..

هنا .. المحك!

دخلت عالم البالتوك مبكرًا جدًّا لأجد كرنفالًا من العبث، نعم كان هناك أسماء محترمة، وهناك أسماء لا يُعرف صاحبها، يسهل اللعب والغش والخداع، ستجد من يحترم نفسه، وستجد من يغازل النساء رغم أنه يتسمى بأسماء رنانة تشي بحب الله ورسوله، وستجد نساء تخضع في ميوعة رغم أنها تتسمى بأسماء تشي بالعفة والصيانة، من هذه؟ من هذا؟ الله وحده يعلم ..

تذكرون ما حدث مع سميرة والشيخ المدخلي، كان ذلك من خلال غرف البالتوك، فانسحبتُ من هذا العالم سريعًا، لم يستهوني، هذا عالم لن أصل فيه إلى شيء.

لم يكن الإنترنت يمثل لي إلا وسيلة التواصل مع الشيخ غريب عبد الرحمن، ومع مكاتب الترجمة التي كنت أمارسها في تلك الفترة.

بعد ذلك وجدت المنتديات الإسلامية وسجلت فيها، في البداية كتبت باسم : بنت محمد، ذلك النداء الذي ناداني به الشيخ المدخلي!

كنت مشبعة بالإحباط من الساحة الدعوية الميدانية..

الحقيقة .. هناك ذكريات بخلت عليكم بها ربما لشدة جمالها، وهناك ذكريات أشفقت عليكم منها لشدة قبحها وآلمها!

وهناك ذكريات سقطت في بئر النسيان، في تلك البقع المظلمة من عقلي...

أول آفة وجدتها في نفسي أنني أدخل المنتدى دخول الفاتحين، ما لهؤلاء القوم؟ ألا يعرفون من أنا؟ كيف لا يميزون ثمين أقوالي من غثاء غيري؟!
كتبت دورة عن أعمال القلوب وبدأت أشرح، لا أتذكر هل أسهبت أم توقفت محبطةً لقلة التفاعل، لكن كانت نيتي وقتها أن أشرح الكثير من أعمال القلوب وخاصة الفروق الدقيقة بينها ..
ثم قلت في نفسي: إن المشكلة الأساسية التي نعاني منها -معاشر الملتزمين- .. نعم، أنا لم أخاطب يومًا المسلمين ..أنا أخاطب (نا) -معاشر الملتزمين- طبعًا!
إن المشكلة الأساسية التي نعاني منها هي أننا قد نسمع الحكم ونفهمه؛ فالكذب حرام نعم، لكننا لسنا ملمين بصور الكذب على حقيقته، كما أننا نزين شين أفعالنا بأوصافٍ تخفف علينا وطأة تصور قبحها الحقيقي.
كذلك الغيبة حرام .. النميمة حرام .. لكنْ تصورُ (ما هي الغيبة؟ ما هي النميمة؟) مشوشٌ كثيرًا.
حسن الخلق له أجر كبير .. ما هو حسن الخلق؟ لا ندري! نبغض التعصب .. لكننا متعصبون! الكبر آفة ومرض قلب .. فما الكبر؟ ها ها لا ندري!
فبدأت أكتب سلسلة قصص بعنوان: (هل أنت من هؤلاء؟؟!).
لم يكن مقصدي القص الأدبي، فقط كان مقصدي: ضرب المثال على الآفة، والتركيز عليها ونقدها من خلال قصة أحادية الحدث، ليس فيها تفاصيل ولا أسماء ولا أحداث ولا ذروة ولا أي شيء، فقط حدث واحد فيه شخص أو أكثر، يدور موقفٌ معينٌ متعلقٌ بتلك الآفة، وتُقسّم على عدة مشاركات، وبعد كل مشاركة نقاش مع من يتفاعل عن السلوك، ولماذا حدث؟ ومن أين أتى؟ وكيفية علاجه.. إلخ. بعض هذه القصص جمعتها بعد الانتهاء منها ونشرتها في مواقع ..
ولكن .. لم يكن النهر جاريًا بهذه السلاسة!

في بعض المنتديات كثير من الأحداث والشغب والاعتراض و "التلقيح" المتذاكي مني ومن الأعضاء والمشرفين!

كثير من الشد والجذب و.....!

تكتشف أن أحد الأعضاء هو نفسه أحد المشرفين، أو يدخل أحدهم بمعرّفين، الحقيقة كان كرنفالًا من السفاهة، شاركت فيه وأضعت وقتًا ثمينًا ..

ما أيسر الإهانة، وأن تكوني امرأة وتعترضي على الرجال وسلوكياتهم السيئة... إن هذا لشيء عجاب لا يحتمل!

وإذا كان المجتمع العام فيه هذه الآفة قيراطًا .. فهو عند السلفيين ألف ألف فدان!

وطبعًا لا تظنوا بي السكوت، أنا تطبيق عمليٌّ سلفيٌّ رائع لشعيرة إنكار المنكر ... بتطرف!

لا فارق عندي بين أن أكون ذكرًا أو أنثى، ولا فارق عندي بين أن يكون عدوي ذكرًا أو أنثى.

وأقمت الدنيا ولم أقعدها، وكنت منقطعة لهم، أعلّمهم الأدب جميعًا، حتى بلغ بي الأمر أن راسلت الشيخ الداعية المشهور الذي يعتبر مشرفًا على هذه المنتديات لأشتكي له وأطالبه بالتدخل ووقف هذه المهازل!

لكنني رغم ذلك تعلمت أمورًا من كل ذلك الشغب والأحداث، اكتسبت خبراتٍ كثيرةً في التعامل مع البشر، رأيت أنماطًا كثيرة، وأمراضًا كثيرة، ورأيت عيوبي وعيوب غيري، وتعلمت أمورًا أخرى؛ سواء من مراقبة بعض المناقشات، أو من غير ذلك مما وقعت فيه أو وقع فيه غيري من الخطأ.

وتعلمتُ في العلم أمورًا أيضًا!

علمتني المنتديات ألا أنقل من كتاب لم أقرأه كاملًا، أو على الأقل لم أقرأ أغلبه، ولم أعرف كاتبه وطريقته وقواعد الفن المتعلق به، لأني أسيء الفهم والنقل وأستشهد بعبارات في غير موضعها.. فأكون أضحوكة العقلاء..

لكن هذا كان مما تعلمته في المنتديات الراقية.

مما ناقشته على تلك المنتديات العامة .. عفوًا .. كان مما خمشنا فيه بالأظفار، وقطعنا فيه بالأسنان، وشددنا فيه شعر بعضنا البعض: حكم قيادة المرأة للسيارة!

لا أنسى مشاركة كتبتها إحداهن تقول فيها: إنها لا يمكن أبدًا أن تخرج من البيت إلا إلى القبر، وكان في كلامها نوع استهزاء وتقليل من عفة من تخرج من البيت .. "وكمان تقود سيارة؟!".

أغضبتني جدًّا، ورددت عليها ردًّا حادًّا، فاعتذرت لي على الخاص، وعللتْ قولها بأنها لا تقصد، و "احنا بنمزح يا غالية"!

- لا تعليق!

لكنني عرفت أن هناك من يجادل لا عن قضية، فقط يريد بعض المرح، فضلًا عن المبالغات والكذب؛ اكتُب .. هل يراك من أحد؟ الله!

لكنك -يا سيدي- قلبك عنه يغفل ..

من أكثر الأمور اللي لفتت نظري في المنتديات: أن كثيرًا من الإخوة عندهم مشكلة مع "النساء" .. يعني: أنت امرأة؛ فالأصل فيك الجهل قبل قراءة حرف مما تكتبينه. وهو رجل؛ إذن فهو أعلم منك بلا ريب، ويتبع ذلك الاعتقاد الجازم أنه ينبغي عليك التسليم والخضوع لذلك الطاووس المنتفش، فإن اعترض السيد على ما كتبتِ باعتراض ما؛ لا يستوعب أصلًا

أنه من حقك أن تدافعي عن وجهة نظرك، ولا أن هناك احتمال أنه على خطأ وأنك على صواب .. بل لا يتصور أن من حقك عدم الرد عليه!
مهما كان جاهلًا، مهما كان كلامه وضيع العلم أو الخلق...
ناقشتُ مرة صاحب حساب لا يظهر من اسمه كونه ذكرًا أو أنثى على الفيسبوك، فخاطبته خطاب الأنثى، فاعترض وأعلن أنه ذكر، فانسحبت من النقاش معتذرة أنني لا أناقش الإخوة[1]، فهاج وماج وأرعد وأبرق وقال: أتحداك أن تثبتي أنه لا يجوز النقاش بيننا!
كانوا يُصدمون من مطالبتك بأدنى درجات الحقوق الآدمية.
وإذا اعترضتُ أو قلتُ مغلقة النقاش العقيم: الأمر يسير لا يستدعي نقاشًا!
ثار واتهمك بالكبر! أصلًا كيف جرؤتِ على الظن أن كلامك له وجهة؟
كلامك خطأ لا صواب فيه، وكلام السيد حقٌّ محض .. ألستِ امرأة؟!
أحيانًا أضحك وأتركهم .. هؤلاء عقولهم عقوبة لهم! وأحيانًا يسرني كسر أنف بعضهم..
مثل ذلك الفتى، الذي منذ أن رأى مشاركاتي قرر أن يمر عليها ويتبرع بالتصحيح وإبداء رأيه العظيم، ولا ينسى آخر كل مشاركة أن ينصحني بالاكتفاء بالمشاركة في منتديات نسائية فقط سدًّا للذرائع وغلقًا لباب الفتنة؛ فإن ما أكتب ليس مهمًّا لهذه الدرجة، وهناك أمثاله كثير، فاتركي الأمر للرجال ..
ثم يدخل على مقال فيرغي ويزبد ويثور ويتهم ..
سكت مرارًا .. تجاهلته مرارًا .. ثم في ليلة رائقة كتبت له جوابًا رائقًا ..! حذفه المشرفون، لكنني احتفظت به للذكرى، قلت له:

[1] كان ذلك قرارًا بعد عناء المنتديات، وما رأيته من سفاهات، مع رفض زوجي هذا الوضع لما يفضي إليه من تطاولات سخيفة وسوء أدب!

"اسمع يا فتى، ليست الأولى، والظاهر أنك بحاجة للتأديب. أنت تظن لأني امرأة لن أرد على سفاهتك وسوء أدبك وتكرار التطاول!
أما جهلك فالأعمى يراه؛ ولا يغتر بتشبعك بما لم تعط وليّ لسانك بأقوال أوسع من حقيقتك -كقولك: "علماؤنا، وسد الذرائع"-؛ إلا الجهال والحمقى والمغفلون، وأما سوء أدبك فقد فاحت رائحته وفاض الكيل؛ فإن كان عندك ذرة مروءة أو نخوة فلا تدخل موضوعًا كتبتُه مرة أخرى. وقد اشتكيت مضايقاتك للإدارة، فلو علقت على موضوع يخصني فأنا بالخيار؛ إما أتجاهلك كما يتجاهل العاقل الذباب السمج، أو أرد عليك بما أنت أهله حتى ترتدع عن منكر القول وزوره.".
قل أدبه ردًّا عليّ فتجاهلته، وحذف المشرفون ردي ورده، ثم لم أره في صفحاتي مرة ثانية ..
صدق ابن تيمية: "**وقد لا ينقلع الوسخ إلا بنوع من الخشونة، ولكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة ما نحمد معه ذلك التخشين**".
رأيت صنفًا آخر يتكلم على طريقة: "أختنا الكريمة، ما أروع ما تكتبين!"، و "أختنا الفاضلة، أعشق كتاباتك."، مع "تسبيلةٍ إسلامية"، و "وردة عفيفة"! هؤلاء صنف مثير لغضب زوجي، مع أنه صنف يمثل لي مهرج السيرك .. مثير للضحك!
أهم شيء حين تغازل امرأة سلفية: لا تنس النكهة الإسلامية وديباجة أختنا الفاضلة؛ فبذلك يصير الحرام حلالًا يا أخي!

رأيت أصنافًا من البشر أخرج الله أضغانهم، رأيت رجالًا يدخلون بمعرفات نساء، ونساء يدخلن بمعرفات رجال، وهؤلاء يبررون لأنفسهم الكذب والأخطاء بالشرع؛ وهذه أسوأ آفة سلفية.

ولـم لا يـا عزيزتي؟! الاسـتدلال والاسـتنباط واقتحـام الأدلـة حـق مكفـول للجميع .. هل نسيتم؟ نحن لسنا مقلدين.

ورأيت أناسًا يخافون الله، يراقبون الله وحده، يسكتون ويقولون: لا نعلم، يناقشون بأدب جم، رأيت أن الدنيا ليست أبيض وأسود، وأن الرمادي ودرجاته ليس فقط هو الغالب، بل المجتمع ألوان طيفٍ، وألوان متولدة من ألوان الطيف، وألوان مبتكرة، وألوان .. كرنفال ألوان!

والسلفية جزء من المجتمع، فقط آفتها الكبرى: تحويل "العوايد" و "ما يحبه المرء" و "ما يبغضه" إلى شرع! لأن بند المحابّ الطبيعية غير محرر في الأذهان فضلًا عن تطبيقه في الواقع، المحبة: إما شركية وما يلحق بها، أو محبة الله وما يلحق بها .. والدنيا حرام وحلال فقط!

تعرفت على كثير من الناس...

منهن واحدة؛ ميادة، من خلالها تعرفت على أختها حين دخلت عالم الفيسبوك..

وأختها فريدة داعية مشهورة نوعًا تنتمي إلى .. الوحش السلفي!

ماذا؟ ألم احدثكم بعد عن الوحش السلفية؟؟!

حسنًا لا بأس، لكلٍّ دوره في الحكاية!

من المواقف التي لا أنساها في المنتديات: ما فعله فتى يظن نفسه حارسًا للشريعة، لم يكن له همٌّ ولا همة إلا التطاول على خلق الله بالتهم.

كان يسب ويشتم ويثور ويعترض، ويذهب ينبش في جوجل والشاملة، يقتطع الكلام من سياقه ويكتبه متشبّعًا بما لم يعط؛ ليظهر بمظهر العلماء .. أسهل شيء عنده اتهام غيره في دينهم، ورميهم بأي شيء .. المهم أن

يثبت وجهة نظره؛ فإذا وجد الجميع ضده، ثار وشتم ودعا عليهم، ثم يعود فيعتذر ويتكلم بكلام من قبيل: "لا يضر السحاب نبح الكلاب"، و "أنا لا أبلغ نعل حذاء أحدكم" ... إلخ.

أحسنت به الظن جدًّا وقلت: مسكين جاهل يثور ظنًّا منه أنه يغضب لدين الله، ثم اعتذاره دلالة على أن فيه خير، ترفقت به جدًّا، ودافعت عنه كثيرًا، وتوسطت له عند المشرفين في تلك المنتديات كثيرًا، كانوا يكررون لي أنه فعل وفعل وقال وقال، فأقول: معلش يعتذر.

نقلوا لي بعض دعائه عليهم لأكف عن الوساطة السفيهة لصالحه؛ دعا عليهم لأنهم منعوه من المشاركة لسوء أدبه وتطاوله، فكان يدعو عليهم بقبيح الدعاء متعديًا، وأنا أصبر وأقول: لعل به علة نفسية، لعله مريض!

كان يريد وقف سلسلة: (هل أنت من هؤلاء) لأنها قصص والقصص كذب!

تشرح له أو لا تشرح؛ لا فائدة، تصلب عقلي متقدم!ثم عاد فاعتذر، وأعلن أنه كان متعصبًا لمشايخه!

تتجاهله؛ يتطاول، تحدثه؛ يتطاول، يمنعه المشرفون من المشاركة؛ يشتم ويدعو عليهم، وهكذا ... ثم يعود فيعتذر!

بل في منتدى آخر ناقشني مرة فأتى بنصٍّ لا يعيه أصلًا، نباش أو حاطب ليل يحمل أفعًى تلدغه وهو سعيد بآفاته، ثم قال: يلزمكِ بهذا تكفير أحمد بن حنبل! والنقاش كله عن التجويد، والتنطع في التجويد، وتخليط القراءات؛ فلما تجاهلته وناقشت أحد الأعضاء المحترمين ثار وتطاول عليّ وعلى من يناقشني بجهل شديد، ثم اعتذر فقبلت اعتذاره!

ومع كل مناقشة لابد أن يكون جزائي منه رسائل شتم ودعاء عليّ وعلى أولادي، والتعريض والطعن في ديني وعرضي، فتجاهلته حتى ملّ وانصرف.

وكان من شأنه معي أن عقّب على موضوع آخر لي وضعت فيه تسجيلات

للشيخ محمود خليل الحصري أسأل فيه أهل الخبرة عن احتمال خطأ وقع فيه في أحد التسجيلات، وتناقش الناس بأدب واحترام .. احتد بعضهم، لكن الأمر في إطار المقبول.

إلا هذا الشخص! دخل يتهمني أنني أطعن في القرآن وأشكك فيه، وأن مثلي كمثل من يشكك في البخاري! حتى تدخل المشرفون وحذفوا كلامه ووبخوه، ومنعوه من المشاركة في المنتدى لمدة عقابًا له، فما كان منه إلا أن أرسل لي رسالة على الفيسبوك يدعو فيها على المشرفين!

أي صنف من البشر هذا؟ رب اكفنيه بما شئت وكيف شئت.

ثم إنه راسلني على فيسبوك يطلب السماح ويعتذر ويبكي: "سامحيني يا أمي"؛ فاشترطتُ عليه إن أرادني أن أسامحه ألا يدخل صفحتي أبدًا، فلم يوفّ الشرط!

نفس منظومة الفوضى السلفية والتعالم السلفي، هذا الفتى سلفي على الجادة السلفية، يمثل أسوأ ما فيها من آفات بلا رتوش محسنة أو تعديل.

ومن أشد أفعاله القبيحة المشينة أنه لما وجد أن كثيرًا من النساء غاضبات بسبب مراسلاته للتحذير مني، وأن منا من يغضب زوجها مما يفعله؛ أنشأ حسابًا باسم امرأة، وراح يكذب بلا حياء، ونسي أنني كمشرفة سابقة في المنتديات رأيت من قبل مثل هذه الأساليب الوضيعة..

لا أدري كيف يبرر هؤلاء لأنفسهم هذه الأفعال القبيحة، وربما أضعافها من القبح والشين؟!

ونعرف أن هناك برامج لتغيير الصوت، ونعرف أن قسم أحدهم (أنه أنثى) غير مجدٍ؛ فمنهم من كان يكتب (أقسم بالله) ثم يرفع يده أو يسكت، ثم يكتب على الحكاية (إنني أنثى)، أو ينسخها، أو يطلب من إحداهنّ تسجيلًا أو كتابة ذلك..

ولما تعاقبت الأخوات عليه بالسؤال: أأنت ذكر أم أنثى؟ قضى ليلته غاضبًا يسب ويلعن كل من يسأله، ثم أصبح مرسلًا تسجيلًا لواحدة ممن دافعن عنه بلا علم بحقيقته .. أو بعلم!

فقد كنت أشاهد ليلتها أحد الأمثلة القبيحة التطبيقية لسلوك بني إسرائيل: "سمّاعون للكذب"، وما أكثر ما تجده من خصال بني إسرائيل في التيار السلفي للأسف! يدافعن عنه ويحسن الظن لأنه يتكلم على ما تهواه أنفسهنّ.

يكذب الفتى ويصدق نفسه ويرمي غيره بالكذب وهو شاهد على نفسه، يراه كل مبصر بنور الله، ويحسب أنه في ستر مخدور!

تخدع الناس؟ فماذا عن رب الناس؟ ألا تخاف الله؟!

فكل هذه الأساليب نعرفها منهم، ونعرف حقارات أشد منها، ونعرف جيدًا أن البعض يظن أن رفعه راية: (حماية التوحيد، والدفاع عن الدين وحملته)؛ شعارات مستهلكة يضحكون بها على أنفسهم ليبرروا أفعالهم المشينة.

ولقد كشف الله لي في هذه المحن المتعاقبات ما سُتر من أحقاد وضغائن في دواخل بعض النفوس القبيحة.. اللهم نسألك سترًا وعافية.

تعرفين على أم سعيد ..

متى كان ذلك؟ في المنتديات الأولى.

كانت سلفية من نوع خاص .. ليست كالسلفيين، وكان فيها سهولة ورقة قلب ولين .. وانكسار!

قلت لها يومًا: لقد أثرت في قلبي بواعث محبة النبي ﷺ، ففرحتْ بذلك كثيرًا إذ إنها كانت تعتني بقص مواقف من سيرته العطرة، وتعلق عليها بما تذوب له القلوب محبة له ﷺ.

وكانت تعتني ببث محاسن الأخلاق، ولفت الانتباه لأعمال القلوب الباطنة... كانت ولازالت مميزة حفظها الله ورعاها وزادها من فضله.

بدأنا مراسلات وتكلمنا وتواصلنا هاتفيًّا وهي متوجسة من شيء ما، تخاف من شيء ما، لا تريد أن تذكر اسمها، لم تهدأ وتقبل التواصل معي إلا حين سألتني:

- أتعرفين فلانة؟

- لأ.

- لا؟؟! متعجبة!

- لا أعرفها.

- ولا فلانة؟ ولا فلانة؟

- لأ خالص .. يبدو أنني من الناحية الأخرى من الكرة لأرضية!

عندها تنفست الصعداء .. وقبلت التواصل معي على استحياء! تقابلنا قليلًا.. تحدثنا كثيرًا جدًّا، وكما كان لنورة دورٌ في حياتي وغيرت فيّ كثيرًا؛ كان لأم سعيد هذا الدور .. وإنني لممتنة.

أول من أطلق عليّ لقب (غندر)[1]، وإنه لأحب ما سماني أحد به.

كنت كلما استشرتها في مصيبة من مصائبي الكارثية تقول لي: هنعمل إيه بس .. غندر!

كنت أعرض عليها ما أكتب، وتعرض علي ما تكتب، ونتناقش بالساعات، نتبادل الآراء والأفكار و.. نتغير!

قالت لي يومًا في غيظ: "أنت عندك قدرة على استخراج أسوأ ما في الناس!". وصدقت ..

ولكن هل ذنبي أنني بلاء ابتلى به الربُ خلقَه؟! إنني إذ أرفض أن أحمّل الناس أسباب مرض قلبي، وأقبلُ على نفسي باللوم إذا أخطأت .. فلماذا يجعلني الآخرون شماعة أمراض قلوبهم؟!

لكنني استفدت من هذا الكلام جدًّا، ما المانع أن أسلم ويسلموا؟! إن كان يمكنني أن أقدم شيئًا لدين الله متجنبة مفسدة من مفاسد قلوب الناس قدر استطاعتي .. فلماذا لا أفعل؟!

---

[1] (غندر): لقب أطلقه ابن جريج على محمد بن جعفر، أحد المحدثين، كان ربيبًا لشعبة، فتعلم منه بغض التدليس والمدلسين؛ والتدليس نوع تلبيس في الرواية، بحيث يبدو ظاهر الكلام له معنى مختلف عن =حقيقة مراد المحدث؛ فمثلًا يقول (عن فلان) وهو لا يقصد أنه سمعه منه، فيوهم السامع أنه أخذه عنه، وأن سنده عال، وهذا لا يعتبر كذبا .. وهذا شرح مختصر مخِلٌّ بلا شك، ومن رام العلم طلبه في محله .. لكني فقط أرجو أن يتأمل القارئ دقة علماء المسلمين وإنصافهم في التفريق بين الكذب الصريح والتدليس في الحكم على الرجال! فهذه لمحة مبهرة عن تلك المنظومة العلمية الإسلامية التي يشكك فيها بعضهم بجهالة. المهم؛ دخل محمد بن جعفر يومًا مجلس ابن جريج وهو يحدِّث، فكلما قال ابن جريج (عن فلان)، سأله محمد: أسمعته منه؟ فأكثر من الشغب، فلما غضب ابن جريج قال له: اسكت يا غندر .. وغندر يعني المشاغب، فمن ذلك الوقت صار لقبه غندر، ثم تلقب بذلك بعده غيره.

بلا شك، هناك تابوهات.. أصنامٌ عند كل إنسان، إذا اقتربت منها لتهدمها، سيثور ثورة عارمة ..

هناك نصائح يشعر معها الإنسان أمام ناصحه أنه عاري الروح مفضوح؛ فيفر منك فراره من الأسد، بل يطعنك تنفيسًا عن شدة الألم أو الهلع أو كليهما!

لكن على أي حال، الله -عز وجل- خلق الناس يبتلي بعضهم ببعض، يختبر بعضهم ببعض؛ فلا أنا عندي قدرة أن أكون دائمًا على صواب مسددة فيما أفعل وما أقرر وأقول، ولا هم كذلك .. وإنما تصرفات الناس أرزاق نرزق بها كما الطعام والشراب، وابتلاء نُبتلى به كما الفقر والمرض!

فلكل إنسان في كل حال مع الناس رزق أو بلاء؛ فإن أصابه الأول شكر، وإن أصابه الثاني صبر!

ونجتهد أن نراعي الله في السر والعلن والباطن والظاهر، والسعيد من عافاه الله من ذنب أو وفقه لتوبة ..

كانت أم سعيد بمقاييسي كسلفية: فقيهة!

فهي تحب القراءة في الفقه، وعندها علم بالخلاف، الخلاف (السلفي/سلفي) مع توسع يسير، وتقرأ للشيخ العثيمين، وتسمع للشيخ الألباني، وتقرأ في كتب الفقه، وترجّح بالدليل؛ وهذا هو أهم شيء عندي!

كان مما تعلمته منها: "سلامة قلبك أولى"، "ابحثي عن سلامة قلبك" .. "وأنا مالي لماذا أفتي؟ أنا لا أعلم".

وكانت هي أول من صالحني مع الفقه، وجعلتني أتفهم الخلاف، وأن المخالف في الفقه له "وجهة نظر".

قديمًا وأنا في الجامعة حين حبست ابنة شيخ من شيوخ الإخوان، وناقشتها كأنني وكيل نيابة في بعض الأمور التي ينتقدها السلفيون عليهم، وتأملتُ في

ردها، وقع في قلبي أن "لكل وجهة نظر". لكن ذلك كان بذرة ضعيفة واهنة بداخلي، نبتت شيئًا يسيرًا على استحياء، فلما تعرفت أم سعيد .. أينعت!

✓ "**كل يعمل بما يترجح له**".

✓ "**الأدلة ليست بهذه السطحية .. أحيانًا يعجز المجتهد عن التعبير عن الدليل المنقدح في نفسه**".

✓ "هه! يا حبيبي، أنت **تقلد شيخك في الاستدلال**! وتحسب أنك مستقل".

✓ "لماذا نعادي الناس على مسائل الفقه والخلاف السائغ؟ **الأمر بسيط**، كل يعمل بما يترجح له! **المهم أن نعمل**".

مبادئ أساسية مهمة، كان هناك خلل في التطبيق بلا شك، ففي النهاية أنا وهي ننتمي وقتها إلى السلفية المعاصرة، نعاني من نفس الفوضى في الدراسة، لكن هناك نور .. بصيص نور يسطع .. بعض الضباب يتبدد.

حتى السلوكيات، التربية، الدعوة، خفايا أعمال القلوب، أمراضها وأسقامها، ربط بين الواقع والتطبيق وتلك النظريات في الكتب، الأفكار وكثير من المبادئ تتشكل في عقلي، صار يبدو لها كيانٌ كجنين في بطن أمه بدأ يتحول من مضغة وعلقة إلى لحم وعظام!

ربما لم أقدم لها عشر ما قدمته لي؛ بل ولا أدنى من العشر!

كنت أقول دائمًا: عقلان يفكران معًا خير من عقل واحد، ولو انحبس عقلك في قمقم مع نفسه ... لضللت!

كان هذا رزقي؛ أن تجد من له عقل وفير وحكمة؛ يناقشك، تطرح عنده أفكارك ويطرح عندك أفكاره بلا حرج، نناقش كل شيء، نتطور، نبحث، نفهم، نتكون من جديد!

كانت مجروحة، لايزال جرحها يثعب دمًا .. طريًّا لم يندمل، طعناتهم كانت قوية مزقت روحها، وكسرت عظامها، صوتها إذ تقص عليّ ما عانته كان قطعة من الآلام.

كانت فقط .. تريد أن تختفي و... أن يتركوها وشأنها!

زمان .. زمان أول ما بدأت أشتهر شوية كنت لسة صغيرة يعني، وعمالين يقولوا: أم عبد العزيز، أم عبد العزيز؛ فواحدة جت تشوف مين أم عبد العزيز دي، فدخلت الحلقة وأنا بشرح، وجلست واستمعت، وبعد الحلقة سألت: أمال فين أم عبد العزيز هي غايبة النهاردة؟ فقالولها: أهي، هي دي، بصت لي من فوق لتحت، وشاورت عليا وقالتلي: أنت أم عبد العزيز؟؟ وراحت أخدت شنطتها ومشيت.

لم تهتز ابتسامتها بل اتسعت؛ وكأنها تتذكر ذكرى جميلة ممتعة!

كتبتُ يومًا:

"ورحم الله أختًا من الداعيات، اجتمعتْ معهن على العلم، فلما خاضوا في الجَرح فارقَتهن، فجرحوها وأهانوها وقتلوها قتلًا معنويًّا، وظلت هي تردد: اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون، حتى ماتت بحسرتها على فوات الوداد وحسن العشرة وطعن الفؤاد! رحمها الله .. رحمها الله".

تلك المرأة كانت معلمة أمِ سعيد -رحمها الله-.[1] التي يقصون عن حسن أخلاقها قصصًا جميلًا؛ تلك امرأة سلفية لم ألتقيها، ولكنني تأثرتُ بأخلاقها بعد موتها، أسأل الله أن يغفر لها ويتجاوز عنها ويرفع درجاتها عنده.

---

[1] ممكن نركز؟! نركز من فضلكم! .. أم عبد العزيز ليست هي أم سعيد، وأيضًا المذكورة في العبارة هي أستاذة تتلمَذَتْ عليها أم سعيد، لا أم سعيد نفسها! **لماذا أفعل بكم هذا؟**
لأن هذا الكتاب ليس رواية مسلية، ولا يُقرأ كالجرائد والمجلات! شيء من التركيز لا يضر.

يـتكلم النـاس عـن حلمهـا، وطيـب أخلاقهـا، وطـول مجلسـها، وصـبرها على العلم، وإذعانها للحق وقبوله.

لما اختلفـوا وافترقـوا؛ شـنع الباقيـات عليها وعلى طالباتها، وفرضـوا علـيهنّ حصـارًا معنويًّـا ومقاطعـة، رافعـين رايـة ولاء لحكـم مـا أو لشـيء مـا، وبـراءة منهم، حتى السلام والسؤال كان محل إشكال!

معاناة!

مـن إشـكالات السـلفية الكبرى تجـاوز الحـد في قضـية الـولاء البراء، وعقـد ألوية الـولاء والبراء على أمور لـم يرتب الشـرع عليها هـذه السـلوكيات؛ فمثلاً الهجـر للزجـر لـه أحكام، ويشـترط لـه أن يُرجى منـه صلاح، ولا يكون الهجـر عقوبـة على تبني حكم في خلاف سـائغ، فضـلًا عـن أن يكون في مسـائل فيها سـوء فهم أو سـوء تقدير.

هـذا تجـده متطرفًـا في نـوعين مـن السـلفية بالخصـوص: الـوحش السـلفي! يروق لي هذا اللقب بالمناسبة... وسيأتي الكلام عنهم قريبًا جدًّا.

ولا تظن أن طريقة المداخلة بعيدة عن شائع السلفيين؛ فالتيار كبير عريض ومختلط شديد الاختلاط، والأفكار تنساب بين أفراده انسيابًا كذلك المجرى الـذي يصب من النهر في البحر، فتجد للنهر ماءً لـه صفات، وللبحر ماءً لـه صفات، وبينهما ماءً امتزج له صفات، والكلّ ماءٌ!

كتبتُ من قبل أنتقد معلمات كنّ يفتين بطلاق المرأة من زوجها إذا أمرها بـالنمص؛ فهـؤلاء إذا ترخصـتْ صـاحبتهن فـإنهنّ يهجرنهـا للزجـر في ذلـك وأمثالـه مـن خلـع النقـاب أو أي مخالفـة فتـوى ممـا تعـد: (بالإجمـاااع)، و(هذاااا نصٌّ صريح)!

سواء كان ذلك الاعتقاد ساريًا في التيار السلفي أو في بعض أفراده أو قوقعة متجمعة؛ بل حتى فيما يسوغ فيه الخلاف بين التيار لكنه خلاف "الراجح"، فإن المخالِفة لهنّ تعاني من صويحباتها!

فإن أطاعتهنّ وطُلقت؛ لن تجدهن حولها في دعم ولا نفير -إلا من رحم الله-؛ لأن التيار مفكك غير منظم، وإذا لم تُطلق وترخصت؛ فهي مطرودة منبوذة؛ فهذا صنف ..

وأما إذا قبلت المعلمة على مضض أن تترخص المرأة بقول شيخ "مميع" أو "متساهل" أو "يعني الله يهديه" لا يريد خراب البيت؛ فإن صويحباتها السلفيات العاديات جدًّا يقتلنها قتلًا معنويًّا حقيقة دون شعور منهن بما يفعلن.

حين كتبتُ ذلك ثار الناس، واتهمني البعض بالتهويل والفجر في الخصومة رغم أن هذا يحدث بالفعل ..

فحين "تترخص" المرأة السلفية على استحياء، وهي التي تربت في بيئة ترفع راية "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"، ومن تعلق بشيء عُذب به ولابد، والنمص حرام بالإجماع القطعي الثابت والنص الواضح الصريح، وفيه لعن وطرد من الرحمة؛ هذه التركيبة تشعرها بالضآلة، وأنها اقترفت إثمًا عظيمًا وجرمًا جسيمًا، تتلقفها عيون لائمة في صمت، أو مشفقة، ورسالة واضحة بلسان الحال أو المقال مفادها: لو كنت مكانك لبعت الدنيا لله، ولتركت كل شيء لله .. لكنك ضعيفة يا أخية!

هذه التركيبة تعذيب شديد لمن كان له قلب، الشعور بالدونية، جلد الذات، الشعور بالمهانة، نظرات الشفقة أو الاحتقار.

أتفهّم أن بعض الناس يظن أن هذا "دلع"؛ فهل يتفهّم هؤلاء أن ظنهم ذاك عُجب قد يبتلي به الرب عبده ابتلاء، فيفتن فتنة عظيمة قد لا يخرج منها سالمًا؟!

أكثر شيء كانت تكرره نورة أمامي أنها تخاف جدًّا أن تحتقر مذنبًا فيعافيه الله ويبتليها بالذنب، أو أن ترى أنها أقوى وأفضل من أحدهم ممن ابتُلي بضعف أو بلاء، وأنها لو كانت مكانه لفعلت وفعلت؛ فيبتليها الله بما لا طاقة لها به، كان ذلك هاجسًا يؤرقها وتكرره أمامي كثيرًا.

وهذا في الذنب .. فكيف ينبغي التعامل في خلاف سائغ؟! لكنهم لا يدرون ما السائغ أصلًا، ولا يعرفون عن فقه الأئمة حقيقة إلا ظنًّا.

فهل نصحي لأخواتي، وتنبيهي على هذه الآفة الموجودة، الظاهرة أحيانًا، الباطنة في شغاف القلب وعمقه أحايينَ أخرى؛ يعتبر فجرًا مني في الخصومة؟ أو تهويلًا؟

أم أنكم أنتم من يتلقى النصح بتحفُّز زاعمين أنه فضيحة، رغم أننا نتحدث عن سلوكيات ناتجة عن أمراض قلوب عمّت بها البلوى في التيار -إلا من رحم الله-، فماذا تريدون؟

تريدون أن أسكت وأمدح فقط وأستر عيوب التيار لنظل متسلطين على الناس بمثل ذلك، ونحن أصلًا مَن رفع راية إنكار المنكر والجهر بالحق ولو خالف المسلمين...

لكنها آفة أخرى؛ أن هناك (نحن) السادة الخواص أهل الصلاح والديانة، وهم (العامة)... بم كان هذا؟ بمظهر وانتماء لتيار معين!

فإذا انتقد السادةُ الخواصُّ العامةَ الرعاعَ فهم في جهاد عظيم ودعوة وإصلاح ورفعة، إنهم شعب الله المختار الذي يحمل الرسالة ولواء الإنكار والولاء والبراء، أما من انتقد السادة الخواص فهو فاجر في الخصومة.

أي خصومة فجرت فيها -يا سادة- وأنا منكم أصلًا؟ لا أعاني أفعالكم؛ بل يعاني الناس مني! أنا سلفية مرفهة قوية، أرجح وأتصدر وأتكلم بحجة، ويلتف السلفيات حولي، ولم يكن أحدكم يجرؤ على المزايدة عليّ في سلفيتي ولا مجاراتي في مسابقة تشديد!

وهنا آفة أخرى: هؤلاء لا يفقهون معنى المصطلحات الشرعية أصلًا، لا يفهمون معناها ولا لازمها ولا مضمونها ولا أي شيء .. ما الذي تنتظره من تيار فوضوي في الطلبِ كل فرد من عوامّه متصدر بغير أهلية؟!

نعود لقصتنا ..

عقد أصحابها الولاء والبراء على قضية ما، وقاطعوهن ومعلمتهن مقاطعة شديدة، وعُقدت المحاضرات للتحذير منهنّ.

أتدرون .. لو فعلًا كانت القضية التي عقدن عليها الولاء والبراء تستحق شرعًا؛ لكان الخطب أهون، لكن عامة قضايا الولاء والبراء في التيار السلفي جهل وتعصب يشكلان أرضًا خصبة للفجر الحقيقي في الخصومة!

والأدهى؛ أن يكون خصمك صالحًا يراعي الله فيك، ويتمنى فقط لو تتركه وحاله وتكتفي معه بحقوق المسلمين .. هيهات!

كل هذا لا يؤثر!

أكثر موقف قتلني؛ أن تلك المعلمة تأثر مرضها بهذا الجفاء والحرب النفسية الضارية، فدخلَت المستشفى والأمور تتدهور؛ فما كان منهنّ إلا أن زرنها لينصحنها بالتوبة والعودة قبل أن تموت!

والذي أذكره أن القضية كلها كانت متعلقة بالأخذ عن شيخ أو ترك الأخذ عنه مع جرحه، ومقاطعة بعض المعلمات أو التواصل معهن! وكان لها وجهة نظر أو رأي ما مخالف لهم...

أتساءل لماذا لم يعذروها ويتقبلوا؟ ولماذا يحتكرون الحق ولا يرحمون الخلق؟ أهؤلاء بشر؟ أفي قلوبهم رحمة؟ امرأة مريضة، والقضية كلها سفيهة لا تستحق!

لهذا كانت (أم سعيد) متمسكة بنشر مبدأ: كل يعمل بما يترجح له، تكلم كيف شئت واحتد واشتد للدفاع عن الراجح عندك، لكن لا تحتكر الحق كأنك أُوحي إليك، ولا تستطل على الخلق كأنك المسلم الصالح وهم أفجر أهل الأرض أو أعظمهم كفرًا!

وعنها أخذتُ ذلك، ليس كقاعدة نظرية وحسب، بل ممارسةً وتطبيقًا بحق.

لماذا يجب أن نناقش مسألة فقهية ولابد أن يقتنع أحدنا بقول الآخر؟

إن الإذعان للخصم في مناظرة؛ علمٌ، فإذا كان مبلغ علمي هو ما قلتُ؛ فلم لا تعطيني مساحة للتفكير وإعادة النظر وتقليب المسألة، ثم بعدها تعطيني الحق في قبول قولك أو رده في سهولة؟ هذا موافق تمامًا للنظري الذي تعتنقه السلفية؛ فقه الدليل، سنرجح، كل واحد سينظر في الدليل ويرجح، وكل سيعمل بما يترجح له بالدليل، ولا يحل له أن يخالف ما ترجح له، مع قول الشافعي: "رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب"، وقول ابن العثيمين: "من خالفني بمقتضى الدليل فقد وافقني" تمام؟

كلام جميل وكلام معقول .. مقدرش أقول حاجة عنه!

لكن التسليم للخصم، ومراجعة المسألة، والتدقيق في صحة الاستنباط، والترجيح بين الأدلة؛ أصلًا يصلح للعلماء لا العامة ولا صغار طلبة العلم لو تعلمون!

ومع ذلك دعوني أتساءل عن التطبيق بيننا معاشر صغار الطلبة وعوام المسلمين!

التطبيق؟

التطبيق الشائع في السلفية: رأي السلفيين ومشايخ السلفية صواب لا يحتمل الخطأ، ورأي المخالف خطأ لا يمكن أن يحتمل الصواب! والمخالف لا دليل له، مسكين فاته الكثير ووصلنا .. ولو كان من الأئمة الأربعة!

والتطبيق فيما بيني وبين أم سعيد، ومن كان مثلها: كل يعمل بما يترجح له حقيقة، ولكن نقل الفتاوى يحتاج خبرة وعلمًا، والفتوى تحتاج خبرة وعلمًا، ونقول لا نعلم، ونحيل على المشايخ، ومن استفتى من يثق بدينه وعلمه برِئَت ذمته .. ولا يخلو الأمر من محاولة إقناع وشفقة إذ يخالف أحدهم ما شاع من فتوى.

وكانت كل المشاريع العلمية التي تعاونا خلالَها تمثل جهدًا حقيقيًّا في محاولة تطبيق ذلك؛ فلا مانع أن تعملي بقول شيخ ما تثقين به، أو تستفتي أي شخص، فقط وضعنا قواعد صارمة في الجروبات التي ندیرها ألا ينقل أحد فتوى إلا الفريق المسئول، وكل من شاركت من الأخوات في هذا الفريق تعلم جيدًا جدًّا أن القانون الذي يدير وينظم العمل بيننا أن كل واحدة تفتي بما يترجح لها وبما تراه حقًّا، ولا تتدخل إحدانا باعتراض على الأخرى مهما كانت المخالفة إلا من باب النقاش على الخاص، والنقاش وديٌّ لا جبر فيه ولا تعسف، ويحق لها أن تتمسك برأيها وتفتي به دون مساس ولا اعتراض من سائر الفريق.

بل حتى طريقة اختيار المسئولة كانت: أمانتها ونزاهتها، وأن تكون على علم مشهود لها به من أي شخص على علم.

وكنت أقلهم في الفتوى في الفقه، أجاوب عن أسئلة العقيدة وأعمال القلوب، وأنقل بعض الأحكام العامة، وأستفتي لهم شيخًا أو أحيل على

إحداهن؛ فإنني كنت أراهن أكثر فقهًا مني .. وتناغم بيننا توزيع المهام بهذه الصورة.

بل ومما تناغم بيننا بغير اتفاق: **التيسير!**

فكنتُ إذا طُرِحَ سؤالٌ، وأعرف أن الراجح عند (أم سعيد) هو أخف ما ترجح عندنا؛ أحيل عليها، ولا يجيب السؤال غيرها.

وكنا ننفر جدًّا من هؤلاء اللاتي يدخلن الجروب رافعات راية ما أريكم إلا ما أرى، أو تلك التي تدخل ولديها إصرار على عرض وجهة نظرها والجدال...

يا حبيبتي، الجروب لعامة الناس وليس للجدال والنقاش الفقهي، والأمر سهل، تقبلي الخلاف، وكلٌّ يعمل بما يترجح له، أهلًا بك، نحن نقبلك كما أنت، لكن لا تفرضي نفسك علينا، لا يلزم أن نتفق، ثم حبيبتي، احترمي أن هناك مسئولات عن المكان، وقواعد للإجابة على الأسئلة، ونظامًا بيننا.

لا أدري حقيقة لماذا يقل احترام القواعد؟ فحتى وأنا سلفية ذكرتُ لكم أنني كنت أعمل بقاعدة: اربط الحمار مطرح ما يحبه صاحبه؛ فلماذا لا يحترمون المكان والمسئولين عنه؟

بل الأشد غيظًا هؤلاء اللاتي كنّ يدخلنّ ليكتبنّ تقريرًا فيه تأييدٌ للظلم، وضرورة الخضوع والطاعة لـ "أمير المؤمنين" المتغلِّب!

نحن لا نقبلكم، ولا نرى الخلاف سائغًا، ونرى أن عندكم خللًا نفسيًّا وعقليًّا أصلًا، وسوء تصور للمسألة، وجهلًا مدقعًا! صدقًا هكذا نراكم، ومع ذلك نتسامح مع وجودِكُم بيننا؛ فما الذي تريدون بالضبط؟

صنفٌ آخر يصمم على النقاش بغير أهلية -من وجهة نظري-؛ تُنهي النقاش فيعودون، تَسكتُ فيثيرونك بسؤال: أأنتِ مجازة في الفتوى؟ وليس الشائع في التيار السلفي أصلًا إجازة الفتوى؛ فالكل يفتي!

أسألها: طيب حبيبتي، هل أنت مجازة في الفتوى؟ لا، لكني لا أفتي، أنت من يفتي.

فأردُّ في صبر: أنا لا أفتي، أنا أنقل بعض الأحكام وأستفتي لكم شيخًا، فتعود فتجادل، فأعطيها "بلوك" و "وردة"؛ فتذهب تشتم وتلعن وتتهم وتتوعد!

لقد حرمتُها من متعة الإنكار عليّ .. يا لقسوتي!

رأينا أصنافًا من البشر، لكن السؤال الحقيقي الذي لم أرتوِ من رحلة البحث عن جوابٍ له ولا شبعت:

ما هو المعيار الذي نحكم به على فلان أن له أن يرجح؟ وأن له أن يفتي؟ كل من استفتى شيخًا يثق به برِئَت ذمته؛ لكن من هو الشيخ الثقة؟ أهو السلفي فقط؟

لكن مِن السلفيين مَن ليس أهلًا للفتوى أصلًا ولا للتصدُّر! فبأي معيار؟ أن يكون صاحب ديانة وعلم؟ ما هي الديانة والعلم؟ ما هي معايير من ينقل الفتوى؟

هذه الأمور تصورها بدقة كان ضبابيًّا نوعًا ما... المعيار اتباع الدليل، اقرأ في المسألة، واطّلع على كتب الفقه والمذاهب، توسّع ووسّع أفقك، ثم رجح، ولك أن تفتي أو تعمل بفتواك في نفسك، وتُمسك عن نشرها بحسب ورعك.

لكن هناك شيء ناقص، ترس مفقود، هناك خلل ما لا نعرف أصلًا مصدره! ما هو ذلك الخلل؟!

إرهاصات

هل كان هذا التواصل مع هذا الفريق من إرهاصات الصدمة أو التغيير؟!
لا أدري .. لكنه كان مؤثرًا بلا شك ووقتها كنت .. سلفية!
في عام 2009 إلى 2011 تقريبًا وجدت مقالًا لباحث سوداني في أحد المواقع التي أكتب فيها عن ختان المرأة المسلمة، تناول فيها التقرير السلفي للسبب الذي يعللون به ختان النساء بنقد علمي شرعي، وأوضح أنه يدعو إلى الختان السني لا الفرعوني الذي ينتشر في حوض نهر النيل.
كانت فكرة المقال تدور حول مقارنة الختان السني بعمليات تجميلية غربية، ويحاول الباحث إثبات أن هذه العملية إذا تمت بطريقة سنية صحيحة؛ فإنها تؤدي إلى زيادة الاستمتاع في العلاقة الزوجية لا تقليل الشهوة كما هو القول المشهور المستنِد إلى كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، وتناول شرح أحاديث الختان بطريقة مختلفة، تبين علة الختان أنه لزيادة المتعة للرجل والمرأة لا لتقليل شهوة المرأة.
قرأتُ المقال وأعجبني، وأعاد إثارة تساؤل طالما تردد في ذهني: إذا كان الشرع أباح للرجل الزواج من أربعة، وتقريرات ابن القيم أن الرجال أشد شهوة من النساء؛ فلِمَ يُشرع الختان للنساء لعلة تقليل الشهوة؟ لا سيما والخلاف السلفي في حكم الختان: أنه مكرمة، أو مستحب، أو فرض!
لماذا يبيح الشرع أو يفرض أمرًا يقلل شهوة من هو أقل شهوة؟ ثم هل يقلل شهوتها ليبيح زواجه بغيرها؟ لماذا؟

فوجدتُ في هذا المقال تقريرًا حسنًا من وجهة نظري، فكتبتُ تعليقًا يوفّق بين هذه الأبحاث العلمية وبين كلام شيخ الإسلام؛ فأنا كسلفية أكره أن يخطّئ باحث غير سلفي شيخ الإسلام ابن تيمية، وطالما هناك طريقة للتوفيق وفهم كلام شيخ الإسلام فلم لا؟!

ومن آفات السلفيين عامة: شدة التعصب لشيخ الإسلام مع سوء فهمه أحيانًا .. أو كثيرًا!

الحقيقة، لم أكن متعصبة لشيخ الإسلام تعصبًا مجنونًا، بل كنت أخالفه وأشعر بسعادة إن خالفته أو استشكلت على تقرير له في كتبه أو كتب تلميذه ابن القيم، وأعترف الآن أنني أصلًا وقت المخالفة أو الاستشكال حين كنت سلفية لم أكن أهلًا لا للموافقة ولا للمخالفة؛ لكنني كنت أستمتع بالشعور بأنني لست متعصبة ولست مقلدة وحسب، بل لي عقل يزن الأمور ويخالف ويرجح ويستشكل ..إلخ.

كان هذا تعليقي على المقال:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أما عن مقالتكم فهي جد رائعة وتصيب -إن شاء الله- الكثير من الحق، وقد قرأتها مرة بعد مرة، وأوافقكم فيما ذهبتم إليه.

أما بالنسبة لكلام ابن تيمية وتفسير المعاصرين له؛ فقد كنت أشعر بنفس حيرتكم إلى أن قرأت مقالتكم، فجمعت بين ما هو مشاهد وبين ما ذكرتم وبين كلام ابن تيمية. فسأذكر لكم- بعون الله- جمعًا بين ما ذهبتم إليه وما ذكره ابن تيمية؛ فإن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان.

فالواقع أن ابن تيمية يتحدث عن حالٍ وأنتم تتحدثون عن حالٍ، فإن شعور المرأة بالرغبة أو الشهوة قبل الجماع يختلف عن حال الجماع، وابن

تيمية يتحدث عن الرغبة في الجماع، وأنتم تتحدثون عن قضاء الشهوة حال الجماع.

غير المختونة تشعر بالرغبة في الجماع كما يشعر من عنده آلام في حلقه بالعطش؛ فيشرب ولا يرتوي، ثم يشرب فلا يرتوي، ويظل يشعر بالعطش أغلب نهاره وليله، ويشرب حتى تتألم بطنه ثم لايزال عطشانًا.

فغير المختونة تشعر بالعطش ولا تقضي وطرها؛ لهذا نجد في نساء الإفرنج - كما ذكر ابن تيمية- الفحش؛ فإنهن يشربن ولا يرتوين، فيبحثن في الزنا - لعدم الواعظ عند كثير منهن وليس كلهن-، ثم لما لم يرتوين بعد الزنا بحثن في المثلية والذاتية والحيوانية كما هو مشاهد ومعروف، وتظل تدور باحثة عن قضاء وطرها الذي لا ينقضي بالطرق الطبيعية.

هذا بالإضافة إلى كون غير المختونة -فعلًا- ترهق الزوج نفسيًّا وبدنيًّا؛ فهي راغبة ولا تشبع ولا تقضي الوطر، فلا هو أرضاها، ولا هو استراح!

أما المختونة فهي تشعر بالرغبة كما يشعر السليم بالعطش، وضع سوي ومعتدل؛ فإذا شربت ارتوت؛ ففي شهرها تمر عليها الأيام بين رغبة وعدم رغبة حسب النفس والظروف... تمامًا مثل أي شهوة من شهوات الإنسان المعتدل غير السقيم.

فالأولى: سقيمة عليلة، والثانية: سليمة سوية؛ فشتان بين الوضعين وبين الحالين.

ويبقى أن نذكر -كنوع من التحذير-: أن المجتمعات العربية والإسلامية عندما أهملت الختان -بل وحاربوه-؛ بدأت تظهر في مجتمعاتنا فواحش صادمة لم نكن نسمع بها من قبل! لا أريد أن أقول تفشى -نسأل الله العافية-، ولكن أخشى أن يتفشى في السنوات المقبلة حال ظل القوم على إهمال الختان؛ لأن المرأة في هذه الحالة -إلا من رحم ربي- ستبحث عما

يقضي وطرها في الوسائل الشاذة غير المعهودة، وتبدأ الأسر في الانهيار؛ خاصة مع الانفتاح الشديد وعصر المعلوماتية حيث صارت أي معلومة متاحة للجميع.

هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

لم ألبث إلا يسيرًا حتّى جاءني بريد من الموقع أن صاحب المقال يطلب التواصل معي في إطار علمي.

كان الرجل قد كون مجموعة بحثية تتضمن طبيبًا مصريًّا يعيش في أمريكا، وطبيبتين سودانيتين، واطلع على مقالات لي وعلى التعليق؛ فطلب انضمامي للفريق ليصدر كتابًا، وكان يريد مني صياغة البحث والعناية بالشق الفقهي في المسألة؛ (على أساس أني ظهرت لهم بمظهر فقيهة زماني وعلامة أواني)!

أرسل لي هو وفريق الأطباء كتبًا عن الختان من الناحية الطبية، وروابط مواقع تدور كلها حول طريقة الختان، وأنها قطع الجلدة فوق البظر دون مساس بالبظر نفسه، وأن هذه العملية في النساء في مقابل قطع الجلدة (القلفة) عند الذكر دون المساس بالعضو الذكري.

وأثار الباحث قضية أن المتصدرين المشاهير لا يقولون ذلك، وأنه يرى أن وصف الختان عند مشايخ السلفية هو نوع من الختان الفرعوني، وأنه مضر.

وبدأت البحث الفقهي تلقائيًّا بالبحث في الشاملة في كتب المذاهب الأربعة عن وصف الختان وعلته لأجد أن عبارات الفقهاء تدور حول قولهم: "قطع الجلدة كعرف الديك دون المساس بأصلها؛ كالنواة"، وكان فهمي لهذه العبارة أنها مطابقة للأبحاث العلمية، وأن الختان السني: قطع الجلدة دون المساس بالبظر.

كما تكلم بعض الفقهاء أن علة الختان زيادة المتعة، أو التوافق بين الزوجين.

حاول الباحث التواصل مع بعض المشايخ السلفيين ومنهم أطباء؛ فوجد صدًّا ورفضًا لانتقاده عبارة ابن تيمية، ولتجريمه أخذ جزء من البظر باعتباره نوعًا من الختان الفرعوني، وأنه مخالف للسنة.

وكنت أشعر بالضيق من جرأته فعلًا على تخطئة ابن تيمية كما سبق ذكره، وحاولت مناقشته في هذه الجزئية لكنه كان مصرًّا، وأنا قد أخالف ابن تيمية لكني لا أقبل من غيري أن يخالفه!

بصفة عامة؛ الذي لاحظته في الباحث فيما بعد من أبحاثه أنه متحرر من كل قيد كأنه مجتهد مطلق .. سيصيب في بعض الأمور .. ولكنه سيخطئ في أمور كثيرة أيضًا!

أيضيق صدر السلفي إذ قرأ عبارتي السابقة؟

بلا شك!

ما الذي يجعل أي سلفي أهلًا للاجتهاد والترجيح، أو الاجتهاد والنظر في الدليل، ويحجر على هذا الباحث ويمنعه من ذلك؟ هو أو غيره...

اللحية؟ أو الانتماء للتيار السلفي وتعظيم متصدريه؟ تعظيم ابن تيمية بالذات؟

إما أن يكون هناك معيارٌ نوضع أمامه كلنا سواسية أو .. سيتحدث من شاء بما شاء.

وللأسف، لو كان هذا الباحث سلفيًّا يخالف بلسان سلفيٍّ لوجد من التيار من يلتف حوله بترحاب، تمامًا كما حدث مع شيخي السابق حينما خالف التيار في مسألة الأسماء الحسنى، لكنه تكلم بلسان سلفيٍّ وهاجم من يخالفه بنفس الطريقة السلفية، فالتف حوله من السلفيين من التف،

وتجمع حوله طلبة علم سلفيون، وهكذا... هذه الأمور تتم في التيار بتلك الطريقة .. لكن هناك تابوهات... ثوابت لا ينبغي المساس بها، وإلا لن يُقبل خلافك كخلاف سلفيٍّ داخل التيار الولود.

ثم إن الأمر انتهى بأن اختلفنا في طريقة الصياغة، وقام بصياغة الكتاب الباحث والطبيب، ورفضتُ وضع اسمي على الكتاب.

وصار "اجتهادي" و "الراجح عندي" منذ ذلك الحين: أن ختان النساء طريقةً وتعليلًا مخالفٌ للطريقة السلفية، مع الإقرار بصحة كلام ابن تيمية توفيقًا مع البحث كما ذكرتُ لكم، وبذلك كنت أفتي وأشرح، ولم يكن ذلك صدامًا مع السلفية، بل كنت أعده نوعًا من الخلاف السلفي / سلفي.

وهذا نوع من بيان كيفية قبول الأقوال في الوسط السلفي!

فهناك ثوابت نفسية في التيار، طالما لم تصطدم معها، أو حتى اصطدم معها لكن بخفاء؛ فأنت إذن سلفيٌّ، والتيار يسعك، ويسع الخلاف معك، ويتعامل بمرونة.

أما إذا مسست بهذه الثوابت، أو تصادمت مباشرة، وأعلنت صدامك مع ثابت من الثوابت، أو جهرت بخلافه .. فعندها ..!

وهناك فوائد عديدة في هذه القصة .. أترك لكم استخراجها.

سألتها في فضول بعد ما عرفت الخلاف في النمص: هو أنت لما عملتي حواجبك كنت عارفة أنه فيه خلاف؟

نظرَت لي نظرة عجيبة .. هل كانت نظرة شفقة؟ أو تعجب؟ أو ضيق؟ أو استخفاف؟ أو كل ذلك معًا؟ لا أدري!

تكلمت عيناها .. قبل لسانها، فقالت: أنتو بس اللي فاكرين نفسكم فاهمين والباقي لأ !

أنتو بس اللي فاكرين أن أنتو العالم كله، وأنكم أنتم الناس ومفيش غيركم!

أنتو بس اللي حاسين أن أنتم الحق، وكل الناس ضالة ومبتفهمش!

لكن لسانها اكتفى بعبارة أخرى... قالت: طبعًا كنت عارفة! دانا قتلت الموضوع ده بحثًا، وشفت كل الفتاوى، وملقتش حد بيعمل زيكم كدة! أنت فاكرة أني ممكن أعمل حاجة فيها لعن ببساطة كده؟

- .....!!

تعرفت في المنتديات على (ميادة)؛ فتاة طيبة، كان همها وسائل التربية، وعلى هذه الفكرة اجتمعنا، حاولنا عمل مشروع متعلق بالتربية، وكانت عندنا أفكار جديدة حقًّا وبرامج جيدة، بنينا معًا موقع: "الأكاديمية الشرعية للأطفال"؛ وهو موقع يخاطب المربي من آباء وأمهات ومعلمين، ضمّناه محاور كثيرة تعتمد بطريقة رئيسية على تنمية المهارات العقلية والعلمية

واللغوية للطفل بطريقة مختلفة وجديدة ومبتكرة، ووضعنا لبنات في الأسس التربوية والتعامل مع الأطفال بواقعية، في مزيج جميل مستفاد من كتب تربوية وعلم نفس وكتب شرعية. طرق تحفيظ القرآن والمتون العلمية بإبداع، تعلق بعض الآيات والأحاديث بالمواقف اليومية تطبيقًا، تنمية المهارات العقلية والبدنية بالمتاح وأقل تكلفة، العناية بالتربية الجنسية للأطفال، كيفية حمايتهم وتعليمهم كيف يواجهون المجتمع ويتفاعلون فيه... إلخ.

أضفنا كل نوعٍ مناسب عثرنا عليه من برامج التعليم المنزلي الموازية للتعليم المدرسي، لا لتكون بديلًا، بل لتكون مع الدراسة المدرسية!

كذلك طرق التعامل مع الطفل، وأساليب التربية وتصحيح المفاهيم التربوية، وأخطاء التعامل مع الأطفال، وكيفيات العلاج، وأهم شيء: واقعية هذه الأساليب، وقدرتها على التأقلم مع بيئتنا العربية المسلمة؛ لأننا كنا على قناعة تامة أن استيراد وسائل التربية الغربية ونشرها في المجتمع كما هي، أو مع "أسلمة" أو "تعريب"؛ أدى إلى استيراد مشاكل لم تكن موجودة من قبل في مجتمعاتنا، وأن التربية تبدأ بالنظر إلى المجتمع لا خارجه!

وكنت أشعر أن الموقع ليس للطفل والمربي فقط، بل هو مادة مبسطة دعوية يبدأ المربي فيها بتعديل سلوكه هو أولًا والتعرف على دينه؛ إذ كيف سينقل هذه المفاهيم لأولاده أو طلابه دون أن يشربها قلبه؟

هذه المشاريع والتعامل مع الأطفال علمتني أهمية التطبيق، وضرورة عدم الفصل بين القول والفعل، علمتني إعادة صياغة الكلمات إلى أبسط مادة مقدمة؛ كيف سنشرح للأطفال معانيَ كالخشية والمحبة والرجاء والرحمة؟

اطلّعت على مناهج متعددة وقارنت بينها وفهمت أساليبها وطرق عرضها ومواضع الخلل فيها، وكنا ننوي التوسع ليشمل الموقع مواد مقدمة للطفل مباشرة.

وساهم معنا بعض المهتمين، وحاولنا التواصل مع هيئات متخصصة؛ لكن في النهاية كان جهدًا فرديًّا تطوعيًّا، لم يلبث أن انشغل كل بما عنده، وانفرط العقد .. ولستُ بنادمة!

- ألستِ نادمة؟

- لا، ولا طرفة عين! لست نادمة لا على فعل فعلته، ولا على خطأ ارتكبته ..

أسمعكم ترددون في تعجب "ولا على خطأ؟"

كيف ولم؟

لأني رأيت في أقدار الله لطفًا يجعل من تلك الأخطاء سلم الوصول إلى الصواب والحق، سلم الوصول إلى الرحمن. ولا يقولن متذاكٍ: الندم توبة، وعدم الندم على الخطأ عدم توبة! فالكلام عن الأخطاء لا الذنوب، وحتى لو كان الكلام عن الذنوب؛ فنظر المرء إلى جهة الذنب والندم على أنه عصى الرب شيء، ونظره إلى حكمة الله وتقديره كأن يؤدّي الذنب إلى انكسار العبد وتوبته وشفاء مرض قلبه فهذه جهة أخرى، والجمع بينهما مع التوبة أفضل المنازل.

ꕥ

ميادة كان لها أخت؛ (فريدة)، ساهمت معنا ببعض الأمور في الموقع، وتعرفتُ عليها بعد ما فعّلت حساب الفيسبوك بعد ما عرفت أهميته بعد الثورة.

كانت سلفيةً طالبةَ علم، ودائرة معارفنا فيها نوع اشتراك، وتعرفت من خلالها على امرأةٍ داعيةٍ معلمةٍ سلفيةٍ؛ (أحلام)، سألتُ عنها صديقتي

(سامية) ابنة الشيخ السلفي المشهور، فأخبرتني أنها كانت طالبة عند والدها.

- والآن؟

- ....!

أعجبني جدًّا أنها تتعامل مع طالبة والدها السابقة بحب واحترام، وتردد دائمًا: أصل فلانة هي اللي ربتني.

امتنان يقل في هذا الزمن، وخلق يندر!

قد أختلف مع هذا الشيخ وابنته، ويشتد بيني وبينها الكلام، قد تفعل فعلًا أراه من وجهة نظري مخالفًا لروابط الأخوة .. مخالفًا للجدعنة .. وجهات نظر!

أو حتى قد يتفق العقلاء أنها مخطئة، أو أنني مخطئة، وقد تصل الأمور إلى أوجها، لكني أرى خصالها الجيدة، أشهدُ ولا أجحد!

تعاونت مع (فريدة) على إنشاء صفحة دعوية نسائية، ثم وجدتها تولت أمرها وحدها وصاحباتها وحذفت حسابي من إدارتها ... فلم أكترث!

أما (أحلام)؛ فلم تتلاق الأرواح إلا نذرًا يسيرًا جدًّا .. والنادر لا حكم له!

مواقف معينة هي التي أثرت فيّ في تعاملي مع (فريدة) .. وكنت متشبعة بمبدأ: كلٌّ يعمل بما يترجح له، فكانت الأمور سهلة نوعًا.

لعل أول موقف حدث كان في وقت أحداث دموية تمر بها مصر، أظن ذلك كان بعد مباراة كرة قدم، وحصل قتل كبير في الاستاد بين الجماهير، أو بعضهم هجم على الجماهير .. الخلاصة كان هناك كثير من القتل ورائحة الدم!

الناس منهارة، وحزن شديد، وتعاطف عام .. شباب قتلوا، أمهات ثكالى، أرامل، وكل ذلك أثناء .. لعبة!

أي أنه غير متوقع أن يحدث ذلك، مما ضاعف الشعور بالمأساة.

وفي وسط كل هذا كتب بعض مشاهير السلفية مقالًا عن حرمة احتراف كرة القدم، وحكم من مات في هذه الأحداث.

المقال صياغته كانت غير موفقةٍ بالمرة.

حتى لو افترضنا كفرض جدلي أن ما قيل فيه حق لا خلاف فيه؛ فشيء من الإحساس لا يضر، بعض الصمت والمواساة في تلك المواقف مطلوب، "مش وقته... حقيقي مش وقته"، انتظر أسبوعًا أو شهرًا وقل ما شئت .. الدماء رطبة يا أخي! القلوب تنوء بأحمال ثقيلة .. هناك مأساة ..!

لكن العجيب أنه حينما يكون المكلوم ضعيفًا لا ظهر له يجِد هؤلاء أسنانهم وألسنتهم ويجلدون الناس بلا رحمة!

حسنًا .. (فريدة) لم تكن من هؤلاء،

بل **كانت تجلد الكل في كل وقت ولا تبالي!**

نقلَتْ المقال؛ فلما ناقشتها تحدثتْ عن سوء الخاتمة، وأنها متألمة لكن ... الحق أحق!

- حسوا بالناس!

- إحنا حاسين وهنموت من الوجع، لكن الحق أحق!

انعدام الحكمة والرحمة رغم وجود الألم عند بعضهم .. علامة مميزة لتيار "الوحش السلفي" كما يحلو لي تسميته! خلل كبير جدًّا على الصعيدين العلمي والشعوري.

أبراج عالية .. بلا مرآة!

لا يرون من أنفسهم شيئًا منكرًا، فهُم الموحدون الذين حققوا التوحيد كما أنزله الله على عبده، وهذا يمحو كل شيء .. كل خطأ، يرون الناس كأمثال الذر؛ فكلٌّ منهم لديه ولابد خلل في توحيده حتى يعرِض اعتقادَه على اعتقادهم فيجوزَ قنطرتهم .. كل الناس إلى ذلك الحين .. تحت أقدامهم!

ومنهم من يرى من نفسه قبحًا ما، فيتألم ألمًا ويتعذب به حتى ينفرط عقد قلبه فـ "ينتكس" -باصطلاح القوم-، ويترك الطريق فارًّا بما تبقى من آدميته، أو يقسو قلبه كصخرة صماء فلا يكاد يشعر بالألم!

تكلمت وحاورت حتى صار الأمر جدلًا وانقسم الناس إلى فريقين .. فسكتُ وانصرفتُ.

مما انتقدته عليهم مناقشة ونشر مسائل دقيقة من الاعتقاد على الملأ، في جمهور لا يناسب ذلك، وإن كنت شاركت مرة في نقاش .. وتعرض الكلام للشيخ الألباني .. وما أدراك من هو الشيخ الألباني ومقامه في قلبي؟!

التيار السلفي كما لابد أنكم لاحظتم منقسم في مسائل عديدة، من ذلك مسائل التكفير.

وداخل التيار فئتان عظيمتان ترمي كل واحدة الأخرى؛ هذه ترمي تلك أنهم خوارج، والأخرى ترميهم بالإرجاء. فلدينا كتلتان صلبتان، كل واحدة أخذت المسألة بأكملها عن أحد الأطراف، ونبذت الطرف الآخر.

ولأن التيار شديد الاختلاط في عمومه؛ فستجد من تأثر بهؤلاء وهؤلاء، ومن شكل كوكتيلًا من هنا وهناك، وكتلًا صلبةً أقلَّ حجمًا، واعتقادًا ممزوجًا من هنا وهناك، ستجد تيارًا من الحكماء يتكلمون عن ضرورة غلق باب نقاش هذه المسائل أصلًا، ومن يطالبك باحترام الطرفين، ومن يميل مع طرف نوعًا ويحترم الطرف الآخر، ومن اعتزل الجميع... إلخ... **كرنفال**!

من بداية هذه القضية، استمعت فيها إلى اليسير، وحاول كل من الطرفين جذبي، وطالبني بقراءة بعض الكتب فقرأت، ورافقني بعضهم لأقتنع وألحّ فتحجرتْ كلماتي، وبالله ربي اعتصمت!

هذه مسائل شائكة سآخذها بهدوء وروية بعيدًا عن جو الصراع والتهم والضغط العصبي.

والحقيقة أن الممارسة لكل من الكتلتين الصلبتين تشي بخلل وغلو وتطرف حقيقي في الاعتقاد؛ كلٌّ إلى طرف لا يمكن إنكاره. وتأثر سائر التيار السلفي بإحدى الكتلتين أو بهما معًا.

و اقعٌ شديد التعقيد!

لكني كنت رغم كل شيء أحب الألباني، كنت أحب ذلك الصوت الضعيف الواهن الذي يشعرني أنني أستمع إلى "جدي"، محبة طبيعية جعلتني ألتمس له العذر كثيرًا، وحاولت تأويل كلامه والاعتذار عنه وعن بعض الألفاظ المشكلة .. **لكنني كنت أعلم أن الأمر ليس كما أريده أن يكون!**

أعجبني جدًّا في ذلك الحين محاولة الشيخ العثيمين تلطيف الخلاف وغلق بابه بذلك الكتاب المشهور ..

لكن الحق.. الحق.. هناك مشكلة، ومشكلة كبيرة لا يمكن غض الطرف عنها!

بل في التيار كله -إلا من رحم الله- مسائلُ التكفير فيها مشكلة حقيقية واضطراب وعدم ضبط، وليست تلك بالهين أثرها، ولا تلك الوحيدة. ففوضى الدراسة وانعدام التحقيق، مع ادعاء الاجتهاد، والكلام بثقة نقلًا وتقليدًا عن معاصر، وشيوع مسائل دقيقة في أراذل الناس؛ باعتبار أن كل سلفي طالب علم مدقق، والغالب تلقُّف الكلام من هنا وهناك! مع التقليل

مـن شـأن السـابقين مـن أهـل العلـم، وعـدم فهـم ألفـاظ الأئمـة وضـبط مذاهبهم؛ كلّ ذلك أدى إلى كارثة على جميع الأصعدة.

ومـن أظهـر الكـوارث الخلـط بـين مسـائل الفقـه والاعتقـاد، وعـدم معرفـة المصادر التي يُعتمد عليها في تحرير المسائل وتأصيلها .. ظلمة ملقاة بين أظهر القوم، فمن أراد من السلفيين أن يشعر بالراحة التصق بفئة قوية تشعره بالألفة والصحبة ... **والتقوقع!**

فـإن استشـرف غيرهـا أصـابته غربـة شـديدة فعـاد بسـرعة إلى قوقعتـه وصحبته وركنه المألوف .. والويل لمن خالف القطيع!

دافعتُ عن الألباني مرة في نقاش بيني وبين (أحلام) فكانت كارثة، انتهى الأمر وصُنّفتُ مرجئةً قولًا واحدًا ...

وبدأ الهمزوالغمز!

حاولت الكلام معها على الخاص، واستجمعت نيتي أن أفهم منها وأن أشرح لها أنني لست كما تظن فيّ، فلم ترد، لا أدري لانشغالها أو لغير ذلك...

ولم يتوقف الهمزوالغمز!

موقف آخر:

رأيت منشورًا منتشرًا عند بعض الصديقات .. أغضبني جدًّا!

فأخـذت منـه نسـخة، ونشـرته للنقـاش في الجـروب الخـاص بطالبـاتي بهـذه الصيغة:

هذا أول سؤال مطروح للنقاش، أرجو المشاركة من الجميع.

اقرئي الكلام التالي ثم أجيبي عن الأسئلة الآتية:

"عبااايـات مفتووحـة، وفيزون، والشـعر طـالع بـره الطرحـة... وبعـدين تسألها إيه أمنيتك في الحيااة؟ تقولك: الجنة!

جنة دي السمنة اللّي بتطبخ بهاا أمك"

1-هل هذا الأسلوب مشروع أو غير مشروع؟
2-كم خطأ شرعي التقطته عيناك في هذا الكلام؟
3-اكتبي بأسلوبك وعظًا لأختك المتبرجة في 3 عبارات." اهـ

كان النقاش جميلًا جدًّا واستخرجنا فوائد جمة، وصححنا مسارات وأفكارَ كثيرة، وانشرح صدري جدًّا للتفاعل الإيجابي وما نتج عنه، فهدأ غضبي نوعًا، وقد اتفقت الكلمة أن هذا الأسلوب غير مشروع، وكل واحدة كتبت ما تنتقده في هذا الكلام.

وكان تعليقي:

"بارك الله فيكم، وأحسنتم أحسن الله إليكم.

لفت نظري جدًّا أن أحدًا لم ينتبه إلى أن المتبرجة أو العاصية أو العاصي الذي يجيب ويبادر بأن الجنة هي أمنيته رغم أن الإيمان ليس بالتمني؛ لكن هذه المبادرة تنم عن شيء، وهو أنه له هدف، وربما هو منكسر بمعصيته.

كثير ممن يرتدين الحجاب لو سألناها: "ما أمنيتك؟"، لربما أجابت: "ذرية صالحة، زوجًا صالحًا.. إلخ"، كذلك غير المحجبة.

لكن من جعل الجنة أمنيته؛ هذا يدل على أن الباطن فيه خير، وأن فساد بعض الظاهر هذا بسبب الضعف، وأنه بحاجة إلى تقوية...

ربما يمكنني أن أكمل البوست من بعد تمني الأخت فأقول مثلًا: أخيتي، ليس بأمانيكم ولا أمنيتي .. ولكن إذا أحببت الجنة فهلمي إليها .. "وسارعوا...".

هناك فرق بين السخرية من "الفعل الخطأ" مثلًا كقولنا: "المتبرجة اللي راشّة البنطلون على رجلها .. المتبرجة اللي مطلعة حتة من شعرها بشلن ..."؛ هذا نوع من السخرية منصبٌّ على الفعل الخطأ، غير مهين، قد يبتسم له بعض من يفعله وكأنه دعابة!

لكن السخرية من رغبتها في الجنة .. غير مشروعة ولا مقبولة، وتنمّ عن خلل عقدي!

جزاكم الله خيرًا، جزاكم الله خيرًا، جزاكم الله خيرًا" اهـ تعليقي.

لكن كانت الصدمة حين وجدت مصدر البوست ..

كانت ..

(فريدة) هي مصدره!

ثالثة الأثافي!

تـذكرون حادثـة سـيناء؟ الشـباب الـذين ذهبـوا إلى سـيناء في رحلـة استكشافية؟ حين ضلوا الطريق وماتوا في الجبال بسبب عاصفة ثلجية؟ حادثة مأسوية!

(أحلام) و(فريدة) كالعادة؛ تكلمتا عن الفتيات المتبرجات اللاتي سافرن من غير محرم في رحلة مع الشباب .. وسوء الخاتمة! رحماك يا رب!

صياغة الكلام دفعتني أن أقول لفريدة ما معناه: هو عقيدة أهل السنة تكفير مرتكب الكبيرة؟

وثار الجدل، ودخلت أحلام لتكتب كلاما عامًّا عن ما أفسده (الإرجاء) - والعياذ بالله- في المجتمع!

ما يُدري هؤلاء عن من مات؟ ماتوا على ماذا؟ ربما صلوا أو استغفروا أو دعوا أو تابوا أو أي شيء! ألا يوجد احتمال أن هناك شيء فعلوه فغفر الله لهم؟ مالكم وما بينهم وبين الله وخاتمتهم؟ هلا أقبلتم على أنفسكم وخواتيمكم؟

ثم... البنت متبرجة وسافرت بغير محرم، وهذا خطأ، ألا يوجد احتمال أنها استفتت من تثق بدينه وتظن أن هذا هو الصواب وأنها لم ترتكب إثمًا؟ ألا يوجد أي احتمال سوى أنها ماتت على سوء الخاتمة ومستحقة أن تتحول إلى علكة تلوكها الألسن على صفحات الفيس بوك وأن تتحول إلى عبرة لمن لا يعتبر وتهمز وتلمز ؟

لكن لعل لها نصيبًا في أجر يأتيها بعد موتها من أناس قلوبهم من صخر، فقدت كثيرًا من معاني الرحمة، ولم تفقه معنى حق الإسلام وحقوق الأخوة في الإسلام!

نحن ننتقد الخطأ والمحرّم، ولا نحكم على أعيان المسلمين بجنة أو بنار. سأفترض أنها ماتت على كبيرة بلا توبة جزمًا .. مرتكب الكبيرة تحت مشيئة الرب -جل وعلا-.

وابن تيمية، وهو المعظَّم في السلفيين، ذكر ما يقرب من اثني عشر سببًا يغفر الله به لعبده؛ فما وجه تدخلكم بين أمة من إماء الله وربها؟ ولمَ التألّي على الله؟ نحن ننكر المنكر وننصح الناس وننصح أنفسنا، لكننا لسنا قضاة ولا فوق البشر ..

أعجز عن التعبير عن تلك المشاعر التي تموج في نفسي من جراء تذكر هذه الفئة، أعجز عن التعبير عن فداحة هذه الأفكار ولامنطقية التعامل، تلك الأفكار التي سرت في التيار السلفي بصور وأشكال متعددة، كان هؤلاء مصدرها أو مدعمها بسوء فهم لقضايا كثيرة وخلل كبير في التفكير

والتطبيق .. حتى السلفيون كانوا يعانون منهم! تركتهم .. وبلوكات .. كده كفاية أوي!

راسلتني بعدها (فريدة) عن طريق قريبة لي، أرسلت لي رسالة متألمة عن حق الأخوة والصحبة، رق قلبي (فرفعت البلوك) وتكلمت معها ..

للأسف! الحوارُ كان محاولة اختبار اعتقادي، كعادة كل التيار السلفي، لكن (فريدة) فيها نوع رفق مقارنة بهم، فإن تأملتم في طريقة هذا الرفق منها ... فلكم أن تتخيلوا حجم الكارثة!

لما رأيت العتاب سيفضي إلى الجدل قطعت العتاب، ولم أعترض حتى على محاولتها اختبار اعتقادي... معاناة مع التعسف في الفهم، لكن إلى حدٍّ ما قررت هي أنه قد يكون هناك سوء تفاهم، وأنني .. يبدو أنني فقط أتحرى في التكفير، وأنني لست مرجئة "إن شاء الله"!

وبقيت الأمور مستتبة نوعًا حتى اختفت من صفحتي.. متى؟ لا أدري، ولم أهتم!

أما (أحلام)؛ فكلما رأيت اسمها في حساب جديد بادرت ببلوك مع تحياتي ... اتركوني وقلبي أبحث عن سلامته و.. أمشي جنب الحيط.

من التالي إذن؟

فستش بلا وسوسة في ذلك الجزء المظلم ذي الباب المغلق؛ فإن من ورائه آهات وأنات، وإن منا من حرّم على نفسه أن يلجه لينظفه حتى لا يهتك ستر نفسه أمام نفسه، والله يعلم السر وأخفى!

فيا الله يا ذا الجلال والإكرام؛ ارزقنا سلامة القلب كما تحب وترضى..

لو ظننت أنها يسيرة؛ فاعلم أنك لم تلج بعد الطريق! وإنها ليسيرة على من يسرها الله عليه، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين!

من مقال: (بين الحب في الله والحب في "حظ النفس").

ꕥ

قلت لها: أشعر بالضيق أحيانًا من ابن العثيمين...

- لماذا؟

- لأنه لا يذكر الدليل!

- ماهو كلامه يُحتج به، مش محتاج يذكر الدليل!

- لا معلش، الحُجّة في النصوص، ولو كان كلامه حجة عشان إحنا سلفيين، فغيرنا هتقولي لهم: قال ابن العثيمين، هيقولوا: قال الشيخ فلان وفلان، لازم دليل!

بعد ذلك بسنوات.. ناقشتها -كعادتنا - في فقه حديث أخذته غضًّا طريًّا من تسجيل ثمين للشيخ الألباني، فقالت لي: "تعرفي، معلمتي مكنتش عندها الكلام ده خالص بقى، الحديث قال يبقى هو كده، متقوليليش الفقهاء قالوا مكروه ولا محرم ولا نقعد نتكلم، الحديث قال يبقى نعمل بيه كما هو، ورع وتمسُّك بالسنة .. مفيش فيها تفاهم دي".

لا أدري لماذا في تلك المرة استقبحت الكلام جدًّا رغم أنه هو هو المبدأ السلفي "اتباع الدليل، ونبذ أقوال الرجال"؟!

شعرت بالضيق الشديد، قلت لها مترددة:

- بس معلمتك مش أورع من الألباني ولا الفقهاء اللّي بيستنبطوا الحكم من الحديث...

وبعد تلك المحادثة بأشهر؛ دخل مطبخي ومد يده ليأكل شيئًا؛ فمنعته في فزع وألقيته في سلة المهملات!

- فاسد؟

- لأ، بايت طول الليل من غير غطا، والحديث أنت عارف...

- هم الفقهاء قالوا لو بات يترمي؟

نظرت له في ضيق، ثم قلت في توتر: أنا مليش دعوة الفقهاء قالوا إيه، نص الحديث واضح، وأنا عندي "يقين" في كلام النبي؛ فمش ممكن آكل أكل بات من غير غطا لا يصيبنا مرض!

ضغطت على حروف كلمة يقين، وبثثت من عيني نظرات الشر حتى يرتدع...

قال لي: يعني أنت اللي عندك "يقين" في كلام النبي وكلنا كفرة مثلا؟!

ꕥ

أسعدني أن صديقتي المستشارة (أمينة) شاركت معي فترة في بعض المنتديات، كنا نتحدث كثيرًا، ونتبادل الآراء والأفكار بغزارة.

دلتني في فترة على بعض المواقع، وتواصلت معهم فترة طويلة مثمرة حقًّا، أكبر فائدة خرجت بها من تواصلي مع إدارة هذا الموقع السلفي: حسن خلق!

طبعًا، على عادتي الجميلة، مارست هوايتي .. **الشغب**!

الحقيقة، كنت أريد أن أستعرض استنتاجاتي المذهلة بخصوص هذه الظاهرة في شخصيتي، لكني لا أدري أين المشكلة.. أو أدري!
ولكن.. الكلام عنها ممل ..
تقول أمينة: أنت شخصية قوية .. تستفز بعض الشخصيات..
وتقول أم سعيد: أنت بارعة في استخراج أسوأ ما في الناس..
وأقول أنا : **مظلومة!**
حسنًا حسنًا، لن نناقش هذه المسألة؛ فبالتأكيد سأنحاز لنفسي وأدافع عنها وأحاول تجميلها، دعونا نتقبل الواقع، أنا شخصية مشاغبة وحسب .. **غندر!** تقبلوني كما أنا أو .. **الويل لكم**.
أرسلت مقالًا ضمن سلسلة (هل أنت من هؤلاء)، كان المقال غير علمي كالعادة، قصة أو حوار، تناولتُ فيها قضية الغلو في التكفير.
المشكلة في هذه المقالات أنها لا تخاطب طلبة العلم، ولم يكن غرضي منها تحرير المسألة علميًا، بل كل غرضي: التنبيه على أن هناك ضوابط لتكفير المعين، لكن هناك مسائل لا يمكن تناولها بهذه الطريقة بلا شك، وهذا كان لابد أن أتعلمه بالطريق الصعب، ويتكرر ذلك في مواقف كثيرة حتى أقول بتجرد: ليس كل المسائل يصلح أن يتناولها "**كل**" الناس، ولا كل المسائل يصلح أن يُتكلم فيها بالتفصيل لدى "**كل**" الناس، وانتشار القلم والكتابة والنشر وإساءة البعض استغلال ذلك **لا ينبغي أن يكون سببًا لمجاراتهم**.
السلفية جعلت الكل يتكلم في كل شيء، في أي وقت، في أي زمان، وفي أي مكان.
القضية هنا ليست كتمانًا للعلم، لكن .. تأمل في تبويب البخاري في كتاب العلم: "باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا"!
ولهذا قال بعضهم -وصدق-: "**العالم يترخص في الصمت، لكنه لا يقول**

الباطل"، وأزيد أنا: **لا يقول الباطل تصريحًا ولا تعريضًا ولا تدليسًا!**

وكأي قضية تخضع لموازنات المفاسد والمصالح؛ تطرف أقوام فتوسع بعضهم حتى صاروا أوصياء على الناس، يكتمون الخلاف ويمنعون مناقشة كل شيء، وتطرف أقوام فناقشوا دقائق المسائل الشائكة على الملأ، ففتنوا أقوامًا وأضلوا آخرين، وجمع أقوام بين النقيضين! يتكلمون في شائك المسائل على الملأ، ويمنعون الكلام في الخلاف الفقهي العادي مخافة إضلال الـ "جمهور"! سترون قريبًا.

فالخلاصة: محاولة النزول بتفاصيل قضية التكفير إلى مستوى العامة في الخطاب كانت محاولة فاشلة. الذي حدث: أن المقال نال إعجاب بعض المراجعين؛ فالسلفية منقسمة على أي حال، فأُرسِلت لي رسالة أنه مرشح للفوز في مسابقة من مسابقات الموقع، ثم بعد أيام أُرسِلت لي رسالة أخرى: أن المقال لا يمكن نشره في الموقع؛ لأنه فيه أخطاء!

هل المقال رائع ومرشح للفوز؟ أم لا يمكن نشره لأنه فيه أخطاء؟

نبئوني بعلم إن كنتم صادقين، فإما أن يكون الخلل فيّ أو في مراجعكم. ونسيت أن الخلل قد يكون فينا معًا، أو لا خلل ولكنه سوء تفاهم .. لكنها كانت عندي قسمة ثنائية متعنتة.

جاءتني رسالة محولة من المراجع الشرعي المسئول ينبه على أخطاء في تحرير المسألة.

كعادة كثير من الحمقى والمتعصبين: مررتُ بعيني سريعًا منغلقة العقل غاضبة القلب! فلم أفهم مما يقول سوى أنه "**يتهمني**" بالإرجاء.

أتدرون لماذا؟

لأنه نصح ضمن توصياته بالسماع لبعض المشايخ المقبولين لدى الوحش السلفي!

نعم، كان هذا الحدث قبل لقائي المفصل بهم، لكنني قابلت بعضهم قديمًا، وقرأت بعض ما يعتمدون عليه في تقرير مسائلهم، ورأيت ممارستهم في التكفير كقضية "لحوم المرتدين"، والمسألة صورتها عند القوم تُقرر كالتالي:

"معظم الجزارين من فئة وبيئة تسب الدين ويتركون الصلاة؛ فيغلب على الظن أن الجزار قد يكون كافرًا مرتدًّا، والأصل أن ذبيحته ميتة حتى يثبت أنها مذكاة! فلا يكاد بعضهم إن دخل بيتًا من بيوت المسلمين لا يعرف مصدر طعامه أن يأكل الدّجاج أو اللحوم، لكن فقط الأسماك، بعضهم يتحايل حتى لا يواجه الناس بهذه الفكرة، وبعضهم يصرح!

ورأيت بعضهنّ تُقرر أمامي هكذا: فلان لا يصلي؟ إذن؛ هو كافر! ثم توجب على أخته الاحتجاب منه".

الخلاصة التي لم أدركها في ذلك الحين:

حتى أنا أعاني من الفكر المسبق وبرمجة المخ على ردود أفعال آلية تظهر عند سماع لفظ معين أو اسم معين!

لكنني لم أكن أعلم أنني مصابة بهذا الداء .. كنت أظن أنني منصفة غير منحازة.

حين عدت إلى الرسالة بعدها بمدة؛ وجدت أنه أعطاني كثيرًا من النصائح المفيدة حقًّا، لم أستفد منها في ذلك الحين بسبب الغضب والتحيز والحكم المسبق.

علاج ذلك كان ببساطة: ألا أرد على الرسالة، وأن أتركها حتى تبرد قليلًا .. أو أبرد قليلًا! ثم أعود لقراءتها، فإذا وجدت ذات المشاعر السلبية النارية تركتها فترة ثم عدت إليها.

الوضوء والصلاة والدعاء علاج أيضًا لينتفع الإنسان ويهدأ غضبه، فإن

التفكير المنطقي في حالة الغضب يحدث له حالة من الشلل، ولا يمكن للعقل أن يستفيد وهو في تلك الحالة.

المشكلة أنني رددت على الرسالة وأنا غاضبة!

وحصل خلاف بيني وبين هذا الرجل، خلاف كبير حقًّا، صعّدته حتى تواصلت مع الشيخ المسئول عن الموقع نفسه، وعرضت عليه فكرة المقال، وقلت له: إنني غاضبة من اتهامه لي بالإرجاء. وبعد نقاش طويل قال لي: أنت لست مرجئة، ولكن طريقة عرض المسألة مستفزة؛ لأنك تعرفين أن هناك صراع، فأقل كلمة يساء فهمها .. إن شئت كتابة المقال بطريقة علمية وبلغة علمية فافعلي.

ثم قال لي: إن أردت أن تعرفي حجم المأساة فانشريه في منتدًى كما هو، وسترين عجبًا!

وصدق ... مع أني لم أجرب ما قال، لكني رأيته مرارًا.

ثم إنني لم أكتب المقال بصيغة علمية، فقط أعدت صياغته وعدلته وعرضته على بعض أهل العلم، ونشرته في بعض المواقع الأخرى. ثم بعد تواصلي مع الشيخ (كريم) راجعه، فمدحه، فلما أخبرته أن بعضهم اتهمني بسببه؛ نصحني بعدم نشره، والاكتفاء عند الكلام في هذه الأمور بنقل كلام أهل العلم فقط. فحذفت المقال من كل المواقع حذفًا تامًّا.

أثناء تلك المشكلة وغيرها، كنت أستحضر ذلك المدح: من كان بهذا المستوى في مسائل الصفات لا يضل في مسائل التكفير... ومدحًا آخر وآخر! فأكتب وأرد وأحتد بناء على ذلك، **رغم أنني كنت أزعم بيني وبين نفسي أنني لم أتأثر بمدحه.**

كم تخدعنا نفوسنا!

ثم إنني في لحظة معينة، ربما كنت أناقش بعض الأخوات أو كانت فكرة مرت بخاطري .. **سألت نفسي: هذه المسألة ما الذي قرأتيه فيها؟**
فوجدت أن ما قرأته فيها لا يؤهلني للكتابة فيها!
هذه مسألة شائكة لا يكفي فيها الكتاب والاثنان، ولا تناولُ المسألة في كتب العقائد المعاصرة أو الكتب والمتون العامة؛ لابد قبل التصدر فيها من تحرير وتدقيق وجهد أكبر من مجرد النظر في الكتب المعروفة، بل المطلوب جهد أكبر من مجرد القراءة والدراسة!

إن مجاراة من يتحدث في هذه المسائل وهو لم يقرأ فيها إلا كتيبات وحضر فيها دورة واحدة أو اثنتين؛ هو من السفاهة التي ينبغي أن أكف عنها وأترفع! **إنّ التنافس على الحماقة مغرٍ جدًّا، لكن عاقبته وخيمة.**

هذا خطأ فادح وقعت فيه، ولولا وقوعي فيه لما أدركت موضع ذلك الخلل، ولو نشر الموقع الأول مقالتي واحتفى بها بناء على تزكية المراجع الأول أو كان المراجع الثاني ممن يوافقني، لاستمر الخلل ولم أنتبه له، ولانتشر المقال و .. ولشعرت بالقهر والندم.
أحيانًا يغلق الرب أبوابًا تظن أنت أنها أبواب خير، وتحزن وتظن أن ذلك عدم توفيق، وتتساءل كالمجنون: لماذا يغلَق وهو باب خير؟
ثم تمر السنوات فتكتشف أن التوفيق كان في غلقه، وأنه لم يكن باب خير كما تظن! والله لطيف بعباده ورزقه بقدر وحكمة.

المشكلة أن الأمور لم تتوقف عند هذا الحد، بدأ المراجع يرفض المقالات العادية بتعسف -من وجهة نظري-، حتى قررت أنني لن أستمر في إرسال

المقـالات، وكـان تعامـل الإدارة في غايـة الـذوق والرقي، حتى كانـت آخـر المراسـالات أنهـم ينتظـرون جديـد المقـالات، لكـن شـعوري بعـدم الإنصـاف وتكـرار ذلك من المراجـع جعلني إنسـانة مزعجـة كثيرة الشـكوى والاعتراض، وهم صابرون، لكني في النهاية مللت الصراع، ولم يمكنّي ترويض نفسي على السكوت والاكتفاء بما يُنشر، وعدم الشد والجذب عند رفض مقال..
فتركت الكتابة في ذلك الموقع.

تعرفني

في بعض المنتديات على تلك المستشارة اللطيفة (رحمة). تواصلنا وتقابلنا، وكان لها عندي منزلة خاصة جدًّا، وكانت سببًا في تواصلي مع موقع (أخوات طريق الإسلام) -البريد والمنتدى-، والعمل كمستشارة في ذلك الموقع. وكان زوجها... طالب علم مختلف!

دعوا نسميه: أبو أنس...

حقيقة كان مختلفًا، فقط، كان يصيبني الاكتئاب كلما قرأت له مقالًا، هناك شيء ما، شعور بالضيق والاختناق ينتقل مع كلمات المقال... هناك مشكلة!

" تخيل أن الشيخ المتمرس لم يَضَعْ كلَّ القطع في مواضعها؛ وإنما وضع 75% منها فقط، فإنه من المعقول أن نفترض أنه يمكنُه تخمينُ كثير من الباقي، إن لم يكن جميعَه؛ لأن القطع الموجودة تدلُّ على المفقودة، وكذلك فإنه مِن المعقول أن نفترض أنَّ الشيخ بإمكانه معرفةُ أن هذه القطعةَ موجودةٌ في غير مكانها الصحيح؛ لأنها نشَازٌ في موضعها، ولا تتماشَى مع ما حولها، مع أن المبتدئ سيسارع ويقول: هذا ليس دليلًا.

مفهومُ الدليلِ عند الطالب المبتدئ معناه ما يمكنه هو أن يفهمه بعقله القاصر! ولا شك أنَّ هذا خلَلٌ كبير جدًّا في المنهجيَّة العلمية؛ لأنه من أسهل الأمور أن تقول: هذا ليس بدليل!

ولكن ما أدراك أن كلامك صحيح؟ وكيف تثق في صحة فَهْمِك أنه ليس بدليل، يعني إذا كان كبارُ العلماء، وفُحولُ العقلاء، وأئمةُ الحكماء يقولون: بل هو دليل، فما الفَيْصَلُ بين كلامك وكلامهم؟! ولماذا رَكَنْتَ إلى عقلك القاصر هنا، ولم تنظر إلى عقولهم التي هي -باعترافك- أكبرُ من عقلك؟! "
اهـ منقولًا من بعض مقالاته.

من مقالاته:
" • من قال: نأخذ من الكتاب والسنة مباشرة، وندع الكتب...
أقول: هل كلامه هذا هو الكتاب والسنة؟
إن قال: 'نعم'، فلماذا يغير لفظ الكتاب والسنة؟
وإن قال: 'لا'، تناقض!

• من يقول: (نأخذ من الكتاب والسنة مباشرة، ونترك كلام العلماء)؛ حقيقة قوله: (أنا الوحيد الذي يفهم الكتاب والسنة، وجميع العلماء حمقى أو على ضلال)!

• الإشكال عند من يقول: (نأخذ من الكتاب والسنة مباشرة، ونترك العلماء) أنه: لا يفرق بين (الكتاب والسنة) وبين (فهمه الخاص للكتاب والسنة)، والفرق شاسع.

• الذي يقول: (نأخذ من الكتاب والسنة مباشرة ونترك العلماء)، هل يقصد أن اللغة والإسناد مثلا من الكتاب والسنة؟
إن قصد ذلك، فكذلك باقي العلوم الشرعية.

• لا نزاع بين المسلمين في أصل الرجوع للكتاب والسنة، إنما النزاع في فهم النصوص ومعرفتها، فالدعوة إلى مجرد ذلك تحصيل حاصل أو كلمة حق يراد بها باطل.

(....)

• إذا كنت تستدل على مخالفك بدليل وهو يوافقك عليه، لكنه يخالفك في فهمه، فهل تقول له: نرجع للكتاب والسنة؟

• لو اختلف اثنان من علماء النحو مثلًا في مسألة فقال أحدهما: دعنا نأخذ من كلام العرب مباشرة، لضحك منه الثاني، ولقال: أُريها السها وتُريني القمر!!

• لا يمكن أن يتحقق الوصول إلى الغاية عن طريق الطعن في الوسيلة، فكذلك لا يتحقق الوصول إلى فهم الكتاب والسنة بالطعن في وسائل ذلك، وأهمها العلماء.

• عندما يحتاج الدليل إلى مجلدات لتوضيحه وبيانه، وإلى سنوات لتمهيده وتأسيسه، وإلى عقل واع لفهمه واستيعابه، فليست مشكلة العلماء أنك لم تقتنع به!

• (التعليل.. الاستقراء.. القياس.. إلخ) هذه أمور عقلية يشترك فيها البشر؛ فمن العجائب أن تجد (كاتبًا) يجعلها أباطيل تسربت إلينا من الفكر اليوناني.

• أتأمل المسالك الدقيقة التي يسلكها العلماء في تقرير المسائل، فأشفق إشفاقًا شديدًا على هذا الذي لا يعرف غير الاعتراض بقوله (ما دليلك على هذا؟!).

• يعيب العلماءَ بأن في قولهم تكلفًا، ونسي أن المسألة مشكلة تحتاج إلى بيان، فلما حاول أن يخترع بيانًا من عنده جاء بما هو أشد تكلفًا مما عابه على العلماء!

• وصف القول بأنه (بعيد) أو (متكلف) أو (ركيك) أو (خلاف الظاهر) ليس بمجرد الذوق كما يظن بعض الناس، فتراه يطلق ذلك فيما هو صحيح اتفاقًا عند العلماء!

• إذا كنت تقدم رأي شيخك على كلام العلماء .. فهذا لأنك عرفت قدر شيخك ومنزلته من العلم، ولم تعرف قدر العلماء ومنزلتهم؛ ولو عرفت ذلك لغيرت رأيك!

• بعض الناس يريد منك أن تذكر له الدليل على التفصيل الذي يريد، ولا يقبل الدليل إلا كذلك.
يا أخي، هذا ليس ثوبًا تلبسه!! فكل ما أفاد المراد فهو دليل.

• كان الأمر راجعًا إلى (الدليل) فكان الحوار سهلًا، أما الآن فالإشكال في (منهج الاستدلال) نفسه؛ كالسيارة الخربة مهما وضعت لها من الوقود فلن تعمل!

• علاقة الدليل بالمدلول هي علاقة التلازم، والاعتراض على الاستدلال يكون ببيان أنه لا تلازم، وإلى هذا الأصل يرجع جل ما في أصول الفقه من القوادح.

• (لا يكون الدليل إلا ملزومًا، ولا يكون ملزوم إلا دليلًا، فكون الشيء دليلًا وملزومًا أمران متلازمان، وسواء سمي ذلك برهانًا أو حجة أو أمارة)
شيخ الإسلام.

• قد تظن الأمر سهلًا عندما تنكر نوعًا من الأدلة وتقول: (لا دلالة فيه)، لكن انتبه جيدًا، فسوف تكون ملزمًا أن لا تستدل بنظير هذا الدليل طوال حياتك!!

• لا يصح عقلًا أن يُقدم دليلٌ محتمل أو مشتبه على دليل قطعي أو صريح، لكن الإشكال في جهل المستدل بمراتب الأدلة؛ فيظن المحتمل قطعيًّا والقطعي محتملًا." اهـ.

اقرؤوها مرارًا .. كرروها كثيرًا ..
هل .. هل تشعرون بذلك الضيق الذي أتحدث عنه؟
أرجوكم، حاولوا مرة أخرى!
أغلقوا أعينكم .. تذكروا قليلًا ..
شيء من الإنعاش للذاكرة السقيمة -يا سادة- لا يضر.
هل شعرتم بذلك الوخز؟ ألم تتألم أرواحكم؟ هل مر المقال عليكم بأمان وسلام؟ لم يُصدِر صوتًا مزعجًا في ذلك الجزء من عقلك؟

أنا سلفية ألبانية، أستدل بنفسي على الأحكام، أفتي بنفسي لنفسي، الكل سواسية أمام النص، من حق الجميع أن يجتهد ويرجح، لا نأخذ بأقوال الرجال، بل بالنص.

نعم، هناك مرحلة مع أم سعيد أدخلَت بعض الأفكار الجديدة، التطبيق والممارسة فيهما خلل ما .. الأفكار نفسها فيها تناقض لا يلحظه إلا أهل العلم فقط!

والكل يتكلم بوثوقية "ما الدليل؟"، "مفيش دليل"، وينتفش ويقول: "خالفت النص" ..!

ثم هذا المقال ... هذا المقال ...!

سميتُه حكايات (أبو الولهان)، ولكنْ له اسم آخر منشور على الشبكة: (الاجتهاد الممسوخ)، يقول الشيخ فيه:

"كان يا ما كان، في هذا العصر والأوان، رجل يقال له: أبو الولهان، وإن شئت فقل: (حيران نومان). أراد أبو الولهان أن يَدخل إلى مجلس كبار القوم، فوجد على بابه لافتةً تقول: (لا يَدخل هنا إلا المجتهدون)، فالتفت أبو الولهان ليرجع، فوجد لافتةً تقول: (ولا يرجع مِن هنا إلا المقلِّدون)!

تحيَّر أبو الولهان، ولم يَدْرِ كيف يصنع؟ فهو يعرف مِن نفسه أنه ليس مجتهدًا، وكذلك فهو يَأْنَف أن يُوصف بكونه مقلِّدًا!

وكان قد هَمس بعضُ الناس في أذنه أنْ ليسَ ثَمَّ قِسْمٌ ثالث، فما الأمر إذًا، إلا أن يكون مجتهدًا أو مقلِّدًا؟!

وبَيْنَا أبو الولهان تدور رأسُه مِن الحيرة، ولا يَدري حلاً لهذه المعضلة، إذ خفَض رأسه إلى أسفل فوجد كتابًا على الأرض عنوانه: "كيف تكون مجتهدًا؟".

أخذ أبو الولهان الكتابَ، وكُله شوقٌ لهذا الأمر الذي يبدو وكأنه نزل عليه من السماء، فالْتقطه وأخذ يقلّب صفحاتِه سريعًا، فقرأ فِهْرِسَ عنوانات الكِتَاب:

• كيف تكون محدِّثًا في سِتِّ دقائق؟

• كيف تكون فقيهًا في عشْر دقائق؟

• كيف تكون مفسِّرًا في ثلث الساعة؟

• كيف تكون لُغويًّا في نصف الساعة (لأن اللغة أصعب!)..... إلخ إلخ.

ولأنَّ أبا الولهان رجلٌ عبقري لم يَجُد الزمان بمثله، لا قبله ولا بعده، فقد انتقى هذه الأبوابَ فقط مِن الكتاب، وقَرأها على وجه السرعة، وبعد أن أنهاها، تنهَّدَ تنهيدةً طويلةً، تَنمُّ عن راحة نفسيَّة عميقة، وثلَجِ قلبٍ، وبردِ يقين، ثم قال في نفسه: الآن آن لي أن أدخل مِن هذا الباب الذي ما كان يمنعني منه إلا الاجتهاد! وأنا الذي كنت أظن هذا الاجتهاد صعبًا؛ ولكن ما أيسرَه! وما أسهلَه! وما أجهلَ هؤلاء الذين كانوا يهمسون في أذني بأنّي (عبيط)، ولا أصلح لهذا الأمر من أساسه!

دخل أبو الولهان من الباب بكبرياء، ولم يلتفت إلى اللافتة التي تمنع دخول غير المجتهدين، وهو يقول في نفسه: انتهت هذه الأيام!

وجد أبو الولهان -في داخل المكان- طُرقًا وممرَّاتٍ، وحوائطَ عليها رفوف ممتلئة بالكتب، ومقسَّمة إلى أقسام؛ فقِسْم لأبي اليقظان، وقِسْم لأبي الجود، وقِسْم لأبي الفهم، وقِسْم لأبي العقول، وهكذا، وأصابه الغيظ أنْ لم يجد قسمًا لأبي الولهان!

مدَّ أبو الولهان يده ليأخذ شيئًا من هذه الكتب، ولكن كان كتابُ "الاجتهاد" مازال في يده، فطوَّح به بعيدًا ليأخذ ما أراد. وقع الكتابُ على الأرض، فانفتحت صفحاتُه على الباب الأخير مِن الكتاب، وإذا فيه ما يلي:

"... إلى هنا أيها القراء الكرام انتهى ذكرُ الفصول الساخرة التي أتينا بها؛ لبيان ما آلت إليه أمتُنا من حال بعض الناس، الذين وَصْفُ الرُّوَيْبِضَة بِهم ألْيق، وإيقاع نَعْتِ الجهل والحمق عليهم أقرب..." إلخ." اهـ المقال[1].

أبو الولهان .. الاجتهاد والتقليد، مسكين هذا الشيخ لا يعرف أن هناك اتباع، هل يبدو لي هذا الرجل أحمق لا يدري؟ لا، حاشاه!

الآن هذا الشيخ.. هذا الشيخ.. يُدخل قضية جديدة في أفكاري، أقاومها تارة .. أشعر بالضيق .. لكن كلامه منطقيٌّ جدًّا! عامة كلامه في المنتدى على ضرورة العناية باللغة العربية وعلومها، وأصول الفقه.

أنا درست أصول الفقه .. على ضعف، لكني كنت أظن أنني بلغت فيه ما يمكن بلوغه، أو ما يكفي!

اللغة العربية..

أنا أخطئ في النحو والقواعد، ولساني فيه لحن مضحك .. لكن ... لكني أتذوق العربية جيدًا وأفهمها ..

لكن المقال ... المقال .. يضرب على أوتار عقلي بحد سيف بتار! أنكر دليلًا هنا، لكنني سأستدل به هناك! ولا أشعر أنني تناقضت .. كالعادة ما الجديد؟

الحكم على دليل بالضعف أو بالركاكة أو... إلخ. ليس بالذوق والشعور، الحقيقة .. الحقيقة أننا نستدل بالذوق والشعور!

إن الرجل يتحدث عن "مسالك دقيقة" في الاستدلال .. ونحن .. نحن نعتبر هذه المسالك الدقيقة تكلفًا وتنطعًا!

[1] الاجتهاد الممسوخ -موقع الألوكة- الشيخ أبو مالك العوضي.

الرجل يضرب بقوة في نقاط ضعف فادحة، الاجتهاد، الدراسة السطحية و "التيك أواي" .. التصدر قبل التأهل ..!

هذا الرجل حين أقرأ له أشعر أنه كئيب، وينقل لي هذا الشعور بالكآبة والاختناق، أشعر أن الدنيا مظلمة سوداء، أن العلم صعب، وأن ... أننا .. أنني .. جاهلة سفيهة سطحية .. بللت باطن قدميّ على شاطئ البحر فظننت أنني خضت غماره!

يفقدني الشعور بالأمان والراحة، أشعر بالخوف، بالقلق، لا أعرف السبب، يثير مخاوف بداخلي لا أدري مصدرها، يشعرني أن هناك تناقضًا ما لا أعرفه، ولا يمكنني أن أضع يدي على موضع الداء، هذا شيء مرعب لشخص يظن أنه يعرف باطنه كما يعرف ظاهر يديه!

أطمئن نفسي ...

- لكنني قرأت ودرست ...!

درستُ؟

حسنا كفى ... إنني ..

أشعر بالاختناق وحسب!

أنا والفقر

- شوف يا أخي، أنا ذاكرت الفيزيا من الجلدة للجلدة، فهمت كل حاجة إلا حاجة واحدة بس؛ جهاز (كالومباين)!

- (كالومباين)؟

- آه، مش عارف ده لو جه في الامتحان مش عارف أرسم أنهي واحد فيهم!

- مفيش في الكتاب كله (كالومباين) ده!

- لا صدقني فيه، ده متكرر كثيرًا جدًّا تقريبًا في كل درس.

- يا بني أنا مذاكر الكتاب كله، مفيش (كالومباين) ده!

- طب بص شوف كده: يُستخدم جهاز (كالمُبَيّن) بالشكل رقم (..)!

ꕥ

أن تفقد شعورك بالأمان، أن تنظر خلفك فتشعر أن ما فات فيه خلل، خلل غامض لا تعرفه!

الشعور بالتيه والضياع .. الخوف!

خوف متوحش يسري في وجدانك لا تعرف مصدره، تطمئن نفسك .. كل شيء على ما يرام، لكنك تعرف أن هناك مشكلة.

لا تريد أن تصدق!

التصديق يعني أنك بدأت تعرف .. المعرفة، الحقيقة، ذلك الوحش الذي نفرُّ منه، ستواجه نفسك، ويا لها من مواجهة!

تدفن مشاعرك في تلك البقعة من عقلك، تغلق عليها الأبواب، تهرب وأنت تلهث وتغلق الأبواب بابًا بعد باب، لكنها تلاحقك!

تلك الدقات الرتيبة!

ذلك النداء الرقيق!

أفق يا أخي!

ꕥ

كنت تواصلتُ مع الشيخ (كريم)، وحصلت على إجازة شرفية منه بجميع مروياته، بعدها بدأت أشرح متن القواعد الأربعة في بعض المعاهد العلمية على الإنترنت، فلما طلب مني بعض الأخوات بث الدرس على بعض الغرف الصوتية؛ اقترحنَ عليّ أن تكون الدورة مع إجازة في المتن.

فراسلت الشيخ أستأذنه وأستفسر منه عن نظام الإجازات، وهل يمكن أن أجيز بإجازته السابقة؟ فشرح لي باستفاضة وبكرم بالغ كل شيء يخص الإجازات وأهميتها وصياغتها .. كل شيء.

وكنت قرأت له بعض المشاركات على المنتديات..

في تلك المنتديات، لاحظت تميز بعض الأفراد؛ كالشيخ أبي أنس، والشيخ كريم، وغيرهم.

هؤلاء مختلفون ...

عندهم سعة اطلاع ...

علمهم سمت العلم وأدبه..

فلما صرتُ مشرفة في بعض المنتديات، اشترطتُ التواصل العلمي مع المشرفين من خلال المنتدى -وكانوا من هؤلاء-؛ لطرح أسئلتي العلمية، واستفدت فعلًا من بعضهم.

ولما راسلت الشيخ كريم وشرح لي أنواع الإجازات، قال:

"الإجازة منها إجازة الرواية؛ وهي لا يشترط لها شروط، وتعطى لمن طلبها، ولا يذكر فيها أهلية الطالب لتعليم غيره، وهي فقط إذن برواية الكتاب عن المجيز. وإجازة التدريس؛ ويعطيها المعلم لمن يراه مؤهلًا لتدريس علم من العلوم أو كتاب من الكتب، وإن أردتم مزيد إيضاح فأتشرف بتوضيح ما تريدون".

ثم أرسل لي روابط شروحه لبعض الكتب إن أردتُ إجازة التدريس.

وبدأتُ طريقًا جديدًا في طلب العلم.

تجنبتُ الفقه!

كنت أستفتي الشيخ وأرسل له أسئلة الفتاوى غالبًا إلا ما لي فيه "اجتهاد" وترجيح وبدأت أشعر نوعًا بالأمان.

وكان الاختبار فيما يشرحه من متون بالنسبة لي وسيلة أكتب فيها ما في ذهني بطريقتي؛ لأتأكد أنني أفهم ما أقرأ وأسمع.

ناقشت الشيخ في كثير من المسائل، ورأيت من حسن خلقه وكرمه وبذله وحرصه على الطالب الكثير والكثير.

أرسلتُ له مع كل اختبار مقالاتي المتعلقة بموضوع الكتاب الذي أدرسه، وعدلتُ فيها مواضع، وأرسلت له اختبارات حلقاتي في الأصول الثلاثة والقواعد الأربعة. .

أثنى عليّ الشيخ يومًا ثناء عجيبًا جدًّا، تأثرت وأثار شجوني .. فقد تعجب من دلالتي لبعض الطالبات للدراسة عنده، وذكر أن ذلك شيء شحيح في الطلاب!

أنا لا أدري لماذا يحتكر الطالب شيخًا، ويبذل جهده في منع أقرانه من الأخذ عنه ..

أو أدري! وأعرف أنها آفة قديمة معروفة.
لكنني حين دللت بعض المعلمات أو الطالبات ذوات الهمة العالية على الشيخ لم يكن ذلك إلا فعلًا روتينيًّا على الحقيقة.
أنا أشرح متونًا ضعيفة، وأبسّط المسائل لعامة الناس، والجهل مستشرٍ، ونحن بحاجة لمن يسد فرض الكفاية؛ فلماذا أحتكر شيخًا؟ وأمنع الفائدة؟ أو أجعل نشرها عسيرًا؟
أليس من حسن إسلام المرء أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه؟ وهل سينقص من علمي أو قدري عند الله أن ينتشر الخير؟ أم لعل ذلك من العمل الصالح الذي قد يرجح به ميزاني حين أستشرف حسنة يوم القيامة؟
أثار كلامه في ذلك اليوم شجوني، وذكرني بحدث قديم .. حين حضرت احتفالا بإجازة بعض المعلمات قراءة على شيخ كبير في السن، فأردتُ أن أقرأ عليه لأعرف مستواي، وأنا لا أعرف يومئذ قدر هذا الشيخ، وكنت أختم مع معلمتي وأكتفي بها، والرجل مريض منهك .. فاشترطت عليّ بعض الحاضرات إذا أردت القراءة عليه ألا أطلب منه الإجازة، وأن أكتفي فقط بقراءة الفاتحة، ففعلتُ، وقرأتُ عليه الفاتحة، فكبّر، وأعجبته قراءتي، وصديقتي تغمزني لأطلب منه ختمة كاملة، وأنا أسكتها لاتفاقي السابق.
أحزنني في ذلك اليوم أنها لم تكن لي ناصحة، وأنها بذلت جهدًا لتستخرج مني وعدًا بعدم طلب الإجازة .. ولا أدري لماذا؟!

والشيخ (كريم) نفسه كان أسوة حسنة لي في ذلك، فكلما واتته فرصة أو سمع بإجازة شيخ له سند عالٍ أفادني بها، وأفادني بطريقة كتابة الإجازة والإسناد لطالباتي، بل كان يرسل لي الملف مكتوبًا رغم انشغاله.

بل قال لي يومًا: "أخشى أن أكون شققت عليك حين طلبت منك الاستماع إلى شروحي للكتب التي تريدين فيها إجازة بالتدريس، فلو أردت أن تطالعي شروحًا أخرى مسموعة أو مقروءة لأي عالم موثوق فلا بأس بذلك أيضًا، فقط أخبريني بالكتاب وبالشرح الذي طالعتيه وأسألك فيه -إن شاء الله-، وأكتب لك الإجازات التي تريدين".

هكذا عرفت الشيخ ورأيت خلقه ..

وإنني لأتساءل أيضًا: ما الذي يستفيده المتصدر من احتكار الطلاب باحتكاره علمًا معينًا أو شيخًا رفيع القدر إلا مزيدًا من القيود والمسئوليات .. والحساب؟!

ناقشت الشيخ، وأرسلت له كثيرًا من أسئلة الفقه أستفتي لأخواتي .. قال لي يومًا:

"أنت بحمد الله قد أكرمك الله بهمة عالية وحسن فهم بارك الله لك وزادك من فضله؛ فأقترح عليك أن تخصصي سنة أو سنتين للاستزادة من إتقان دراسة الفقه لشدة حاجة النساء إلى من يفقههن في الدين ويفتيهن فيما يشكل عليهن خاصة في فقه العبادات وفقه الأسرة، ويندر وجود امرأة فقيهة تكون أهلًا للإفتاء، وأرجو أن تكوني -بإذن الله- ممن يفتح الله عليه ويُجري الخير على يديه (....) أنا أعلم أنك تحبين دراسة العقيدة، ولا أريد أن أكون سببًا في توقفك عن المواصلة فيها، ولكن لو استطعتِ إلى جانب كل محاضرة في العقيدة تسمعينها تسمعين إلى جوارها محاضرة أو محاضرتين في الفقه لمدة سنة، فبإذن الله ستجدين خيرًا كثيرًا".

وكان هذا آخر ما أريد سماعه!

ذلك الشعور الغامض ..

أنا مجتهد مطلق، لكنني لا أريد أن أتحمل الفتوى، مجتهد مطلق.. فقط لأنني لا أثق في أحد!

الفقهاء ضيعوا السنن، المعاصرون لم يطّردوا في فقه الدليل كما ينبغي .. مسئولية تصفية كتب الفقه كبيرة جدًّا وشاقة، كلام الشيخ أبي أنس يعود ليطرق تلك المناطق المغلقة في عقلي ووجداني .. ويثير تناقضات مؤلمة لا أجد لها جوابًا..

ذلك الخلل الذي لا أعرفه!

ذلك النداء الغامض بداخلي!

ذلك الشعور بالضياع والتيه الذي لا أعرف مصدره ولا سببه!

نبشتُ كثيرًا أبحث في لهفة عن مسائل الاجتهاد والتقليد، ودراسة الفقه والتمذهب ... أجد حينًا أجوبةً جيدة، مريحة نوعًا... أحاول أحيانًا خلطها بكلام الشيخ الألباني الذي تضرب جذوره بداخلي ... أرتاح حينًا إن قلت لنفسي: خلاف سائغ! كل يعمل بما يترجح له .. "حبوا بعض"!

لكن ذلك الشعور .. أنا لا أشعر بالشبع!

هناك نقاط غامضة .. أسئلة بلا أجوبة معلقة في فضاء عقلي، تنهش خلاياي بلا رحمة!

وحين نصحني شيخي أن أعتني بالفقه لم أجرؤ على المخالفة!

ولم أجرؤ على الموافقة!

أنا سهم سينطلق في طريقه فورًا، سيصيب منتصف الهدف بدقة، فقط أمسك القوس بطريقة صحيحة وأطلق السهم!

أرسَل لي مجموعة أشرطة مصحوبة بوعظ وتذكير جميل، فقال:

"معذرة، عدد المحاضرات كبير، لكن لنا أسوة في نبي الله موسى -عليه السلام- حين قال لمعلمه الخضر -عليه السلام-: {سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا}. روى ابن عبد البر بسنده في كتابه (جامع بيان العلم وفضله)، من حديث معاذ بن جبل -ﷺ- أنه قال: 'تعلموا العلم؛ فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ وهو الأنس في الوحشة، والصاحب في الغربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والسلاح على الأعداء، والزين عند الأخلاء، ومنار سبيل أهل الجنة، يرفع الله به أقوامًا فيجعلهم في الخير قادة وأئمة يقتصّ آثارهم، ويُحتذى بأفعالهم، ويُنتهى إلى رأيهم، ترغب الملائكة في ظلهم، وبأجنحتها تمسحهم، يستغفر لهم كل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه؛ لأن العلم حياة القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، والتفكر فيه يعدل الصيام، ومداومته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال من الحرام، هو إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء'.".

كيف السبيل لأهرب؟! فليدلني أحد على طريق للهرب!

من أكبر مشاكلي مع الفقه أنني كلما دخلت دورة فقه أصابني الضيق والسأم!

الشيخ يتكلم، يقرأ المتن، ثم يقول: والراجح كذا!

لماذا راجحك أولى من راجح الكتاب؟

- للدليل.

- لكنني أرى غير ما يرى الشيخ .. بل غير ما يرى الشيخ والكاتب معًا!

فماذا إذن؟ لماذا قول الشيخ أولى من قول صاحب الكتاب؟ ولماذا يكون قول أحدهما أولى من قولي؟

- لأن الشيخ أعلم منك وأوسع اطلاعًا وأكثر فهمًا!

- والماتن أعلم من الشيخ وأوسع اطلاعًا وأقرب زمانًا وأشد تحقيقًا! واختلفوا، ولايزالون مختلفين، فما المعيار؟!

ما معيار الترجيح؟ ما معيار من يرجح؟ ما الذي سأكتبه في الاختبار؟

هل إذا كتبت رأي الماتن ستعتبر الإجابة خطأ؟ هل إذا كتبت رأيي أنا سيعتبرها خطأ؟ سأكتب في الاختبار ما يرضي الشيخ الذي سيصحح الاختبار، فهل سأفتي بقوله وأخالف "الراجح عندي"؟

- ومَن أنت حتى يكون لك "عند"؟

- ومَن أي شخص حتى يكون له "عند"؟ ما معيار من يكون له "عند"؟

عدنا إذن للتقليد! وكلام أبي أنس في مقالاته المتعبة!

- شوفي .. إذا رجحتِ وكان لك سلف خلاص .. المهم لك سلف، وكل يعمل بما يترجح له.

- كل الآراء إذن ستكون متاحة؟ مفيش آراء شاذة؟

- لا، الشاذ ما يخالف الدليل!

- من سيحكم أن هذا مخالف للدليل أو موافقه؟!

من؟ **ما المعيار**؟

ꕥ

في تلك الفترة أنشأنا عدة جروبات على الفيسبوك لمدارسة دورتي العقيدة (شرح متن القواعد الأربعة، والأصول الثلاثة)، وتركت لأم سعيد تدريس الفقه والفتوى وذلك الصداع ..

كانت شروط الحصول على إجازة سند ودراسة في متن أي كتاب يتم شرحه كالتالي:

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

1-الاجتهاد في الترقي في العلم والعمل الصالح، وتقوى الله في السر والعلن.

2-التزام آداب طلاب العلم مع الرفقة وفي النقاش، رافعين راية قوله -تعالى-: {وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}.

3-الاجتهاد في التواضع وخفض الجناح للمسلمين أجمعين، رافعين راية قول النبي -ﷺ-: "وما تواضع أحد لله إلا رفعه" (رواه مسلم).

فتعرف الطالبة قدر نفسها وقدر مولاها -سبحانه وتعالى-؛ فإنما بلغته من علم لا يكون إلا بفضل الله ونعمةٍ منه وكرمٍ.

4-ترك التعصب لقول من الأقوال، والاجتهاد في الإخلاص في طلب الحق والصدق في ذلك، وأن تعلم الطالبة أنها غير معصومة، ولن تكون معصومة أبدًا، وتفهم أن من يعلمها غير معصوم، وأن يكون ذلك ديدنًا لها وعملًا واقعيًّا وليس كلمات نظرية نتشدق بها.

فلا تستنكف أبدًا أن تراجع رأيها كل فترة، وأن تنساق للحق وتنقاد له مهما ظهر لها، وأن تتفقد قلبها. هذا مع كونها مبجلة لأهل العلم مهما خالفت قولًا لهم، لا تسقطهم ولا تنتقص قدرهم ولا علمهم.

5-أن تحضر أو تستمع لتسجيلات الدورة المتعلقة بالمتن، وتجتهد في إنهاء واجباتها، مع اجتياز الاختبار الذي سيتم تحديده؛ سواء كان شفويًّا أو تحريريًّا.

وكتبت لهنّ، وكررت في الدروس:

"الإجازة بتاعة القواعد ملهاش أي قيمة يا أخوات، ولا إجازة الأصول الثلاثة، قيمتها فقط أنك ذاكرتِ ودرستِ بالطريقة اللي أنا حاطاها مش أكثر، لو رحتِ قلتِ لحد أنا أخذت إجازة من سارة هيقولك: مين سارة؟ لو عاوزة إجازة لها قيمة عند الناس؛ دوري على المشايخ...

وأنا عن نفسي بقولكم: اللي عاوزة تروح تأخذ إجازة من شيخي تراسله مباشرة، تأخذ إجازة شرفية بدون مذاكرة، وممكن كمان تدرس شروح الكتب اللي شرحها الشيخ، وهي -اللهم بارك- كثيرة، وتأخذ إجازة دراسة وتدريس للمتون دي.

ملحوظة:

ده مش تواضع، واللي هتظن أنه تواضع يبقى هي مش فاهمة يعني إيه تواضع" اهـ

وكتبت وكررت:

"معلش من غير بواخة يعني عندي سؤال: هو مين قال إن إجازة القواعد أو الأصول تعني أن الحاصلات عليها أهل للتدريس؟

طبعًا عادي ممكن تشرحي شرح مبسط ... تعلمي الناس بدون تعالم ولا تكلف لما لا تعلمين؛ لكن عشان حد يتصدر لشرح الأصول بقلب جامد كده على الأقل تكوني واخدة مستويين بعد المتن ده" اهـ

لم يكن هذا تواضعًا!

كان محاولة للتنصل من المسئولية .. محاولة للتوازن بين شعوري أنه ينبغي مساعدة الناس وتعليمهم، وأن هناك أمورًا تبدو غامضة ليست بتلك السطحية التي يتعامل بها البعض ... محاولة ليهدأ هذا الهاجس الغامض الذي يدق جنبات عقلي وأبوابه، يؤلمني!

محاولة خلع يدي ونفضها من المسئولية.. لكنني أتجلد، أظهر بابتسامة ثابتة، أضحك وقلبي متمزق، مشتتة ولا أريد أن أفجع من حولي بتلك الأسئلة التي تجلدني سياطها.

ظهرت تلك الصراعات بداخلي على هيئة قواعد لإدارة صفحتي والجروبات، ونصائح كثيرة عن أهمية ترك الفتوى بغير علم؛ خصوصًا في المسائل الكبيرة التي تحدث، وتسارع كل واحدة بإبداء رأيها والإفتاء .. والصفحة الزرقاء الفاتنة التي تسمح للجميع في لحظة بالتحول إلى إمام وقائد و... ناسيًا أن يوم القيامة عسير، وأن كلام كل إنسان يوزن حسناتٍ أو سيئاتٍ!

لكن الأمور لا تسير دائمًا كما نشتهي!

المشكلة . .

- أحبك أم أحترمك؟ .. أيهما تفضل إن كان لك خيار واحد؟!
- لا يمكنني أن أختار "لك"...
سأختار أن أحترم نفسي!
أختار أن أقف أمام المرآة فلا أخفض عيني هروبًا من نظرتي!

ꕥ

أحداث ثورة يناير وما بعدها فكّكت كثيرًا من الأفكار السلفية التقليدية، وعملت على إعادة تركيبها، هذه فترة لا يمكن تجاهلها في تطور الفكر السلفي عامة.

لن تجد الخريطة السلفية بعد الثورة كقبلها، بل مع كل حدث تنتفض الكتلة، تعلو متطايرة شظاياها في الهواء، ثم تهبط متغيرة المعالم ... إلى الأبد!

نظرتنا للشيوخ تغيرت جدًّا، ارتفع أقوام وانخفض آخرون، ردود أفعال الناس تجاه مواقف المشايخ كانت متباينةً بحسب ما عند كل منهم وما بلغ كل منهم.

رأيت أقوامًا فقدوا إيمانهم بالعلم الشرعي بالكلية، شعروا أن ما قضوا فيه سنوات عمرهم لم يسعفهم في تلك المواقف على اتخاذ قرار بسيط، أو تقييم بسيط، بل لم يسعف أحدًا قطّ .. في نظرهم!

بل رأوا أن العلم ضل به أقوام! وهذا خطأ في تفكيرهم بلا شك.

صار هناك نوع انفتاحٍ ونوع انغلاقٍ عند كثير من الناس.. ومزيد من التقوقع بلا شك.

هذه الفترة المهمة تحتاج كتابًا مستقلًّا لرصد وتحليل التغيرات التي حدثت في التيار كله.

ظهر هنا عامل مهم جدًّا: **مدى التصاقك بالأخلاق والمبادئ .. أو بعدك عنها!**

الحقيقة التي فرضت نفسها على عقلي، وكنت لا أعتقد صحتها سابقًا: أن الأخلاق والمبادئ أكثر تجذرًا في نفس الإنسان من التدين المظهري العارض .. وأعني بالتدين المظهري العارض كل شيء؛ بما في ذلك نوع الأحكام التي تعتنقها من حل وحرمة.

ببساطة؛ يمكنك أن تنتقل من التحليل للتحريم أو عكسه في ليلة لأي سبب، ولو كان السبب "الهوى" فقط، أما الأخلاق والمبادئ الراسخة حقًّا في نفسك فيصعب عليك مخالفتها إلا إذا كانت هي الأخرى عرضًا مظهريًّا تلوكه بلسانك وحسب.

هنا كان المحك .. يمكنك أن تجعل التيار السلفي، بل الكتلة الإسلامية كلها نوعًا واحدًا، ثم تقسمه إلى أصحاب مبادئ وأخلاق، وأصحاب شعارات فارغة! هذا نوع من التقاسيم ضعها في حسبانك حين تتأملهم!

ستجد فئة لهم مبادئ وقيم:

لا تكذب .. لا تهت .. كن شريفا في خصومتك .. العدالة، الإنصاف، الرحمة، العزة... إلخ!

تعرفون تلك المبادئ التي كانت في العرب على جاهليتهم؛ فاختارهم الرب - جل وعلا- لرسالة الإسلام...

تعرفون أن الإسلام جاء بهذه المبادئ والقيم ليرسخها ويحفظها بأحكام الحلال والحرام...

إنني أقف منبهرة كلما كررت قول أبي سفيان: "فَوَاللَّهِ لَوْلا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْه"!

الرجل يومها كافر، ولن يلوم عليه أصحابه لو كذب وخدع هرقل، لكنه وهو كافر لم يكذب "للمصلحة"! أنفة وعزة!

وستجد فئات متنوعة أخلّوا بهذه القيم بصورة أو بأخرى،

يمكنك أن تقسمهم بعد ذلك بعدة طرق .. في النهاية هي كتلة يمكنك أن تضع لها عنوانًا كبيرًا: "الغاية تبرر الوسيلة"! ثم قسمها بعد ذلك داخليًّا كيف شئت.

التربية والنشأة والبيئة مؤثرات بالغة على تلك الأخلاق والمبادئ...

لكن ظلت هناك ثوابت عامة بلا شك...

- ثوابت مظهرية يا سيدتي!

- نعم إذن!

في تلك الفترة؛ تابعتُ بعض البارزين على الفيسبوك، منهم من كنت أعرفه من أيام المنتديات، ومنهم من لم أكن أعرفه، لكن ظهر علهم في عينيّ سمت العلم والفهم ... وتقييمي حينئذٍ بمعيار قد يخدع في زمن عز فيه انطباق الظاهر مع الباطن .. لكنني فقط مبدئيًّا سأعمل بميزان: "أشعر" أن هذا جيد وهذا غير جيد؛ لأن هذا "يكتب" مراعيًا القيم والمبادئ والأخلاق، وهذا وضيع القيم والمبادئ ..

كان ممن عرفتهم في تلك الفترة: (الشيخ محمود عز الدين)، وكان يكثر يكرر كلامًا شبيهًا بكلام الشيخ (أبي أنس)... وكانت نفسي ارتاحت إلى أن معنى كلام الشيخ أبي أنس، وبالتالي معنى كلام الشيخ محمود؛ هو نوع تطوير للسلفية فقط... بمعنى أن: السلفية صواب، ومنهجها صواب؛ لكن تحتاج إلى تطوير، وسعة اطلاع، ومرونة في التعامل مع المخالف، وحسن خلق .. هذا جيد مريح لجميع الأطراف!

وكان الشيخ محمود يكثر من تكرار التحذير من الفتوى بغير علم، والكلام بغير علم، ونشر الشائعات .. وكل ذلك أكرره أنا أيضًا، وأعتنقه بصورة أو بأخرى. وكان فيه تلك اللمسة المختلفة حين يتكلم عن التعدد، عن الوعظ، عن احترام الخلاف السائغ... إلخ؛ يتناول القضايا بنفس الطريقة التي أقبلها وترتاح لها نفسي...

هذا رجل ينتقد السلفية بلهجة سلفية .. كما أفعل ويفعل كل سلفي مخلص، السلفية تنقي نفسها بنفسها دومًا، وتحسن النقد الذاتي والتطوير للأفضل، كذا قلتُ في ذلك الحين!

هل أدركتم تلك المرحلة التي أمر بها؟

الآن نحن "متفقون" أن المنهج صحيح، نحن نتبع السلف الصالح والدليل، هناك مشكلة في التيار، بل مشاكل، لكنها مشاكل تطبيقية، أما الأصل والمنهج فهو صحيح، هناك أصوات تنتقد "تطبيقات" السلفيين بطريقة سلفية، خلاف داخلي يهدف إلى التطوير، وهذا شيء جيد وحسن جدًّا. عندنا مشكلة في الوعظ، والحمد لله تجاوزتها مبكرًا، وكان من يستمع إلى وعظي يشهد أنني مختلفة.. هناك مشكلة في الفقه..

أسمع كلامًا مختلفا، أقاوم أن أفهمه بطريقة صحيحة، أريد أن أوفق بينه وبين ما أعتنقه من أفكار، هناك أصوات تتكلم عن شروط الاجتهاد، عبارات

مجملة يسهل معها أن أقول عن نفسي: "أنا مجتهدة"، أو لنقل في تواضع: أنا متَّبِعة[1] لم أبلغ رتبة الاجتهاد، أفهم الأدلة وأتعامل معها بسلاسة، ولا آخذ مسألة بغير دليل.

هناك شيوخ سلفيون يتبعون الدليل، لكنهم متمذهبة، يجمعون بين التمذهب والأخذ بالدليل؛ كالشيخ ابن العثيمين -رحمه الله-، وغيره، وبعض مشايخ مصر، لكنهم على أي حال أفضل من غيرهم ممن يتمسك بالمذاهب ويتبع الفقهاء الذين ضيعوا السنن، هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله.

العامة يقلدون العلماء، والطلاب يقلدون دليل العلماء، والعلماء هم السلفيون طبعًا، الذين قاموا بتصفية كتب التراث وهذبوها ونقحوها.

حينما أسمعهم يتحدثون عن أن: "المتوسط في اللغة العربية؛ فهو متوسط في فهم الشريعة"[2]؛ أتساءل: هل أنا من المتوسطين؟ هل يمكنني الترجيح؟ كيف وأنا ألحن في النحو؟ عادي .. أنا أفهم جيدًا، واللحن هذا عارض، المسألة بسيطة ولها ألف مخرج، بل كثير ممن هم أقل مني لحنًا في النحو، يعتبرون أقل مني في فهم عبارات أهل العلم وتفكيكها وتحليلها .. فالقضية ليست مجرد أن أقضي وقتًا أركز في نطقي وكتابتي ليقال ويقال!

أجاهد في ترك الفتوى بغير علم، وأظن أنني أتكلم بعلم، وأنني لا أنكر في الخلاف السائغ.

---

[1] يقسّم السلفيون الرتب إلى ثلاث: مجتهد ومقلد وبينهما المتبع الذي يأخذ الحكم بدليل، المشكلة أنهم لا يتصورون أن كل متفقه أخذ الفقه من متون المذاهب، ويتعلم الأدلة على المذهب؛ يعتبر أيضًا مقلدًا، ولا يدركون أن هناك رتب ودرجات.

[2] من كلام الشاطبي في الموافقات.

أتكلم بعلم؛ لأني لا أتكلم إلا فيما أعرف دليله، وفيما فيه إجماع كتحريم النمص وتحريم الإسبال ووجوب إعفاء اللحية!

لا أنكر في الخلاف السائغ، والسائغ هو ما فيه خلاف سلفي/ سلفي!

أنكر جدًّا على أخواتي السلفيات الكلام بغير علم، والفتوى بغير علم، والإنكار في السائغ. أوذيت بسبب ذلك من المتعالمات اللاتي يُرِدن الفتوى والتصدر ولسن أهلًا لذلك .. أنا أهل؛ لأن لي شيوخًا أجازوني وسمحوا لي بالكلام ..

جيد جدًّا، سلفية مخلصة على الجادة، أحسبني على خير ولا أزكي على الله أحدًا! لقد استعدت شعوري بالأمان والراحة والاتساق مع النفس.. ومزيدٌ من الورع لا يضر!

لكن في المجمل، أنا في حالة مستقرة نوعًا، هناك أسئلة معلقة في فضاء عقلي قطعت عنها ضخ الدم، وعزلتها عن الخلايا الرمادية!

لكن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن!

نيو سلفية

قبل إنشاء جروب الفتوى الخاص بي وبأم سعيد وغيرها من الأخوات، كنت مسئولة عن الفتوى في بعض الجروبات العامة الكبيرة.

سألَتْ بعض الأخوات عن يمين طلاق أو كلمة قالها زوجها لها، فسارع الأخوات بالإفتاء، فأنكرتُ عليهنّ وأغلظتُ في الإنكار جدًّا، فردّت بعضهنّ عليّ مستنكراتٍ؛ لأن من أفتت هي والدتها، وقد قرَأت ودرسَت تفسيرَ ابن كثير، وأفتت بناء على ذلك!

بغض النظر عن كونها قد تقرأ وتدرس ولا تفهم أصلًا؛ ما علاقة فتوى الطلاق بدراسة التفسير؟!

طلاقٌ يا مؤمنين .. طلاق! أعراض الناس وفروجهم، خراب البيوت وبنيانها، طلاقٌ يتورع عن الفتوى فيه بعض العلماء، طلاقٌ لا يقبل المشايخ الفتوى فيه عن طريق برامج الإفتاء ولا التليفون، ويطلب بعضهم حضور الطرفين!

فتوى طلاق! يُتلاعب بها على استراحات الفيسبوك.. ويفتي فيها النساء؛ لأنهن قرأن تفسير ابن كثير!

نعم، كنت أنكر هذه المنكرات في الفتوى .. لكن ..

لكنني ..!

سأل بعض الأخوات سؤالًا عن تشقير الحاجبين بحيث يبدو شكلهما جيدًا، فأفتت الأخوات؛ كل واحدة بما ترجَّح لها، فطلبَت بعض الأخوات رأيي، فقلت ما ملخصه:

من تشقر حاجبيها ستبدو كالمتنمصة التي ورد فيها اللعن، وهذا نوع من التحايل على الشرع؛ كفعل أصحاب السبت، وفيه تشبه بالفاسقات.
ثم قلت في ورع وتبرعًا مني: "والخلاف سائغ في التشقير " اهـ.
الخلاف سائغ؛ لأنه خلاف سلفي/سلفي، فأنا لا أنكر على من تشقر حاجبيها، ولكني أتمتم في سري غفر الله لمن أباح ذلك من العلماء السلفيين؛ فقد جانبه الصواب، وخالف الجادة والدليل، والله محاسبهم، وأما من **قلدهم** فهو بريء الذمة! هذا ما أدين الله به في حكم التشقير، وهو الذي يتسق مع فهمي للأدلة، ويطّرد مع الحكم بالتحريم.
علة تحريم النمص التي نعرفها -معاشر السلفيين- هي: تحريم تغيير خلق الله في هذا الموضع من الجسم؛ الحاجبين.
ما الفرق بين النتف أو الحلق أو التشقير؟ كل ذلك تغييرُ خلقِ الله.
كنت أرى أن مس الحاجب بأي طريقة مخالف للدليل، كما أن التوسع في تحريم مس شعر الجسد كما يقول الألباني ومن وافقه هو اطّراد شاذ في الاستدلال.
العجيب .. الغريب:
هذه الفتوى الصادرة عن "اجتهاد" لم تكن بعد بحث في المعاجم ولا كتب الفقه، هذه الفتوى نابعة عن اطلاع على فتاوى المعاصرين والترجيح بينها بتذوق ووجدان وعقل وشعور و.. ذكاء ..! ونقاش مع أم سعيد!
فقط.
هل أدركتم حجم الكارثة؟!
يا صديقي، أنت لم "تحرر" المسألة، بل "حبستها" في ضيق أفقك، "فتعثرت" في سوء فهمك.
أزيدكم!

بعض من أفتين على البوست كتبتْ تعليقًا على كلامي: أن فتواي تتضمن انتقاصًا من المشايخ الذي أفتوا بالحل.

فقلت لها: إنها لا تتضمن أي إساءة لأي أحد.

ثم بدأت أشرح أن أهل السنة يفرقون بين وصف الفعل ووصف الفاعل، وكوني أصف فاعلة التشقير بأنها متشبهة بالنامصات تتلاعب بالحكم كأصحاب السبت؛ لا يعني أنني أصف من أفتى بتلك الفتوى بذلك: فإن المفتي بين الأجر والأجرين.

فتركَت الحوار ثم سألتني: أأنت مجازة في الفتوى؟

طرحَت هذا السؤال في رسالة خاصة، وطرحَته على العام ..

قلت لها على الخاص: إنني مجازة في العقيدة، وأنا لا أفتي، هذا نوع نقل أحكام، ثم سألتُها: وأنت، هل أنت مجازة في الفقه؟

- أنا لا أفتي، أنا أنقل الخلاف، ومن حق من سألَت أن تختار.

ساءني الكيل بمكيالين، وهو من سمت النيو سلفية...

نيو سلفية؟!

تطوير السلفية الذي يريد توسيع سواغية الخلاف، وفتح الأبواب "على البحري"...

تيار من السلفيين يطورون السلفية، يتميزون بالانفتاح، منهم هذه الفئة التي عالجت إشكالية القول الواحد والتعصب له بمطالبة المفتي أن يشرح الخلاف بالأدلة، ويترك للمستفتي حرية الاختيار.

حرية الاختيار .. بلا معيار!

في كل المسائل، أو في كثير من المسائل المقبول فيها الخلاف من "وجهة نظر" كل واحد!

مشكلة هذه الفئة بأنواعها: أنها لا سقف لها؛ لأنه ليس لها معيار! لكل وجهة نظره حسب تباديل وتوافيق عديدة في حياته.

ومشكلة أخرى لا ينتهون لها: هذه اللعبة الطريفة تصلح في كتاب الطهارة والصلاة، وبعض المسائل السهلة، لكن في سائر أبواب الفقه سيقعون في مشكلة كبيرة جدًّا؛ منها عدم قدرتهم على تحديد ما السائغ، وما الذي لا يسوغ، وما الذي يخالف الإجماع .. سنجد من يقبل قول زنادقة في مسائل، ويعدها سائغة مقبولة عادلة حكيمة، وسنجد من يردها فقط لمجرد أنها ليست محلًّا مألوفًا للدراسة العامة!

ومشكلة أشد منها .. الخلاف أعظم مما يظنون، وأوسع مما تبلغه الأوهام.

- كلما عرفنا خلافًا أثبتناه!

يا له من تشتيت كبير جدًّا، وفوضى أشد من فوضى السلفية الأصلية في الفقه!

- السائغ يحكم عليه بالسواغ أهل العلم.

ومن أهل العلم؟ وما معيارهم؟

- أهل العلم يعرفهم أهل العلم!

فندخل في إشكال جديد:

الكيل بمكيالين، والمعيار الذاتي؛ سيكونون هم الحكم على الناس، ولا أحد يُسمح له بتقييمهم والحكم عليهم! ولماذا نسلم مفاتيح البيت للضمائر في زمن فتن؟

إشكاليات عديدة مشكلة لا يمكنهم الاطراد على هذا النسق .. فستجد الأمور آلت لمعيار الهوى في النهاية!

النيو سلفية مصطلح من ابتكاري، أدخلتُ تحته امتداد السلفية بكل أنواع هذا الامتداد، سلفية وما بعدها، سلفية مطورة، مرتبطة بالسلفية من جهة الترجيح بمعيار هلامي، الزعم أنهم يتبعون الدليل، نفس الارتباط مع السلفية في طريقة تحرير بعض المسائل، لا يستطيعون التحرر من الأثر السلفي فيه، نظرتهم للفقهاء قد تبدو أفضل وأكثر احترامًا وتقبلًا، لكن الحقيقة والممارسة نفس التسلط والاعتداد بالذات والشعور بالفوقية، يختلفون عن السلفية في سعة الاطلاع والأفق نوعًا، لكن عند الاختلاف معهم ستعرف أنك تتعامل مع سلفيين بنفس السلوك المشين!

ظلَّت تحاورني وتحمَّسَتْ جدًّا، أما أنا فقد عرفت أنها ليس لديها ما تضيفه لي إلا الجدل لإثبات وجهة نظرها، ثم إنها تقرن ذلك بالتنقص مني .. سيؤول الأمر معي إلى الغضب والدفاع عن النفس والانتصار لها ..
وعلام أدافع عنها وأنتصر لها؟
نفسي!
لو عرفتُها حقًّا، لما أنفقت وقتي لنصرتها... إلا ما كان من إصلاحها وتهذيبها.
انتهى الأمر ببلوك لوقف سيل الجدل وحبس نفسي عن الجزع فالانتصار لها!
لكن نفسي لم تهدأ، راسلت الشيخ (كريم)، وناقشته في قضية النّمص والتشقير.
فقد راودتني وقتها فكرة عجيبة؛ لماذا لا يكون من أفتى بجواز التشقير لم يتصور المسألة بطريقة صحيحة[1]؟

[1] هذه العبارة مثيرة جدًّا! مقبولة جدًّا عند الحديث عن الفقهاء القدامى ... مستنكرة بغضب عند الحديث عن أي شيخ سلفي معاصر ... تأمّل!

سألت الشيخ: هل عاد الشيخ ابن العثيمين عن رأيه في التشقير من الجواز للتحريم؟ ... ثم إنني طرحت سؤالي السابق المستفز جدًّا!

فرد الشيخ ردًّا مطولًا، تضمن هذه العبارة:
أولًا: من إحسان الظن بالعلماء أنهم لا يفتون في مسألة إلا وقد حصل لهم تصور صحيح للواقعة المسؤول عنها؛ خاصة مع تكرر السؤال وتعدد السائلين. وهذا نموذج لعدد من فتاوى الشيخين ابن باز وابن عثيمين - رحمهما الله- عن التشقير، والسائل يشرح ويوضح المراد به، وكانت الفتوى بالإباحة (أرسلَ رابطًا). وقد ادعى بعض الناس أن الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله- تراجع عن فتواه بالإباحة، لكن لم أجد مصدرًا موثوقًا لهذا التراجع"اهـ.
طيلة النقاش كان الشيخ يستخدم عبارات هادئة، عامة، هذه العبارة بالذات شعرت فيها بغضبه! وأحْيت في عقلي شيئًا ما أحاول أن أخمده ..!

من إحسان الظن بالعلماء أنهم لا يفتون في مسألة إلا وقد حصل لهم تصور صحيح!
إحسان الظن بالعلماء .. تصور صحيح .. الفتوى .. تعدد السائلين .. تكرر السؤال .. العلماء ..
ثم عادت تلك الأسئلة تضرب بقوة في خلايا عقلي:
التقليد والاجتهاد!
الفتوى وأهلية المفتي!
الفرق بين نقل الأحكام والفتوى!
ناقشت، وبحثت .. لم أشبع!

هناك شيء ناقص، هناك تناقض ما .. شيء غير متسق بداخلي، لا أعرفه ولا أدري ما هو ..

كالزئبق .. كلما حسبت أنني قبضت عليه أفلت مسببًا مزيدًا من الخسائر!

وفي تلك الفترة ..أو بعدها قريبًا .. حدثت أمور لم تكن في الحسبان.

بدأ الشيخ محمود عز الدين يكتب كلامًا صريحًا، أو أنني .. بدأت ألاحظ هذا الكلام الصريح! لا أدري صراحة.

كلام لا يحتمِل التأويل ولا الفهم المتسق مع ما في ذهني، كلام لا يمكن تحييده... يضرب أمثلة واضحة عن الخلاف السائغ، يقول: كالنمص، والإسبال، وإعفاء اللحية!

ما الذي يقوله ذلك الرجل؟

نعم .. لابد أنه أخطأ .. هذا تفسير جيد مريح!

أخطأ في ضرب المثال .. أراد خيرًا "فجت أوت" .. لا بأس، نحسبه على خير و... نعذره!

نقلت (سلوى) كلامه ونشرته، فأرسلت إليها:

- يا سلوى، الكلام ده مشكلة!

- لا بس هو عنده حق.

- آه عنده حق في رأس الموضوع، احنا كسلفيين مظهريون فعلًا، واهتمينا بالمظهر عن الجوهر، وعندنا إشكالات كثيرة في التطبيق .. بس الأمثلة اللي بيقولها دي فيها حاجات مسائل إجماع!

- طيب عاوزة أيه؟

- أنا رأيي تحذفي البوست أو تعدليه، يعني مفيش داع للبلبلة!

- ماشي.

لكن الشيخ لم يسكت!

تصاعدت حدة كلماته، وبدأ يضرب على أوتار حساسة جدًّا في عقلي، ويعيد ضخ الدم إلى تلك الأسئلة التي قطعتُ شرايينها، وينعشُ تلك الخلايا الرمادية بطريقة مؤلمة جدًّا!

اسكت يا شيخ .. اسكت قليلًا!

لكنه لم يسكت، ولم يرحم!

كلامه متناقض بوضوح وصراحة مع ما عندي، غير قابل للتأويل ولا الخلط بغيره ولا الاتساق مع غيره!

وصل الأمر لمرحلة: إما أن يكون كلامه غلطًا، أو يكون ما أعرفه غلط!

لماذا تَتَلفَّتُ حولكَ، وتهزُّ رَأسَكَ مُتأَسِّفًا عَلى حَالِ العبادِ؟!
تَتَنَهَّدُ بأسًى عَلى فَسَادِ البِلادِ؟!

أيُّها القارئُ اللَّبيبُ، الفَطِنُ الأَرِيبُ، تَنَبَّهْ!

أنا لا أتحدَّثُ عنـ(هُمْ)؛ بَلْ عن (نَحْنُ) أتَحَدَّثُ.

نعم، أتَحَدَّثُ عَن أَنفُسِنا، عَن (نَحْنُ)، عَن مَعاصِينَا الَّتي نَظُنُّ أنَّها أدَقُّ منَ الشَّعرةِ، لا أتَحَدَّثُ عَن مَعاصِي(هم) و (هَؤُلاءِ) الَّتي نَراهَا أكْبَر من الجِبالِ وأشَدّ هَوْلًا مِن أمْوَاجِ البِحارِ، أتَحَدَّثُ عَن مَعاصِينا الَّتي نَظُنُّ أنَّ اللهَ -تعالى- قد غَفَرَها لنَا دُونَ أن نُكَلِّفَ أَنفُسَنا عَناءَ الاستِغْفارِ، ولا أتَحَدَّثُ عَن مَعاصِي(هُم) التي نَشْعُرُ -وإنْ لم نُصَرِّحْ أنَّ اللهَ لَن يَغْفِرَها لـ (هُمْ)؛ لمجرَّدِ أنَّ (هُم) ليسُوا (نَحْنُ).

عَن (نَحْنُ) أَتَحَدَّثُ!

لماذا إذا سَمِعنا مَوْعِظةً تُحَذِّرُ مِنَ المعاصِي والآثامِ، فأولُ ما يَجولُ بخاطِرِنا هُو الأسفُ عَلى حَالِ(هُمْ)، وإذا سَمِعْنا بُشرَى عن أهلِ الأُجورِ وجَنَّاتِ النَّعيمِ تَهَلَّلَتْ نُفُوسُنا في حُبورٍ، فَ (نَحْنُ) أوَّلُ الفائِزينَ؟!

إنَّ الفَرَحَ بِفَضلِ اللهِ والاسْتِبشارَ بِه حَسَنٌ، ولَكِنْ بَدَأَ الأمرُ يَتَحَوَّلُ في نُفُوسِنَا إلى ثِقَةٍ أنَّ (نَحْنُ) أهْلُ الخيرِ، وأنَّ (هُم) أهلُ كلِّ الشُّرورِ، هكذا باطِّرادٍ!

وكَأَنَّ جُلُودَنا لمْ تَقْشَعِرَّ خَوْفًا من تَحذِيرِ المَوْلى عزَّ وجَلَّ: {وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}.

نُخالفُ ونعصِي ونَأمَنُ مَكْرَ اللهِ، ونُحْسِنُ الظَّنَّ في أنفُسِنَا ونَتَمنَّى على اللهِ السَّلامةَ، ثُمَّ لَم نَكْتَفِ بِهَذا؛ بلْ أزَحْنَا عَن كَاهِلِنَا عَناءَ الشُّعُورِ بالذَّنْبِ وألْقَيناهُ على عَاتِقِ(هُم) المُذْنِبِينَ الآثِمِينَ، وكأَنَّ قُلُوبَنَا لم تَرْتَجِفْ لِقَولِهِ - تَعَالَى-: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}.

عَن (نَحْنُ) أَتَحَدَّثُ!

عَن هَذا الكيانِ الذي يَعِيشُ في الشَّهَوَاتِ والشُّبهاتِ ويَظُنُّ أنَّ كَونَه (نَحْنُ) يَجْعَلُهُ أهْلًا للجَنَّةِ، ويَجْعَلُ (هُم) أهلًا للنَّار.

كَم صَدَرَ مِنَّا مِن مَعاصٍ، فَكأنَّهَا ذُبابٌ وَقَعَ عَلَى أنفِ أَحَدِنَا، فَقَالَ لهُ بِيَدِه هَكَذَا.

وكَم صَدَرَ مِن(هُم) هَفَواتٍ فوَضَعْنَاهَا تَحْتَ المِجْهَرِ، فصَارَت جِبَالًا تُوشِكُ أنْ تُهْلِكُنَا جَمِيعًا، حتَّى رَفَعْنَا أيادِيَ كَاذِبةً وأعْيُنًا خَاشِعةً خُشُوعَ النِّفاقِ، ودَعَوْنَا اللهَ ألَّا يُؤاخِذنَا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ (مِنَّا) ونَحْنُ نُوقِنُ في قُلُوبِنا اللاهِيَةِ أنَّ (مِنَّا) لا تَشْمَلُ (نَحْنُ)؛ بَل تَشْمَلُ فَقَط (هُم) و (هَؤُلاءِ) الأباعِد!

وكَأَنَّنَا لم نَتَّعِظْ بِقَولِه تَعالَى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَونَ أَنْفُسَكُم وَأَنْتُم تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}.

لماذا نَنشَغِلُ بِعُيُوبِ النَّاسِ ونَنسَى عُيُوبَنا؟! لماذا لا نَهْتَمُّ بِإصْلاحِ أنفُسِنا قَبلَ إصْلاحِ النَّاسِ؟! لماذا إذا كَشَفَ اللهُ لَنَا عَن بَعضِ عُيوبِ النَّاسِ؛ هَجَمْنا عَلَيهِ بِألْسِنَةٍ حِدادٍ أشِحَّة عَلَى الخَيْر، وقُلُوبٍ قَاسِيَةٍ تَفرَحُ بالعُلُوّ؟!

ألا طُوبَى لِمَن شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَن عُيُوبِ النَّاسِ!

ولَعَلَّ هَذَا طَبْع البَشَرِ، جُبِلْنَا على ظَنِّ الخَيْرِ بِأنفُسِنا وتَقْدِيمِ ظَنِّ الشَّرِّ بِالنَّاسِ أجْمَعِينَ، وباليَقَظةِ لِهَذِه الخَوَاطِرِ السَّيِّئَةِ من الممكن جدًّا أن يشْفَى المَرْءُ مِن ذَلِكَ الدَّاءِ، لَكِن الكَارِثَة أن نَتَمَادَى لِطُولِ الأمَدِ، فنَرْتَدِي أثْوَابَ

الوَاعِظينَ، ونُلبس معاصيَنا لباسَ الدِّينِ، فنَرى أنَّ أفْعَالَ (نَحْنُ) لا تَسْتَحِقُّ إلا أفْضَلَ تَأْويلٍ، وأفْعالَ (هُم) لا بُدَّ عليها مِن نَكيرٍ!

وكَأَنَّنَا لم نَسْمَعَ قَولَ اللهِ عزَّ وجلَّ: {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ}.

وكَأَنَّنَا لم نَتَّعِظْ بِمَثَلِ مَن قَالَ اللهُ تَعالى فِيه: {وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ}.

فخُشُوعُ (نَحْنُ) خُشُوعُ إيمَانٍ، وخُشُوعُ(هُم) لا بُدَّ أنَّهُ خُشُوعُ نِفاقٍ وزَيْفٍ وتظاهُرٍ!

وغَضَبُ (نَحْنُ) لأنفُسِنا لا بُدَّ أنَّهُ في الحَقِيقةِ غَضَبٌ للهِ، أمَّا غَضَبُ(هُم) فَهُوَ لا بُدَّ رِياءٌ!

وتَوَاضُعُ (نَحْنُ) لا بُدَّ أنَّهُ صَادِرٌ عَنْ جَلالٍ ومَهابةٍ، وتَواضُعُ(هُم) عَن قِلَّةِ عِلْمٍ ومَهانةٍ، وفي أحْسَنِ حَالٍ فهذا ما جُبِلْنا عليه، أمَّا (هُم) فيَتَظَاهَرُونَ!

وحَمِيَّةُ (نَحْنُ) لأنفُسِنَا بِزَعْمِنَا الأمْرَ بِالمَعْرُوفِ والنَّهْي عَنِ المنكَرِ، إنَّما هِيَ حَتْمًا مِن قُوَّتِنَا في أَمرِ اللهِ وتَعْظِيمِه، أمَّا قُوةُ (هُم) في أَمْرِ اللهِ فَلا بُدَّ أنَّها حَمِيَّةٌ للنَّفسِ ولَيستْ للهِ!

وتَكبُّرُ (نَحْنُ) عَنِ الخَلْقِ إنَّما هِيَ صِيانَةٌ للنَّفسِ من الوقوعِ في المعاصِي بِمُخَالطةِ العُصَاةِ، أمَّا صِيَانَةُ (هُم) فلَيْسَتْ سِوى عُجْبٍ واستكبارٍ!

وسُوءُ ظَنِّ (نَحْنُ) في خَلْقِ اللهِ إنَّما أَصْلُها فراسةٌ، أمَّا أيُّ تَحَرُّزٍ منه(هُم) ولو كَانَ في مَحلِّهِ؛ فهُوَ ولا بُدَّ سُوءُ ظَنٍّ!

ونَصِيحةُ (نَحْنُ) صَادِقةٌ صَادِرةٌ عَن مَحَبَّةٍ ورغبةٍ في النَّفْعِ، أمَّا نَصِيحةُ (هُم) فَهِيَ غِيبةٌ ورَغْبَةٌ في التَّطاوُلِ ونَوْعُ تَأْنِيبٍ!

فلماذا أحْسَنَّا الظَّنَّ بأنفُسِنا وأسَأْنا الظُّنُونَ بِغَيرِنَا؟! لماذا ألْبَسْنَا أفْعالَنَا أثْوَابَ العَافِيةِ والدِّيانَةِ والوَرَعِ، وألْبَسْنا أفعَالَ غَيرِنَا ثِيَابَ الزُّورِ والبُهتانِ والنِّفاقِ؟!

ألَم نَفقَهْ قولَه -صَلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم-: "بِحَسْبِ امرِئٍ مِن الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أخاهُ المسلمُ" (رواه مسلم).

وكأنَّنَا لم نَخْشَ أنْ تَكُونَ فِينَا خصْلَةٌ منَ النِّفَاقِ بِمُشَابَهَتِنا مَن قَالَ اللهُ فِيهِم: {الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ}.

لماذا لم نُقْبِلْ على شَأْنِنا ونُصْلِح حَالَ أنفُسِنا؟! لماذا أعْطَيْنا النَّفْسَ زِمامَ الثِّقَةِ ورَسَّخْنا فِيهَا اعْتِقادَ الرِّفْعَةِ والقَبول؟!

{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}.

أَلَمْ يَأْنِ لنا أنَّ نَعمَلَ بما جاء في حديثِ رسولِ اللهِ -صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ-: "مِنْ حُسْنِ إسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيه". ما لا يَعْنِيهِ مِن أمرِ الدُّنيَا والنَّاسِ، ومِن أمرِ كلِّ شيءٍ لا يُعِينُهُ على أمرِ الآخِرةِ.

لَعلَّكَ بَعْدَ أن تَقْرَأَ كلماتي القَاسِيَةِ قَد تَجِدُ في نَفسِكَ ضِيقًا وإحْباطًا، وشُعُورًا بالأسى على حال (نَحْنُ)، فعَلَيكَ ألَّا تَقِف عِندَ هَذا، وألَّا تحوّلَ الأسى إلى فتورٍ وسوءِ ظَنٍّ باللهِ، فلا تَتْرُك العنانَ لنَفْسِكَ والهَوَى والشَّيْطَانِ، ولا تَرْكَن إلى هَذا الشُّعُور.

وتفكَّر في قَولِه تَعالى: {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}. وارْجُو رَحْمَتَه -تَعالى- فهُوَ -سُبْحانه- القائِلُ: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ}.

فَمَن أَحْيا الأَرضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَادِرٌ على أن يُحْيِي القُلوبَ التي أمَتْنَاهَا، وجَعَلْنَا صُدُورَنا لَهَا قُبُورًا قَبْلَ القُبُورِ.

اللهمَّ يا مُقَلِّبَ القُلوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنا على دِينِكَ.

فارْفَعْ أكُفَّ الضَّرَاعةِ تَائِبًا إلى الرَّحيمِ الودودِ، واترُك عنانَ الدَّمعِ خَاشعًا نادمًا عائدًا لِمَن يَعْلَمُ خائِنَةَ الأعْيُنِ ومَا تُخْفِي الصُّدُورُ، وغُضَّ الطَّرْفَ عَن سَيِّئَاتِ المُسْلِمينَ، وكُفَّ اللِّسانَ عَن أعْرَاضِ المُؤْمِنينَ، وتأمَّلْ في شَأْنِكَ وأصْلِحْ حَالَكَ، واسْتَغْفِر لِذَنبِكَ وللمُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ، وَاللهُ يَعْلمُ مُتَقلَّبَكُم ومَثْوَاكُم.

ولو أنَّ عَيْنًا سَاعَدتْ لَتَوَكَّفَتْ سحائِبُها بِالدَّمْعِ دِيَمًا وهُطَّلَا

من مقالي: (عن "نحن" أتحدث).

الوقت: الآن عام 2015 .. إلى قرب منتصف 2016.

مراقبة .. صمت .. غضب .. تعب .. حيرة .. هروب!

في ظل إثارة هذه المسائل الخلافية، وعلى رأسها قضية النمص، شعرت بالاستياء الشديد!

خلاص يا مشايخ عرفنا أنه فيه خلاف، فضوها سيرة!

طبعًا الخلاف ده مش عشان نعمل بيه ولا نفتي بيه، الخلاف ده عشان "نعذر" بيه العوام المساكين لما يترخصوا، والرخص دي مش لينا معاشر الخاصة!

بدأت ألاحظ حالة من التوتر والبلبلة!

في ظل فقدان الثقة في مشايخ السلفية، تثار مسائل الخلاف؛ مما يزيد في شعورنا بعدم الثقة!

وبدأت ظاهرة النيو سلفية في التيار السلفي تنتشر ويعلو صوتها.

أخوات فاضلات ينقلن الخلاف، ويقبلن "كل خلاف"، ويطالبن بنشر واحترام الخلافات الفقهية .. أي خلافات فقهية!

وكل واحد حر... بلا معيار...

ومما سار بالتوازي؛ أن بعضهن كن ينتقدن أي اختيار فقهي سلفي نكاية في السلفيين ومشايخهم ... رد فعل عنيف، مساو في القوة للتشديد والتعصب، مضاد له في الاتجاه!

يا لها من فوضى!

جحيم الانتقال من فوضى إلى فوضى بلا معيار...

ستؤول الأمور إلى انفلات كامل، الانتقال لا يكون بهذه الصورة، لا يمكن أن يكون بهذا الانفتاح المزري بلا ضابط ولا رابط .. ولا أثارة من علم!

ما المعيار؟

تريدون نشر الخلاف وترك الناس هكذا؟ ألا تدركون حجم المأساة التي ستنتج عن نشر الخلاف بهذه الفوضى؟ الناس ستطّرد، سنصل إلى أن كل شيء فيه خلاف، سنجد من يقول: إن الصلاة والحجاب فيهما خلاف، ضرب الثوابت والتطرف من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار!

هذا الانتقال بلا معيار ... نحن سنواجه طوفانًا وكارثة لا قبل لنا بها!

والحقيقة أن هذه صورة أوسع وأشمل وأشد انفلاتًا وثورة للانتقالات الفردية التي كنا نراها من قبل، وعشت بعضها مع بعض الأفراد فعلًا، ورأيت ورصدت الظاهرة..

كثير ممن لم يتحمل النهج السلفي في الالتزام انتقل من السلفية إلى الانحلال أو إلى الإلحاد، أو إلى التصوف، أو تمشعر[1]، أو حتى إلى اللامبالاة بالأحكام، أو التوسع في الترخص بلا ضابط حتى يضرب الثوابت الحقيقية المتفق عليها؛ كالحجاب، وتحريم الخمر.. إلخ!

ردود أفعال الناس الغاضبة تتباين، ولا يمكن ضبط رد فعل كل الناس.

في بداية تلك الفترة كنت لم أجد بعد معيارًا.. بل وقتها كنت أميل إلى المنهج السلفي، وأبحث عن طريقة للتوفيق بين قبول الخلاف الفقهي الواسع، وبين الأخذ بالدليل..

[1] تمشعر: يعني صار أشعريًّا، وواضح أني لا صوفية ولا أشعرية!

محاولة انقاذ لمن حولي:
كتبت في منتصف عام 2015:

بسم الله

مش من طبيعة صفحتي أني أرد وأعلق على حد كاتب شيء؛ خصوصًا من نحسبهم على خير.

بس فيه نقاط عاوزة أنبه عليها يا جماعة:

- فيه طلاب علم على خير كبير، كثير بيتابعوهم، عن نفسي أحسبهم على خير ولا أزكي على الله أحدًا، وأحسبهم على علم وفقه ودراية كبيرة، بس ناخد بالنا من شيء:

هم لهجتهم عالية المستوى، والعربي عندهم فصيح، وخطابهم لطلاب العلم لا للعوام، وأختلف بشدة -وإن كنت أقل من أني أختلف مع مثل هؤلاء- في عرضهم هذه المسائل على الفيسبوك؛ لأن الفيسبوك مقهى مفتوح، يدخله كل بر وفاجر.

ومن عادة السلف أن يخاطبوا الناس بما يفقهون؛ وقد وبوّب البخاري في كتاب العلم:

"باب: من خص قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا، وقال علي: "حدثوا الناس بما يعرفون؛ أتحبون أن يُكذّب الله ورسوله؟". حدثنا عبيد الله بن موسى عن معروف بن خَرّبوذ عن أبي الطفيل عن علي بذلك".

ثم ساق حديث معاذ بن جبل وفيه أنه قال للرسول -ﷺ-: "أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: "إذًا يتكلوا" وأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا.".

- طيب، احنا مش هنغيرهم؛ ده اجتهادهم، أسأل الله أن يأجرهم. لكن أنت يالي داخلة الصفحة؛ لما تلاقي نفسك مش فاهمة انسحبي الله يكرمك، وسيبي صفحاتهم لطلاب العلم، أو حاولي تفهمي وتدرسي المسائل صح. عشان مطولش هنزل بوست تاني" اهـ

وكتبت:

"البوست الثاني:

عن الكلام عن موضوع الفتوى والتقليد، وأنه فيه أقوال فقهية غير اللي اتربينا عليها وكده، (ده كلام علمي ملهوش علاقة بافتكاسات خلع الحجاب وتغيير الموروث؛ لأن ده كلام مش هيطلع من علماء أصلًا ولا طلبة علم ولا حتى عامي بيعرف ربنا).

- أيوة، الكلام عن الفتوى والتقليد والخلاف السائغ، ده صحيح، والغرض منه نبذ التعصب للأقوال المنتشرة لمجرد أن فيها تشديد عشان يعني الناس اللي بتحب التشديد.

- التقليد لعالم أو مذهب خلاص ماشي، خليك مقلدة، بس مش لازم تجبري اللي حواليك على أخذ نفس الكلام اللي أنت أخذتيه... ياستي أنت مقلدة قلدي في صمت! مشكلتنا أن أغلبنا بيقلد ويفتي، الاثنين سوا!

- خدي بالك مش هينفع تاخدي من كل مذهب أو من كل عالم اللي تشتهيه؛ لأن ده مذموم عند العلماء، وده مش مقصود الأفاضل بالكلام عن أن فيه فتاوى بتخالف اللي تربينا عليه، وقد صرحوا إن ده مش مرادهم ولا مقصودهم أن اللي عاجبته فتوى يقلدها بهواه.

- من مقصود الأفاضل أن اللي بيقلد شيخ ملهوش أنه يفضل يتنقص من حد مقلد لشيخ تاني على علم ودين وفقه، وأن اللي بيعمل بترجيح ملهوش أنه يتنقص من ترجيح حد تاني بأنه قليل الورع مثلًا.

هم ضربوا أمثلة هي اللي عملت بلبلة، خليني أضرب لك مثال داخل في اللي اتربيتي عليه، وبعدين أشرح لك بعض الأمثلة اللي عملت بلبلة:

لو أنت واخدة بفتوى الشيخ ابن باز في وجوب غطاء الوجه، صديقتك أخذت بفتوى الشيخ الألباني في "جواز" كشف الوجه، هي مقلدة للشيخ، وأنت مقلدة للشيخ... مش بالهوى ولا شيء؛ لأنه لو بالهوى سواء منك أو منها غلط. مينفعش تقولي عليها قليلة الدين وتشتمي في الشيخ الألباني وتقولي ضلال وكذا.

طيب...

لو انت واخدة بفتوى أن النمص معناه كذا، وأنه حرام، ومقلدة لشيخ ثقة في هذا الأمر، ولقيتي واحدة بتقولك أنا أخدت بفتوى الشيخ فلان (عالم كبير وثقة)، أو الإمام فلان في أن النمص معناه كذا (غير اللي أنت عارفاه)، وبالتالي بتعمل شيء أنت مسمياه نمص ... مينفعش تقولي عليها فاسقة، وعلى اللي قلدته صاحب هوى لمجرد المخالفة دي لك.

زيها في مسألة التشقير، أنا عن نفسي شايفة أنه فيه غلط في الموضوع بناء على اللي واخداه في موضوع النمص، لكن عمري ما هقول على المشايخ الكبار ولا اللي قلدوهم أنهم بيتحايلوا على الشرع.

ولو تفتكروا في جروب الفقه بقولكم احنا في الجروب ماشيين على الرأي ده، عاوزة تقلدي حد من الشيوخ الكبار قلديهم، ولا بنكر على
واحدة مشقرة رغم أن التشقير حكمه عندي أنه غلط.
- كلام الأفاضل على موضوع ترك السائل أنه يسأل حد يفتيه بأسهل من اللي هيفتيه هو به:
إحنا برضه بنعمله على جروب اسألي عن الفقه كثيرًا، بيكون رأيي هيشدد عليك ومش بجاوب وبحيلك على حد تاني، رغم أن الرأي ده عندي ممكن يكون غلط.
وأصلًا أصلًا إحالة الفتوى على حد تاني من هدي السلف بصفة عامة من غير غرض التشديد ولا التسهيل، ولو غرضي بالإحالة عدم التشديد على الناس طالما فيه عالم أفتى بشيء أيسر باجتهاد صحيح وهو مأجور ومقلده غير آثم فمفيش مشكلة.
هو أنا يعني لازم الناس تتبعني وتسمع كلامي؟؟ بالعكس تمامًا.
الخلاصة:
غرضهم أننا منفضلش نتباغض ونتنافر ونتشاحن ونشتم بعض ونضلل بعض في مسائل مبلغكيش فيها الخلاف لقلة العلم... أو بلغك الخلاف واخترت شيئًا فيها بعلم.
بس غيرك حتى لو عندك مخطئ تمامًا، والخلاف غير سائغ بتاتًا، بس أنت عارفة أنه على علم وأهل للاجتهاد؛ متشنعيش عليه بطريقة فيها بغضاء ... وتتمني لهم الويل والثبور وقعر جهنم، وتقولي عليهم قليلي الورع، والغل بقة يشتغل!

أيوة، ممكن تقولي رأيك لو أنك أهل لإبداء رأيك بدراسة وعلم، وتقولي رأيك في المسألة: ده تحايل، ده كذا ... لكن مش معنى كدة أن (كل) اللي أخذ بالرأي الآخر آثم ومتحايل وووووو ..

وممكن أنكر وأفهم صديقتي أن ده غلط ... وممكن أناقش طلاب العلم، بس متشغليش نفسك بالحكم عليهم بقة، صاحبتي مأجورة أجر واحد وعدوتي مترخصة وأهل هوى! ودول معرفش إيه، ودول إيه!

خليك في حالك، واتكلمي في المسألة مش في اللي عملها ... ومش لازم الناس تسمع كلامك وتمشي وراك أصلًا في اختياراتك أو تقليدك لمشايخك ... قولي اللي عندك (((لله))) بحلم وعلم .. وروحي!

فخلاص اقفلي المراء والجدل وكبري دماغك، وكل يعمل بما يترجح له، وربنا يصلح حالنا كلنا" اهـ.

الآن أنا في مرحلة بداية عدم التوازن!

- هناك خلاف... لم أضع يدي على معيار ملائم... عندنا مشكلة لم أضع يدي على أركانها .. تتفلت كالزئبق!

- أنا أرفض إثارة الخلاف الفقهي على صفحات الفيسبوك، وأعتبر أن هذا ينبغي إثارته في مجالس العلم كخلاف تاريخي يوضع في المتحف! وأنه للترخص وعذر العامة المساكين، لا للعمل به ولا للفتوى، وأعتبر من يثير هذه الخلافات "مثيري شغب/ مثيري فتن/ يفتنون الناس".

- أنا غاضبة من هؤلاء الذين يثيرون الخلاف، ملتمسة العذر لمن كان عنده علم، وأشعر بالاستياء من هؤلاء الذين يرددون ما يسمعون بلا علم ولا فهم؛ بل مجرد تفريغ غضب نكاية في السلفيين.

هل انتهتم إلى استدلالي بتبويب البخاري: (من خص قومًا دون قوم) هنا وفي مسائل التكفير؟ طيب التكفير فعلًا مسألة شائكة لا ينبغي تداول تفاصيلها في أيدي العامة؛ لأن العامة ليس لهم الدخول في التكفير، ودخولهم في التكفير مفسد للأمة بلا أدنى شك. أما طرح الفتاوى، وإفتاء كل شيخ بـ"ما ترجح له"؛ فلماذا أراه متعارضًا مع السلفية؟

- سأكون صريحة يا سادة ... هذه الفتاوى تخالف الدليل الصحيح الصريح، وهي نوع من الاستدلال بالخلاف للهروب من العمل بالنص... وبالكثير سأتسامح مع هذه الخلافات الفقهية وأعتبرها رخصة، هي من زلات العلماء، يترخص بها ضعيف الايمان!

استمر الشيخ محمود يكتُبُ! وكلما وقع في قلبي أنّ لازم كلامه كذا، وأنه بالتأكيد لن يلتزمه؛ كتب مقالًا يلتزمُ لازمَ كلامِه[1]!

صرّح هو وغيره أن القول بجواز النمص هو .. قول جمهور العلماء!

جمهور العلماء؟

هذا خبر أسود .. أسود من ليل تهامة!

كيف يعني جمهور العلماء؟

أنتم تمزحون بلا ريب! نحن نقول (حرامٌ بالإجماع)، وعلى مضض سنقبل بالفتوى لنعذر العامة والغوغاء؛ فتخرجون علينا بمثل هذا الكلام!

لدينا عدة احتمالات:

- جمهور العلماء رعاع يخالفون صريح الأدلة والإجماع بهوى ونزق!

- شيوخنا المعاصرون الذين يقولون (حرام بالإجماع): جهلة؟ أو يكذبون؟ أو مخطئون؟

- الشيخ محمود عز الدين ومن يتكلم عن النمص يكذبون على جمهور العلماء!

- نحن نشرنا الفتاوى بالتحريم ولم نحرر أصلًا هل هذا إجماع أو لا؟ سأُكذِّب عيني وأذني وأكتفي أن أعيد البحث، ونقول ونردد: العيب فينا وشيوخنا أطهار الذيل، علماء طيبون، والجمهور طيبون .. ونحن أشرار!

---

[1] مثلًا: اللازم من كلامه أنه يجوز الأخذ بفتوى النمص، فأقول في نفسي: هو لا يمكن أن يلتزم ذلك، هو يتكلم عن فتوى النمص لعَذر الآخذين بها، فيكتب أن الأخذ بها ليس رخصة بل هو تقليد سائغ تبرأ به الذمة!

وحبوا بعض!

طبعًا اخترت الاحتمال الأخير .. هو أنسب لتكويني الحالي وأكثر راحة!

طلبَت مني بعض الأخوات فتوى بخصوص النمص، وأن لديها مشكلة مع زوجها، وهل لها أن تترخص؟

راسلت الشيخ كريم واستفتيته لها؛ فكان رده: أنه يجوز لها الترخص، وأن القول بجواز النمص هو فعلًا قول الجمهور، وشرح لي الخلاف اختصارًا، ونقل لي بعض أقوال أهل العلم.

- .....!

لكن الشيخ محمود عز الدين لم يسكت!

أريد أن أفهم.. من هذا الرجل؟

بحثت فوجدت له مقالات وأشرطة وسيرة ذاتية، نبشت في صفحته وعلى الشبكة حتى وجدت مجموعة أشرطة بعنوان: (مدخل إلى علوم الفقه).

خمسة أشرطة، كل شريط ساعة.

جلست أستمع إلى أول شريط، فلم أُفِق إلا بعد الخامس! خمس ساعات كاملة لم أتحرك من مكاني، جالسة في وضع الجنين المشهور على فراشي.

يقول البعض إن هذا الوضع يدل على افتقاد الشعور بالأمان! لا أعلم هل هم على حق أم لا! لكن ... في حالتي تلك، لا أشك أنهم كانوا على حق ...

ينتهي الشريط، فأفتح التالي في لهفة،

لم أشبع؛ هذه الساعات ليست كافية،.. لقد وضعتُ يدي على أول خيط يرشدني إلى موضع التناقض والمشكلة!

اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم".

حين اشتدت الأزمة بعد الأحداث والقتل في رابعة، استفتح كثيرٌ منا بهذا الدعاء.. ليس فقط لتمييز الحق والباطل؛ بل لنتبين الطريق، وماذا نقول؟ وماذا نفعل؟!

هل شعرتَ يومًا أنك دعوت دعوة لشيء ما، فأصابت شيئًا آخر؟!

حسنًا .. ربما!

ربما يكون هذا ما حدث!

ꕥ

هل تصدقون أنني كنت أسمع بتوتر .. بشك وافر .. بتحفز.. بأذن ناقدة معترضة .. مع رغبة حقيقية في الفهم!

لا أدري كيف اجتمع كل ذلك!

ومع كل كلمة ودقيقة تمر، كنت أشعر بفقدان التوازن .. بالخوف المبهم الذي لا أعرف مصدره ولا سببه، انسلّت الساعات الخمس وأنا بأفكاري في وادٍ آخر!

تنتمي هذه الأشرطة إلى علم تاريخ التشريع ..

أنا درست شيئًا من تاريخ التشريع في الجامعة، وكل ما درسته في الجامعة كان عندي خطأ ومجرمًا حتى تثبت براءته!
لكن ما أسمعه الآن مذهل، يضرب في نقاط محددة .. نقاط قاتلة!

بدأ بمقدمة عن الفقه وتاريخ التشريع ونشأته كعلم مستقل، ثم قال:
"وهذه المادة عمومًا فيها إشكالات؛ كالمتعلقة بالتصور، وإشكالات متعلقة بالحكم؛ لأنك أنت الآن تصف الفقه الإسلامي: متى نشأ؟ وما الأطوار التي مر بها؟ (أطوار الازدهار وأطوار الضعف التي مر بها). تصف فتتكلم عن مسألة الاجتهاد والتمذهب، صار لك حكم على التاريخ الفقهي، وهذا الحكم قد يكون فيه ضعف؛ فقد يكون التنظير جيدًا لكن الحكم ضعيف، وبالعكس. **لذلك لا تغتر بالنتائج التي تجدها في هذه الكتابات**؛ ففيها كتابات جيدة، وفيها توصيف جيد، ولكنها أيضًا تحتاج إلى مزيد عناية ونظر أوسع... ولا تأخذ المكتوب مُسلّمًا.
فيصفون مثلًا المقررات الفقهية والكتابات الفقهية من القرن الخامس الهجري وما بعده بالجمود، ثم يصفون الوقت الحاضر بالنهضة؛ مع أن الوضع ليس كذلك أصلًا! كيف كان الفقه جامدًا في زمان ابن قدامة مثلًا؟ وهل الآن الفقه متطور؟
لا أدري كيف يُقال هذا! فهذا ضرب من **الغرور والخزعبلات** التي لا أساس لها من الصحة؛ فكيف يكون عصر الكبار مثل ابن قدامة وابن تيمية فيه من الجمود، والفقه في زماننا الذي لا تكاد تجد فيه فقيهًا بمعنى الفقيه المجتهد يصير في عصر النهضة؟ فمثل هذه الأحكام التي لا تُؤخذ عن شيء علمي حقيقي لا يجب أن تؤخذ كأنها مُسلّمة" اهـ

بدهية مسلمة نتكلم بها -معاشر السلفيين- نظريًّا، لكن في الحقيقة والممارسة نحن نَعتَبِرُ أننا بلغنا ما لم يبلغ مَن سبقنا، وأننا حَكَم عليهم وعلى أقوالهم، مما يعني بالضرورة أننا أعلى منهم رتبة!

ففي الممارسة؛ ليس الترجيح عندنا أننا نختار قولًا ونحترم اختيار غيرنا، بل عادة السلفيين عدم الاطلاع على الخلاف، والاكتفاء بالنظر في أقوال المعاصرين؛ باعتبار أنهم من صفّوا التراث، ثم الترجيح بين أقوال المعاصرين ... ثم! راجحنا الحق، وراجح غيرنا باطل!

والسائغ ما كان مختلَفًا فيه بين معاصرين سلفيين وتحتمله الأدلة في نظرنا! آه والله!

مأساة!

يقول الشيخ:

"الآن بعض الناس عنده تصور قاصر جدًّا عن كتب الفقه التي بين أيدينا وعنده زهد فيها؛ باعتبار ما يسمعه من هنا ومن هناك أن الفقه هو خُلاصة أقوال الرجال، ويجب أن نلتفت نحن إلى الكتاب والسنة، وينبغي أن نأخذ من حيث أخذوا، ولماذا نبدأ من حيث انتهى الآخرون؟ ولماذا نأخذ كلام الأئمة الأربعة مُسلّمًا أصلًا؟ فنحن رجال وهم رجال، وما الذي يجعلنا نثق بأن هذه الآراء المدونة هي مراد الله -عز وجل- ومراد رسوله، كلام كثير سنتحدث عنه في مسألة التمذهب.

هذه النفسية لا تُخرج فقيهًا؛ لأنّك في أي علم من العلوم إذا دخلته متربصًا بدون أن تمتلك أدواته لا يمكن أن تصل فيه إلى نتيجة؛ فمن يدرس التجويد ويعتقد بأن أحكام التجويد فضلة ووسوسة، وقول ابن الجزري "والأخذ بالتجويد حتم لازم ... ومن لم يجود القرآن آثم)، وسمع بأنّ التجويد ليس مهمًّا، وليس هناك داعٍ توسوس، والمهم أن تتدبر القرآن، ودعك من

هذا الغلو الذي يقع فيه أهل التجويد؛ فكيف يدرس أحكام التجويد؟ فهو يدرسه كي ينجح في اختبار ويدخل في الأوقاف مثلًا، وبعد ذلك ينسى الأحكام! لكن **كيف يدرس هذا العلم**...".

"هذه الكتب التي بين أيدينا للأئمة الأربعة؛ **هل لها سند متصل للنبي -صلى الله عليه وسلم-**؟ هل هي الفقه الأصيل الذي كان عليه النبي وأصحابه؟

بعض الناس عندما تحدّثه عن التمذهب بالمذاهب الأربعة يقول لك: جميل، **وقبل الأئمة الأربعة كيف كان الناس يدرسون الفقه**؟

وهو يظن أنه أتى بالحجة التي تسكتك، والحقيقة أنّ الجواب سهل جدًّا؛ **فقبل الأئمة الأربعة كان هناك تقليد أيضًا لشيوخهم وشيوخ شيوخهم وشيوخ شيوخ شيوخهم إلى الصحابة -رضي الله عنهم-؛ هكذا نشأ الفقه.**

خطاب الله -عز وجل-: {**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**}؛ من المخاطب به أصلًا؟ هم الصحابة -رضي الله عنهم-؛ فهل كان الصحابة كلهم فقهاء؟ لا؛ مثل خالد بن الوليد -ﷺ- مجاهدٌ وليس فقيهًا، ولو أراد أن يكون فقيهًا لكان؛ فهو تفرغ للجهاد ولم يتفرغ للفقه.

ابن حزم يقول إن الذين نُقلت عنهم الفتوى من الصحابة 130 من عشرات الآلاف من الصحابة، منهم المكثر ومنهم المتوسط ومنهم المُقِلّ، وليسوا على درجة واحدة مما نقل. فكان الصحابة منهم المنشغلون بالفقه، ومنهم من كان يسأل هؤلاء.

يقول مسروق: شاممت أصحاب النبي -ﷺ (جالستهم وأخذت عنهم)؛ فوجدت أن العلم قد انتهى إلى ستة منهم... فكل علم الصحابة- انتهى العلم إلى ستة، ولم يذكر من الستة أبا بكر -ﷺ-، وهو أفقه الصحابة على

الإطلاق، لكن المسألة أنّ الذي جلس ليحدّث الناس ويفتي الناس ويعلّم الناس كان عددًا قليلًا من الصحابة.

فاشتهر من الصحابة بالفقه والإفتاء ونحو ذلك: عمر بن الخطاب -ﷺ-، عبد الله بن عمر، عبد الله بن عباس، زيد بن ثابت، أبو الدرداء، أُبيّ بن كعب، علي بن أبي طالب؛ هؤلاء هم المشتهرون بالفقه.

ومعاذ بن جبل أعلم الناس بالحلال والحرام.

لكن الذين انتشر عنهم العلم، وحُمل عنهم العلم إلى الأمة هم ثلاثة:

- زيد بن ثابت، ابن عمر: هؤلاء في المدينة، وابن عمر كان بعد زيد.
- وفي مكة: عبد الله بن عباس.
- وفي الكوفة: عبد الله بن مسعود، وعلي بن طالب -ﷺ-.

عن هؤلاء انتشر العلم في الأمة كلها.

فانتهى فقه أهل مكة إلى عبد الله بن عباس، وتلاميذه: عطاء، وعكرمة، وغيرهم.

وفي المدينة انتهى الفقه عند زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وغيرهم، وصبّ هذا عند الإمام مالك عن طريق فقهاء؛ كسالم، ونافع، والفقهاء السبعة في المدينة؛ مثل القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق.

يقولون:

إذا قيل من في العلم سبعة أبحر ... رواياتهم ليست عن العلم خارجة

فقل هم: عبيد الله عروة قاسم ... سعيد أبو بكر سليمان خارجة

فهؤلاء فقهاء المدينة السبعة الذين هم سادات التابعين وأكابر التابعين، وورثوا العلم عن ابن عمر وعن زيد بن ثابت، وتتلمذوا على يد هؤلاء الصحابة المدنيين؛ أي: **تمذهبوا بمذهب** عبد الله بن عمر وزيد بن ثابت،

وتمذهب تلامذة ابن عباس على مذهب ابن عباس، وتمذهب تلامذة ابن مسعود في الكوفة على مذهب عبد الله بن مسعود.

وصبّ علم أهل الكوفة عند أبي حنيفة؛ علقمة عن ابن مسعود وجماعة من تلاميذه، ثم إبراهيم النخعي، ثم حماد، ثم أبي حنيفة -رحمهم الله-.

مالك أخذ فقه أهل المدينة.

وأبو حنيفة أخذ فقه ابن مسعود وعلي -ﷺ-؛ لأنّ عليًّا كان في العراق، فهذا هو أساس فقه أبي حنيفة.

أما الشافعي فهو تلميذ مالك فأخذ الفقه المدني، وتلميذ ابن عيينة فأخذ الفقه المكي.

وأحمد بن حنبل أخذ فقه أهل المدينة.

والشافعي أخذ أيضًا فقه محمد بن الحسن، فقه أبي حنيفة.

أحمد بن حنبل أيضًا أخذ عن الشافعي، وأخذ عن عدد من العلماء في الكوفة؛ فأخذ عن أبي يوسف، وأخذ عن الشافعي، وأخذ عن المدنيين.

يقول علي بن المديني -رحمه الله تعالى- في (العلل): قال مسروق: شاممت أصحاب محمد -ﷺ-؛ فوجدت علمهم منتهيًا إلى ستة نفر منهم: عمر وعلي وعبد الله وأبو الدرداء وأبي بن كعب وزيد بن ثابت، ثم شاممت هؤلاء الستة فوجدت علمهم منتهيًا إلى رجلين: علي وعبد الله"، ويقول: "لم يكن من أصحاب النبي -ﷺ- من له صحبة يذهبون مذهبه ويفتون فتواه ويسلكون طريقته إلا ثلاثة..."؛ بمعنى أن علم الصحابة كله صبّ عند ثلاثة نفر الذين ذكرناهم، وهم: ابن مسعود في الكوفة، ابن عباس في مكة، وابن عمر في المدينة، وزيد بن ثابت أيضًا.

وفقه زيد بن ثابت صار عند ابن عمر، ليس من باب التقليد، ولكنه سلك طريقته، كما أن أحمد سلك طريقة الشافعي، ولكنه لا يقلد الشافعي. **والتقليد ليس عيبًا.**

وهذا الطور كانوا مجتهدين أصلًا، فهم ليسوا بحاجة إلى التقليد.

فأصحاب عبد الله بن مسعود الذين يفتون بفتواه ويقرؤون بقراءته هم: علقمة، والأسود، ومسروق، وعبيد السلماني، والحارث بن قيس، وعمرو بن شرحبيل.

وأصحاب هؤلاء الستة من أصحاب ابن مسعود: إبراهيم النخعي؛ وعنه أخذ حماد، ثم أبو حنيفة. وكان أعلم الناس بهؤلاء من أهل الكوفة: الأعمش، وأبو إسحاق. والأعمش أعلم الناس ممن مضى بهؤلاء.

ومن بعد هؤلاء: سفيان الثوري، وكان فقيهًا له مذهب، وهو من أعلم الناس بالحلال والحرام، ولكن مذهبه اندثر، وسنتكلم عن هذه القضية بعد قليل -إن شاء الله-.

ومن بعد سفيان: يحيي بن سعيد القطان، وكان يذهب مذهب سفيان وأصحاب عبد الله.

إذن؛ فقه الكوفة صار فقهًا أثريًّا ينتهي إلى ابن مسعود، الذي هو في الأصل فقه ينتهي إلى عمر بن الخطاب -ﷺ-؛ فابن مسعود كان يقلد عمر بن الخطاب.

وعمر أيضًا مذهبه أساس مذهب أهل المدينة، فهناك التقاء عند عمر.

وعلي بن أبى طالب -ﷺ- وهو من الخلفاء الأربعة الذين أُمرنا باتباعهم كان في الكوفة.

إذن؛ فقه أهل الكوفة **أثري** وإن كان فيه توسعات وأخذ بالرأي.

وأصحاب ابن عباس الذين يذهبون مذهبه هم: عطاء، ومجاهد، وعكرمة، وطاووس، وسعيد بن جبير... إلى آخره. ثم ذكر جماعة من تلامذتهم؛ كابن جريج، وسفيان بن عيينة.

ثم ذكر أصحاب زيد بن ثابت، ومنهم: سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار... إلى آخرهم، ولم يكن بالمدينة أعلم بهؤلاء من ابن شهاب الزهري، ويحيى بن سعيد، وأبي الزناد. وكان مالك هو أعلم الناس في مذاهب الصحابة في المدينة.

إذن؛ فقه مالك هو الممثل الرسمي لفقه أهل المدينة، وهي فيها معظم أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام.

أما الشافعي فأخذ عن مالك، وابن عيينة، ومحمد بن الحسن؛ فجمع فقه أهل المدينة، وأهل مكة، والكوفة.

وأما أحمد بن حنبل فهو أوسع من هؤلاء مجالًا؛ لأنّه أخذ منهم جميعًا.

التقاء المذاهب الأربعة يدل على أنّ المذاهب الأربعة لها سند متصل إلى النبي -صلى الله عليه سلم- ...".

- **سند متصل إلى النبي!**

المذاهب ليست آراء الرجال، وليست مضاهية لكلام الله وكلام رسول الله، بل هي "فقه الصحابة المجتهدين" في كلام النبي!

صب فقه الصحابة فيها بسند صحيح، وهم أقرب الناس عهدًا للنبي والصحابة، أخذوا العلم غضًّا طريًّا؛ عملاً ورواية ودراية وممارسة وتطبيقًا.

ثم جئنا نحن بعد 14 قرنًا نقول: نحن رجال وهم رجال!

بـل نعـاملهم ونعامـل اجتهـاداتهم كأنهـا "شـخبطة" سـاذجة هزيلـة خطهـا الصبيان!

أردنا تصفية علومهم والانتقاء .. ماذا؟!

تصفية علومهم والانتقاء؟!

لا أدري لمـاذا بـدت هـذه اللفظـة **مفزعـة** وأنـا التي طالمـا رددت أن منهجنـا التصفية والتربية!

تصـفية علـومهم والانتقـاء... أليس هـذا مـا يفعلـه العلمـانيون؟! مـا معيـار الانتقـاء والتصـفية؟ اتبـاع الـدليل؟ ومـاذا عـنهم؟ هـل اتبـع الأئمـة التـوراة والإنجيل؟ أم لهم دليل؟

إذن؛ معيار الانتقال لم يكن الدليل، بل كان: **فهمنا القاصر للدليل وبلا أهلية!**

نحن نخالفهم؛ لأن فهمنا يرفض .. **يرفض فهمهم للأدلة!**

ما الفرق بين رفضنا ورفض العلمانيين لما في فقه الأئمة إذن؟ ومن سنتبع إذن إن كانوا هم السلف؟

وكيف سنخالف إن لم يكن لدينا معيار .. أم أننا .. أعلم منهم، وفهمنا أولى من فهمهم؟!

بدهية مسلمة منطقية! **فكيف غابت عنا؟**

كيف قَبِلنا أن يقال من معاصرينا: ستجد من يقول لك مذهب الشافعي ومالك، ولن تجد من يفتيك على مذهب رسول الله!

كيف زعمنا أننا نتبع السلف رغم أن أسانيدنا منقطعة مبتورة بهذه الصورة؛ ونحن نختار ما شئنا، ونرمي وراء ظهورنا ما شئنا بغير معيار، ونتبجح ونسخر من عقولهم .. والحق أنهم أعلم وأحكم وأقوى عقولًا وأكثر ذكاء وزكاء!

كيف نزعم أن السلف أعلم وأحكم، ثم نجعل من أنفسنا الأعلم والأحكم ... **عمليًّا**.

يقول الشيخ

"وهل معنى ذلك أنّهم إذا اختلفوا **فالجميع صواب**؟ لا يدّعي أحد هذا، لكن هناك باب واسع وهو الاختلاف السائغ بين الفقهاء الذي لا ينكر فيه بعضهم على بعض، ويدَعون الناس يقلدون من شاؤوا منهم. فلما ألّف الإمام مالك -رحمه الله- موطأه الذي هو في الأصل كتاب حديث وليس كتاب رأي؛ جمع فيه الأحاديث التي عليها العمل عندهم. وطلب منه الخليفة هارون الرشيد وغيره من الخلفاء أن يعمِّم هذا الموطأ على المسلمين جميعًا... فإذا قيل لك الآن: كتابك الذي كتبته ستطبعه وزارة الأوقاف في قطر وسيوزع على الناس، ستشعر بالفرح بالتأكيد؛ لأنه ينشر في الناس السنة والعلم، ولكن الإمام مالك **رفض هذه الفكرة**؛ لأنّ أهل كل بلد انتقل إليه بعض الصحابة، وانتشرت أقاويلهم وأحاديثهم التي نشؤوا عليها؛ فليس من المصلحة الشخصية أن تشتّت هؤلاء إلى أقوال أخرى غير التي سبقت إليهم، فيقع في الناس اختلاف في الفتيا والقضاء وغيره، فهذا يفتح بابًا من التشتت والتشرذم واختلاف القلوب لا ينسد، أما العلماء فيعذر بعضهم بعضًا، وأما العامة فما لهم ولهذا أصلًا".

"إذن؛ الفقه الذي انتقل إلينا عبر المذاهب الأربعة هو **فقه أثري**، فهل كان قبل المذاهب الأربعة هناك تمذهب؟ نعم، كان هناك تمذهب بمذاهب الصحابة، وكان هناك اختلاف تنوع وليس تضادٍ في كيفية الصلاة والأذان.
إذن صار عندك تنوع في الفقه، واتساع في دائرة النظر، وتفاعل بين هذه المدارس الفقهية للترجيح... إلى آخره. لكن بقيت مدارس مختلفة، ومن أراد اليوم أن يجمعها على قول واحد، أو أن يحسم الخلاف، فهو يروم محالًا؛ لأنّ 1400 سنة مرت على الأمّة باختلاف، وليس اختلافًا مذمومًا، ولكنه الاختلاف المحمود الذي أذن الله فيه، وأذن رسوله -ﷺ-، وأجمع عليه المسلمون.
أما أنّ الله أذن فيه؛ فلأنّ الله -عز وجلّ- لو أراد أن يتكلم بكلام فصل بيّن نصّ لا يحتمل إلا معنى واحدًا في القرآن كله لتكلم الله بذلك، مثلًا لماذا لا يقول: والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة أطهار أو ثلاث حيض؟ لكن قال الله تعالى: {ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ}؛ فيأتي العلماء ويختلفون، وأرادهم الله أن يختلفوا إرادة كونية لا محالة؛ لأنّها وقعت، وشرعية أيضًا لأنّ الله تعالى يحب ذلك؛ لأن الاختلاف فيه توسعة على الأمّة، وفيه رحمة للمكلفين، وفيه أجر يناله المجتهد لفهمه لهذه النصوص، والمقلد الذي ابتعد عن هواه وقلّد من يثق فيه من أجل دينه".

"لكن الصحابة **مجمعون** على تسويغ الخلاف، ومن يريد الآن أن يحسم الخلاف ويجمعه على قول واحد؛ فهو بذلك يعاند السنن الكونية والشرعية، ويخالف إجماع المسلمين بتسويغ هذا الخلاف. **لكن الخلاف نوعان: خلاف سائغ، وخلاف غير سائغ**".

"وهناك بعض الناس من يريد أن يقيم مقارنة بين فقه الدليل وفقه المذاهب الأربعة، وقبل ذلك نقول: إن الله كما أراد أن يحفظ أحرف القرآن في المصحف العثماني؛ كذلك أراد أن يحفظ الفقه في المذاهب الأربعة، هناك علماء كالأئمة الأربعة بل وأعلم منهم، لكن اندثرت مذاهبهم؛ كالحسن البصري، والأوزاعي وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والليث بن سعد، فهم منقول عنهم قول هنا وقول هناك، ولكن ليس مذهبًا محررًا مستقلًّا له خدمة وحواشٍ وشروح وتتعاقب عليه العقول... إنما أراد الله أن يحفظ الفقه في المذاهب الأربعة، ومنذ القرن الخامس الهجري تقريبًا والأمة لا تعرف سوى المذاهب الأربعة، والمذاهب الأربعة مذاهب مستندة على فكر الصحابة -رضي الله عنهم-".

"فعندما نقول إنّ الفقه مستند إلى الأدلة؛ فنحن نريد هذا، وأنت بعقلك الضيق تريد أن تقصّره على الكتاب والسنة فقط، بل تريد أن تقصّره على صريح الكتاب والسنة وتضيع القسط الأكبر الذي هو محتمل؛ لأنّه بالنسبة لك ليس دليلًا؛ لأنك تريد أن يكون الدليل واضحًا كالشمس في رابعة النهار، أما دقائق الاستنباط فليست موجودة عندك.. فحْوى النص أيضًا غير موجود. إذن فقه الأئمة مستند إلى دليل بالمعنى الأعم".

"فيأتي شخص ويقول: لمَ لا نقلد الصحابة ولا نقلد الأربعة، ونأخذ مما أخذ منه الصحابة؛ مثل فقه أبي بكر الصديق، أو فقه عمر؟ فنرد عليه بقولنا: إن هذه **المذاهب صبّت** في المذاهب الأربعة، والعلم لم يُنقل كله مكتوبًا بل نقل بعضه مشافهة؛ فتقرأ في الكتب أحاديث وآثار ليس عليها العمل وهُجرت، وأجمع المسلمون على خلافها، وتجد أحاديث أسانيدها ضعيفة وعليها العمل كما يقول الترمذي؛ لأنّهم كانوا يأخذون العلم من شيوخهم،

وهناك سنن عملية تنقل، وهناك توريث للعلم الظاهر، وإنّ هذا هو الصحيح في طريقة العمل. وأيضًا مذاهب هؤلاء نقلت إلينا متفرقات؛ فالقول المطلق لن تجد له تقييدًا، لكن ستجد له تقييدًا عن الشافعي مثلًا من قولٍ نقل إليه ولم ينقل لنا.

فهذا أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث بضم الآثار؛ بالموقوفات، والمرفوعات، وتعدد الطرق... إلى آخره. فقالوا له: من يحفظ مائة ألف حديث يفتي؟ قال: لا، قالوا: من يحفظ مائتي ألف حديث يفتي؟ قال: لا.

فأحمد بن حنبل الذي يقول: "لا تقلدني ولا تقلد مالكًا، ولكن خذ من حيث أخذوا"؛ كان يكلم هنا أبا داوود، وهو مجتهد مثله. هو لا يخبر أحد العوام بأن لا يقلّده ويأخذ من حيث أخذ، فهذا يخالف قول الله: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ}.

وعندما سُئل عن الرجل يحفظ 300 ألف حديث هل يفتي؟ قال: لا، ثم: 400 ألف حديث؟ فحرك يديه؛ أي: أرجو، أو من الممكن أن يفتي.

وإذا جمعت الكتب الستة والزيادات عليها ومسند أحمد وغيره؛ لا تتعدى المائة ألف حديث أصلًا، فهناك أحاديث كثيرة لم تصل إلينا، وما وصل إلينا إنما هو الخلاصة، وكان الناس يحفظونه ويتناقلونه في طور من أطوار التقليد، وانتهى عمل الناس إلى هذه المذاهب الأربعة.

وشيخ الإسلام يقول: عامة الشريعة لا يخرج الصواب فيها عن المذاهب الأربعة، وبعد ذلك أنت تتكلم في آحاد المسائل لا يدركها إلا أفذاذ العلماء.

فعندما تقول: قال أبو بكر كذا، فمن أخبرك بأنّ قول أبي بكر هذا ليس له تقييدٌ، أو ليس له تخصيصٌ، أو ليس منسوخًا مرجوعًا عنه، أو لم يخالفه غيره من الصحابة، أو كان الراجح في قول غيره؟ فمن يعلم هذا الكلام؟ إنّهم الأئمة الأربعة بمذاهبهم الأربعة.

فلذلك نحن لا نقول: إن تقليد الشافعي أولى من تقليد عمر -رضي الله عنهم- من حيث هو، **لكن من حيث الواقع**؛ حيث إنّ مذهب عمر وغيره من الصحابة صبّ عند الشافعي وغيره من الأئمة الأربعة، وحيث إن المنقول عن عمر وغيره من الصحابة ليس كاملًا ولا وافيًا ولا مذهبًا واضحًا بأصوله وفروعه وتقييداته وتخصيصاته، بخلاف المذاهب الأربعة.

إذن؛ صارت النتيجة بأنّ **السلامة في تقليد المذاهب الأربعة**، وبالتالي الدعوة إلى هذا؛ فهي في الحقيقة دعوة إلى الفقه الأثري أو فقه النصوص في الحقيقة".

"أتكلم تحديدًا الآن على ما يردده بعض الناس في هذه الأيام: أنّ عندنا فقهًا للدليل، وعندنا فقهٌ مدوّن في كتب الفقهاء؛ وهذا غلط كبير، وجرأة على أهل العلم، ولو قيل لك: إنّ فلانًا من أهل العلم المعاصرين الذين لهم ذكر حسن في المسلمين، ويُعرف عنهم التمسك بالكتاب والسنة، أيّ اسم، لن أسمي شخصًا لئلا نفتح أبوابًا... لكن تصوّر أنت الآن في ذهنك أكثر من تعظمه من المعاصرين، هل تتصور أن هذا الشخص يتكلم في دين الله بلا دليل؟ لو تصورت هذا التصور هل تعرف ما معناه؟ لو كان هذا الرجل فعلًا حقيقته أنّه فعلًا يتكلم في دين الله بلا دليل، ماذا يقال عنه؟ فاسق أم لا؟ هذا أقل شيء، يقال عنه فاسق إن لم يكن أكثر، متعمدٌ إضلال الناس، متعمدٌ أن ينسب إلى الشرع ما ليس منه، مفترٍ على الله الكذب، أليس هو الذي يتكلم في الدين بلا دليل؟

فكيف تجرؤ أن تقول: إنّ أبا حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل؛ الذين لهم قدم الصدق في الأمة، رفع الله ذكرهم، وأبقى أثرهم، وأجمع المسلمون على إمامتهم، وتأتي أنت وتقول: لا دليل على كلام فلان وفلان!

فالحقيقة أنك أنت الذي لم تعرف دليل هذا الإمام، وليس هو من تكلم بلا دليل".

"تجده يحجّ فيمسك كتابًا في الحج عن المناسك عند الحنابلة، والناس تزعل منه، ويقولون له: ما هذا الذي تمسكه؟ فيرد: إذن من أين أتعلم المناسك؟ فيردون: إدارة الإفتاء لديها كتاب عن المناسك!
السؤال هو: ما الفرق إذن؟ هذا كتاب وهذا كتاب، الفرق في ذهنك وليس في الخارج، أنت الذي صنعت فرقًا. طيب أنا سأترك كتاب الخلوتي وآخذ كتاب المناسك الذي ألّفه الشيخ ابن باز؛ الإيضاح، هل هناك مشكلة؟ لو وجدتني ممسكًا بكتاب الإيضاح وأحجّ بناء على ما في الإيضاح لكثير من مسائل الحج والعمرة والزيارة، وهو كتاب مشهور، أو المنسك الذي كتبه فلان أو فلان، أو المنسك الذي توزعه دار الإفتاء في السعودية؛ هل هناك أحد سيعترض على فعلي هذا؟ إذن لماذا الاعتراض على إمساكي لمنسك الإمام النووي؟ أو منسك الخلوتي؟ أو منسك أي عالم من العلماء؟ ما الفرق إذا كنت سأتعبد لله بالذي كتبه عالم؟ أنا لم آخذ منسكًا كتبه جاهل، فما الفرق عندك؟".

"ولمعرفة متى يكون المرء مجتهدًا؛ قلنا بالأمس: يرجع إلى كتب الأصول، في مبحث الاجتهاد والتقليد. بعض الناس يقول لك: ولكنهم وضعوا شروطًا تعجيزية، لا تتحقق في أبي بكر وعمر، **أمسِك رحمك الله!** فأنت تشتم أبا بكر وعمر، وتقول: لا تتحقق في أبي بكر وعمر، وتدّعي أنّك رجل سلفي، ومعظِّم للسلف!
فهم عندما وضعوا شروط الاجتهاد؛ هل كانوا يقولون لم يوجد مجتهد في الأمة، أم كانوا قد استقرؤوا حال المجتهدين وقالوا هذه هي الشروط؟ يعني:

وجدوا هذه الشروط في أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، وقالوا: هذا هو المجتهد. ليست شروطًا تعجيزية... لأنّك أنت قاصر عن هذه الرتبة، فأنت تظن أنها لا تتحقق! صحيح أنّها ليست غالبة على الناس، ولكن هذا قدر الله، والأمر ينقص زمانًا بعد زمان، ولكنها موجودة ومتحققة، وتحققها في الصحابة أكبر من تحققها فيمن بعدهم، إذن هي ليست تعجيزية، وإلا أحمد بن حنبل كما ذكرنا في المحاضرة السابقة لما قال: "من لا يحفظ ثلاثمائة ألف حديث فلا يفتي"؛ هل كان أحمد يُعَجِّز الناس؟ أم أنّه هو نفسه كان يحفظ مليون حديث؟ إذن حفظ المليون كان ممكنًا أم شيئًا تعجيزيًّا؟ كان ممكنًا ومتحققًا كما نرى، ولكنّه لم يكن كثيرًا، وهذا هو المطلوب إثباته، هذا قدر الله، خلق الإنسان يصلح أن يكون مجتهدًا، لكن ليس كل أحد يمكن أن يكون هكذا في الواقع، وإلا لخرب العالم، لأنّ العلم محتاج إلى تفرّغ وعقلية، وليس كل الناس سيكونون أطباء ومهندسين ولا علماء في الدين، والعلم في الدين ليس فتح المكتبة الشاملة أو الدخول إلى جوجل والبحث فيه، ولا أن تقتني مكتبة كبيرة وتقرأ فيها، أو تحفظ ما فيها!

رُبَّ إنسانٍ ملأَ أسفاطَهُ ... كُتُبَ العلمِ وهو بعدُ سُخُطْ

فإذا فتّشتَه عن علمِهِ ... قال علمي يا خليلي في السَّفَطْ

بكراريسَ جيادٍ أُحرِزَتْ ... وبخطٍّ أيّ خطٍّ أيّ خطْ

فإذا قُلتَ له هاتِ إذاً ... حكّ لحيتَه جميعاً وامتخطْ

خلاص الرجل لم يستطع أن يكمل، لو انقطعت الكهرباء لن يستطع أن يصل إلى المعلومة؛ لأنّ الشاحن فصل، أما الإمام أحمد بن حنبل فحفظ ألف ألف حديث مع التفقّه. أصلًا حفظ ألف ألف حديث لا يكفي لأن

تكون مجتهدًا؛ لأنّه شرط واحد من الشروط، الأصوليون متساهلون بالنسبة إلى الإمام أحمد، هم اكتفوا بحفظ أحاديث الأحكام، مع أنّهم قالوا: **لا يفتي إلا مجتهد**.

من حفظ الكتب التسعة، كل الكتب المطبوعة في زمانه؛ محفوظاته لن تبلغ عُشْر ما حفظه أحمد بن حنبل، ومع ذلك هذا **علي بن المديني**، شيخ الإمام البخاري ، وكان البخاري لا يحتقر نفسه أمام أحد من شيوخه إلا علي بن المديني، هو ليس مجرد عالم حفظ، هو من أئمة النقد الحديثي، وله كتاب معروف في العلل، يعني هو من مراجع المسلمين في باب التعلل- يعرف أنّ الحديث هذا صحيح أو ضعيف، حتى ولو كان ظاهره الصحة يأتي لك فيه بعلة خفية... يعني إذن عالم بعلم الحديث وبالقرآن من باب أولى، ومع ذلك يقول لك: **"أحمد بن حنبل حجّة بيني وبين الله"**، هو أصلًا **قرين** الإمام أحمد، والمعاصرة يمكن أن تسبب بعض الغيرة، ونحن نقلد الإمام أحمد؛ لأنّه ليس في زماننا، فنحن مبهورون به، ولكن الإمام علي بن المديني معاصر له، ومع ذلك يقول عليه: سيدي أحمد بن حنبل، أمرني سيدي أحمد بن حنبل ألا أحدث إلا من كتاب، يقول: "إذا لقيت ربي فسألني عن مسألة؛ لم أبالي إذا قلّدت فيها قول أحمد على أي وجه كان".

أعمَلَ مقدمة؛ **أحمد عالم، والله تعالى أمر بسؤال أهل العلم**، ومن سأل عالمًا بَرئَت ذمته؛ فمن سأل أحمد برئت ذمته.

لو سلّمت بالمقدمتين؛ فالنتيجة قطعية؛ فابن المديني قال: **أنا من حفّاظ الحديث، ولكني لستُ فقيهًا.**

فحفظ الحديث ليس هو الفقه، وإنما بعض أدوات الفقه، وهناك أدوات أخرى أهمها بعد الذكاء الفطري -وهذا ليس كل الناس يرزقونه-: العلم باللغة العربية، بأن تكون مجتهدًا في اللغة التي هي شيء واسع، وليس قراءة

الآجرومية، وألفية بن مالك، وقطر الندى، وتقول: "أنا كده خلاص"، ويا ليتك قرأتهم، ومع ذلك فليس هذا كافيًا؛ لأنّ علوم اللغة أوسع من هذا بكثير. الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- يقول: كتبت في اللغة العربية أكثر مما كتبه أبو عمر بن العلاء، هذا الإمام الكبير من أئمة اللغة في البصرة، الشافعي قضى عشرين سنة -وهو متوفى عن أربعة وخمسين سنة- يتعلم اللغة العربية من العرب في البادية، يتعلم منهم أشعارهم لأجل الفقه؛ لأنّ القرآن نزل بلغة العرب أصلًا.

أنت رجل لا تستطيع أن تعرب آية إعرابًا صحيحًا وتكلّمني في الاجتهاد؟ وهذا النحو الذي هو فرع من فروع اللغة الاثني عشر".

- ....

.....

.....!

لم يكن هذا كافيًا ليتحول عقلي من السلفية المعاصرة إلى سلفية الأئمة الأربعة!

لكني خرجت من هذه المحاضرات بالآتي:

1- نحن عندنا سوء تصور عن التمذهب والمذاهب .. عندنا مشكلة كبيرة جدًّا ربما لم أحط بعد بأبعادها؛ بل أجزم أنني لم أحط بعد بأبعادها!

2- فقه المذاهب فقه دليل! يا للعجب!

3- نحن ثلة من الحمقى المستكبرين الجهال!

نفتي ونجتهد بلا أهلية، ونقدم المعاصرين على السلف، ثم ندعي السلفية! نحن مظاهر منتفخة بلا علم ولا جواهر.

4- أحتاج إلى دراسة مذهب .. أحتاج إلى ذلك بشدة.

5- أحتاج إلى المزيد في: مسألة التمذهب، تقليد مذهب واحد، تقليد المذاهب الأربعة!

6- عندي الكثير من الانهيار والشعور بالضياع وعدم الأمان .. الكثير جدًّا!

7- عندي الكثير من عدم التوازن .. الانكسار .. أريد أن أنام فلا أستيقظ أبدًا .. أو أستيقظ من هذا الكابوس البشع .. لا أريد أن أصدق أن كل هذا حقيقيٌّ، وأنني قضيت عشرين عامًا موغلة في الصحراء بلا زاد .. وأنني ضللت الطريق الصحيح!

أحتاج أن أسمع غير الشيخ محمود عز الدين![1]

هذا الرجل يقول كلامًا غريبًا، وأسلوبه حاد جدًّا ومؤلم وجارح!

هذا الرجل يشعرنا أننا حمقى مغفلون .. وأنا أرفض أن أكون بهذه الصورة والأسهل ... الأسهل أن يكون هو مخطئًا، ومن سعة صدري ورحابة أخلاقي سأعذره!

كن مخطئًا يا سيدي، وأعدك أن أعذرك و أتعامل معك بحلم وحسن خلق .. كن فقط مخطئًا!

لن أستطيع أن أواجه نفسي إن كنت على صواب .. هذا فوق طاقتي .. هذا فوق احتمالي ..

لا يمكن أن يكون كل مشايخنا الكبار الذين احترمتهم ورفعتهم فوق كل الأمة مخطئين، و أنت على صواب!

- لكن مشايخكِ جعلوا كل أئمة الدين وفقهاء الأمة على خطأ؛ بقصد أو بدون قصد!

- لكنني وثقت بهم، سلمتهم عقلي، لا تُسفِّه عقلي يا سيدي ... كيف أقف أمام المرآة وأنظر لنفسي؛ فأكتشف أنني وقعت في فخ ظننت أنني أفر منه؟

لا يمكنني أن أصدق أنني بهذا الغباء، بهذا الـ الـ .. لا أدري! لا أريد أن أصدق أصلًا، أنت تنسف أعوامًا مديدة من الدعوة...

لا تحضرني إلا صورتي وأنا في المسجد النبوي أحدث من أعرف ومن لا أعرف عن فقه الدليل، وصورتي وأنا أنهى عن المنكر وآمر بالمعروف السلفي!

تريد أن تأتي في لحظة فتخبرني أن عمري ضاع؟ وأن ما ظننته ثوابًا وفي ميزان حسناتي هباء منثور؟[2]

---

[1] **هام جدا تنبيه وتوضيح مكرر** نقلي عن أي شيخ أو كاتب لا يعني أنني أتفق معه إلا فيما نقلت عنه

[2] الله أرحم بنا منا، ولكن هكذا نفكر -معاشر السلفيين- للأسف!

أنا لازلت سلفية أعتقد جزمًا أن النية الصالحة لن تصلح عملي الفاسد السابق؛ فكيف سأسامح نفسي؟

كيف سأعتذر لكل هؤلاء الذين أفتيتهم بغير علم؟؟

كيف أقف أمام من أنكرت عليهم لأقول لهم في حرج: لقد كنت مخطئة؟

كيف جعلتني أرى نفسي بوضوح إنسانة متكبرة؛ غمطتُ الأئمة والفقهاء قدرهم، ورفعت نفسي في رتبة ليست لي بعُجب .. وأنا التي تفر من الكبر، وتعظ الناس في أمراض القلوب؟

أنا التي نظرت في مقالاتي يومًا فقلت: انشري -وفقك الله وسدد قلمك-؛ فليس فيما قلت شيءٌ تندمين عليه يومًا .. هذا من مهمات الدين، ومما لا يختلفون فيه!

أتجعلني أنظر لنفسي اليوم وما كتبت نظرة دونية؟

هلا جعلتَ الأمر خلافًا سائغًا بين السلفية المعاصرة وسلفية التمذهب .. يعني: هناك طرق، ومنها السلفية، فقط نطور السلفية، وتتسع الآفاق، وندرس مذهبًا أو مذهبين، وفقهًا مقارنًا، وأصول فقه، ونرجح!

نعم، هذا حل جيد...

الآن يمكنني أن أتصالح مع ذلك الوحش المتنمر بداخلي، وأن أنظر إلى نفسي في المرآة دون أن أخشى أن تمتد يدها إلي فتفترسني!

لن أحتمل الحقيقة دون رتوش ولا تجميل...

لازلت سلفية مخلصة .. نحن نتبع الدليل .. المذاهب فقه الدليل .. السلفية فقط عندها شيء من الإشكالات... تنصلح، وسيكون كل شيء على ما يرام كل شيء على ما يرام..

كل شيء بخير..

أنا بخير.. أنا إنسانة جيدة وبخير!

أكتوبر 2015

رسالة إلى الشيخ كريم:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

شيخنا الفاضل الكريم:

كنت أرسلت لكم من مدة سؤالًا عن استدلالي بقصة أصحاب السبت لتحريم التشقير؛ أعترف أن هذا جهل وحماقة، وأعتذر عن ذلك، ويعلم الله أني لم أتهم أحدًا من العلماء بمدلول الآية، ولم أنكر على من تفعله... لكن يكفي أن الاستدلال -ولو كنتُ فيه مقلدة لبعضهم- يحوّل مسألة خلافية واجتهادية لمسألة عقدية، وقد يُفهم منها تعريضٌ ببعض أهل العلم. ووالله حتى لم أعد أدري هل هذا صواب أم لا؟فكثير مما كنت أظنه مسائل خلاف غير سائغ أو له تعلق عقدي، ظهر لي أنني درسته بطريقة خاطئة، أو على الأقل أحادية متعنتة.

أشعر بعدم توازن، وكثير من الضيق والحيرة والإحباط، وكل المشاعر السيئة التي أجلت ظهورها حتى أستوعب بعض الأمور، فلما تيقنت؛ ظهرت...

وشكر الله لكم رفقكم بي، وإن كنت أريد إن رأيتم مني رعونة أو تعالمًا أن تصرحوا بذلك فهو أرفق بي. وإن شاء الله أستمر في الدراسة معكم للفقه، وإن كنت أظن أني سأترك التدريس والكتابة قريبًا جدًّا، والله يغفر لي.

رد الشيخ:

"العفو منكم بنتي سارة، لا داعي للاعتذار، ربنا يكرمك ويحفظك ويسعدك ويبارك فيك. وأنا فخور بكم، وأنت نعم الطالبة، ولم ولن أظن بك إلا كل خير، وأتشرف بخدمتكم ومساعدتكم.

وأحب أن أطمئنك إلى أن هذه المرحلة التي مررتم بها مر بها أكثر طلاب العلم السلفيين في مصر، ولا سيما من درس الفقه على يد معلم لا يلفت نظر الطلاب إلى مسائل الإجماع والخلاف ولا يربيهم على احترام الرأي الفقهي المخالف، ويعتبر أن الأخذ بأشد الأقوال في كل مسألة علامة على التقوى والصلاح، وأن من لم يشدد كتشديده مميع ومتهاون في الدين؛ خاصة في قضايا لباس الرجل والمرأة وزينة المرأة وما أشبه ذلك من مسائل تتعلق بالمظهر تم تضخيمها بطريقة مبالغ فيها على حساب قضايا أعظم منها أهمية، مما أدى إلى ما نراه من طاماتٍ من يدّعون أنهم سلفيون، وهم في حقيقة الأمر أبعد ما يكونون عن هدي السلف ومنهجهم الصحيح.

فاطمئني -إن شاء الله- أنك كلما تعمقت في دراسة الفقه والأصول؛ كلما اتسع أفقك وذهبت حيرتك واطمأنت نفسك.

وأنا بدوري أرجو منك المسامحة على تقصيري معك، وأرجو المسامحة لو كنت ضايقتك في أي كلمة صدرت مني، فأنا دائمًا أدعو لك بكل خير، وخصصتك بالدعاء في عرفات وفي الحرمين، أنت وأسرتك الكريمة، وأنا أقدّر الدور الكبير الذي تقومين به في الدعوة إلى الله، والخير الكثير الذي أجراه الله على يدك،

ربنا يعزك ويعز بك الإسلام والمسلمين ويسعدك ويرضى عنك.
(....) ربنا يزيدني وإياكم علمًا. وشعور الإنسان بجهله علامة على زيادة علمه، فاستبشري خيرًا، قال الإمام الشافعي -رحمه الله-: كلما ازددت علمًا زادني علمًا بجهلي".

نوفمبر 2015

رسالة إلى رحمة؛ زوجة الشيخ أبي أنس!

- "السلام عليكم، عندي أسئلة مستفزة شوية في الفقه[1]، هو ممكن تتوسطي وتسألي الشيخ أبي أنس، ويتسع صدره شوية أو شويتين أو ثلاثة؟ معنديش مانع يكون فيه تهزيء، هستحمل، بس مع إجابات مقنعة... الأسئلة مش فقهية فرعية، يعني مش في لب المسائل إلا على سبيل ضرب مثال، أنا تعبانة جدًّا، ومش هعرف أتواصل مع حد مباشرة".

- "وعليكم السلام، ابعتي -حبيبتي- وأعرضُها عليه".

- "ربنا يصبركم...

هو دلوقت اللي بيتعلم على مذهب، ليه مضطر يقلد كل كلام المذهب في الحاجات اللي هي عقلية كدة زي كلام أهل الكلام في العقيدة؟

آه هم مستدلين عليها بأدلة، بس فيه حاجات مش بتخش الدماغ يا رحمة، تعبتني بجد...

يعني النية في الوضوء عند الحنابلة لا تجوز أنها تكون: "أنا قايمة أتوضأ"، لازم أنوي رفع الحدث أو استباحة الصلاة!

يا سلام، ولما أنوي أتوضأ إيه المشكلة يعني؟

---

[1] كل ما ورد من أسئلتي هنا كانت سوء فهم لفقه المذاهب وكلام الفقهاء!

حتى أسئلتي عن المذهب الحنبلي الذي كنت بدأت دراسته... لهذا نقول ونكرر دراسة مذهب بسطحية لا يصنع طالب علم.

اليوم وأنا أشرح بفضل الله تعالى المذهب الحنبلي وأردعلى هذه الشبهات التي حالت بيني وبين دراسة الفقه سنوات أدرك كم الظلم الذي ظلمناه لأنفسنا.. وكم البعد عن نور العلم.

الكلام عن الحيض والاستحاضة الصراحة مش عاوزة أقول ليه ميكونش أقل من يوم وليلة؟ يعني ما هم قالوا برضه أنه بيحصل ولو كان نادرًا، بس بيحصل!! يبقى ليه نعمل قاعدة عامة؟ ده الحيض بالذات كل واحدة ولها حكاية!!!

أنا مش عارفة... هو أنا بحترم العلماء وشاكرة لهم جهدهم، بس مستغربة من شوية مسائل، وبتخنق لما ألاقي حد بيقول أنه طالما احنا جهلة نقلد، وإننا لما نبقى عندنا علم نبقى نرجح... ماشي، بس فيه حاجات أنا شايفة بعيني أنها مش دقيقة.

طب إذا أنا مش داخل مخي الكلام ده، وماشي أنا جاهلة، ازاي أقلد وأنا مش مقتنعة بالكلام ده؟ والكلام ده أدلته عقلية وتنظير وتفريع أكثر من أنه أدلة نصية، وعلاقته بالنص بعيييييييدة أوي... أنا شايفة بعيني أنه مش دقيق؟؟

زي موضوع الماء المشمس عند الشافعية، وأنه بيجيب البرص، كده يعني برضه، ولو الشيخ اللي بيشرح رجح خلاف المذهب ما هو هنقول يعني هو أعلم من علماء المذهب؟؟

مش عارفة عبرت عن اللي في نفسي ولا لأ، ومش عارفة ده سؤال عادي ولا أنا كدة ضالة مضلة :((".

- رسالة مني إليها بُعَيد السابقة قبل الرد:

"السلام عليكم، خلاص سُكي على السؤال، أنا كنت متأثرة من مجموعة شرايط سمعتها من شيخ مذهبي أووووي، حسسني إن احنا متخلفون عقليًا! هو بصراحة السؤال سيئ، بس والله يا رحمة لازلت تعبانة جدًّا، نفسي أكلمك أحكيلك... لازلت متأثرة، بس أهون الحمد لله، أقسم بالله تراودني

نفسي بشدة إني أحذف صفحات الفيس بوك والمقالات والدروس واعتزل تمامًا.

منهارة:(((".

- "أعوذ بالله! أي طالب علم بيمر بفترات كده حبيبتي، بس أوعي تعتزلي وتنطوي، مش هترتاحي".

- "تصدقي، أصبح الصبح عازمة على الاعتزال، بالليل أهيص شوية، الصبح عزم من جديد! يا رحمة، فيه ناس تعبتني بجد، هم على علم كبيير جدًّا، بس أسلوبهم سبب لي وسوسة :((

أنا غالبا مش بجاوب فقه، و"لا أعلم" في بقي...

أقولك وصلت لفين؟؟

واحدة سألتني: ينفع أمسك إيد خطيبي واحنا دخلين قاعة الفرح عشان نكتب الكتاب؟ قلتلها: لا أعلم"!

تلك الطالبة على صفحتها ترد بقوة وحِدّة على من قال إن النقاب

ليس فرضًا.. كان في كلامها تنقُّص ممّن قال إن النقاب مستحبٌّ.

تكلمتُ معها على الخاص، وشرحت لها أن الخلاف سائغ، وأنه لا ينبغي تناوله بهذا الأسلوب، فردت ردًّا ينم عن جهل وسوء أدب .. فمنحتها "البلوك" عن طيب خاطر!

ثم وجدت رسالة من اسم يشبه اسمها في بريدي، فيه إجابات اختبار متن من المتون، فسألتها أأنتِ فلانة التي قالت كذا؟

فردت مرة ثانية بجهل وسوء أدب...

قلتُ لها: إنني أشترط مع الاختبار في المتن للحصول على الإجازة أن تكون الطالبة مهذبة مع أهل العلم، وألا تكون متعصبة، وأن تتقبل الخلاف السائغ؛ وبالتالي فقد خالفتِ شروطي في الإجازة، ولن أنظر أصلًا في الاختبار.

ꕥ

خلعت نورة النقاب!

نعم، هكذا بدون مقدمات بالنسبة لي ولكم .. أبلغتني أنها ستخلع النقاب أو خلعته، وأنها لن تخبرني بالسبب.

أردت أن أطبق ما أقرره من قديم أن الخلاف في النقاب خلاف سائغ، وأن الصداقة لا تعني اقتحام الخصوصية ومعرفة السبب الذي دفعها لخلع النقاب؛ فأبديتُ لها أن الأمر سهل -إن شاء الله-، وأن هذا لن يؤثر على علاقتي بها.

لكن الحقيقة أنني كنت أشعر بغصة وعصرة في القلب .. هي عندي ليست كغيرها.. تخلع النقاب؟ ستكون مختلفةً عني .. أنا لم أر يومًا أن الأسود مستحبٌّ حتى! لكني كنت أتمنى أن ترتدي نقابًا أسودَ .. وسعدتُ جدًّا حين ارتدت نقابها الأسود.

لماذا و أنا لا أراه مستحبًّا؟ أين الخلل؟

لماذا هذه الغصة والعصرة في قلبي وأنا أعلم أن الخلاف سائغ في النقاب، وأن عندها أسبابًا حقيقية فعلا؟ والبلد تمر بظروف سيئة جدًّا على جميع الأصعدة، وكثير لا يتحملون الوضع والاضطهاد وما هو أشد من ذلك، وكلكم يعرفه!

أقنعتُ نفسي بكثير من التعسف أن هذا لأنها تركت طاعة، وأن حزني على ترك أي مسلم لطاعة هو أمر جيد..

لكن هذا غير حقيقي! وأنا أعرف أن هذا غير حقيقي .. أنا حزينة لأنها لم تعد منا .. لقد صارت مختلفة، نحن في قوقعة من الغربة، وقد خرجَت هي الآن من القوقعة .. لكنتُها وأسلوبها والطريق الذي تسلكه ... لم تعد من "الأخوات"!

هل تصدقون أنها تركت العلم الشرعي وصارت متخصصة في نوع علاج نفسي؟!

كيف تكون سلفية وتترك العلم الشرعي؟

وهذه آفة آخرى!

نحن نرتبها هكذا:

منتقبة سلفية، مختمرة سلفية، طالبة علم، أهل فتوى، قدوة صالحة، فعلها حجة، عليها تكاليف أعلى من العامة، وساقط عنها تكليف لم يسقط عن العامة!

غير السلفية ولو كانت طالبة علم فهي ليست قدوة، ولا فعلها حجة، ولا علمها بشيء، وليست أهل فتوى!

ألسنا أتباع السلف وأهل التصفية والتربية ومن رفع راية السنة وعلم الناس الحق والاتباع؟ ألسنا متبعي الدليل؟ من غيرنا أحق بهذه الرتب؟

هذا المرض ... هذه الآفة التي لم أكن أراها في قلبي!

أتعلمون!

كنت من أكثر الناس ترديدًا أن المنتقبات والملتحين ليسوا حجة على الإسلام؛ لأن الحق لا يعرف بالرجال...

كنت أردد أننا بشر نخطئ، ولا تحاسبونا بغير ما تحاسبون به عامة المسلمين.

كنت أردد أننا لسنا خاصة، ولكننا عامة وبشر، ولسنا غير المسلمين.

كنت أردد أني أكره كلمة ملتزم وملتزمة، وأني أبغض كلمة أخوات وإخوة ...

كنت أردد أننا كلنا سلفيون ... الأمة كلها سلفية؛ لأننا متبعون للسلف الصالح، ولأن السلفية هي أهل السنة والجماعة.

ولكني كنت أرانا قدوة .. وكنت أحيا داخل القوقعة .. وكنت أخاطب الأخوات والإخوة، وأتكلم عن العامة، وقد انطبع في ذهني أن العامة غير السلفيين، أو غير الإسلاميين، وأن طلبة العلم هم السلفيون!

أنا لم أتخيل يومًا أنني بهذا القدر البشع من التناقض، وأنا التي لا يهدأ عقلي إلا بالاتساق مع النفس وترتيب الحقائق .. أنا التي كنت أحرص أشد الحرص على انطباق باطني مع ظاهري! كيف يخدع الإنسان نفسه بهذه الصورة؟!

كل هذه التداعيات بسبب هذا الشيخ وكلامه المنطوق والمكتوب..

لقد وضعني في مواجهة مع نفسي ... مواجهة قاسية جدًّا، إعصار يضرب جوانب نفسي فيدمر الأخضر واليابس بلا رحمة!
راودتني نفسي كثيرًا أن أضغط على "البلوك" لأرتاح من كلامه .. فكنت أكتفي بالضغط على عدم المتابعة، ثم إنني أبحث عن اسمه وأدخل فأقرأ كل شيء في فضول شديد! لا فائدة!

ꕥ

كانت نورة تمر بأقصى درجات الألم، لم أكن بجانبها، ثارت الأخوات عليها ما بين موبخة ومقاطعة لها حتى تعود إلى رشدها وترتدي النقاب ..
تكلمتُ معها، وقلتُ لها أنني تغيرت، لم تفهم أنني تغيرت .. وفعليًّا أنا لم أكن تغيرت، أنا سلفية .. امتداد للسلفية .. في وضع من عدم التوازن والانهيار والشعور بأن هناك مشكلة .. أناوش فقط هنا وهناك!
أخبرتني ببعض ما حدث معها، وأخبرتني أنها ترتدي حجابًا جيدًا لكن ليس على هيئة الحجاب السلفي .. ليس عباية ولا خمارًا، ولا الحد الأدنى الذي "نفتي" أنه جائز ولو على مضض.
أنتم تعلمون أن ارتداء (الجاكت البالطو) أو الشال على الخمار بحيث يحدد الكتفين؛ هذا غير مقبول في فتاوانا -معاشر السلفيين- غالبًا .. ومن تفعله فقد اتبعت خطوات الشيطان، "وربنا يهدي"!
بون شاسع بين "ورعنا" -معاشر السلفيين- وبين "فقه الأئمة"!
أصابني جنون حادٌّ من كلامها عن حجابها، كل ما أشعر به من عواصف بداخلي صببته في كأسها!
كنت أكتب لها وأنا أبكي تارة .. وأشعر بالانهيار تارة .. أتوسل لها تارة .. أغلظ لها الكلمات تارة .... وهذا الألم برأسي! رغبة في النوم بلا استيقاظ إلى الأبد!

لماذا فَعَلَتْ ذلك؟

تلك الحمقاء!

لماذا فارقتنا؟

قال ابن عباس: يوشك أن يرسَل عليكم حجارة من السماء، أقول لكم قال رسول الله -ﷺ-، فتقولون: قال أبوبكر، قال عمر!".

هكذا عرفته...

هكذا حفظته من مقدمة الألباني الشهيرة!

هكذا درّسته ونشرته وكتبتُه...

هكذا رددته!

هكذا أفحمتُ به كل من تجرأ وقال لي: الأئمة أعلم منك ومن مشايخك!

أقول لكم: قال رسول الله، فتقولون لي: قال الأئمة؟

يوشك أن يرسل الله علينا حجارة من السماء .. تردون حديث رسول الله!

ثم إني وجدته هكذا:

"قال عروة لابن عباس: ألا تتقي الله، ترخّص في المتعة؟!

فقال ابن عباس: سل أمك يا عُرَيَّةُ.

فقال عروة: أما أبو بكر وعمر فلم يفعلا.

فقال ابن عباس: والله ما أراكم منتهين حتى يعذبكم الله، أحدثكم عن رسول الله، وتحدثونا عن أبي بكر وعمر.

فقال عروة: لهما أعلم بسنة رسول الله، وأتبع لها منك، فحجّه عروة".

غلبني السفيه وغلبت الفقيه...

حجّ عروةُ عبدَ الله ابنَ عباس؛ لأن ابن عباس فقيه، يعلم أن أبا بكر وعمر أفتيا باجتهاد وفهم عن رسول الله .. أفتيا بدليل! وهما أعلم بالأدلة منه، وأما

نحن فرعاع سفهاء، نجادل بجهل .. لم نفهم أن هذا فهمنا وفهم شيوخنا ومعاصرينا لحديث رسول الله ولو كان لهم سلف، لكن في المقابل فإن الأقوال الأخرى فهم أئمة أيضًا .. فكيف إن لم يكن لنا سلف؟!

وظننا أن الفقهاء وضعوا أقوال الأئمة في كفة وقول رسول الله في كفة.. أيّ كفرٍ هذا الذي نتهم به علماء الأمة الفقهاء؛ أنهم يضاهون رسول الله باتباع أقوال أئمتهم في مقابل اتباعنا نحن للرسول، ونستشهد عليهم بأقوال الأئمة وحثهم من كان أهلًا للاجتهاد أن ينظر في الأدلة .. نستشهد بها أن ذلك الحث للجميع؛ عوامًّا وعلماء!

ثم نقول بحكمة: نعذرهم بأنه لم يبلغهم الحديث! كلهم لم يبلغهم أحاديث أشهر من نار على علم؟

فنقول في ورع: وهب أنهم بلغهم فخالفوه لأنهم يحسنون الظن في أئمتهم؛ فإن كنتم تظنون أن هذا كفرٌ؛ فليس كلُّ من وقع في الكفر نوعًا وقع في الكفر عينًا!

علماء الأمة حثالة وشرذمة من الحمقى لم تبلغهم الأحاديث وبلغتنا! وإن كانت بلغتهم فهم يخالفون صريح الحديث تعصبًا وتقليدًا! ويقعون في هذا الكفر البدهيّ تعصبًا وبحسن قصد...! وعذرناهم نحن...! وأنقذنا الأمة...! جزانا الله خيرًا!

وهل سينظر كل مسلم في صحة الدليل وصحة الحديث أم سيقلدنا؟ إن قلدنا عدنا إلى نقطة البداية، مع زعم أننا أعلم ممن سبقنا! وإن ألزمنا كل مسلم بالنظر في الدليل فـ...!

يقول ابن قدامة في روضة الناظر:

"وأما التقليد في الفروع فهو جائز إجماعًا فكانت الحجة فيه الإجماع، ولأن المجتهد في الفروع إما مصيب وإما مخطئ مثاب غير مأثوم فلهذا جاز

التقليد فيها بل وجب على العامي ذلك، وذهب بعض القدرية[1] إلى أن العامة يلزمهم النظر في الدليل في الفروع أيضًا، وهو باطل بإجماع الصحابة؛ فإنهم كانوا يفتون العامة ولا يأمرونهم بنيل درجة الاجتهاد، وذلك معلوم على الضرورة والتواتر من علمائهم وعوامهم".

ꕥ

كتاب (معنى قول الإمام المطلبي إذا صح الحديث فهو مذهبي)!

يا الله!

كتابٌ يشرح معنى قول الشافعي: "إذا صح الحديث فهو مذهبي"!

هل العبارة بحاجة لشرح؟!

وأنا رجّحت طريقة اللامذهبية والترجيح من غير اطلاع على هذا الكتاب أصلًا! وللمرة الثانية، أجد آثارَ الصحابة مبتورة .. ثم تتابعت عليّ فضائحُ البتر والتحريف الذي يفعله بعضهم للنصوص والآثار!

المرة الأولى: أثر ابن عمر والحجّاج وندمه في آخر حياته... لم نسمعه أبدًا إلا بعد الثورة؛ بل حين ذكرتُه لبعض الأخوات السلفيات وأخبرَت زوجَها طالبَ العلم المدخلي، رد في ضيق: "يحزنني أن ابن عمر يخالف النص"!

نصّ في عينك يا أخي!

ابن عمر يخالف النص؟!

حتى الصحابة لم يسلموا من قبح التهم السلفية المعلبة!

كل الناس يخالفون النصوص، وحاز الاتباعَ شيخٌ معاصرٌ سلفيٌّ!

والجميل أنه وجدتني قرأت هذا الأثر عن ابن عمر مرارًا، ووضعت تحته خطوطًا كثيرة في سير أعلام النبلاء...

---

[1] من عجائب السلفية؛ ندّعي السنة ونبذ البدع، ونحن واقعون فيها حتى الثمالة!

ولست بصدد تقرير شيء معين؛ فالنظر في الأدلة التي منها أفعال الصحابة وأقوالهم هو فعل المجتهد، فأنا لا أكرر هنا خطأ السلفية.

فقط أقول: نحن في مشكلة!

تناول الأدلة بالنظر والتقرير مَنْ ليس بأهل، أصاغر يتلاعبون بقصد أو بغير قصد.. في هذه البيئة يسهل تسلل دخيل يبث سمومه فتنفرط عرى الإسلام تترى!

العلوم الدقيقة صارت شعبية يتداولها العامة الجهال بلا أدوات، الإفتاء والاجتهاد والكلام بغير علم...

هذه العقول تقرأ متحيزة!

يقرأ ليردد ما بداخله، لا ليفهم الكلام على وجهه.

يقرأ ليقرر فكرة مسبقة.

يقرأ ليقول أنا على صواب.

لا يحرر المذاهب على وجهها ولا كما يريد قائلوها!

بعضهم يقع في ذلك بجهل ... وبعضهم عن عمد!

ولا ننتبه إلا بهزة قوية .. كأحداث يناير ورابعة ... ألم يأنِ لنا أن نستفيق في عافية؟

هل لابد من كارثة تحل على رؤوسنا؟

ابتسامة .. منهارة!

كفى!

أخبرتك يا نفسي أنني سأدرس مذهبًا، سأكون أهلًا للترجيح، لست بحاجة إلى كل هذا التبكيت!

أنا الآن نيو سلفية ... سلفية متطورة.

سأدرس الفقه على مذهب، وأرجح بالدليل بين المذاهب الأربعة، وأنا -الحمد لله-منفتحة على الخلاف، لم أكن متعصبة لهذه الدرجة.

سأعذر المخالف في الخلاف السائغ.

سأتوسع في دراسة أصول الفقه.

سأكون بخير...

ولن أكون مثل هؤلاء الأخوات اللاتي يُثرن الخلافات الفقهية، سأعذر المخالف، لكن هذا لا يعني أن أفتيه بالنمص وتلك الفتاوى الغريبة، هذه رخص عند الضرورة نستخدمها لكن لا ننشرها في الناس، هذه فتنة للسلفيين الأتقياء، كذلك لن أكون بهذه الحدة التي يتكلم بها الشيخ محمود .. لابد من الرفق، سأمارس الأمر على طريقتي .. أنا نسيج وحدي ... سلفية مخلصة للفكرة .. فقط الأمور تحتاج إلى تطوير!

سيكون كل شيء بخير، وعلى ما يرام ..

لا داعيَ للقلق!

.....

قلت لها: هو احنا مين سلفنا في موضوع عدم نقض الوضوء برطوبات الفرج الخارجة من مخرج الولد؟ ده المذاهب الأربعة على نقض الوضوء منها!

لا يمكن أن يكون الأمر بالبساطة دي!

مفيش دليل، والمذاهب الأربعة على نقض الوضوء منها ... للدرجة دي؟

فتشتُ ونبشتُ وظللتُ في قلق حتى عرفت -بدون مصدرٍ! أن هذا قول لابن تيمية... تنفست في راحة ممزوجة بقلق، وأخبرتها في فرح: سلفنا ابن تيمية!

"استدل ثم اعتقد .. ولا تعتقد ثم تستدل ... فتضل!".

- هو مين اللي استدل بالآية: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ} على تحريم تشقير الحاجب؟

- مش فاكرة، بس أكيد فيه حد...

- الاستدلال ده منتشر بيننا -معاشر الأخوات- ممن تحرم التشقير منا، لكني لم أجد له مصدرًا ولا حتى شيخًا معاصرًا! مين سلفنا في الاستدلال ده؟

- لا، أنا فاكرة أن فيه مصدر...

- رسايل الفيس بوك وكدة؟!

- .....!

علماني يقول: المذاهب الأربعة قائمة على أحاديث ضعيفة، والبخاري فيه أحاديث ضعيفة... والبخاري رجل ونحن رجال!(بالمعنى!)

فأنشأتُ هاشتاج: البخاري كله صحيح

وجمعت تحته بعض سير الأئمة، ومن هو البخاري، وما صحيح البخاري، وأهمية التراث الإسلامي وتعظيمه.

ونسيت ..أننا .. معاشر السلفيين ... نقول: "المذاهب الأربعة وكتب الفقه مليئة بالأحاديث الضعيفة! وفيها شركيات! وبدع! وينبغي تصفيتها من تلك الشوائب!"...

فبأيّ قواعد سنصفيها؟ ومن الذي جعلنا حكمًا على تلك الكتب؟ وكيف تكون معلِّمًا ومتعلمًا في نفس الوقت؟ هل ستتعلم ممن سبقك؟ أو ستكون خصمًا لهم وحكمًا عليهم؟

وهل النية الطيبة تكفي للتفريق بيننا وبين العلمانيين ومن نحا نحوهم إن كنا نكرر نفس الكلام؟ وعندنا نتائج كارثية مثلما عندهم نتائج كارثية؟

وبأي شيء نمنعه ونسمح لأنفسنا؟ هل هناك معيارٌ يحكم بين الكل بعدل؟

ومن يعلم ما في قلب فلان منا؟ ومن يضمن ألا يندسّ بيننا خبيث القصد؟

هل .. وهل ... وهل؟؟؟!

.....!

بدأت دراسة الفقه، ولأن الشيخ كريم حنبليٌّ، فكانت دراستي على المذهب الحنبلي. لكن لأني لازلت متشبعة بفقه الدليل والترجيح؛ فأنا أريد أن أدرس الفقه على عدة مذاهب..

وقع في قلبي أنني حين أريد أن أدرس الفقه على عدة مذاهب لأرجح بالدليل؛ فلابد لابد أنني سأختار شيوخًا متقنين للمذاهب.. هذا يعني أن هذا الشيخ سيكون متخصصًا في مذهبه، متقنًا له، عالمًا بدقائقه وخباياه!

إذن؛ لابد أن يكون هناك مثل هذا الصنف من أهل العلم؛ المتخصص في مذهبه، الدارس له، المتقن المتفنن، العالم به ... هذا يحتاج عمرًا!

ثم هؤلاء، كل منهم سيعطيني ما عنده من العلم .. **و أنا أرجح!**

كيف سأرجح؟! على أي أساس؟!

سأكون حكمًا بين المذاهب .. سيكون لي اختيارات .. سأكون فوق مذهبية!

هؤلاء يفنون أعمارهم ليتقنوا مذهبًا، ثم أقف أنا بينهم أحكم: هذا صواب، وهذا خطأ، وأرجح وأختار ... من البداية .. سأفوقهم من طريق خلفيٍّ .. أقصر من طريقهم! شيء شبيه بالفقه المقارن إذ يقتحمه المبتدئ!

هل هذا منطقيٌّ؟

نفس السلفية لكن متطورة وأكثر انفتاحًا! نفس الشعور بالفوقية والعلو والفضل .. نفس سوء تصور المذاهب!

فأنا أظن وقتئذ أن هؤلاء الذين أفنوا أعمارهم ليتقنوا مذهبًا سيكونون أقل شأنًا مني، وأقل علمًا، وأقل موهبة، وسأقف أنا حكمًا بينهم: **بالدليل!**

ولـم أفقـه أن هـؤلاء ترقـوا في المـذهب وعقـولهم تُصـنع وتتشـكل بطريقـة المذهب وطريقة الاستدلال فيه ..

المذهب مصنع للمجتهد، ومصنع للمفتي، وأنا أريد أن أصل لرتبة الترجيح - وهي من رتب الاجتهاد- من طريق آخر أظن أنه أكثر اختصارًا!

فـرق كبير جـدًّا بين سـلفي يـدرس مـذهبًا مـا وهـو محمـل بالأفكار السـلفية ومشبع بها، وبين من اختلط لحمه وعظامه بمذهب على طريقة الفقهاء!

أن تـدرس وفي ذهنـك أن هـؤلاء الفقهـاء قـوم بؤسـاء .. مسـاكين .. عقـولهم ضعيفة .. تقريراتهم ضعيفة .. ضلوا عن الدليل، وأنت أحرص عليه منهم .. عصـورهم مظلمـة، عصـور تخلـف وانحطـاط فقهي وأنـت مـن سـينيرها .. تدخل لترجح وتختار وتحذف وتضيف من رأسك!

نفضت هذه الخواطر .. هذه الإشكالات ... هذه الـ **شبهات**!

لقد قررت تسويغ الخلاف بين تطوير السلفية (نيو سلفية)، وبين السلفية المتمذهبة!

ꕥ

في هـذه المرحلـة دحـض مزلـة .. سـقط فيهـا كثير مـن النـاس فلـم يكملـوا الطريق .. لا سيما مع بريق رتبة الترجيح وتجذر الفكر ..

أن تكون مختلفا! رجلًا والأئمة رجال! تقول ويقولون .. تضاهي اجتهادهم كما يجتهدون ..

فتنة!

معـاول هـدم تعمـل عملهـا في النفـوس سـنوات وسـنوات .. والحمـل ثقيـل .. وذنـب "**الفتـوى بغيرعلـم**" يحني الجبهـات والهامـات ذلًّا؛ فعواقبـه قبيحـة،

والخروج منه ومن تبعاته وعواقبه يحتاج ما لا طاقة لنا به، فتسويغ فعلك والاطراد عليه مع شيء من التصحيح .. أسهل!

وإتقان مذهب بأصوله وقواعده وخلافاته ومنطلقات الخلاف داخله وخارجه، واطلاعٌ على أقوال أئمته وتخريجات متقنيه، ثم الترقي لتبلغ رتبة الفتوى فيه... أصعب!

تعرفون قصة الذئب الذي نظر يومًا إلى العنب، فحاول الوصول إليه فعجز، فقال إن العنب مر المذاق وانصرف عنه!

العلم بعد أن كان يسيرًا، والتصدرُ قريبٌ بُعَيده؛ صار العلم ثقيلًا، والتصدر عسيرًا له شروط. وبعد أن كنا ننكر على الناس ونستعلي عليهم، صار علينا أن نسكت، صرنا مثلهم وتساوت الرؤوس! يا للنفوس وألاعيبها!

أعتب على الصامتين ممن حباهم الله علمًا؛ فترخصوا بالصمت الذي يظهر كأنه إقرار في زمن عز فيه العقل والعلم والفقه، وكثرت فيه الفتن!

أعتب على الناطقين بذم من يخالفهم، مع غض الطرف عن شناعات أصدقائهم، ومن بطبعه أو انتمائه يلائمهم!

أعتب على هؤلاء الذين يكتبون كلامًا يوهم كل سامع بما يحب أن يسمع!

يحسبون أن لهم رخصة .. لأن عندهم علمًا بالفقه والرخص!

يحسبون أنهم ناجون يوم القيامة بالبيان بلهجة فخمة ضخمة لا يكاد يفقهها الناس، وتمر حروفها على كثير؛ فيفهمها كيف شاء!

يحسبون أن كلامهم سيضر أقوامًا .. سيثير بلبلة .. سيثير الناس عليهم!

قولوا كلمة الحق رحمكم الله .. لهذا وهبكم الرب علمًا! أين شكر نعمته؟

ألأن الرب نجاكم فلم تتلوثوا بما تلوثنا به تصعّرون وجوهكم وتكتمون الحق مترخصين؟

يا سيدي، لا تهدهد قلبك وتسكنه بكلمات براقة .. ليس هذا وقت الصمت!

ليس وقت التوفيق بين الخطأ والصواب!

هب أنك -يا سيدي- نجوت يوم القيامة معذورًا أو برخصة .. ألا يرق قلبك لهؤلاء الذين يتعذبون في رحلة البحث عن الحق؟

أدري أنك تقول: إن صدقوا الله صدقهم .. وأنك تقول: هذا أدعى لثبات الحق في قلبه .. وأنك تقول وتقول وتقول ..!

أدري! الأعذار كثيرة، والمبررات براقة ..

لكنني أرجوك ألا تكون سببًا في ضلال بعضهم أو سوء فهمه في زمن الصبر والقبض على الجمر.

فقط كلمة... بيانٌ لا لبس فيه .. إنكارٌ لا عبث فيه ولا تلاعب!

ألا تعرف أن هناك صادقًا ضعيفًا؟ وأن الخطب عظيم؟ وأن أمواج الفتن عالية؟

فقط **كلمة** .. بيانٌ واضحٌ **صادقٌ** ..

هل تدري أن ترخصك بالصمت قد يكون خوفًا لا فضيلة؟

وأن ترخصك قد يكون مرض قلب لا سلامة؟

وأن ترخصك قد يكون سوء تقدير لا حكمة؟

هل فكرت في فرض الكفاية وحجم الحاجة إلى من يكفي مع عمق وجذور الكارثة؟ وهل قام به من يكفي أم لا في زمان عزت فيه كلمة الحق، ووهبك فيه الرب علمًا، وسكت الناس، وتكلم من تكلم بالباطل جهلًا أو بعلم؟!

تكلم ولو بالرفض والإنكار للخطأ .. ولو بالدلالة على محالّ الحق لطالبه!

الأغلب ساكت يترخص، ومن تكلم لا يصرح، إلا القليل ممن رحم الله .. ومن صرح لديه حسابات وحسابات، ومجاملات تدق معاولها في بنيان المعايير التي ينبغي تطبيقُها بغير محاباة... ومن صدق يتكلم فترة ثم يفتر.. ألا يدركون حجم الكارثة وتوغلها وتوحشها في النفوس؟

رقق الله قلوبنا بالتقوى، وكفانا شر أنفسنا الخداعة المتقلبة...

أنسيتم العهد والميثاق: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ}.

كونوا ربانيين... الناس تضل وأنتم تسيئون التقدير، تقدمون مجاملات لأصحابكم وأحبابكم على البيان الواضح، تتركون الناس في عمى في زمان كثر فيه الضباب والتيه والتلبيس... تترخصون وتجدون مخرجًا هنا وهناك..

فتنة! أنتم من صنعها فرارًا من الفتنة!

اتقوا الله، واصدعوا بما تؤمرون!

كتبت قديمًا:

أنطقُ بالحق على استحياء،

أحسب أن كلامي وصمتي سواء،

فتصك أذنيَّ من خلف ظهري...

تنهيدةُ ارتياحٍ، وشهقةُ لوعةٍ، ودعاءُ ملهوفٍ،

فيقلص دمع عيني!

وأشعر حينها بحجم جرمٍ، كاد أن يقترفه ظني بصمتي!

حين يكون الصمت جريمة.. يتحدث الصادقون!

د. أحمد خالد توفيق -رحمه الله-.

بـدأت أبحـث عـن شـيوخ علـى مـذاهب أخـرى، وراسـلت بعضـهم .. أستخير وأراسل فلا أُوفَّق ..!

الغريب أنني نأيت بنفسي عن كل متصدّر يقدم نفسه باعتبار أنه غير متقن لمذهب، أو أنه لا يلتزم مذهبه في الفتوى؛ لأني كما أخبرتكم ظننت أنني أريد أن أنهـل مـن علـوم المتقنـين الـذين دققـوا ومحّصـوا وأتقنـوا مـذاهبهم، فيصبّون في إنائي ما عندهم، فأخلطه وأستخرج منه وأرجّح؛ هو نفس منهج "التصفية والتربية"!

ونسـيت أن هـذه الطريـق لا يمكـن تعميمهـا؛ فـإذا انقـرض هـؤلاء المتقنـون لمذاهبهم لـن يبقى إلا رِجَاجَـةٌ من الخلق، وسـتعود نفس السـلفية القديمـة بمزيـد مـن الجهـل والتردّي والانفتـاح الـذي لا حـد لـه! وذهِلْـتُ عـن حقـائق كثيرة..

كنت أفر من مراسلة الشيخ محمود عز الدين؛ فلما لم أجد ممن ينتمي إلى المـذاهب الأخـرى مَـن يقبـل .. اسـتخرت وراسـلته، فـرد في الحـال على غير العادة! راسلته برسالة من مجهول على موقع الآسك، فكان رده:

"نعم لا مانع، وسيكون التواصل معها عن طريق امرأة من محارمي".

وكنت أعرف أن عنده إجابات تلك الأسئلة التي لا أعرف سبيلًا لجوابها!

الثوار لا تقوم ضد الطغاة، بل تقوم ضد البلهاء أولًا.
عندما يصير ثلاثة أرباع الشعب ضدك، وقد آمنوا أن الطغيان أمر إلهي، وأنهم أسعد حالًا تحت سلطة أبويّة غاشمة... عندها يصيرون متأهبين لرجمك".

د. أحمد خالد توفيق -رحمه الله-.

ꕥ

دخلت المكان وجلست مع الأخوات .. ابتسامتي لا حياة فيها، ذهني شارد جدًّا!

- عاوزين درس.

- لا أنا مش بدي دروس خلاص...

تكرر الطلب مرارًا وأنا أتهرب، ثم إني وجدتها فرصة .. نعم، فرصة أثبّتهم ونفسي في تلك الفتن! تكلمتُ بصورة عامة عن فتنة الصدمة في أهل العلم بعد الأحداث، مع فتنة اكتشاف مسائل خلاف سائغ صُدِّرَت لنا على أنها من مسائل الإجماع... إلخ إلخ.

وعزمت كما في المنشورات التي نشرتها من قبل ألا أصرح بمسألة معينة، ولا أفتي .. فقط مجرد كلام عام وتهيئة نفسية لما نتعامل معه من فتنة علمية وعملية..

لا أدري كيف حصل ما حصل، و لا كيف زل لساني فضربت مثالًا؛ النمص!

كنت أتحدث برفق وانكسار شديد .. لم أكن بحاجة لتكلّف ذلك؛ فأنا منهارة فعليًّا!

رد الفعل كان عنيفًا! نظرات .. كلمات .. وجوه ..

انفضَّ المجلس، وبقيت امرأتان فقط أو ثلاثة بجواري .. فتكلمتُ بشيءٍ مما يثور في نفسي ..

ولكن بداخلي كانت تلك الضحكة الساخرة، تحتل وجداني كله!

ها أنت ترفَّقْتِ، وأخذتِ بكل أسباب الرفق واللين بلا تكلفٍ وبتكلفٍ، وها هو رد الفعل .. يبدو أن هناك أصنامًا بداخلنا .. **تابوه!** مجرد الاقتراب منه يشعل الموقف مهما ترفقت!

لابد من كسر الصنم .. والكسر فيه ما فيه من جروح ومشقة..

ثم إن الرفق ليس كلماتٍ لينةً وحسب .. أليس قطع يد السارق هو الرفق بالسارق والمسروق منه وبالمجتمع؟

ليس كل الرفق لين .. أليس هذا هو ما أعتنقه نظريًّا؟!

فقط الحقيقة كقطع الزجاج التي لم تهذّب ... **جارحة!**

وأن يتسبب أحدهم في وضعك في مواجهة مع النفس ... مواجهة حادة قاسية جدًّا... لابد أن تصب عليه لعناتك وتتهمه بأي شيء ... **لتهرب**... إزاحة!

مجرد إزاحة ..

تمامًا كما كان يحدث مع أي مصلح آمر بالمعروف ناهٍ عن منكر .. يترك الناسُ لبَّ الموضوع وأساسَ القضية، ويوبخونه على الأسلوب والحدَّة .. وحين تتجرد وتنظر بشيء من الإنصاف والموضوعية .. قد لا تجد حدَّةً على الحقيقة .. فقط ستجد كلامًا صريحًا وبيانًا واضحًا .. **مؤلمًا** .. وعلى قدر الألم يعلو **الصراخ!**

تواصلي مع الشيخ محمود قبل رمضان من ذلك العام، واستمرَّ ما يقرب من عامين فقط، ورغم قِصَرِ هذا الزمن؛ فقد تعلمتُ منه كثيرًا، وساعدتني على ذلك زوجته -جزاهما الله خيرًا-.

سألته في مسائل .. شبيهة بتلك المسائل التي راسلتُ بها رحمة زوج أبي أنس، فأجاب برحابة صدر، وردَّني إلى مصادر المعلومات، فبدأت قطع البازل الناقصة تتراصّ في ثنايا عقلي، الواحدة تلو الأخرى.

من كلماته:

"قد يصلح قلب الإنسان بالمفضول ولا يصلح بالفاضل، لماذا؟ **لقصور رتبته**، فلا يقوى على العمل بالأفضل، أو لا ينتفع به الانتفاع الأتم.." اهـ

"فالمفتي هنا ليس وظيفته نقل الكلام النظري فحسب، بل الفتيا اشتباك بالواقع ونظر للمصالح والمفاسد، وقد يفتى بالمرجوح فيصلح به الناس، وقد يفتى لشخص بشيء ولغيره بآخر، وتطبيقات هذا عند السلف لا حصر لها. (ولاحظ **أن الكلام ليس في القطعيات، فمفيش تمييع هنا**، يعني: هذا الكلام لا ينطبق على المحرمات القطعية، كترك الصلاة والتبرج ونحو ذلك، وإنما هو فيما وسع الله على الناس فيه بوقوع الخلاف المعتبر، فليس هذا من تحليل الحرام؛ بل الحلال بيّن والحرام بيّن، وباب الورع أيضًا واسع، في الشبهات والمسكوت عنه مما بيْن الحرام والحلال يستنبطه أهل العلم، ولا يعلمه كثير من الناس، وليس الجميع مؤهلًا لفهم كل النصوص، كمن احتج

عليّ بحديث لعن النامصة، وهو حديث يعرفه الصبيان في الكتاتيب فضلًا عن مالك والشافعي)." اهـ

"وبعد هذا: فالواجب عليك سؤال عالم تثق في دينه وعلمه، وعليك الأخذ بقوله، وأنت في حل، حرّم أو أحل، **والورع نعمة بعد ذلك**" اهـ

"دين الله ليس للعبث، ولا نتمحور حول أقوال المعاصرين حتى تقولوا: منتكسين. ولن نجحد الخلاف الموجود في كتب التراث لنرضي شهوتكم في التشديد وشبقكم للتعنت." اهـ

"هذا قول فقهاء السلف.. إن أجمعوا؛ قلتُ: أجمعوا، وإن اختلفوا؛ قلتُ: اختلفوا، **أنا فقط مبلِّغ**. والواجب نقل العلم كما هو عليه، وكما تركه أئمتنا أهل الورع، لا كما تحبون وتهوون، أو كما علمكم من كتموا العلم ممن تعدُّونهم كبارًا وتحتجون علينا بهم!" اهـ

"أما بالنظر لعامة المسلمين غير المتحزبين؛ فالأمر أظهر، وقد يسيئون الظن بالتراث والفقهاء والدين كله بسبب شيوع بعض الفتاوي في هذا الباب بصيغة الجزم المقتضية تأثيم المخالف وإخراجه من دائرة (الالتزام) والنظر له بعين النقص، وقد يترتب على ذلك من الإنكار عليهم، ورفض الزواج منهم، وازدرائهم ما هو مفسد للدين والدنيا.

• فيكون من تمام الفقه والنصح:

ألا تترك الناس يفعلون أمرًا مما شاع وانتشر فيهم، أو اشتدت حاجتهم إليه، معتقدين حرمته وأنت تعلم أن ثمة قولًا معتبرًا بجوازه، في المسائل

القديمة، أو وجهًا معتبرًا لتسويغه فيما كان من النوازل، ولو كان الأكثر على خلافه. **(والكلام فيما ليس مخالفًا لقاطع، كما هو واضح)**.

فكون الإنسان يقلد قولًا له وجه، وإن شاع ضعفه خير له في دينه وصلاح قلبه من اجترائه على حرمات الله، وعدم مبالاته بشريعته، وثمة وجه من وجوه الترجيح في مثل هذا يستعمله المحققون من العلماء وهو: (لا يسع الناس في هذا الزمان غيره)، وابحث بهذه الصيغة في كتب الفقه القديمة: (لا يسع الناس غيره)، ستخرج لك عشرات النتائج!

وهذا الباب يحتاج إلى قدر كبير من فقه النفس، والبصر بالشرع مقاصده وكلياته وجزئياته، والمعرفة بأحوال الناس، والورع. ولا يلزم من هذا أن تفتي بخلاف اعتقادك، بل يكفي أن تحيل على عالم ثقة، وتبرأ ذمة المستفتي بذلك." اهـ

أغلقت كل صفحات السوشيال ميديا في رمضان في ذلك العام ..
كنت أحتاج إلى عزلة وهدوء لتهدأ تلك العاصفة في داخلي!

طلب مني زوجي أن أبحث عن شيء من خلال الفيسبوك؛ ففتحت الصفحة لأجد ثورة عارمة متعلقة بفتوى النمص، وكلما فتحت الصفحة أجد منشوراتٍ وهجومًا حادًّا على من أفتى بالحِلّ، واتهامَ مَن يفتي بجواز النمص أنه "تنويريّ"، وكلامًا يحمل في طياته تُهمًا للأئمة من أناس جهال لا يعرفون نسبة هذه الأقوال للأئمة .. بل اطّرَد بعضهم حتى قيل: إن مذهب أحمد فيه تمييع!

- ربنا يخلي لنا الأنفريند والبلوك!

حقيقةً، لم أعد أحتمل هذا الكمّ من التعالم والتعالي، وهذه الصيغ الثورية الصادرة عن جهل! أُرسل رسالة وأُتبعها بالبلوك منعًا للجدل الذي أحفظ تبعاته كباطن يدي وظاهرها.

ظللت مكتفية بالأنفريند والبلوك والرسائل .. **حتى ليلة 25 رمضان!**

طلبت بعض الأخوات رأيي على منشور فيه طعن فيمن أباح النمص، فكتبت ردًّا طويلًا ونشرته، وخرجت من الجروب .. وأخذتُ منه نسخة وضعتها على صفحتي أمام ناظري أتأمله بلا نشر، ثم تركته .. واستخرت...

وفي تلك الفترة كانت هناك مشكلة في الجهاز أو الانترنت؛ بحيث إنه ببساطة، وبعد كتابة قدر طويل من مقال ما لا يُنشر، ويضيع جهدي...

عدلتُ الرَّدَّ ونفسي تحدثني: **الآن حان وقت الاعتراف الصريح بالخطأ** .. الحمد لله، ليلة 25 الناس في المساجد .. لن ينتبه لما أكتبه أحد .. كذا قلت!

سأكتب ما أكتب إبراءً لذمتي، وراحة لنفسي وضميري .. وربما لا يُنشر بسبب العطل "بركة يا جامع"!

بعض ما جاء في المنشورذكرته لكم في أول القصة!
ثم حدث ما لم يكن في الحسبان!

أقف وسطهم.. أنظر أمامي، وهم من خلفي وعن يميني وشمالي..
لم أرَ تلك الأنياب والمخالب على حقيقتها إلا حين واجهتها.
هل كانت أنيابي ومخالبي بذلك القبح؟! لا أعلم!
لكن المهم... المهمُّ أنك يا صغيرتي خرجتِ من تلك القوقعة المظلمة الرطبة، وأدركتِ أن أمامك الكثير من العمل وعلاج ما شوهته السنين!
على رسلك إذن؛ فلازال الوهن له دبيب في عظامك الهشة!

ردّ الفعل في مقابل المنشور كان صادمًا لي!
تفاعل غير عادي ما بين مؤيد ومصدوم وساخر ورافض وموبّخ!
اتصلَت بي (سامية) ابنة ذلك الشيخ السلفي الكبير، وكانت في طريق سفر.
تذكرونها؟ ذكرتُها حين قصصتُ عليكم قصة فريدة وأحلام!
قالت لي إنها سعيدة بالمنشور ولكن؛ فلتستعدي لما سيحدث لك!
- ليه يعني؟
- عش الدبابير يا حبيبتي، إن أبي يفتي بقول ابن قدامة؛ أنه يجوز الأخذ بالحلق والقص لا النتف، وأعلمُ ردود الأفعال من المعارضين.
- ده معتمد الحنابلة!
- معرفش بقى ده قول الحنابلة ولا لأ، المهم أنه قول ابن قدامة وخلاص...
- بس جميل أنك قلتي إن والدك يفتي بكده!

انقلاب!

وحتى من تقبّل الأمر باعتباره الراجح عندي، زعم أن ما أفعله فتنة؛ لأنه على ملأ، و"ستحملين أوزار من يأخذ بهذه الفتوى"!

- وما الضير في أن يأخذوا بالفتوى؟ هذه فتاوى أئمة وفقهاء، ومعتبرة، وخلاف سائغ!

- مخالفة للدليل...

- بل هي **فقه هؤلاء الأئمة في الدليل!**

- وماذا لو وجدت يوم القيامة أن هذه الفتاوى خطأ؟

- تبرأ ذمة من أخذ بها لأنه أطاع الله؛ {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}.

الحقيقة أنني في تلك الفترة كان قلبي يرتجف، التغير ليس سهلًا، الكف عن الفتوى بالراجح عندي... هذا جهاد ثقيل على النفس جدًّا!

ثم أن تنشأ على قولِ أن النمص لعن، ثم تنقل فتاوى بالإباحة .. هذا يشيب له شعري هلعًا!

منتكِسة .. مميّعة .. مفتونة .. ضالة .. مُضِلّة ..!

كذا قالوا عني..

حتى من دافع عني، كان دفاعه أقرب للتهمة حتى إني **رجوتهم** ألا يدافع عني أحد! **لم أكن غافلة عن الآثار الجانبية لما أفعل؛ بل كنت مدركة تمامًا كلَّ ما يعتمل في النفوس.. كيف لا، وأنا أمرُّ به!**

الحقيقة أن التداعيات تحتاج قلب أسد ليتحملها على جميع الأصعدة من سبٍّ وهجرٍ وتشنيعٍ، وأنت بعدُ تتلمَّس مواضع قدميك حذرًا من السقوط؛ لكن هناك لحظات مصيرية يقرر فيها الإنسان قرارًا لابد منه رغم الأعراض

الجانبية؛ لأن استمرار الصمت له مفاسد شرعية كثيرة جدًّا، كنت أعرف جزءًا منها، وظهر لي أضعافها مع الجهر بهذه الفتاوى ونقلها.

من مخاوفي الرئيسية: أن الانتقال لن يكون سهلًا؛ قد ينفلت كثير من الناس من ربقة التكليف!

نحن ننتقل من تشديد وتقوقع إلى تقبل خلافات سائغة في مسائل كنا نعدها هي الدين بالإجماع!

لكن هناك مساكين انفلتوا بسبب السكوت، ويمكن الجهر بالحق مع العناية بعلاج الأعراض الجانبية.

كذلك من مخاوفي: أن البعض قد ينتقل إلى التصوف والتمشعر انتقامًا وتخلصًا من كل ما له علاقة بالسلفية المعاصرة ولو كان صوابًا، رغم أن الخلافات الكلامية مع الأشاعرة هي خلافات دقيقة وفلسفية لا مدخل لعموم المسلمين فيها، إلا أن متطرِّفي الطرفين جعلوها متداولة في أيدي من لا يفقهها، مثيرين بذلك صراعات وعداوات لا ناقة لعوام المسلمين فيها ولا بعير، ولا فهمًا حقيقيًّا إلا التعصب ضد فئة لحساب فئة.

أما الطرقية الصوفية فمشكلة أخرى؛ فبعض فئاتهم فيها غلوٌّ وبدع وغرائب، وتحول الأمر مع بعضهم أو كثير منهم من تدرج لتزكية النفس إلى تقوقع وولاء وبراء مع وضد تماما كالسلفية!

ثم إن ربط التمذهب بالتصوف الطرقي والتمشعر من أسباب تنفير طلبة العلم السلفيين عن التمذهب جملة، وربط بعض المسائل الفقهية بالتصوف، وخلطها بالعقيدة دون تحرير، وجعلها علامة على السلفية؛

مشكلة كبيرة، ولها أبعاد عميقة تحتاج صبرًا وإنصافًا و.. رغبة صادقة في معرفة الفروق والنظائر بين المسائل ..

ومن مخاوفي أيضًا: تلك الفئة من الأزاهرة الذين يدَّعون الانتساب إلى المذاهب؛ لكنهم يفتون بما "ترجّح" عندهم من فتاوى لا تمت للمذاهب بصلة، تُنقَضُ لها عُرى الدين عروةً عروة!
هؤلاء الذين يُعدون الوجه الآخر لعملة "الراجح عندي"، لكن بلهجة "التيسير" الذي يبلغ حد التمييع، ثم يرددون في وقار: نحن ضد فقه القول الواحد والفهم الضيق للنصوص! وكأن سعة المذاهب الأربعة تضيق عندهم، ونحتاج إلى أفهامهم لننطلق! هؤلاء من أسباب نفور السلفيين من التمذهب؛ لما يرون في فتاواهم من انفلات مخزٍ.
كل هذا وأكثر منه كان حاضرا في ذهني ..
لكن على كل حال، كل نفس بما كسبت رهينة، وليس عليّ إلا البلاغ وبيان الحق والجهر به؛ لا سيما ومصالح الجهر ماثلة أمام عيني؛ في نفسي، وفي الناس من حولي.

في هذه المرحلة، كل ما كنت أريده: أن أتنصل مما فعلت، أن أعتذر عما ارتكبت، أن أكفر عن سيئاتي .. أن أشعر أنني **أحترم نفسي**!

من أول الأسئلة التي سألت الشيخ محمود عنها:
- هؤلاء الذين أفتيتهم بغير علم ولا أستطيع الوصول لهم؛ برئت ذمتهم لظنهم أني أهل فتوى؟
- نعم، ثم قال لي: ولعلك لست آثمة؛ لأنك كنت تظنين أنك أهل فتوى.

قل ما شئت يا سيدي الكريم، آثمة أو غير آثمة، الأمر أكبر من ذلك!
أعلم جيدًا أنني يمكنني الترخص بفتوى، وترك البيان والاعتذار، والكفّ عن الفتوى وحسب... لكن هذا لا يكفيني! كيف أحترم نفسي وأنا أجمّلها للخلق وأستر تلك الفضيحة في الدنيا؟
وهل سأحتمل الفضيحة على رؤوس الأشهاد يوم القيامة؟ مجرد أن يذكر ذلك في صحيفتي مع ذكر صمتي بعده هو عار لا أحتمله .. عار كذلك العار الذي دفع أبا سفيان ألا يكذب... لئلا يقال كاذب، وهو وقتئذ كافر!
لا أدّعي أن ذلك إخلاص وقوة في الحق وكل تلك الأمور الجميلة التي يشتهي المرء أن يكونها! فقط نفسي تأبى ذلك في شمم وكبرياء، **وليس كل الأمور تدار بحد الواجب والحرام**...

بسبب الهجوم بدأت أوضح وأشرح ما يتعلق بالقضية والاختلاف والخلاف ..

- أنت مش بتقولي إنك جاهلة، بتتكلمي ليه؟

وكنت أعجب من قائليها وهم يعلمون أني بمقاييسهم إلى قريب "معلمتهم"، ويتقبّلون تصدري بسعادة ويستفتونني! وكنت أقول لهم: ليس لكم الفتوى بغير أهلية، فيقبلون بسعادة ويستكبر بعضهم!

لكن حين قلت: "**كلنا لا ينبغي أن نفتي**، ولا أنا" ... صرت الجاهلة التي ينبغي أن تسكت ليتكلموا هم، قولًا واحدًا هتفوا به جميعًا!

يا للعجب.. لعلهم يظنون أنها هفوة وليدة اللحظة!

والحقيقة، لم أكن في حالة تسمح بالكلام والشرح، ولولا أنني انتزعت وعدًا من الشيخ محمود أنه إذا وجد فيما أكتب خطأ سينبهني على ذلك الخطأ؛ لما كتبت حرفًا!

واستشرت كثيرًا، مستشرفة أن أكف عن الكلام والكتابة والبيان بعد الاعتذار عما سبق من حماقات الفتوى بلا علم؛ فنُصحت بالاستمرار.

والحقيقة أنني كنت أشعر أن الانسحاب **نذالة**!

أنا أعرف الأعراض الجانبية جيدًا، وأعرف فداحة الكارثة وإن لم أحط بها علمًا في ذلك الوقت كما ينبغي، لكن الناس بحاجة لمن يفهم مِمَّن مر بتلك الفترة العصيبة؛ حتى لو لم يكن خرج منها بعد.

كان عليّ عبء التوازن بين علاج المرض وتخفيف أعراض العلاج الجانبية، مع وعيٍ كامل بهدفي وبتلك الأعراض الجانبية!

من تلك الأمراض على سبيل المثال لا الحصر:

- هذا الكبر والعجب الذي لا ننتبه إليه، ويجعلنا نشعر بالعلو والفوقية.

- هذا التسلط على الناس الذي جعلنا سادة وهم عوامّ.

- الوعظ الذي أدى إلى تلك الأمراض النفسية، ونفور الناس من الدين، وانتكس بسببه كثيرٌ من الناس حتى بلغوا حد الإلحاد!

- هذه التناقضات التي نحيا فيها ببساطة، ونحسب أننا الحق والحق نحن، حتى نكاد لا نرى مواضع الغلط والخطأ!

- أن يكون المبدأ السلفي هو هو نفس المبدأ العلماني؛ تصفية التراث! يا لها من كارثة!

- كارثة التصدر، والفتوى بلا أهلية.

- كارثة اقتحام الفقه بالترجيح بلا أهلية.

- انعدام المعايير الصحيحة، ومِن ثَم العلم الصحيح.

- التعصّب للمعاصرين هروبًا من التعصب المذهبي.

- قطع الأرحام بسبب فتاوى وتعصبات جاهلية.

- خوض عامة المسلمين في مسائل شائكة بلا أهلية، وعلى رأسها التكفير.

- الطعن في الأئمة والفقهاء تصريحًا وضمنًا! وهذا ناتج عن سوء الظن بهم... سلفية بلا سلف، هكذا نحن للأسف!

- نحن من الرويبضة الذين تكلموا في أمور العامة بلا أهلية ونحسب أننا أهل!

- مواجهة الطعن العلماني في التراث يستوجب أولًا: أن نعترف أننا واقعون في تلك المصيبة، وأننا بحاجة إلى مراجعة أنفسنا.

- حاجة المسلمين في زماننا إلى الالتفاف حول كيان يجمعهم، ويتفقون أنه مُعَظَّمٌ عندهم .. وليس مشايخ السلفية ممن تتفق عليهم الكلمة، لابد من

جمع الناس حول مُعَظَّمٍ متفق عليه .. وهل هناك مثل الأئمة ومذاهبهم وتراثنا فخر الأمة؟ المذاهب عصمة حقيقية، وأمر جامع للمسلمين خلافًا لما كنا نظن!

والمشكلة كلما انتقدت قضية من قضايا السلفية؛ يظهر لي فداحة ما ارتكبناه سابقًا، وما تسببنا به من فساد في الناس؛ فأصرُّ على طريقي، وأترك الجدل مع من لا يريد أن يفهم لماذا اخترتِ ذلك الطريق الصعب الوعر...
وكلما انتقدت شيخًا سلفيًّا كبيرًا أو متصدرًا؛ ولو بغير تصريح، تظهر لي آفات التعصب السلفية بوضوح .. وتزداد شراسة المعركة، وفجر الخصومة، والسب واللعن! أقول في نفسي تارة: لا بأس؛ أنا أدفع ثمن ما فعلت بالناس... وأقول تارة: هذا أمر لا يحتمل!

الحقيقة أنني سأحتفظ بذلك السواد في ذاكرتي طويلًا!
لكن يكفي أن أختصر لكم الأمر في عبارة: لقد دفعت ثمنًا فادحًا على جميع الأصعدة... ثم هم بعدُ يتهمونني أنني أبحث عن الشهرة والمجد على حساب الأمة!
أصبر حينًا... وأجزع حينًا، أصدم تارة، وأبكي تارة، وأضحك تارة... أشعر بالغربة؛ فأجد أنني -في الحقيقة- صرت على أول الطريق المطروق المأهول، الذي سلكته الأمة قرونًا طويلة فضللنا عنه، الطريق الذي سبقنا أهل العلم عليه على خيل دهم، أحدث نفسي بقول ابن القيم: لو كنت خلفهم ما أسرع اللحاق بهم، فتهدأ نفسي وتسكن حينًا .. ثم تثور حينًا آخر!

أبكي تارة من تأنيب المشفقين المحبين: أنْ دعكِ مما تفعلين، وأبتسم تارات لعلمي بعدم وعيهم بفداحة الكارثة!

كذلك من الأعراض الجانبية لمعالجة تلك الأمراض:

- صدمة السلفيين في شيوخهم، وهذا بلا شك له تداعيات، وهي فتنة عظيمة.

- رد فعل كثير من النفوس لحالة عدم الثقة والاتزان، اقتحام الحرمات وقسوة القلب؛ فمن تعود على جلد العبيد ليتحرك للعمل، سيعاني من مشكلة تغيير الخطاب لأسلوب لين وسهل في طريقته ومضمونه...

"أنت واخدة على كلمة "الانتحار كفر"، فلما نقولك: لا، ده كبيرة مش كفر؛ تحسي أنه: إيه ده؟ الله! يعني ممكن أنتحر عادي؟؟"...

- حالة من المناكفة للسلفية، ناتجة عن مزيج من الرغبة في الانتقام من النفس ومن السلفيين، تظهر في صورة طفولية: "كل حاجة حرمتونا منها هنعملها، حتى الحرام والبدع"!

- انحراف بعض الناس نتيجة المناكفة السابقة إلى الزلل في مسائل الاعتقاد، والسير في مذاهب مبتدعة نكاية في السلفية؛ خصوصًا مع رد الفعل العنيف الذي يتخذه السلفيون ضد من تسوّل له نفسه تخطئة الكبار من السلفيين!

- استغلال هذه الفضائح من قِبَل أطراف عديدة، نواياهم ظاهرة السوء!

وبعض الأعراض المتوهمة كقول بعضهم:

"في زمن التنازلات في الدين في كل حاجة؛ رأيي -والله أعلم- إن الأفضل منشرش الخلافات والتساهلات دي"!

والرد ببساطة أنه: في زمن التنازلات؛ الناس أحوج أن يتعلموا الفقه كما هو بما فيه من سَعة ويسر ورحمة، وألا نتركهم يفعلون أمورًا يظنونها محرمة وهي في الواقع مباحة؛ فتكون النتيجة أنهم يأثمون، وأنهم يقتحمون المحرمات (ماهي خسرانة خسرانة)!

النتيجة: حصر الدين في مظاهر، والتعالي على من عجز عنها.

النتيجة: تقسيم الناس لمتدين وغير متدين بناء على معايير مظهرية لم تكن يومًا معيارًا لهذا التقسيم؛ بل يوصَمُ بغير الديانة مَن فيه منها أضعافُ ما عند غيره من ذوي المظهر السلفي..

النتيجة: كبر ووصاية على الناس بغير حق.

النتيجة: أن يكون الصراع في مسائل مظهرية مباحة أصلًا، وأقل أهمية من مسائل تحتاج جهادًا كبيرًا فعلًا؛ من سلوكياتٍ وأخلاقٍ وأعمالِ قلوب.

ثم تأملوا معي في تلك العبارة التي صاغت هذا العَرَضَ المتوهم، تأملوا لتدركوا ما يُبيّن قبح ما وصلنا إليه!

يعتبرون أقوال الأئمة تنازلات ينبغي إخفاؤها وفرض الوصاية على الناس... وهذا يتضمن أنه في المقابل: أقوالنا واختياراتنا هي الورع والديانة والصيانة والاتباع ..

أي درك هذا الذي انحدرنا فيه!

مما كتبت

"أنا عارفة إن في قلوب كثيرة موجوعة أوي من المواجهة مع النفس... أنا حاسة بيك، ومريت بكل ده، ولا زلت تعبانة. بس صدقوني، لو مواجهناش هنفضل طول عمرنا عندنا أمراض خفية ومنعرفش عنها حاجة!

لازم لحظة مواجهة كل فترة عشان ننقي نفسنا، ونقف نراجع نفسنا .. ده من رحمة الله بينا. لحظات المواجهة الحاسمة بتكون عنيفة وموجعة، بس وجعها ده بيحرق الشهوة ويكوي الجرح، وجع يدل على خير كبير جواك، لو لقيتيه استبشري خير.

ثقي إن مفيش حاجة بتروح عند ربنا، ثقي إن اللي عملتيه لله مرحش هدر، وأن نرجو ونتعشم أن ربنا لما يعلّمنا خلل فينا؛ فده باب خير كبير اتفتح عشان نتحسن... وإن شاء الله دليل أن ربنا بيحبك.

محدش سفَّه تعبك الصادق لله، ولا حد يقدر يعمل كده ولا يقوله؛ لأن ده بينك وبين الله أصلًا، محدش له دعوة بيه، {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ}.

الحرب مش معاك ... الحرب مع مرض قلب وشيطان ... الزلزال اللي بيهزك بيخرج الخبث، وهيفضل في قلبك الخير، بس اصدقي مع الله، ركعتين قيام وقولي يارب!

متخافيش .. اصدقي مع الله وهو وكيلك، يخرجك من عنق الزجاجة إلى رحابة الحق ... هتكوني أحسن .. .فقط اصدقي مع الله ولا تبالي!

يضيق صدري ولا ينطلق لساني، فأرجوهم أن نصلي ركعتي قيام ونلهج بدعاء الاستفتاح... **فهل من مجيب؟**

ꕥ

- أنا معنديش اعتراض أنه يكون النمص جائز، بس برضو لازم حد من الفطاحل يؤكد أنه الأئمة فعلًا والمذاهب بتقول كده.

- فطاحل زي مين؟

- ابن العثيمين مثلًا...

- الله يرحمه مات! بس سؤال أنت عارفة رأيه أصلًا في موضوع النمص؟

- لا.

- تعرفي تحرري مسألة على مذهب الحنابلة؟

- لا.

- ومع ذلك، لازلت تفتين يا عزيزتي بما ترجح عندك ... يبقى احنا عندنا مشكلة!

ꕥ

- حبيبتي سارة اتقي الله، ولا تفتي بغير علم، ولا تنشري فتوى إباحة النمص...

- ما الفرق بين نقل فتاوى التحريم أو فتاوى الإباحة؟ هلا أنكرتِ على من نقل فتاوى التحريم سواء بسواء؟

- فتاوى التحريم مطابقة للنص، فتاوى الإباحة مخالفة للنص!

- حبيبتي، تعرفي تسمي لي أسماء عشر كتب في كل مذهب؟

- لا.

- اتقي الله، ولا تتكلمي في دين الله بغير علم!

ꕥ

أيها الحبيب الغالي:

1- كونك استفتيت عالمًا تثق بعلمه، ولم تتساهل في التأكد من توفر هذا فيه، فأفتاك، فأخذت بقوله، ثم تبين لك خطؤه وهو أهل للفتوى، أو عدمُ أهليته أصلًا؛ لا يقدح فيك، ولا يضيع به أجرك.. فقد فعلت ما أمرك الله تعالى به، وأُثبتَ بإذن الله، ولا تتحمل خطأ ولا إثمًا، حتى لو أخطأ مفتيك أو كان غير أهل، عارف ليه؟

لأن الله قال: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} ولم يقل: إن أصابوا! فحين سألت من تظنه عالمًا ثقة، فقد حصل امتثال أمر الله الرحيم الكريم الجميل -ﷻ-، وما كان الله ليضيع إيمانك وثوابك.

2- نحن لا ندعوك لتغيير رأي اتبعت فيه من تثق به، نحن فقط ننكر التعصب لقول في مسائل الخلاف والإنكار على المخالف واعتباره مخالفًا للسنة، والظن أن حجية السنة حجية فهم مشايخك للسنة. (...)

تعال بقى يا حبيب لرقم 3:

بعض الناس يوهم أتباعه وأصحابه: أن تغيير آرائهم فيما كانوا يرونه حرامًا انتكاس، ويحتج بآثار عن بعض السلف فيضعها في غير محلها.. فاسمع يا حبيب، ولا تغرنك التهويلات:

تغيير المرء آراءه القديمة يقع على أحوال لا ذم فيها:

1- تغييره ما كان قد قال به بناء على كونه المشهور عند طائفته، وما نشأ عليه بلا أثارة من علم ولا تمحيص، ثم تبين له خطأ ذلك مع زيادة علمه وتبصره.. فهذا من كمال عقل المرء ونضجه وتجرده وإنصافه.

2- تغييره ما تلقاه تقليدًا لكونه صار أهلًا للاجتهاد..

فهذا قد تغير الفرض في حقه من التقليد إلى الاجتهاد، وهذا من زيادة الهدى واليقين.

3- تغيير المقلد رأيه المبني على تقليد؛ إلى رأي آخر بتقليد كذلك..

وفي هذا نزاع بين أهل العلم وتفصيل في جواز الانتقال فيه إلى الأسهل.

وفي حالة كونه قد قلد من هو أوثق عنده، أو تبع ما ظهرت لديه -بحسب ما له من أهلية- قوة حجة مقلَّده الجديد وضعف حجة القديم؛ فلا إشكال البتة.

- وكونه يتبع رأيًا عليه المذاهب الأربعة في مقابل رأي مخالف لهم قال به معاصر، لا يؤثر في رتبة القول أن يكون قد خلقه الله أو بقي نطفة في الأصلاب، ولا يُخرَق إجماع بمخالفته، ولا يُنتظر رأيه لينعقد به إجماع؛ فهذا من كمال عقله وبصيرته.

وكونه -إن أحسن فهم أقوال المذاهب- ينتقل من تقليد المعاصر، إلى تقليد واحد من الأئمة الأربعة؛ فهو انتقال من تقليد مرجوح إلى تقليد راجح بإجماع لا يعيبه من له أدنى عقل وورع.

- وكل هذا لا علاقة له بكون الرأي الجديد أسهل من القديم، أو ليس عليه الجمهور، ونحو ذلك مما ليس له أثر في صحة القول وضعفه..

فتبين لك: أن مجرد تغيير الرأي ولو إلى الأسهل ليس فتنة، ولا علامة على التقلب المذموم، ولا انتكاسًا، ولا اتباعًا للهوى؛ بل قد يكون من كمال المرء وزيادة هداه ونضجه العلمي والعقلي.

مما كتب الشيخ محمود عز الدين.

مادة دسمة للاحتفال على موائد السلفيين!

كل شيء مباح -ولو كان من الكبائر- للتحذير من المتمذهبة المبتدعة المخالفة للإجماع في مسائل مهمة جدًّا .. **كالنمص!**

في ظل تلك الأحداث، سقطت الكثير من الأقنعة، رأيت معنى حديث ذي الوجهين، ورأيت معنى الجدعنة والشهامة من نساء أكثر مروءة من بعض الذكور، ورأيت تطبيقات لمبدأ "نفسي نفسي، وأنا مالي"..

ورأيت ورأيت!

أما من ليس بأهل، فمهما كانت شهرته، فكل ما فعلوه من طعن وتحذير وتطاول؛ فهو هباء منثور!

هل تصدق أن من طالباتي من تحذر مني؟ ممن كنت أقول لهنّ: لستِ أهلًا أصلًا للتدريس ..

ممن أرشدتهن للدراسة عند الشيخ (كريم) مَن تحذر مني!

ممن إذا اختبرتها في تلك المتون البسيطة التي كنت أدرّسها لن تنجح أصلًا مَن تحذر مني!

لكن؛ كل هذا لا يساوي صدمتي في الكبار .. المتصدرين!

فالشيخ فلان الكبير يقسم أنه ليس هناك خلاف في النمص .. **لايزال يقسم!**

والشيخ فلان الكبير يقول: هؤلاء كذابون، لا يوجد خلاف ولا في الكتب!

فتأتي أخت فرحة تسألني كأنها تستفتهم: من أين عرفتِ أن مذهب الحنابلة جواز القص والحلق؟

لا يريدون السماع .. يجعلون أصابعهم في آذانهم ..

يا قوم، أنتم ترددون ما كنت أقوله، أفلا تعقلون؟! أعطوا لأنفسكم فرصة للسماع والفهم!

ꕥ

ستظل فتوى النمص متربعةً على عرش الفتاوى التي أفاق بسببها المنصفون من السلفيين!

أولًا: لأنها فتوى مظهرية، أخذت أكبر من حجمها.

ثانيًا: لأن القول السلفي فيها مخالف لقول الأئمة كلهم بطريقة صادمة جدًّا، وكم الكذب والتدليس صادم.

ثالثًا: كشفت حجم الجهل والتعصب والهوس.

رابعًا: كشفت فضيحة الاستدلال على طريقة: "الحديث صحيح صريح!".

خامسًا: هذه أكثر فتوى كنا ننهى عن المنكر بسببها ... فشكلنا وحششششش أووووي!

ꕥ

كتبت لهم: أنتم لا تعلمون أصلًا رأي كثير من مشايخ السلفية في مسألة النمص، وضربت مثالًا بالشيخ الكبير (أسامة) والد صديقتنا (سامية): أن فتواه جواز القص والحلق.

ثارت الدنيا، واستخرجوا تسجيلًا قديمًا للشيخ يهتف فيه على المنبر: "بالإجماااااع، أخذ أي شيء من الحاجب حرام"؛ فاتهموني بالكذب.

- يا بنات، بنته قالت دي فتوى والدي.

- يعني نصدقه بصوته ولا نصدق بنته؟

- يا جماعة، ماهي بنته بتنقل عنه، وبتقول ده تسجيل قديم.

سألتها مرة ثانية:

- سامية أبوك بيفتي بكده؟

- اه والله.

- طب قولي لهم بس أن دي فتواه...

- لا.

-ليه؟

- أبي قال لا تتدخلي ولا تتكلمي؛ لأن دول مثيرو شغب!

- لكن والدك له تسجيل بيقول فيه بالإجماع حرام، وفعليًّا هو غيّر فتواه يعني، فقط يفتي بما يراه راجحًا .. فقط يقول كنت مخطئًا فيما سبق.

- لا.

- طب مش عشاني، عشانك أنت، بيقولوا عليك كدابة!

- لا.

- .....!!

ثم اتصل بوالدها بعض البنات يسألنه عن حكم النمص، فقال لهنّ في تورية: "النمص هو النتف". **وسكت!**

طيب يا شيخنا، أكمل العبارة .. قل ما تدين الله به .. قل يا شيخ باقي العبارة: "وأما الأخذ بالحلق والقص فليس نمصًا"! قلها، وقل إن ذلك هو الراجح عندك بالدليل على الطريقة السلفية! **لكن سكت الشيخ عن البيان!**

فروّجَت الأخوات كلامه باعتبار أنه .. تكذيب لنا!

لا تعليق! ..

مرارة!

- بس انتو كدة بتفتنوا الناس.

- أي ناس؟ تقصدين السلفيين طبعًا أليس كذلك؟

الناس عندكم السلفيون فقط! هؤلاء الذين صنعتم منهم وحشًا ضاريًا له مخالب وأنياب ينهش لحوم الناس بقسوة .. سطوة الجمهور تلتهمكم أنتم أيضًا! **أتخشونهم؟** فالله أحق أن تخشوه.

أتخافون عليهم الصدمة؟ أنتم من صنعها، وتستمرون في ترسيخها، ونحن لسنا في كهف مغلق!

ثم الأمة كلها .. أين حقوق الأمة؟ لا محل لها من الإعراب!

وكل هؤلاء الذين خربت بيوتهم لا دية لهم!

وكل هؤلاء الذين يعانون وينتكسون وينفرون لا بواكي لهم!

وصاحبنكم أيضًا إذا راغمت؛ أوجعت!

طوال العامين؛ منذ منشور اعترافات رمضان الشهير، كتبت كثيرًا من الردود... لكني سأنتقي لكم هذا المنشور الذي نشرته في ديسمبر 2017، وهذا يعني أنه منشور متأخر، لكني اخترته؛ لأنه من أشمل ما كتبت، وفيه ردٌّ مختصر على كل ما سيخطر لك ببال.

الحقيقة، هو من أشد ما كتبت لهجة .. بعض منشوراتي كانت هينة، وبعضها حادة، بعضها ساخر وبعضها مشفق رحيم، بعضها مرتب وعلميّ وبعضها يخاطب العاطفة..

مراغمةٌ طالت، والأذواق تتفاوت .. البعض يضحك والبعض يبكي، البعض يقبل والبعض ينفر، البعض يعيد التفكير، البعض يتغير .. والبعض يشتم!

فاتال شوت

- افرضي طلع يوم القيامة النقاب فرض!

✓ متقلقيش عليا أنا بريئة الذمة، لأني قلدت إمامًا من الأئمة الأربعة ممن أجمعت الأمة على براءة ذمة من قلدهم، المهم شوفي أنت بتقلدي مين، وهتعدي على خير ولا بتجتهدي بغير أهلية؟ ومن أفتى بغير أهلية أَثِم ولو أصاب

- هتقولي إيه لربنا وانت بتخالفي الحديث الصحيح الصريح؟

✓ حضرتك أنا مش بخالف الحديث الصحيح الصريح، أنا بخالف فهمك وفهم شيخك للحديث الصحيح، وآخذ بفهم الأئمة والسلف، المهم أنت بس حاولي تتعلمي مين سلفك في فهمك وفهم مشايخك؛ عشان كثيرًا من الأحكام أنت فيها "سلفية بلا سلف"! ويا ريت ده يكون قبل ما تنكري على من له سلف، وتعملي من نفسك مفتي وأنت بلا أهلية.

- بس النمص حرام؛ لأن الحديث واضح، وهتعملي إيه؟ دي لعنة؛ يعني طرد من الرحمة!

✓ الحديث لا واضح ولا صريح في الدلالة على فهمك أنت له، أما فهم الأئمة فغير ذلك، وربنا قال: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْر}، مش فاسألوا السلفيين! والفتوى بغير علم كبيرة من الكبائر، بل من أكبر الكبائر، وكمان الإنكار في الخلاف السائغ حرام؛ يعني أنت كده آثمة وأنا بنكر عليك أهو وبنصحك، بلاش كِبر واقبلي النصيحة.

- "أقول لكم: قال رسول الله، فتقولون: قال أبو بكر، قال عمر".

✓ اسكووتي! مش طلع الأثر له كِمالة عمرك ما سمعتها من شيوخك! الصحابي اللي بيناقشه ابن عباس ردَّ على ابن عباس وقال له: "لَهُما أعلمُ برسول الله منك"؛ فابن عباس- ﷺ- عشان بيفهم سكت، إنما احنا نقول لكم الأئمة والفقهاء أعلم بكلام رسول الله منكم مبتسكتوش، بتقولوا

بلسان الحال: احنا الأعلم، واحنا المنقِّحون، وقد بلغنا ما لم يبلغ الأولين والآخرين، وبتقولوا بلسان مقالكم علينا:

- إنتو كدة اتخذتم أحباركم ورهبانكم أربابًا من دون الله!

✓ بتكفرونا؟ بتنزلوا آيات الكفار علينا في خلافٍ فقهيٍّ؟ فأعدوا ليوم القيامة جوابًا، ومن قال لأخيه يا كافر؛ فقد باء بها أحدهما، خافوا الله، اتقوا الله.

- بس الحديث ممكن يكون موصلش الأئمة!

✓ يا حبيبتي بطلوا أسلوب التجهيل والطعن في الفقهاء والأئمة، عيب كده، ثم تعالوا هنا! عددوا لنا كتب الفقه والمتون المذهبية اللّي قرأتوها عشان تقولوا موصلش ووصل، إنتو أصلًا متعرفوش هم بنوا الحكم على إيه، درستم كم متن؟ قولوا لنا! لكن مش هتقولوا عشان مفيش.. عشان تعرفوا إن علمكم "تيك اواي" وفوضى، وكله جوجل والشاملة وبس، إنتو مش فاهمين يعني إيه مذاهب، ولا فاهمين إنها بنيان محكم.

- متعصبون للمذاهب! ثم أنتم كده بتجهلوا مشايخنا الكباااار ... إنتو بتطعنوا في علماء التوحيد.

✓ إنتو اللّي بتطعنوا في الفقهاء والأئمة، وبترموهم بالجهل والهوى والتعصب وتهم أخرى، وبتقولوا فيهم ما لا تقبلون ربعه على أنفسكم وشيوخكم، فأي الفريقين أحق أنه يتوصف بالتعصب؟

- إنتو لكم أغراض أخرى.

✓ حجة البليد مسح التختة، ملقتوش في الورد عيب قلتو أحمر الخدين! اطعنوا في النوايا والديانة وزكوا أنفسكم ونياتكم كيف شئتم، ويوم القيامة لنا موقف بين يدي الله!

- بس إنتو كدة بتعملوا بلبلة وبتلخبطوا الناس وبتفتنوهم وبتغيروا فتاوى استقرت، وبتنشروا منكرات تركها الناس.

✓ إنتو اللي بتعملوا بلبلة وبتلخبطوا الناس وبتفتنوهم وبتنكروا عليهم في الخلاف السائغ، إنتو الي جيتوا والدنيا مستقرة على فتاوى الأئمة، وخالفتوها وطعنتم في مخالفيكم وفي كل عالم مخالف لكم وفي المذاهب، نفَّرتم الناس وشددتم عليهم، وضرركم على نفسكم وعلى الناس كبير، واحنا بنردّ الناس للفقهاء والأئمة والمذاهب عشان نحفظ دينهم، ونلتف كلنا حول كيان واحد، ويسعنا الخلاف، ويكون لنا معيار واحد نقف أمامه سواسية بدل فوضى الدليل والراجح بتاعكم .. أنتم في جهل وفوضى .. اتقوا الله كفاية عك!

- شوفي يا أختي، احنا نتقي الشبهات أحسن (بلسان الحال: إحنا أحسن منكم، وبنخاف الله وأنتم لأ)!

✓ شبهات أيه يا غالية؟ دانا كنت سلفية واحنا دفنينه سوا... اشطب على الحكم وقل: مفيش دليل! شوفي كده الشبهات دي:

الإفرازات (رطوبات فرج المرأة) بتتوضي منها يا فوزية؟

دخول الحائض المسجد، بتدخلي عادي! مع أنه خلاف المذاهب الأربعة.

مس المصحف للمحدث حدثًا أصغر أو أكبر أو الاثنين .. بتمسيه؟

القول بعدم نجاسة الدم .. مع أنه منقول على نجاسته إجماع!

قضاء الفوائت، مبتقضيش القديم، مع أنه منقول إجماع على وجوب القضاء!

تشقير الحواجب فين اتقوا الشبهات؟ بتشقري؟

وغيره وغيره وغيره... دانا ممكن أجيبلك مسائل خلافية متعرفهاش أصلًا ولا يمكنك أبدًا تتقي فيها الشبهات بزعمك، الحقيقة أنت عندك الشبهات ما خالف مشايخك، والمحكمات ما قاله مشايخك! أنتم جعلتم أنفسكم فلاتر الأمة، والحكم على الأمة ... اتقوا الله!

- احنا بنرجح بالدليل، ويلزمكم قبول الدليل؛ يعني لو النبي قدامكم دلوقت يسعكم تروحوا لكلام أحمد وأبي حنيفة؟

✓ أهلًا!!!، عارفين من الذي يُلزم العامة بالنظر في الدليل؟ عارفين ابن قدامة قال عنه إيه؟ قال إنه معملش كده غير أهل البدع من القدرية والخوارج[1]، الصحابي اللي قريحته عربية وعنده أدوات الاجتهاد كان بيفتي، غيره من الصحابة كان بيسأل ويستفتي، وفرض اللّي شاف النبي غير فرض اللّي وصله الأحكام عن النبي، بطّلوا عك وتلبيس، أحمد وأبو حنيفة فقههم

[1] سيقولون: لكن احنا مش بنلزم العامة بالنظر في الدليل، يسألوا أي عالم ومش لازم على مذهب! فنقول لهم: يسألوا أي عالم تعني أنهم سيقلدونه، فإن كانوا سيقلدون لا محالة، فتقليد من أجمعت الأمة على براءة ذمة من قلدهم (فقهاء المذاهب الأربعة) أولى، ثم كيف يكون عالمٌ في عصرنا دون دراسة الفقه على مذهب؟ هل سيبدأ الاجتهاد من جديد ويتحفنا بمذهب مخالف لمن سبق؟ إذن؛ لن تكون سلفية .. أو ستكون سلفية بلا سلف!

مبني على: قال الله وقال رسوله، مش فقهم مضادٍ للشريعة ومنافس لها، اتقوا الله! أنتم كده بتكفروا علماء الأمة وانتو ولا فاهمين حاجة، لو فقه المذاهب بينافس فقه النبي يبقى دول كفرة! أفيقوا بقى، كفاية شغل الببغانات ده.. اتقوا الله." اهـ.

لكن لم تكن القضية التي تؤرقني فقط أن "**نتغير**" .. كانت القضية الأكبر: ما هو المعيار الذي سننتقل من قوقعة السلفية إلى إطاره؛ حتى لا تنفلت الأمور!

ꕥ

- **تعرفي**، أصلًا مسألة فتوى نقض الوضوء بالإفرازات دي ناتجة عن سوء تصور الفقهاء للمسألة؛ لأنهم رجال ميعرفوش الكلام ده، ومش مقدرين المشقة.

- الحديث واضح وصحيح وصريح، فالخلاف بين العلماء ده نبله ونشرب ميته.

- كلام ابن رجب في رسالته باطل، والقائل به يقوله عن جهل وتخلف، وحجج ابن رجب فاسدة عقلًا ونقلًا، والإجماعات المنقولة باطلة بالإجماع الذي نقله ابن تيمية، وبمثل هذا سجن المتعصبون ابن تيمية.

- المدعكة الشديدة التراكب؛ المسماة بالتراث الإسلامي.

- التمذهب للمتعلم حاجة كويسة وبس، لا واجب ولا مستحب، سميها وجوب صناعي؛ يعني كأنك بتشتري كتاب المعاصر كدة للرياضيات مش أكثر، أي حاجة ثانية فهي من موروثات عصور التخلف، وإن أراد إحياءها من ظن هذا دينًا لضعف تحقيقه.

- هو خلاف ضعيف مبني على توهم، بس أهو عشان خلاف داخل المذاهب الأربعة يبقى سائغ، لكن فيه مسائل حظها العاثر لم يجعلها في مذهب من الأربعة، فبتاخد ختم غير سائغ، حاجات كدة قدرية وظروف كده زي مكتب التنسيق.

- لابد من مراجعة الموروثات، وليس كل ما في البخاري نقبله مسلمًا.

- كتب الفقه مليئة بأحاديث ضعيفة وأمور لا يقبلها العقل!

عزيزي القارئ... خمن من قال ماذا من الأقوال السابقة:

سلفيون؟ علمانيون؟ نيو سلفية؟

هل يمكنك التفريق؟!

وهل في عالمنا العربي مثقف وعى شيئًا من واقع التاريخ الحديث لا يعلم السبيل الذي نفذت منه بريطانيا عقب احتلالها لمصر إلى الشريعة الإسلامية تعبث بها كما تشاء؟

لقد كان الإسلام في نظر اللورد كرومر متأخرًا جامدًا يستعصي على التطور، وكان يبحث عن وسيلة سائغة لإفلات المجتمع المصري من هذا القيد ... وكانت الوسيلة السائغة البارعة: بث **فكرة الاجتهاد** في صدور أولئك الرجال الذين كانوا يؤمنون بضرورة تطور المجتمع الأوروبي الحديث، وما هو إلا أن سُلِّمت لهؤلاء الرجال المناصب الدينية الحساسة كالإفتاء ومشيخة الأزهر وإدارته؛ حتى انطلق الرجال الذين آمنوا بالمجتمع الأوروبي في كثير من مظاهره وقيمه، يدعون شيوخ الأزهر وعلماءه إلى الاجتهاد قفزًا فوق الشروط! حتى ذهب الشيخ المراغي إلى أن للمجتهد ألا يكون عالمًا باللغة العربية، وقام رسل بريطانيا يجتهدون في الشريعة الإسلامية، وانتهوا من اجتهادهم إلى تغيير قانون الأحوال الشخصية؛ فقيدوا تعدد الزوجات وحق الطلاق، وساووا بين الرجل والمرأة في الميراث، وانطلقت الفتاوى الاجتهادية نشيطة تنكر الحجاب، وتجيز نسبة معينة من الفوائد الربوية في البنوك، وكانوا يصفون أرباب هذه الفتاوى بسعة الأفق ومرونة الفكر وتفهم روح الإسلام.

فما العبرة التي نستفيدها من هذا الواقع القريب؟

ما هو المسوغ لتهديم بنائنا الفقهي العظيم الذي شُيد بأيدي أئمة مجتهدين مخلصين بإجماع القرون الماضية كلها ثم لفتح باب الاجتهاد أمام الجميع

ونبذ التمسك بالمذاهب الأربعة؟

إن الوباء الذي اقتحم باب الاجتهاد بالأمس موجود بذاته اليوم، وإن الأيدي التي تتهيأ لتمزيق أحكام الإسلام بسكين الاجتهاد اليوم أضعاف الأيدي التي فعلت ذلك بالأمس!

دعوا المسلمين -يا هؤلاء- يسيرون وراء أئمتهم التي أطبقت القرون كلها على مشروعية تقليدهم واتباعهم، واجتهِدوا إن كنتم تريدون الاجتهاد في استخراج أحكام المشكلات الحديثة التي لم تكن موجودة بالأمس ولم يتحدث عنها الأئمة في أيامهم، ولسوف ندعو لكم بالتوفيق وسداد الرأي".

من كتاب: اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية - للبوطي[1].

معيار!

صار ذلك شغلي الشاغل وهمي القلق!

لا يمكن أن ننتقل من الطريق السلفي اللامذهبي اللامعياري إلى الفضاء الرحب!

كلٌّ يأخذ ما يشاء من سبل.. فوضى الانفتاح!

لابد من معيار يقيم الجميع بناء عليه ويقبله الجميع ... معيار محايد. نحن في العالم العربي نعاني من مشكلة مع المعايير، معايير الجودة، معايير الإتقان، معايير أي شيء .. المعايير مع الجهل والهوى والفساد .. **هذه أمور لا تتفق للأسف!**

ستجد من يتعلل بالمرونة ليحصل على استثناءات: الرشاوى .. المحسوبية .. العلاقات .. المال .. الجمال .. الصداقة ..! قل ما شئت، واستخدم لفظ

[1] لا أنكر أن لي تحفظات على الشيخ رحمه الله؛ ولكن كلمة الحق تقبل ممن قالها كائنًا من كان.

مرونة، واحصل على استثناء، وفرَّ من أي معيار!

الانتقال بدون معيار من السلفية يعني الانفلات بلا شك! تذكَّروا ذلك الباحث السوداني الذي شاركته بحث الختان، مثلُه كثير ممن أحسب فيهم حسن القصد والرغبة في رد الشبهات والتوفيق بين العلم والدين؛ لكن الطريقة بلا معايير .. **انفلات!**

وتطوير السلفية كذلك بدون معيار مشكلة تضاهي السلفية في أثرها.. **دعك من قضية الناتج؛ هل هو تشدد أو تسيب؟ هل هو صواب أو خطأ؟**

في اختبار الرياضيات لا تُحتسب لك الدرجة على الجواب النهائي؛ بل لو كان الجواب النهائي صوابًا والخطوات خطأ؛ فالإجابة خطأ. في حين لو كانت الخطوات صحيحة، وأخطأت الجواب النهائي؛ فلك درجة ما!

المجتهد بين الأجر والأجرين؛ لكن عليه أن يسير في الطريق الصحيح وليس في طريق الهوى ..

ثم كيف يميز الناس؟ لا يمكن لعامة المسلمين التمييز بين العالم وغيره بمعايير العلم والتقييم العلمي، ولو وكلنا الأمر لفلان وفلان لتقييم الناس بالمعايير الدقيقة؛ لآل الأمر إلى الهوى للأسف.

لابد إذن من معيار يميز العامي به مَن يستفتيه؛ لا سيما أن اختيار المفتي والتحري في ذلك هو اجتهاده الواجب عليه.

لكن أيضًا من سيضع المعيار؟

التراث الإسلامي معياري، ولا تخدعنك كلمات براقة كقول بعضهم: إن القواعد والمعايير والاطّراد جمود معيب! هذا قول من **أعجبه عقله**، وظن أنه هو وحده المعيار.

الخروج عن القاعدة في تراثنا له طريقة .. والمرونة لها نظام .. وإلا لقال من شاء ما شاء، وإذن هي الفوضى!

ꕥ

الفقهاء المتأخرون متعصبون لمذاهبهم، ويجاملون المتمذهبة في العموم، ويهاجمون من يخالف المذاهب الأربعة بزعم أنه ليس أهل اجتهاد!

هذا تقرير لدى من؟ سلفي؟ أم علماني؟ أو نيو سلفية؟!

خمّن!

نحن أمام معضلة حقيقية!

لابد من معيار يقف أمامه الجميع سواسية، ويمكن ضبطه، فيفتضح الدخيل بسهولة؛ لأن تولية الأمور لشخص ليحكم على غيره سيخضع للمجاملات والأيديولوجيات، ولحسابات وأهواء.

لا يمكن أن يكون المعيار للتصدر هو: "شعوري أنني على علم"، ولا سعة اطلاعي، ولا ظاهر ديانتي وحسن خلقي، ولا يمكن أن يكون المعيار الفتوى بالتشديد ورعًا، ولا بهوى المستفتي تيسيرًا!

كل مهنة وتخصص يَشترِط لها أهلها إطارًا لتأهل الشخص للممارسة، ثم بعدها تشي به ممارستُه وتقييمُ من حوله ممن لا تشوب شهادتَهم له أو عليه شوائبُ الهوى.

فما معيار الفقه والفقيه؟

مع بداية الدراسة المذهبية الحقيقية اختلفت نظرتي تمامًا، حلم الترجيح ودراسة المذاهب الأربعة والمقارنة والاختيار تبخر؛ فالمذهب الواحد يحتاج جهدًا كبيرًا جدًّا!

ليس فقط لحفظ الأحكام، بل لتصور المسائل على وجهها، وضبطها، وضبط قيودها وأدلتها، وطريقة الاستدلال... إلخ.

تفاجأت أن هناك من يدرس المذهب الواحد وينتسب له، ثم أصلًا لا يضبط صور بعض المسائل، ولا يعرف أدلتها في المذهب.

- الدليل: قد أقرأ أربعين كتابًا فلا أجد الدليل الذي بنوا عليه الحكم فعلًا في 39 كتابًا، ثم أجده في آخر السطر في باب من الكتاب الأربعين!

كذا كان يقول الشيخ محمود.

لم يعد العلم "تيك أواي" وشاملة وجوجل.. وترجيح!

لم يعد الأمر ربع دورة، وقراءة صفحتين من كتاب، ثم التصدر بقوة القدرة على الكلام المنمق! ولا هو الإفتاء بالمشهور من الفتاوى السلفية والإنكار على المخالف.

وهنا دحضٌ مزلَّةٌ مرة أخرى، كلاليب الفتن تخطف من أراد الشهرة والتصدر ولو بغير أهلية؛ فالمذهب يحتاج ضبطًا وتبحرًا وتكرارًا ومزيجًا من الحفظ والفهم، يحتاج وقتًا طويلًا وإقبالًا على العلم، يحتاج ذكاءً وزكاءً!

المتون لم توضع عبثًا، وضبط طريقة الفقهاء وأسلوب كلامهم ومصطلحاتهم وفهمهم يحتاج دقةً وتمييزًا وتركيزًا، يحتاج إلى تحرير العقل

والنفس من الحكم المسبق، والتحيز والتنمر، يحتاج إلى تحرير النفس من العلو والعجب.. يحتاج أن تترك القلم الأحمر، وتأخذ القلم الرصاص والأوراق النظيفة، فتكتب على ثنايا عقلك بخط خفيف أسئلة تحتاج إلى إجابة .. لا تقريرات مسبقة تحتاج إلى إثبات؛ لكي تفهم كلامهم كما أرادوا لا كما تريد، ولا كما يريد من حولك؛ مجتمعك وأصحابك وطائفتك!

العلم يحتاج تجردًا وصبرًا وجهادًا كبيرًا للنفس .. يحتاج صدقًا مع الله واستعانة وتضرعًا .. يحتاج نفسية هادئة فضولية تبحث لتفهم، تحسن الظن بأئمتها وعلمائها ..

لفت بعض المشايخ أنظارنا إلى كثير من التناقضات والتطاولات التي كنا نرتكبها في حق العلماء، ولفت نظرنا إلى طريقة السلف الحقيقية وطريقة العلماء فعلًا مع العلماء.

"**(وَ) يُسْتَحَبُّ أَنْ (يَبْتَدِئَهَا) أَيْ التَّرَاوِيحَ فِي (أَوَّلِ لَيْلَةٍ بِسُورَةِ الْقَلَمِ) يَعْنِي {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ} (بَعْدَ الْفَاتِحَةِ؛ لِأَنَّهَا) أَيْ أَوَّلَهَا (أَوَّلُ مَا نَزَلَ) مِنْ الْقُرْآنِ (فَإِذَا سَجَدَ) لِلتِّلَاوَةِ (قَامَ فَقَرَأَ مِنْ الْبَقَرَةِ)** نَصَّ عَلَيْهِ وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَهُ فِي ذَلِكَ أَثَرٌ" (كشاف القناع).

نص عليه؛ يعني: الإمام أحمد له نص في هذه المسألة.

"**والظاهر أنه قد بلغه في ذلك أثر**"! معنى الكلام: أنه لا يعرف دليل الإمام أحمد، لكن الإمام أحمد لا يتكلم إلا بدليل وأثر في مثل هذه المسائل؛ فإذا كان نصّ عليه، فالظاهر أنه قد بلغه أثر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "بل الذين كانوا قبل جمع هذه الدواوين أعلم بالسنة من المتأخرين بكثير؛ لأن كثيرًا مما بلغهم وصح عندهم قد لا يبلغنا إلا عن مجهول، أو بإسناد منقطع، أو لا يبلغنا بالكلية. فكانت دواوينهم

صدورَهم التي تحوي أضعاف ما في الدواوين! وهذا أمر لا يشك فيه من علم القضية" اهـ

أقارن بين مثل هذا الكلام، وبين كلام السلفيين والنيو سلفية: "ليس عليه دليل"! "باطل"! "لا قداسة لأحد"... إلخ؛ لمجرد أن القائل لم يعرف دليل الإمام أو الفقيه، وغاية اطلاعه مهما وسعت قليلة!

ثم إن **المؤلم**؛ أن حسن الظن في معاصرٍ أو موافقٍ يبلغ حد اليقين، وأما مع الفقهاء والعلماء فالجرح مقدم على التعديل!

حين يقول عالم متضلعٌ من العلم عن قول عالم من رتبته: "باطل"؛ تُقبَل منه، وتُناقَش من مُتأهل للمناقشة بموضوعية وحياد دون تعصب لأحدهما، أما حين يأتي معاصر هش العظام فيقول من نفسه برأيه في قول عالم كبير: "باطل"، "هري"، "جهل"، "موروثات عصور التخلف"، "تعصب"...!

ما الفرق إذن بين السلفية والنيو سلفية التي تُعتبر تطويرًا للسلفية وامتدادًا لها من جانب، وبين العلمانية من جانب؟

- النية الحسنة!

- النية محلها القلب، فكيف أميز؟

- بالقرائن.

- وهل ستقبل حكمي عليك؟!

- .....!!

ꕥ

المذهبية لليافعي.

اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة للبوطي.

اللامذهبية قنطرة اللادينية للكوثري.

سلسلة التمذهب وتأصيله وحكم الخروج عن المذاهب الأربعة (سلسلة صوتية).

سلسلة شرح رسالة ابن رجب (سلسلة صوتية).

محطات مهمة لابد أن تمر بها، تتفق معهم أو تختلف، جزئيا أو كليًّا! مع تحفظي على الأشخاص .. الحق يقبل وعليه نور ممن قاله كائنًا من كان.

لقد ولَّت مرحلة التقوقع والتشرنق حول كتابات بعينها، ومشايخ بعينهم .. لقد ولَّت مرحلة قبول كل شيء أو رد كل شيء جملة، لم يعد هناك خوف من القراءة للمخالف، فقط صار الخوف من صدق القلب مع الله، أو انحرافه عن المقصد لهواه.

أما الأهم لطالب العلم؛ فدراسة أصول الفقه بتوسع، لاسيما أبواب التقليد والاجتهاد!

تخيلوا! المتمذهبة الجدد دول بيقولوا لابد من اتباع مذهب واحد لا تحيدون عنه!! ومن خالف مذهبه يأثم، حتى لو خالف المذهبُ الدليلَ لابد من اتباع المذهب!! أعوذ بالله، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله...

وتتوالى الشهقات والاعتراضات وهمهمات الاستعاذة بالله من الفتن، وحمد الله على السلامة مما ابتُلي به المنتكسون الضالون المفتونون، ويتحمس البعض للسب واللعن والدعاء على الظالمين الذين يريدون إفساد دين المسلمين...

الغريب .. العجيب .. أن صوتي بُحَّ من ترديد أن معتمد المذهب الحنبلي عدم لزوم مذهب واحد! وأن طالب العلم يدرس مذهبًا ويتعبد بما يتعلم، ولا يلزمه التزام كل أحكام المذهب، وأن العامي يستفتي أيَّ متقن لمذهب من الأربعة، ولا يلزمه أن يستفتي واحدًا بعينه!

ꕥ

الصدمة التي عقدت لساني وقلبي: اكتشاف حجم الكذب والتدليس وليِّ الحقائق!

مشكلة البعض أنهم يلوثون الحقائق بذلك التراب على عقولهم.. فتنطبع بصماتٌ طينية تشوّه الصورة اللامعة، ثم هم يسمون الأشياء بغير أسمائها (الالتزام بما في الكتب جمود، وتحريف الكلم عن معناه ونقده بالذوق والرأي مرونة وعلم)!

أن يشرح شيخ كبير متنًا ما، فيقول الماتن: يُكره، فيقول الشارح: يقصد الكراهة التحريمية، ثم تجد تقرير المذهب في الكتب مرارًا: الكراهة لا التحريم، ثم تقلّبها بالمنطق والعقل والسياق، فلا تستقيم إلا على القول بالكراهة!

للأسف، سواء كان ذلك بقصد أو بجهل أو بسوء فهم؛ هل هؤلاء حراس الشريعة؟

هلع!

أليس من صفات بني إسرائيل:

- التشديد الظاهري وانفلات الباطن.
- تحريف الكلم عن مواضعه.
- تحريف الكلم من بعد مواضعه (تحريف معنى).
- الكبر.
- العجب.
- رد الحق إن جاء من غيرهم حسدًا.
- البغي والعدوان.
- الفجر في الخصومة.
- أنهم قوم بُهت.
- الكيل بمكاييل.
- لنا الدار الآخرة من دون الناس.

أنا لا أريد أن أصدق!

أنظر في كتب كبار السلفيين؛ فأجد كلامًا أهوج، وإطلاقات ومجازفات، والراجح كذا، وهو الصواب، وخلاف ذلك باطل!

وإذا كان هذا شيمة رب البيت؛ فكيف بآل بيته من الطلاب؟

"**وهذا قولٌ ضعيفٌ جدًّا**"، والقول منقول عليه إجماعات..!
فلو فرضنا أنه لم تصح هذه الإجماعات، ألا تعتبره: (قولًا وجيهًا).. (له وجه ما).. (سائغًا).. (مقبولًا).. (لا أرجحه، لكن له وجه معتبر)..؟!
لكن؛ "**قول ضعيف جدًّا**"؟!
ثم إنهم لا يشرحون دليل هذا "**القول الضعيف جدًّا**"؛ فيتركوا لنا الحكم والترجيح بين القولين؛ لأنهم أوصياء علينا... فلماذا يفتنوننا بعرض أدلة قول ضعيف جدًّا؟!
والطالب المبتدئ قليل الاطلاع يظن أنه يرجح لمجرد أنه يردد قول شيخه: "والراجح كذا، والمخالف قوله ضعيف جدًّا"! فهو مقلدٌ لا عَقَلَ ولا رأَت عيناه أدلة القول "الضعيف جدًّا"؛ لكنه نشأ متعصبًا يعتقدُ أن كل هذه الأقوال المخالفة لشيخه "ضعيفة جدًّا"، وأنه هو مَن قرر هذا اجتهادًا، وعلى نور وعلم..
أهذه أمانة؟ أهذه ديانة؟ أهذا هو جزاء الثقة فيكم؟

إذا كان هذا نصح عبد لنفسه ... فمن ذا الذي منه الهدى يتعلم؟
وفي مثل هذا كان قد قال من مضى ... وأحسن فيما قاله المتكلم:
إن كنت تدري فتلك مصيبة ... وإن كنت لا تدري فالمصيبة أعظم

- تقولين عنا: إنهم يقولون كلامًا أهوج؟

- عامتكم تقولون في الفقهاء كلامًا أعظم؛ تصريحًا وتلميحًا وضمنًا..! وأنتم تقبلون ممن يقول ذلك، وتعتبرون هذا علامة على عدم التعصب، وعلامة على الديانة والقوة في الدين، ثم تهزون رؤوسكم قائلين: إن هناك فرقًا بين القول والقائل..!

سحقًا سحقًا لمن بدَّل وغيّر!

لم أعد أقرأ تلك التقريرات بذات النفسية السابقة ... **لقد تغيرتُ إلى الأبد!**

نحن باختصار ننكر ما يلي:

1- تصدي غير المتأهل للفتيا والترجيح، والأهلية موضوع طويل، ونحن لا ننازع من تحقق فيه الحد الأدنى منها! وهذه لا كلام فيها إلا مع أهل العلم، وإلا فالجاهل المركب لا يعرف رتبة نفسه ولا رتبة غيره.

2- الترجيح بغير المسالك العلمية؛ كتوهم أن الورع واتباع السنة يقتضي ترجيح كذا، وأن غيره تمييع وتساهل، ومعاص، وأن من يذكر الخلاف المشهور في المذاهب الأربعة مأزوم بضغط الواقع ويريد تمييع دين الناس! وعيوب الترجيح ومهازله في زماننا كثيرة، وأمثلتها لا تحصر.

3- تعميم ترجيحات بعض المعاصرين ومذاهبهم، وحصر اتباع السنة والورع في اختياراتهم، وقد يكون اختيار جمهور المتقدمين على خلافها، وأحيانًا الإجماع!

4- تجرئة العامة وأشباههم على الفتيا والترجيح وتخطئة أئمة الدين، وأمثلة ذلك طافحة بين يديك.

5- الإنكار في مسائل الخلاف السائغ كإنكار المنكرات.. وهذا محرم ومنكر.

6- إيهام الأتباع أن اختيارات معينة في مسائل فقهية خلافية الخلاف فيها مشهور عند المذاهب الأربعة وغيرهم، وربما يكون قول الجمهور خلاف قول المتكلم المعاصر أو الجماعة المعاصرة، إيهام الأتباع أن هذا عَلَم على السنة والسلفية والأتباع، ومن قال بغيره ففي سلفيته نظر!

7- الخلط بين التمذهب والتعصب.

8- التلفيق بين الأصول أو الفروع للخروج بصورة مخالفة للإجماع، ثم نسبتها لمن لا يقول بهذه الهيئة المركبة .. وأمثلة ذلك كثيرة، وسبق ذكر بعضها في عدة مناسبات.

9- التشديد في مسائل لا تستحق التشديد ولا تناولها أحد من العلماء السابقين بهذا التناول المتشنج، بل كانت تتناول في كلمتين أو سطرين، فيخرج بها المعاصر عن سياقها، ويعطيها وزنًا نسبيًّا لا تستحقه في الدعوة والترجيح والتصنيف وأولوية الخطاب بها أو إنكار مخالفها!

10- تصنيف الناس (ملتزمين، وغير ملتزمين)، بما يتبع ذلك من ولاء وبراء ومحبة وبغضاء، على مسائل خلافية مشهورة، وادعاء النقاوة وصدق الاتباع لمن اختار فيها قولًا معينًا.

11- عدم مراعاة اختلاف الأعراف في الترجيح، أو حتى تسويغ القول المخالف لهذا الترجيح الموافق للعرف وما عليه العمل، والإشارة إليه، حيث كان معتبرًا.

12- الاستطالة على أهل العلم وعرض حججهم من أوهى مكاسرها.

13- الاستدلال ببادي الرأي، والزعم بأن ذلك هو اتباع السنة، مع الغفلة عن طرائق الفقهاء ومسالكهم في الاستنباط.

14- ادعاء خفاء الأدلة على أئمة الدين، والحال أنها من أشهر الأحاديث وأمهات الأبواب، وبعضهم رواها في كتبه!

15- تسويتك بين النص وفهمك له، وبين (كل يؤخذ من قوله ويرد) و (كلٌّ يأخُذُ ويَرُدُّ).

16- الزعم أن تقليد المعاصرين أولى من تقليد المذاهب الأربعة، وأنهم أعلم منهم .. ومن قال هذا سقطت مكالمته من الأصل.

17- ترتيب الوعيد المذكور في بعض المسائل الخلافية؛ كالإسبال والنمص على من أخذ بغير اختيار المعاصرين فيها .. والحال أن العلماء نصوا على أن التأويل من موانع لحوق الوعيد والإثم، هذا مع ظهور النص، فكيف مع احتماليته، بل مع مرجوحية قول المعاصر! فمن الكذب على الشرع والبغي تخويف العامة من تقليد قول معتبر بحجة أن الوعيد المذكور في النصوص يلحقهم لو قلدوه.

18- الزعم أن ترك الناس على ما تربوا عليه من الخلافيات هو الحكمة، حتى لو ترتب على ذلك الإنكار بجهل، وسوء الظن بأهل العلم، والكذب عليهم وعلى مذاهبهم.

19- الإصرار على كتم الخلاف القوي في الفتيا العامة حتى مع قوة الحاجة لإظهاره.

20- الخلط بين المسالك الوعظية والعلمية في الفتوى والخطاب العام، ووضع الوعاظ والقصاص موضع العلماء والفقهاء.

21- الظن أن الفقه وقواعد الترجيح مسائل رياضية وهندسية. وهو ظن ساذج.

كفاية كدا.

مما كتب الشيخ محمود عزالدين

مما كتبتُ:

"ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية، وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلى حمص فلم يرُم حمصَ حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على خروج النبي -ﷺ-، وأنه نبي. فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطلع فقال: يا معشر الروم هل لكم في

الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش على الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردوهم علي، وقال: إني قلت مقالتي آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، **فكان ذلك آخر شأن هرقل**".

رواه البخاري - كتاب بدء الوحي.

طبعًا القصة دي أولها قصة سيدنا سفيان مع هرقل .. مهما أوصف لكم أنا لا أمَلُّ أبدًا من تكرار قراءتها، وفي كل مرة كأني أقرؤها أول مرة.

عجيبة جدًّا.. مخوفة جدًّا!

هرقل عرف الحق، شاور العقلاء، تحول لمرحلة "الدعوة" فلم يجد من ينصره، اتوكس بخيبته التقيلة وترك الإيمان .. "فكان ذلك آخر شأن هرقل"! ولبعض العلماء في معنى هذه العبارة أقوال مخوفة جدًّا...

هذا متكرر للأسف .. وإن كانت القصة في الفُرقان بين الكفر والإيمان، إلا أنها متكررة في كل قول حق ..

وكل "وكسة" بيتوكسها الإنسان بحسب قدر ونوع قولة الحق اللّي بننتكس عنها، وكمّ الانتكاس عنها بُعدًا عن الحق؛ خوفًا من "سطوة الجمهور"، و "المكانة عند الجمهور".

المشكلة أن تخدعنا نفوسنا وتسميه: "حرصا على الجمهور".

والأسوأ منها .. لما النفس تخدعنا، وبعدما ننزلق في مزالق "سطوة الجمهور"؛ ننتقل لمرحلة: "نقد من يقاوم سطوة الجمهور"، ونرميه بالتهم المتنوعة "حفاظًا على توازنٍ نفسيٍّ موهومٍ"، ومزيدِ كرامة عند الجمهور..

والله أحق بقلوبنا من أنفسنا ومن الناس، والقبول من الله، والنتائج على الله

والعمل ظاهره وباطنه هو فقط ما سنحاسب عليه .. ويوم القيامة يوم عسير.. والقلوب تتقلب، والفتن خطافة، والشبهات كثيرة، والشهوات عديدة .. **لا مفر من الله إلى إليه!**

اللهم لحظة صدق تنجينا من أنفسنا ومن الناس...

اللهم إني أسألك حكمة وسدادًا، والصدق والإخلاص لوجهك الكريم، وعدم الالتفات للخلق لا مدحهم ولا ذمهم.

اللهم أصلح قلوبنا وأعمالنا، ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به.

اللهم نعوذ بك من ترك الحق بعد ذوق حلاوته، وظلمة الطريق بعد ما أبصرنا نوره.

ما هو المعيار؟

ما هو المعيار الذي يمكن أن نقف أمامه سواسية، بلا فرق بين سلفي أو مثقف أو علماني أو أزهري أو غير ذلك..؟

المعيار الذي يسهل على عامة المسلمين اختيار من يستفتون بناء عليه...

المعيار الذي أعرف به أنني تأهلت للفتوى..

المعيار الذي يحفظ الشريعة من تلاعبات من شاء بقصد أو بغير قصد، بنية حسنة أو بسوء نية.

في كتب أصول الفقه -الحنبلية على الأقل-: لا يفتي إلا مجتهد، أو من أتقن مذهب المجتهد، أو من تبحر في مذهب المجتهد.

والمجتهدون قديمًا كثيرون .. لم يصلنا من مذاهبهم إلا مذاهب الأئمة الأربعة محررة ومفصلة ومضبوطة ومخدومة.

صفات المجتهد .. تحتاج جهدًا لتحصيلها، ليست بهذه السهولة. سِيَر المجتهدين حقيقة فخر الأمة!

لم يعد في زماننا هذا وسيلة لدراسة الفقه إلا بإتقان مذهب من الأربعة .. ليس مجرد قراءة مذهب من الأربعة.. ليس مجرد إنهاء متن مذهبي..

الترجيح رتبة لا يمكن أن يتأهل لها من لم يتقن مذهبًا من الأربعة .. الترجيح ليس بالذوق والوجدانيات ووجهات النظر .. كل هذه أهواء! الترجيح ليس بالاطلاع، ولا بالقراءة، ولا بالثقافة، ولا بالوعي بأوضاع المجتمع مع مقاصد الشريعة، ولا بالورع والتشديد، المرونة ليست قبول كل من يتكلم...!

نحن على شفا حفرة من الانفلات إن لم نلتزم بهذه المعايير؛ فالانتقال من السلفية بلا معيار، ومحاولات تطويرها بسعة الاطلاع، كارثة ستفضي إلى فوضى وضياع الدين... لا أنت معيار ولا أنا معيار ..
هناك علماء راسخون وضعوا معيارًا، ونقلوا إجماعات مبنية على أدلة عقلية وعلى استقراء وعلم ..حتى لو لم تصح هذه الإجماعات؛ التي هي أصلًا مبنية على استقراء علمي وواقعيٍّ، وسدًّا لذريعة الفوضى، وليست مبنية على أشخاص الأئمة الأربعة ولا فقهاء مذاهبهم بالخصوص، ولا هي نتاج تعصب مذهبي كما يزعمون... هي مسألة مصلحيَّة، موافقة للشرع.

قال العلامة المرداوي: "من لم يكن من المجتهدين؛ فهو من المقلدين؛ لأنه لا واسطة بينهما. فعلى هذا لا يعتقد بقوله، ولا بخلافه" اهـ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "من كان مقلدًا لزم حكم التقليد؛ فلم يرجح، ولم يزيف، ولم يصوب، ولم يخطِّئ. ومن كان عنده من العلم والبيان ما يقوله سُمع ذلك منه؛ فقبل ما تبين أنه حق، ورد ما تبين أنه باطل، ووقف ما لم يتبين فيه أحد الأمرين. والله -تعالى- قد فاوت بين الناس في قوى الأذهان، كما فاوت بينهم في قوى الأبدان" اهـ[1]

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: "لا يكاد يوجد الحق فيما اتفق أئمة الاجتهاد الأربعة على خلافه، مع اعترافنا بأن اتفاقهم على مسألة لا يكون إجماعَ الأمة، ونهاب أن نجزم في مسألة اتفقوا عليها بأن الحق في خلافها" اهـ

[1] كلام شيخ الإسلام وكلام المرداوي قبله منقولان بواسطة وليس من المصدر الأصلي.

قال العلامة المرداوي -رحمه الله- في التحبير: "فإن مدار الإسلام، واعتماد أهله، قد بقي على هؤلاء الأئمة -يعني: الأربعة- وأتباعهم، وقد ضُبطت مذاهبهم وأقوالهم وأفعالهم، وحررت، ونقلت من غير شك في ذلك. بخلاف مذهب غيرهم، وإن كان من الأئمة المعتمد عليهم، لكن لم تضبط الضبط الكامل، وإن كان صح بعضها فهو يسير، فلا يكتفي به؛ وذلك لعدم الاتباع. وأيضًا فإن أقوالهم: إما أن تكون موافقة لقول أحد من هؤلاء الأئمة وأتباعهم، أو خارجة عن ذلك، فإن كانت موافقة فقد حصل المقصود، ويحصل بها التقوية، وإن كانت غير موافقة كانت في الغالب شاذة لا يعول عليها" اهـ

قال العلامة السفاريني في شرحه على منظومته:

((مَنْ لَازِمٌ لِكُلِّ أَرْبَابِ الْعمل . . . تَقْلِيدُ حَبْرٍ مِنْهُمُ فَاسْمَعْ تَخَلْ))

الشرح:

((مَنْ)): أَي: الَّذين هم فهو مبتدأ خبره فرض.

((لَازِمٌ)): لَا انفكَاك عنه وَلَا مندوحة منه.

((لِكُلِّ)) وَاحدٍ مُكَلَّفٍ من ((أَرْبَابِ)) أصحاب ((الْعَمَلِ)) الصالح والكدِّ النَّاجِحِ، ممن ليس فيه أهلية الِاجتهاد المطلق.

((تَقْلِيدُ حَبْرٍ مِنْهُمْ)): أَي: مِنَ الْأئمَة الْأربعة المعلومة مذاهبهم، المضبوطة أقوالهم، المحفوظة رواياتهم، المدوّنة مذاهبهم فِي كل مصر وعصر، الواصلة بالتَّواتر بشروطها وأركانها، وموانعها وإتقانها؛ بحيث لا يَتَأَتَّى لِأحد أن ينسب لمذهب منها ما هو ليس منْهُ، بَلْ آحَادُ طلبة العلمِ يَرُدُّ عليه ويعيبهُ، ويقول: هذا ليس فِي هذا المذهبِ، حَتَّى إنهم يعرفون المشهور من أَقْوَالِ المذهب والمهجور، وإِن كَان الدليل المأثور مع القول المهجور" اهـ

وقال أيضًا في جوابه الشهير:

"ما قول علماء المسلمين، وهداة المرشدين، في رجل تفقَّه في مذهب إمامه، ثم زعم بعد ذلك: أن العمل غير جائز بكتب الفقه كلها لأنها مُحدثة، وإنما الواجب العمل بالحديث والتفاسير، وترك ما سواهما؟ فهل يلتفت إلى كلامه؟ وهل دعواه هذه دعوى مجتهد أم لا؟ فإن كانت؛ فما يترتب عليها لغير مستحقها؟ وما شروط الاجتهاد؟ وماذا يلزم العامي إذا ترك قول إمامه وذهب إلى هذا الرجل لزعمه أن قولَه حديثُ رسول الله -ﷺ-، وأن الفقه ليس كذلك؟ أفيدونا بالجواب.

الجواب:

الحمد لوليّه، وصلى الله على صفوته ونبيه.

اعلم أن هذا السؤال اشتمل على عدة مسائل:

الأولى: زعم هذا الزاعم أن كتب الفقه لا يجوز العمل بشيء منها، هذا مراد السائل. وهذه مُعظمة عظيمة، ومصيبة جسيمة؛ فإنها خارقة لإجماع الأمة، ومخالفة لجميع الأئمة. فإن الأئمة والأعلام من دين الإسلام لم يزالوا ولن يزالوا يعملون بكتب الفقه المعروفة ويتوارثون ذلك خلفًا عن سلف. فزعمُ هذا الزاعم فيه طعن على جميع الأمة من عصر التابعين إلى عصرنا هذا. ولم تزل العلماء تبذل مجهودها في جمع الفقه وترتيبه، وتفصيله وتبويبه، وهم في ذلك مصيبون، وعليه مثابون.

الثانية: دعواه أنَّ الواجبَ: العملُ بالحديث والتَّفسير وتركُ ما سواهما؛ هذه مشتملةٌ على حقٍّ وباطلٍ.

أمَّا الباطل: فقوله: وترك ما سواهما، فإنَّ أدلَّة الشَّرع: الكتاب والسُّنَّة والإجماع والقياس واستصحاب النَّفي الأصليّ كما هو معلومٌ عن الأئمَّة، ومشروحٌ في كتب الأصول.

وأمَّا الحقُّ: فالعمل بالكتاب والسُّنَّة حقٌّ لا مرية فيه، وهل كتب الفقه إلا زبدة الكتاب والسُّنَّة، وثمرتهما من مُتَعَلَّقِ الأحكام الفرعيَّة بالأدلَّة الإجماليَّة والتفصيليَّة وما قِيسَ عليهما؟! ومصدر الجميع: ربُّ العالمين؛ إذ الكتابُ كلامُه، والسُّنَّةُ بيانُه، والإجماع دالٌّ على النَّصِّ، ومُدَرِّسُ الجميع: الرَّسول -صلَّى الله عليه وسلَّم-، إذ هو المُبَلِّغ عن الله عزَّ شأنُه، وتعالى سلطانُه.

الثَّالثة: قوله: هل دعوى هذا دعوى مُجتهدٍ؟

فالجواب: نعم، ولكن **مُجتهدٌ في إزالة الشَّرع وارتكاب غير جادَّة المسلمين**، فمِثلُ هذا الرَّجل في مِثلِ هذا الزَّمان دعواهُ الاجتهاد كدعوى مُسيلمة الكذَّاب النُّبُوَّةَ، وكذا العنسيّ وسجاح وأمثالُهم من المُتَنَبِّئِين.

فمن رَامَ رُتبة الاجتهاد: ترك الوساد والمِهاد، وحُرِمَ النِّساء والأولاد، ودخل جميع البلاد، ليُحَصِّلَ الدَّواوين المُدَوَّنة من السُّنَّة الغرَّاء وتفاصيل أنواعها، ومعرفة استخراج الأحكام منها إلى غير ذلك.

فإذا علمتَ ما ذكرنا لك: تحقَّقت أنَّه لا يُلتَفَتُ إلى كلامه، ولا يُترَكُ النُّور الباهر ويُحلَكُ في ظلامه.

وأما قوله: فما يترتَّب عليها؟

فقد علمنا أنَّ هذا الرَّجل ضالٌّ مُضِلٌّ لعدم معرفته بطُرق الاجتهاد، حتى إنَّه أهمل الإجماع والقياس، وهذا غاية الإفلاس.

وأمَّا من ادَّعى الاجتهاد: فيُطْلَبُ منه البرهان وأنَّى له به؟ فهذا ينبغي أن يُؤَدَّبَ التَّأديب الرَّادع له ولأمثاله، سِيَّما في طَعْنه على سلف الأُمَّة وأعلام الأئمَّة، في ضمن قوله: العمل بكتب الفقه غير جائزٍ.

الرابعة: سؤال السائل عن شروط الاجتهاد.

فاعلم أن المجتهدين على أربعة أقسام: مجتهد مطلق، ومجتهد في نوع من العمل، ومجتهد في مسألة منه، أو مسائل. وكلام هذا الجاهل والمتجاهل يقتضي الاجتهاد المطلق، قال ابن حمدان -من أئمة مذهبنا وقاله غيره-:

(المجتهد المطلق هو الذي يستقل بإدراك الأحكام الشرعية من الأدلة الشرعية العامة والخاصة، وأحكام الحوادث منها، لا كثرة الفقه، ولابد من معرفته من الكتاب والسنة وما يتعلق بالأحكام، وحقيقة ذلك ومجازه، وأمره ونهيه، ومجمله ومفصله، ومحكمه ومتشابهه، وخاصه وعامه، ومطلقه ومقيده، وناسخه ومنسوخه، والمستثنى والمستثنى منه، وصحيح السنة وسقيمها، ومتواترها وآحادها، ومرسلها ومسندها، ومتصلها ومنقطعها، ويعرف الوفاق والخلاف في مسائل الأحكام الفقهية في كل عصر ومصر، والأدلة والشبهة والفرق بينهما، والقياس وشروطه وما يتعلق بذلك، والعربية المتداولة بالحجاز والشام واليمن والعراق ومن حولهم من العرب، وأمور أخر غير هذه).

قلتُ: **ومن رام الاجتهاد في هذه الأزمنة أو حدثته نفسه به: فقد رام المحال، وحدثته نفسه بالباطل والضلال، والله ولي الإفضال.**

الخامسة: الذي يلزم العاميَّ:

عدمُ الالتفات إلى مقالة هذا القَتَّات، والإعراض عنه وعن قوله، وتقليدُ أحد الأئمَّة الأربعة المتبوعة، الذين بذلوا جُهدهم في استخراج الأحكام، وصاروا عمدةً لجميع الأنام، فليس لأحدٍ من الأُمَّة أن يخرج عن أقوالهم، هذا ممَّا لا نزاع فيه؛ عند كلِّ موفَّقٍ ونبيه. وينبغي لكلِّ إمامٍ وفقيهٍ، أن يُنفِّر عن مثل هذا الضَّالِّ المُضلِّ السَّفيه، فإن الأُمَّة دوَّنت المذاهب أحسن تدوين، وبيَّنتها أحسن تبيين. وماذا يعرف هذا الجاهل؛ الكتاب والسُّنَّة؟

والإمام أحمد -ﷺ- يقول: (صحَّ الحديث عن رسول الله -ﷺ- سبعمائة ألف حديثٍ)، وإن قال الإمام ابن الجوزيّ: (عَنَى به الطُّرُقَ). وأجاب -رضي الله عنه- عن ستّين ألف مسألةٍ بحدَّثَنا وأخبَرَنا، وإليها أشار الصّرصريُّ: أجاب على ستّين ألف قضيَّةٍ بحدَّثَنا لا من صحائف نُقَّلِ. وأحاط بالسُّنَّة -كما قاله الحافظ ابن حجرٍ-، ولا يُدَّعى ذلك في غيره، ومحفوظات النَّاس من بعض محفوظاته -كما أشار إليه الجلال السُّيوطيُّ في المُنتهات-.

وعلى كُلِّ حالٍ: تقليد غير الأربعة من السَّفه والضَّلال، والله أعلم." اهـ

قال ابن تيمية في الفتاوى المصرية[1]: "وقول القائل: لا أتقيد بأحد هؤلاء الأئمة الأربعة؛ إن أراد أنه لا يتقيد بواحد بعينه دون الباقين فقد أحسن، بل هو الصواب من القولين. وإن أراد أني لا أتقيد بها كلها، بل أخالفها، فهو مخطئ في الغالب قطعًا؛ إذ الحق لا يخرج عن هذه الأربعة في عامة الشريعة" اهـ

قال ابن رجب في رسالته: "الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة":

"فلو استمر الحال في هذه الأزمان المتأخرة على ما كان عليه في الصدر الأول، بحيث أن كل أحد يفتي بما يدعي أنه يظهر له أنه الحق؛ لاختل به نظام الدين لا محالة، ولصار الحلال حرامًا والحرام حلالًا، ولقال كل من شاء ما يشاء، ولصار ديننا بسبب ذلك مثل دين أهل الكتاب من قبلنا. فاقتضت حكمة الله سبحانه أن ضبط الدين وحفظه بأن نصب للناس

[1] منقول بواسطة وليس من المصدر الأصلي.

أئمة مجتمعًا على علمهم ودرايتهم وبلوغهم الغاية المقصودة في مرتبة العلم بالأحكام والفتوى من أهل الرأي والحديث. فصار الناس يعولون في الفتاوى عليهم، ويرجعون في معرفة الأحكام إليهم، وأقام الله من يضبط مذاهبهم ويحرر قواعدهم، حتى ضبط مذهب كل إمام منهم وأصوله وقواعده وفصوله، حتى ترد الأحكام وينضبط الكلام في مسائل الحلال والحرام.
وكان ذلك من لطف الله بعباده المؤمنين، ومن جملة عوائده الحسنة في حفظ هذا الدين، ولولا ذلك لرأي الناس العجب العجاب من كل أحمق متكلف معجب برأيه جريء على الناس وثاب؛ فيدعي هذا أنه إمام الأئمة، ويدعي هذا أنه هادي الأمة، وأنه هو الذي ينبغي الرجوع دون الناس إليه، والتعويل دون الخلق عليه" اهـ كلامه -رحمه الله-.
وقال: "فأما المسائل التي **يحتاج المسلمون إليها عمومًا**؛ فلا يجوز أن يعتقد أن الأئمة المقتدى بهم في الإسلام في هذه الأعصار المتطاولة اجتمعوا فيها على الخطأ، فإن هذا قدح في هذه الأمة قد أعاذها الله منه" اهـ كلامه.

قال ابن خلدون في مقدمته: "ووقف التقليد في الأمصار عند هؤلاء الأربعة، ودَرَسَ المقلدون لمن سواهم، وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر تشعب الاصطلاحات في العلوم، ولما عاق عن الوصول إلى رتبة الاجتهاد، ولما خشي من إسناد ذلك إلى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بدينه؛ فصرحوا بالعجز والإعواز، وردوا الناس إلى تقليد هؤلاء كل من اختص به من المقلدين، وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب، ولم يبق إلا نقل مذاهبهم. وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية، لا محصول اليوم للفقه غير هذا، ومدعي الاجتهاد لهذا العهد

مردود على عقبه مهجور تقليده، وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة" اهـ

قال النفرواي في الفواكه الدواني: "فإذا اختلفت الصحابة في مسألة على قولين؛ جاز لأحد الصحابة أن يُحدث ثالثًا، فإذا انقرض عصر الصحابة بحيث لم يبق منهم أحد فليس للتابعين إحداث ثالث، وكذا إذا اختلف التابعون جاز للتابعين إحداث ثالث دون تابع التابعين، وهكذا؛ لما في الخروج عن اتباع المجتهدين من خرق للإجماع. وقد انعقد إجماع المسلمين اليوم على وجوب متابعة واحد من الأئمة الأربعة: أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل -رضي الله عنهم-، وعدم جواز الخروج عن مذاهبهم. وإنما حرم تقليد غير هؤلاء الأربعة من المجتهدين، مع أن الجميع على هدى؛ لعدم حفظ مذاهبهم لموت أصحابهم وعدم تدوينها. ولذا قال بعض المحققين: (المعتمد أنه يجوز تقليد الأربعة وكذا من عداهم ممن حُفِظ مذهبه في تلك المسألة ودُوِّن حتى عُرفت شروطه وسائر معتبراته؛ فالإجماع الذي نقله غير واحد كابن الصلاح وإمام الحرمين والقرافي على منع تقليد الصحابة يُحمل على ما فُقد فيه شرط من ذلك) اهـ من شرح شيخ مشايخنا اللقاني" اهـ

وغير ذلك من النقولات عن غيرهم...

نقلتُ ما يقرب من 29 نقلًا بألفاظٍ مختلفة تدور في تلك المساحة من المعاني:

- الحق لا يخرج عن المذاهب الأربعة.
- الحق لا يخرج **غالبًا** عن المذاهب الأربعة.
- لا يفتي إلا مجتهد، أو من ضبط مذهبه، أو من تبحر فيه.

- هناك مواصفات للمجتهد، ولضابط المذهب، ولمجتهد المذهب... إلخ، ليس الأمر بالهوى.

- الإفتاء والقضاء يدور الأحكام فيها على الأقوال المنقولة في المذاهب الأربعة، وليس مجرد معتمدات المذاهب أو مشهور المذهب؛ بل الأقوال المضبوطة المنقحة المعروف سواغها المنقولة من خلال فقهاء المذاهب وكتبهم.

- المجتمع الفقهي الذي سيحكم ويضبط من يفتي هم فقهاء المذاهب الأربعة؛ فقيه شافعي من المغرب سيعرف إتقان الفقيه الشافعي من اليمن والهند! لن يستطيع أحد أن يُدخِل في الشرع ما ليس منه، على الأقل فيما يخص عمل المسلمين في يومهم وليلتهم؛ لسهولة ضبط المذاهب وانتشارها، وإمكانية تعميم هذا الضابط على كل الأمة، وتلقّي الأمة المذاهب بالقبول. معيار يسري على الجميع يخرس الألسنة ويمنع الفوضى، معيار وضعه العلماء بلا هوى ولا مصالح شخصية.

أتدري بدون هذه المعايير كم الفساد والضلال الواقع في الأمة؟

أن يقول من شاء ما شاء و... سيجد جمهورًا يقبل كلامه!

ما الذي تبقّى؟

هذا المعيار أسقطَ طريقة هؤلاء وصلًا ووقفًا!

بل أسقط طريقة كل من يحاول تطوير السلفية .. النيو سلفية بأنواعها!

المضحك المبكي أن الردود كانت مهزلة!

بهول الكارثة ولا بذلك القاع الذي نحيا فيه إلا في تلك الأشهر التي تلت نشري كلام أهل العلم فيما يتعلق بالخروج عن المذاهب الأربعة.

أول صدمة؛ أن من يرد ويعترض يتكلم بكلام يشِي بعدم فهم القضية، يظنون أننا ندعو إلى اتباع عين أحد الأئمة الأربعة وجوبًا وديانةً، فيتساءلون في استنكار: أين النص؟!ثم يهزون رؤوسهم في وقارٍ ويقولون: لم يتعبدنا الله باتباع شخص إلا النبي ﷺ.

ولا فرق في رد الفعل بين سلفيٍّ ولا منتمٍ إلى النيو سلفية .. بل ولا متمذهبٍ ممن لا يعجبه أن أخالفه وأخرج عن عباءته!

اجتمع الكل بوحل نفوسهم في قاع الكارثة!

أشاهد متعجبة سوء فهمهم للمسألة من رأسها إلى قدميها.. مما يجعلك تتساءل: هل هؤلاء يردون على ما نقلناه من كلام أهل العلم؟ أم على ما في رؤوسهم وتخيُّلاتهم؟

ثم التلاعب بالكلمات .. التدليس .. والكذب .. أهم شيء تشويه من يعارضهم ولو بالباطل!

أنظر إلى كل ذلك، وأقول في نفسي: هل هؤلاء هم من يزعم الاجتهاد وبلوغ الرتب العالية وبلوغ رتبة الترجيح والاختيار؟

الله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا به سبحانه!

- أين التجرد والبحث عن الحق عند من يزعمه؟

- ذهبت هذه المعاني درج الرياح؛ إذ هي تتعارض مع المصالح الشخصية والأهواء يا سيدي!

بل انتقلنا أيضًا إلى مرحلة الشتائم البذيئة .. وبعضهم يتوغل في الخصومة دون لحظة تفكير في عواقب فعله .. والمؤلم أن يفعل ذلك الصديق قبل العدو!

لم تكن المشكلة أن يُخطئ بعضهم، أو أن يشتمني بعضهم، أو يشتم غيري، أو يتطاول على أعراض المخالف له! فهذا أمر متكرر...

لم تكن المشكلة أن من يفعل ذلك هم مَن يظهرون بمظهر الأخلاق الحسنة والديانة وجهاد النفس والمعاني السامية، أو أنهم يتبرؤون من أخطاء السلفية ويطورونها...

كانت المشكلة بالنسبة لي: أن كثيرًا من الناس ممن لا ناقة لهم ولا بعير، تقبلوا هذا كله بأريحية، وكأنه أمر عادي يسير يحدث يوميًّا كما نأكل أو نشرب...عفوًا؛ كما ندخل الحمام... هذا لائق أكثر بالموقف!

عندها عرفت أننا نحيا في مراحيض عامة أو مقالب قمامة ملأت رائحتها الأنوف؛ فلم يعد يتمعر وجه أحدهم من قبح الرائحة..!

بل -ويا للعجب- صارت وجوههم تتمعر في وجه من يقول: **ما أسوأ الرائحة!**

أسوأ مظلوم من يذيق غيره من نفس كأس الظلم الذي لعق ثمالته قهرًا وصبرًا!

لقد صدمتُ بأنّ المبادئ والقيم مجرد شعارات، لا محل لها من التطبيق!
فالمبادئ والقيم لا تتجزأ..
أتدرون؟ ..
يكفيكم خزيًا أن تكونوا أصحاب وجهين ومكيالين .. يكفيكم خزيًا ذلك الحياد الظالم؛ فبعض الحياد ظلم أشد من ظلم الظالم، ووقعه على المظلوم أشد كسرًا لقلبه من ظلم ظالمه!
هؤلاء الذين إذا فتحوا أفواههم تساقطت بقايا لحوم إخوانهم التي أقرُّوا أكلها ميتة، ثم يقولون: نحن لا نعرف مَن المخطئ، وأنت أخطأتِ أيضًا بوصفهم بعدم أهلية الفتوى، وكنتِ تتكلمين بحدة وشدة لا تليق..!

هب أنني كتبتُ بحدة وشدة، وهو صحيح؛ فإنني إنما أنكرت عليهم تدليس الصواب على الناس وإخفاء العلم، أنكرت تصدرَهم للفتوى بغير أهلية، لم أسب أحدًا!
هب أنني جاهلة مسكينة كما تقولون عنّي، أو أن أسلوبي حادٌّ ساخرٌ شديدٌ؛ أيسوّغ ذلك لهم السبَّ البذيء والتشويه بالباطل؟ أيسوّغ ذلك لـ "ذكور" أن يجعلوا من عرضي علكةً في أفواههم وأفواه أراذل الخلق؟
حتى مَن تكلَّم عنّي دفاعًا، كان دفاعه تهمةً! حتى رجوت أن ليته سكت!

لو كان ما فعلتُه خطأً وتعديًا على من هو أعلم مني بزعمكم؛ **فماذا يُسَمَّى ما فعلوه هم؟**
فتجد من يقول في دعة وحكمة: "حبوا بعض، وعيب يا أولاد"، و"الدماء كلها حرام، والأعراض كلها حرام"!

"لم نأمُر بسببِ عِرضٍ ولم يسؤنا"!!

ثم سارت الأيام ثقيلة عليّ .. خفيفة عليهم، كأن شيئًا لم يكن..!

بعض الأفعال .. أشاهدها فأتساءل: هب أنك إن كيّفته بتعسفٍ على قواعد الفتوى، مجردًا من سياقه، خرجت لك النتيجة: لا تأثم! بزعمك أيها "المعصوم دومًا"، وإني لأخشى أن يكون ذلك هوًى! فماذا يسمى فعلك على قواعد أصحاب المروءات والكرامة؟

وكان أشدهم عليّ من جاء يعاتبني متصنعًا الأخوة والشفقة والرحمة.. جاهلًا بكثير من الأحداث الجلية فضلًا عن الخفية .. أو عالمًا لكن قلبه كالكوز مجخيًّا؛ لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا.

- خرَّجي نفسك من كل ده...

- إيه اللي وداك هناك؟!

- بس برضو أنت غلطانة.. أسلوبك مش صح!

- أنت مش بتقبلي النصيحة، ومبتسمعيش الكلام... **مبسمعش كلامهم!**

معاشر المعصومين .. الساكتين عن قول الحق .. الزاعمين أن الحكمة دائمًا صمت .. الراغبين في الهدوء والدَّعة ... الفرحين بالقول وضده معًا .. المنكرين على من جهر بكلمة الحق إذ تعين قولها ولو اجتهادًا منه .. هنيئًا لكم المقاعد الأمامية .. خارج ساحات أهل المروءة والعزة!

في تلك الفترة؛ انفتحت طاقة من القاذورات في رسائل موقع "الآسك"... لا أصدق وجود كل هذا الكم من الشماتة والقلوب المريضة والنفوس الوضيعة، أفتح صفحة المرسل فأجده ينير صفحته بصورة عريضة مكتوب عليها: السلفية منهج حياة!

وليس كل السلفيين والنيو سلفية بهذا الانحطاط؛ لكن للأسف كثير منهم يعانون متلازمة "التعبد لله بسوء الخلق" بلا نكير، إلا من رحم الله، وقليل ما هم!
كنت كثيرًا ما أكرر أنني مبتلاة بالناس .. لكن في هذه المحنة رأيت أنني جاحدة لفضل الله عليّ؛ إذ أكرمني بكثير من الناس!

فهذا شيخي الكريم، الذي سميته في قصصي ها هنا: (كريم)، وهي صفته حقًّا؛ فهو كريم بوقته، كريم بأخلاقه، تختلف معه وتأمن، لم يتخل عني في هذه المحن، وتعاهدني بالدعاء والنصيحة، وحاول قدر استطاعته وقف شيء من الإساءات.
تلك الكاتبة الروائية؛ التي لم تهتم أن تفقد القراء أو أن تتعرض للإهانة.. وقفت وقفة تأييد وأنكرت المنكر، وقالت كلمة الحق، وتحملت تعديات كثيرة..
بعض السلفيات من أصحاب المروءات والأخلاق أنكرن بعض المنكرات؛ لأنهنّ صاحبات مبدأ وإنسانية حقيقة؛ لكن في النهاية مجرد كتابة تعليق عندي أو الإعجاب بمنشور يعني التعرض للهجوم والإنكار الحاد، فكيف بالإنكار؟ لهذا صار الإنكار واهنًا ضعيفًا عامًّا يحتمل كل المعاني .. لكن هذا أفضل من لا شيء.
تلك المدربة الكاتبة الشهيرة المتخصصة في الذكاء العاطفي، التي لم تتحمل أن ترى هذه النكبة أنكرت المنكر قدر استطاعتها، ووقفت بجانبي، ولم تهتم أن تفقد شهرتها أو مؤيديها ..
وغيرهم... **هؤلاء أصحاب مبادئ.**

وكان معي من بطانتي وأخواتي من وقفن وقفة لم يقفها الذكور، مدعو الرجولة الزائفة! لن أذكر أسماء؛ فقد رفضن ذلك، ولا يوفيهم الشكر إلا الله -عز وجل-..

أما الموقف الذي أثر فيّ جدًّا حتى إنني بكيت:
رسالة من طالبة علم .. إنسانة .. هذه المواقف لا تصدر إلا عن إنسان لم تفقده الأحداث إنسانيته!
قالت ببساطة: **أنا لا أعرف سبب الخلافات ولا المشكلة، ولا أعرف إن كنتِ مخطئة أم لا، لكن يسوؤني أن تسب امرأة بهذه الصورة القبيحة، ومن ذكور.. قد لا يمكنني أن أنكر على الملأ، لكن لا يمكنني إلا أن أواسيك!**

رغم أن هذه قصتي أنا؛ لكن سيجد كل واحد منكم نفسه فيها أو في بعضها ... أنا أعلم ذلك يقينًا... فقد كتبتها بتلك الدماء التي تسري في عروقي، وعروقكم جميعا!

يقولون عني منتكسة.. ضلت!

الحمد لله، أنا لم أفارق السلفية تاركة السنة نحو الضلال، بل فارقتها إلى تصحيح مسار .. فارقتها لانحرافات أعلمها في ذلك المنهج .. ليس فقط في حملة هذا المنهج!

لم أنتقل بسبب سوء معاملة السلفيين لي؛ فقد أساء إليّ متمذهبة أيضًا، ولا ينبغي أن يكون اختيار الحق مبنيًّا على حسن أخلاق الخلق!

ثم فرضًا أنني أو غيري -والعياذ بالله- ضللنا -أسأل الله لي ولكم العافية والسلامة-؛ فها أنا أدعوكم وأنصحكم ألا تعلِّقوا إيمانكم ولا اختياركم للصواب على اختيار إنسان .. **بل استعينوا بالله، تعلَّقوا بحبل الله وحده، مفتقرين إليه -جل وعلا- متذللين له وحده، خاضعين خاشعين، وتجردوا للحق واطلبوه مخلصين، وعليكم بركعتي القيام ودعاء الاستفتاح...**

وهذا زمان الصبر من لك بالتي ... كقبض على جمر فشجو من البلا

وكثير منكم -معاشر القراء- قد يعرف أنني تركت كثيرًا من القصص عفوًا؛ لا سيما ما تعلق بالأحداث الأخيرة .. ترفُّعًا عن ذكر تفاصيل كثيرة جدًّا

موجعة، لو قصصتُها مجردة لكان ذلك سبَّة على جبين كثيرٍ ممن كنت أحترمهم وأجلهم!

لكن لا فائدة ترجى من بث تلك الظُّلمة في نفوسكم...

وإن لنفسي في حكاية ما عفوت عن ذكره نصيبًا وحظًّا وافرًا من الانتقام والتشفي، ولكني لم أحب تلويث هذه الورقات بحظوظ نفسي وأنا أزعم أنها لله.. قد اجتهدتُ في ترك ذلك؛ فإذا ظن أحدكم أنني سقطت في بئر من تلك الحظوظ .. فلا تبخلوا عليّ حينها بالاستغفار لي.

لا أزعم أنني قوية ولا ثابتة وصابرة.. بل كثيرًا ما كنت أجزع، لولا أن مَنّ الله عليّ ببطانة صالحة لكانت الأمور أسوأ.. وستر الله وفضله عظيم.

أتساءل الآن:

ما الذي يربط بيني وبين السلفية وما بعدها من نيو سلفية بأنواعها؟

- فقه الدليل؟

ذهب مع الريح... **فقه المذاهب هو فقه الدليل.**

- الترجيح بعد دراسة أول متن مع شيء من سعة الاطلاع؟

خدعة؛ **فالترجيح رتبة من رتب الاجتهاد، لابد من تأهل وعلوم.**

- الأمانة وحراسة الشريعة؟

لله الأمر من قبل ومن بعد .. **رب اغفروارحم.**

- العلم؟

علـومهم صـراعات وردود، ثـم ردود على الـردود... اسـتعراض واسـتطالة بجهل، مع إهمال الأولويات الحقيقية في البنيان العلمي، **علومهم فوضى** .. وتدليس وكذب وجهل وتلبيس .. نزق وتسرع .. تصدر بلا تأهل .. تطاول على العلماء .. **تعالم! إلا قليلًا ممن أنجا الله منهم**.

- الأخلاق؟ .. ترك التعصب؟

إنا لله وإنا إليه راجعون .. **الوضع كارثي!**

- العقيدة؟!

وهذه كارثة أخرى .. **من الخلط بين الفقه والعقيدة**، وعقد الولاء والبراء على بعض المسائل، عدم تحرير كثير من المسائل، ومخالفات للسلف، وبتر وقصّ وتدليس؛ لأن المهم الرد على المخالف، ولو لم نفهم قوله أو نحرر محل الخلاف!

الهدف السامي الذي نسعى إليه: هو تحرير عقولنا من ضيق وظلمة إلى سعة الإسلام في إطار المذاهب الأربعة فخر تراث أمة الإسناد أمة الإسلام، في ظل دعاوى عريضة واستقطابات مقيتة...

وكلٌّ يدَّعي وصلًا بليلى!

- ✓ سيحتاج ذلك إلى جهد كبير لتحرير الحق من سجن عقول الخلق.. **لا تنتقلوا من سلفية إلى مثلها مع تغييرالأسماء!** لا تكونوا ردود أفعال للأخطاء، مساوية في القوة ومضادة في الاتجاه، لا تكونوا وجهًا آخر لتلك العملة الزيوف.

- ✓ **يحتاج إلى نفسية هادئة متجردة لله -تعالى-** لكي لا نرد حقًّا أو نعتنق باطلًا؛ عنادًا و "عقابا" لإخواننا الذين بغوا علينا! لا سيما أن البعض يستغل تلك الممارسات الخاطئة لإضلال الهاربين من ذلك التيار البائس...
- ✓ **يحتاج إلى طلب العلم للنجاة**، لكي لا يدعونا أحد إلى نفسه فنستجيب له، ونعيد التشرنق في نفس شرنقة السلفية لكن؛ بخيوط جديدة!
- ✓ **يحتاج أن نصبر على وحشة الغربة**؛ حتى لا نسارع إلى البحث عن كيان آخر ننتمي إليه هروبًا من ذلك الشعور بالانكسار.. فنضل!
- ✓ **نحتاج** أن نستحضر قوله تعالى: {كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ}؛ فلا نكتفي بالبحث عن الحق ومعرفته وطلبه، بل نرحم الخلق .. **فقد كنا يومًا مثلهم!** وحتى لو لم تكن يومًا مثلهم .. ثم أن تستحضر هذه الرحمة وتعمل بمقتضاها في ظل مراغمة وحرب ضروس .. ما أصعب ذلك!

يعدج جميع الناس مولًى لأنهم ... على ما قضاه الله تجرون افعلا
يرى نفسه بالذم أولى لأنها ... على المجد لم تلعق من الصبر والألا
وقد قيل كن كالكلب يقصيه أهله ... وما يأتلي في نصحهم متبذلا

ما الذي يربطني بهم؟ ما الذي بقي لي؟

بقي لي منهم: أهل الصدق والبحث عن الحق من أهل العلم؛ من السلفيين أو غيرهم...

مرحبًا بكم!

بقي لي منهم: أخواتي في الله، ممن تربطني بهنّ المحبة في الله، سلفيات كما كنت، أو سلفيات كما أصبحت ..

مرحبًا بكنّ!

أبدأ الطريق بعد تعديل المسار... أسير مع عموم المسلمين على سنن من سبقنا، بعد أن اغتسلت من أدران تلك الفترة القبيحة بتلك الاعترافات المتجملة على تلك الورقات المختصرة...

لكني أحتاج إلى مزيد من الاغتسال من ذلك السواد الذي أفسد ديني ودنياي!

مزيد من التضرع وتزكية النفس بالعبادات والطاعات...

مزيد من العلم...

لأحرر السلفية الحقيقية فقهًا واعتقادًا من سجن عقلي، أحرر سلفية المذاهب الأربعة التي جمعت مذاهب المجتهدين والصحابة، ووصلتنا محررة مسبوكة مضبوطة!

عليك اعتقاد ذي السداد الحنبلي ... إمام أهل الحق ذي القدر العلي

حبر الملا فرد العلى الرباني ... رب الحجى ماحي الدجى الشيباني

فإنه إمام أهل الأثر ... فمن حماه فهو الأثري

حنبلية! أعتز بمذهبي الذي لم أختره بنفسي؛ بل اختاره لي الله بحكمته.

أتعثر لأفهم .. أحاول أن أفهم، أن أتجرد من الهوى ومن الأحكام المسبقة.. أدرك صعوبة أن أبدأ من جديد .. مع كل تلك الخلفيات المؤلمة، والرواسب المظلمة التي تكدر وجداني...

هل سيكفي ما بقي من العمر؟ لا أدري .. لكن الموت على الطريق شرف!

ذاكرتي؟

أنا لا أريد أن أمحو شيئًا من ذاكرتي ... من كياني ... ليس لأن كل شيء على ما يرام؛ بل لأن كل هذه الذكريات مهما كانت قاسية أو مؤلمة فإنها تكوّن جزءًا مني .. ولا أحد يحب أن يَقطع من أجزاء نفسه وروحه شيئًا!

قد يعجبني النسيان، لكنها هناك موجودة في ركن مهمل .. أو مظلم .. أو حالك السواد .. !

لعل إله العرش يا إخوتي يقي ... جماعتنا كل المكاره هولا

ويجعلنا ممن يكون كتابه ... شفيعًا لهم إذ ما نسوه فيمحلا

وبالله حولي واعتصامي وقوتي ... وما لي إلا ستره منجلا

رب اهدنا لما تحب وترضى مما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تمت بحمد الله

28 جمادى الأولى عام 1439هـ

الموافق 14 فبراير عام 2018 م[1]

سارة بنت محمد حسن

[1] في هذ التاريخ أنهيتُ المسودة، وتم الانتهاء من الرواية كاملة للنشر بتاريخ 3 سبتمبر 2018.
ثم أعدت النظر والتعديل لنشرها في نسختها الإلكترونية 23 يونيو 2019
ثم أعدت النظر للمرة الثانية لنشرها في نسختها الإلكترونية النهائية 30 أكتوبر 2019.

سيرتي الذاتية[1]

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

سُئلت كثيرًا بسبب ما تلوكه الألسن من طعن وهمز ولمز وازدراء عن مؤهلاتي للكلام في الدين، وأنا أدري أن ما سأكتبه لن يوقف ألسنة المتكبرين الذين يغمطون الناس، ولن يوقف ألسنة الشانئين الحاقدين.

لكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل في زمن لبّس فيه المدلسون على الناس دينهم:

فأقول، وبالله حولي واعتصامي، أستعينه وأستهديه وأستغفره، وإليه الملجأ والملاذ، وعليه اعتمادي وقوتي... اللهم أسألك بأسمائك الحسنى ألا تجعلها فخرًا ولا رياء ولا سمعة.

أولا :خبرات العمل الدعوي:

1- مشرفة سابقة في منتديات طالبات العلم بالمجلس العلمي (الألوكة).
2- مشرفة سابقة في منتديات الاستشارات في أخوات طريق الإسلام.
3- مشرفة بريد أخوات طريق الإسلام للاستشارات سابقًا.
4- كتاب مطبوع: إضاءات في الرد على الاستشارات.

خبرة العمل الاستشاري تقدر بنحو 10 سنوات.

5-معلمة قرآن في حلقات المساجد، وتصدرت للتدريس في حلقات المعلمات.

[1] هذه السيرة الذاتية قديمة وغير محدثة وهي تكفي وتفي بالغرض.

6-معلمة توحيد وعقيدة: عمل دعوي عام؛ رقائق ووعظ وتبسيط العقيدة + شرح عقيدة الأسماء والصفات لخريجات الأزهر + شرح متون خفيفة كمتن القواعد الأربعة والأصول الثلاثة، وغير ذلك.

خبرة العمل الدعوي والتدريس تقدر بنحو 20 سنة.

7- العمل في مجال الترجمة الدينية.

8- الكتابة الدعوية، ومقالاتي منشورة على موقع طريق الإسلام، صيد الفوائد، ومنتديات علمية جادة؛ كملتقى أهل الحديث، والمجلس العلمي، وغيرها، وتركت كتاباتي فيها رغم تغيير كثير من آرائي إثباتًا للتغيير، ولأسباب أخرى.

ثانيا الدراسة:

ليسانس دراسات إنسانية- قسم اللغة الفرنسية- جامعة الأزهر.

القرآن الكريم وعلومه:

1- مقدمة في التفسير لابن تيمية + شرح ابن العثيمين.

2- تفسير السعدي إلا آخر جزء أو جزأين.

3- تفسير سورة الأنعام للشيخ ابن العثيمين.

4- دراسة من كتاب علوم القرآن للقطان؛ دراسة في معهد شرعي.

5- دراسة مقتطفات من المصباح المنير، وتفسير ابن كثير، الطبري، القرطبي، في ظلال القرآن مقتطفات أقل.

6- بحوث في أصول التفسير؛ دراسة في معهد شرعي.

7- إتقان حفص عن عاصم + إجازة.

8- دراسة روايات شعبة ورش وقالون بغير إجازة.

9- دراسة واطلاع جيد على كتب التجويد وعلوم القراءات.

العقيدة والسلوك والأخلاق

1- أول ثلاث مستويات عقيدة في الجامعة الأمريكية المفتوحة + دخول الاختبار (كتاب أصول الإيمان1، وكتاب الإيمان لنعيم ياسين، وكتاب أصول الإيمان3، والمستوى الرابع (مختصر الطحاوية) بدون اختبار.
2- مدارج السالكين لابن القيم.
3- قاعدة في المحبة لابن تيمية.
4- الإيمان الأوسط لابن تيمية + اختبار وإجازة (شرح الشيخ وليد المنيسي).
5- شرح الواسطية لابن العثيمين.
6- الطحاوية + اختبار وإجازة (شرح الشيخ وليد المنيسي).
7- كتاب العبودية لابن تيمية + اختبار وإجازة (شرح الشيخ وليد المنيسي).
8- حلية طالب العلم + اختبار وإجازة (شرح الشيخ وليد المنيسي).
9- رفع الريبة للشوكاني + اختبار وإجازة (الشيخ وليد المنيسي).
10- التبوكية + اختبار وإجازة (شرح الشيخ وليد المنيسي).
11- روضة المحبين لابن القيم.
12- عدة الصابرين لابن القيم.
13- الوابل الصيب لابن القيم.
14- اجتماع الجيوش لابن القيم.
15- هداية الحيارى لابن القيم.

16- الداء والدواء لابن القيم.
17- الفوائد لابن القيم.
18- الروح لابن القيم.
19- الصلاة وحكم تاركها لابن القيم.
20- طريق الهجرتين لابن القيم (لم أتمه بعد).
21- مقتطفات من مفتاح دار السعادة وشفاء العليل.
22- رفع الملام لابن تيمية.
23- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة.
24- الإيمان للقاسم ابن سلام.
25- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية.
26- الأصول الثلاثة لابن العثيمين.
27- كشف الشبهات للعثيمين.
28- أشراط الساعة ليوسف الوابل.
29- ظاهرة الإرجاء- سفر الحوالي.
30- فتنة التكفير للألباني، مع تعليق العثيمين.
31- مختصر التدمرية لابن العثيمين.
32- مقتطفات من التدمرية والأصفهانية ومن أول جزء من درء التعارض.
33- مختصر معارج القبول + مقتطفات من الأصل.
34- لمعة الاعتقاد لابن قدامة.
35- الاعتصام للشاطبي.
36- الفرق بين الفرق للبغدادي.

37- السلم المنورق للأخضري- شرح الشيخ وليد المنيسي (اختبار + إجازة).

38- السفارينية بشرح السفاريني (لوامع الأنوار) + اختبار وإجازة الشيخ وليد المنيسي.

الحديث وعلومه

1- مصطلح الحديث للطحان.

2- شرح نزهة النظر للشيخ العثيمين.

3- شرح الأربعين النووية (الشرح للنووي).

4- مطلع أشرطة شرح رياض الصالحين للعثيمين (حوالي 24 شريطًا).

5- قراءة رياض الصالحين كاملًا.

6- شرح كتاب الحج من صحيح البخاري للعثيمين.

7- جامع العلوم والحكم مقتطفات ضمن دراسة في معهد.

8- أسئلة وأجوبة في مصطلح الحديث للعدوي.

9- مصطلح الحديث سؤال وجواب للحكمي.

10- إلى كتاب الوضوء من فتح الباري.

11- شروح أحاديث مفردة (كتيبات دون المجلد) + أشرطة متفرقة لبعض العلماء.

12- البيقونية شرح الشيخ العثيمين.

13- البيقونية شرح الشيخ وليد + اختبار وإجازة.

السير والتاريخ

1- صحيح السيرة – أكرم العمري.

2- الرحيق المختوم.
3- أول 3 مجلدات سير أعلام النبلاء.
4- العواصم من القواصم.
5- تاريخ الخلفاء (مقرر الجامعة الأمريكية المفتوحة + الاختبار).
6- من أعلام السلف- أحمد فريد.
7- وقفات تربوية مع السيرة- أحمد فريد.

الفقه وأصوله

1- شرح الأصول من علم الأصول للشيخ ابن العثيمين.
2- رسالة لطيفة في أصول الفقه للشيخ السعدي.
3- أوضح العبارات للشيخ محمد يسري.
4- شرح الورقات للشيخ وليد المنيسي + اختبار وإجازة.
5- قواعد الأصول ومعاقد الفصول شرح الشيخ محمد عبد الواحد + اختبار وإجازة الشيخ وليد المنيسي.
6- شرح غاية السول لابن المبرد + اختبار وإجازة الشيخ وليد المنيسي.
7- المدخل إلى علوم الفقه - الشيخ محمد عبد الواحد.
8- المذهبية وتعظيم الدليل – الشيخ محمد سالم بحيري
9- تعليق الشيخ محمد عبد الواحد على رسالة ابن رجب (الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة).
10- سلسلة التمذهب للشيخ محمد عبد الواحد.
11- معنى قول الإمام المطلبي إذا صح الحديث فهو مذهبي- للسبكي.
12- شرح الرحبية للشيخ وليد المنيسي + اختبار وإجازة.

13- الملخص الفقهي للفوزان (كاملًا) + اختبار وإجازة الشيخ وليد المنيسي.
14- أخصر المختصرات (كاملًا) - شرح الشيخ باجابر.
15- أخصر المختصرات (كاملًا) شرح الشيخ أحمد القعيمي.
16- حاشية ابن بدران على أخصر المختصرات.
17- اختبار وإجازة متن أخصر المختصرات الشيخ وليد المنيسي.
18- كتاب الطهارة- الروض المربع- شرح الشيخ محمد عبد الواحد.
19- شرح كتاب الطهارة من عمدة الطالب- الشيخ وليد المنيسي.
20- مطلع شرح الشيخ الشنقيطي على عمدة الأحكام (حوالي 7 أشرطة).
21- شرح العبادات- متن دليل الطالب- الشيخ محمد عبد الواحد.
22- شرح كتاب الطهارة والزكاة والصوم والاعتكاف والجهاد- متن الزاد- الشيخ محمد عبد الواحد.
23- شرح كتاب الزكاة والصوم والاعتكاف والحج- متن الزاد- الشيخ أحمد القعيمي.
24- شرح متن الزاد (كاملًا) - الشيخ أحمد باجابر.
25- اختبار وإجازة متن الزاد الشيخ وليد المنيسي.
26- مدارج تفقه الحنبلي للشيخ القعيمي/ المدخل لابن بدران والمدخل المفصل للشيخ بكر أبو زيد (غير مكتملي القراءة).
27- محاضرة الركيزة (ما لا يسع طالب العلم الحنبلي جهله) للشيخ حمد المري.
28- ومضات في آداب المفتي والمستفتي للشيخ حمد المري.

كتب متنوعة

1- رسائل خفيفة ومتنوعة، منها مجلدات؛ ككتاب العلم للشيخ ابن عثيمين، وعلو الهمة وحرمة أهل العلم للشيخ المقدم، خلق المسلم وعقيدة المسلم للغزالي... إلخ.
2- رسايل خفيفة أو دون المجلد كرسايل الشيخ ابن باز/ الفوزان/ كتيبات د. مصطفى محمود...إلخ وغيرهم من شيوخ مشهورين وغير مشهورين.
3- روايات عالمية وعربية متنوعة.
4- موسوعات علمية متنوعة.
5- حوالي 24 شريطًا من سلسلة الهدى والنور للشيخ الألباني، وثلة صالحة من أشرطة متنوعة وكتيبات للشيخ.
6- مجموعة من حلقات وكتب تفسير الشيخ الشعراوي.
7- مجموعة أشرطة كبيرة للدكتور محمود عبد الرازق الرضواني من تسجيلات المساجد قديمًا قبل كتابه الأسماء الحسنى+ معظم كتبه كونه شيخي سابقًا وأجازني في العقيدة[1].

وليس الاستقصاء مرادي، وقد سقط مني سهوًا وعمدًا أشياء لم أذكرها.
هذا وأقول لكم وأكرر:
وإن كنت مؤهلة للتدريس؛ فلست مؤهلة للفتوى..

[1] تنبيه مهم جدًا: ذكرت اسم الدكتور، وقد تبرأت من الطريق الذي يسلكه شكلًا وموضوعًا- وكتبت ذلك من قبل.

فلعلكم تسألون المقمشين في جوجل والشاملة، المتكلمين في تأصيلات علمية نفيًا وإيجابًا، والمتصدرين للفتوى، الطاعنين في إخوانهم؛ عن مؤهلاتهم للكلام في دين الله، وبأي شيء تصدروا للحكم على عباد الله؟

وأقول لكم وأكرر: لازلت طالبة علم قليلة القدر، وهذا الكلام حقيقة لا أقوله من باب التواضع!

والذي قد ترونه مما كتبت أعلاه مبهرًا عظيم القدر؛ لعله كذلك في أعينكم فقط، وأما عند أهل العلم حقًّا فهو لا شيء يذكر بجانب ما هم فيه من نعيم العلم..

وإنما العلم كالأفق؛ كلما توجهت نحوه، وتوغلت في السير تجاهه، ظل نيل مرادك منه على مسافة ثابتة!

للمتابعة:

قناة تليجرام

https://t.me/kontsalafeya

رابط قناة تليجرام للدروس للنساء فقط:

https://t.me/joinchat/AAAAAELZeZCDqzWGDqcZXA